تورغينيف

ثلاث قصص عن الحب



ايفان سرغييفيتش تورغينيف (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) من كبار الكتاب المشهورين في الادب العالمي خلال السنوات المئة الاخيرة .

احبه انطون تشيخوف الروسي ، ورومان رولان الفرنسي ، وارنست هيمنغواي الاميركي ، واجتمع على حبه وتقديـــره كتاب آخرون من مختلف انحاء العالم ، فما فات احد ان يشير في مؤلفاته وذكرياته ورسائله الى اعجابه بالفن الباهر الذي امتاز به صاحب هذا الاسلوب الساحر ! ولا تزال كتبه مقروؤة في العالم كله بمختلف اللغات، لم يؤثر في نضارتها مرور الزمن . وبين مؤلفات تورغينيف التي نالت اكبر مقدار من الشهرة ، رواياته المعروفة : «رودين» (١٨٥٥) ، «عش النبلاء» (١٨٥٨) ، «في العشية» (١٨٥٩) ، «الآباء والبنون» (١٨٦١) ، «رسائل صياد» (١٨٥٢) وهي مجموعة قصص قصيرة كانت فاتحة مجده الادبي ، وله ايضا قصص شتى ومنها هذه القصص الثلاث التي نقدمها الى القراء ، وهي : «آسية» و «الحب الاول» و «فيوض الربيع» .



تورغينيف

ثلاث قصص عن الحب

دار التقدم
موسكو

ترجمة مواهب الكيالي

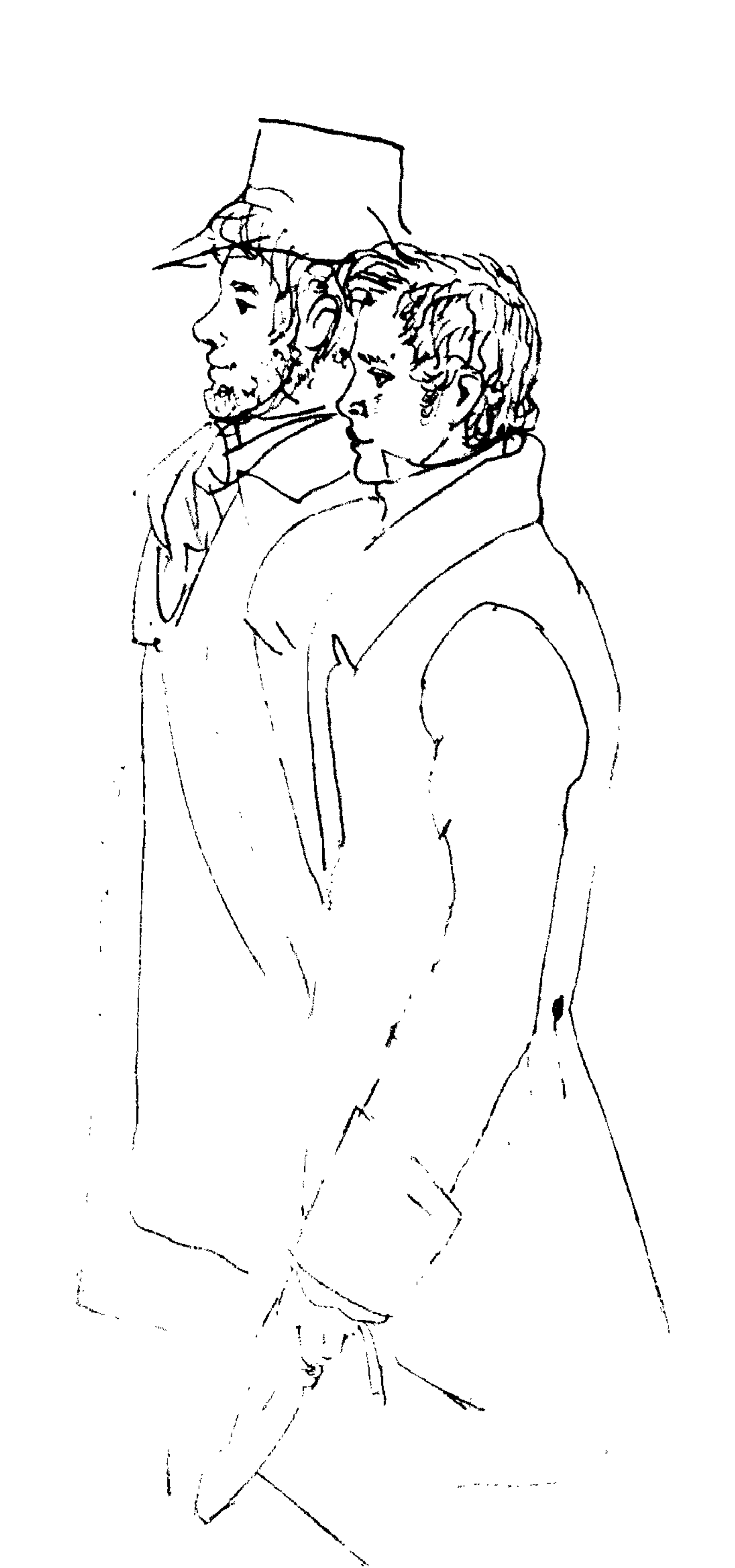
رسوم تاتيانا تولستايا

И. ТУРГЕНЕВ

ТРИ ПОВЕСТИ О ЛЮБВИ

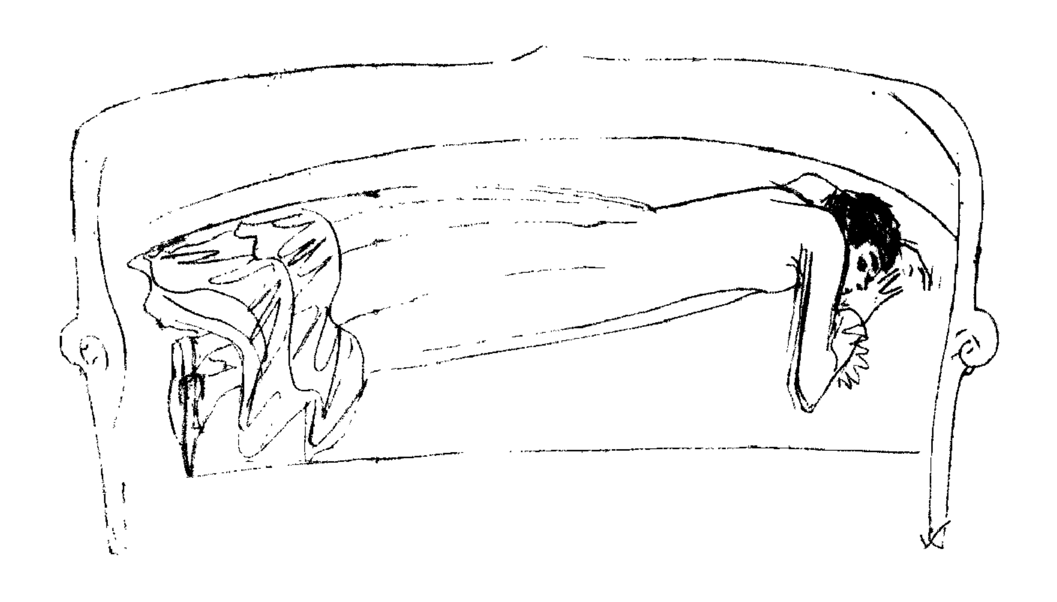
На арабском языке

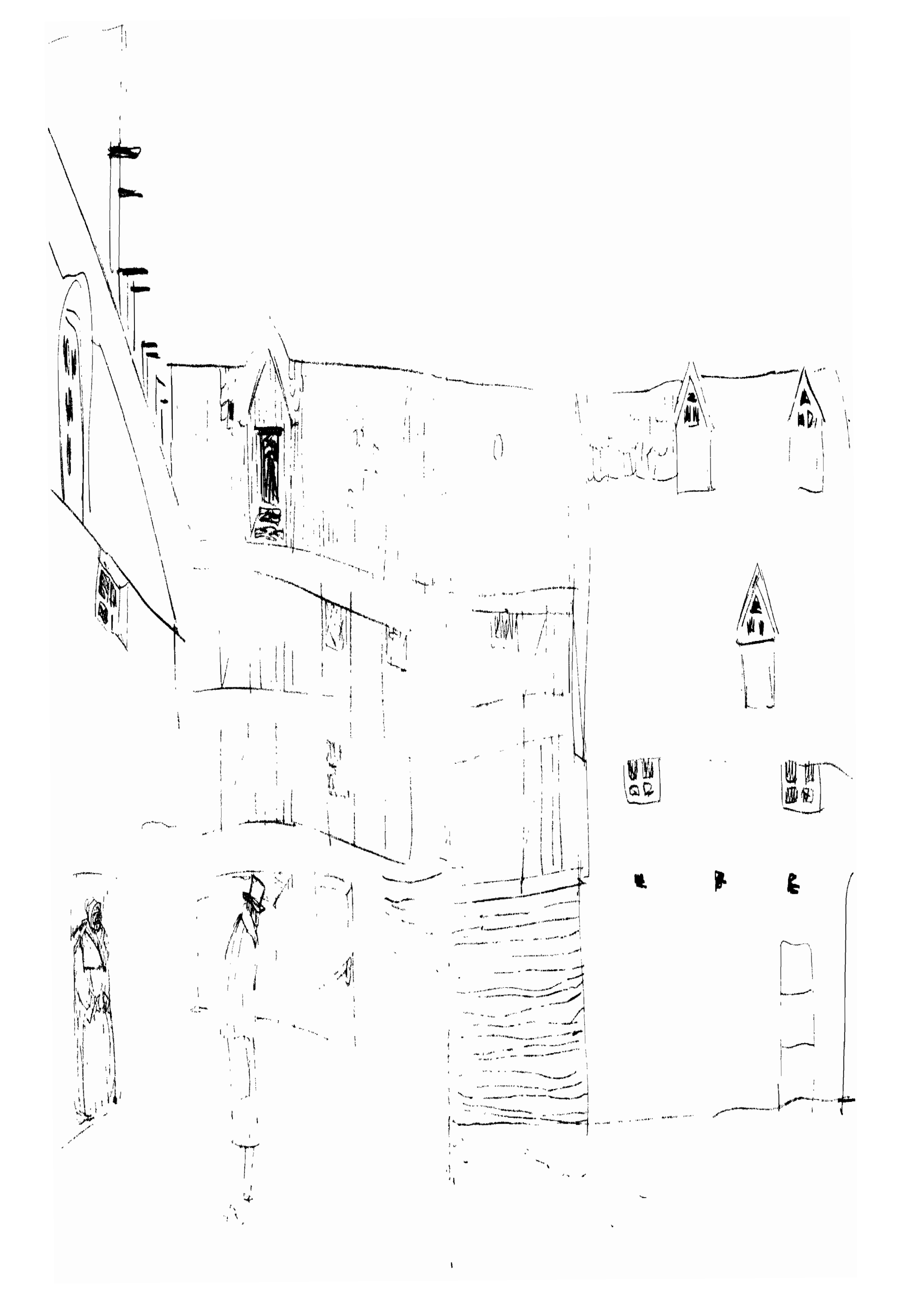
آسية













١

بدأ ن . ن . حديثه فقال : كنت وقتئذ في الخامسة والعشرين من عمري ، فأنت ترى أن ما كان قد عفى عليه الزمان . كنت قد تحررت من قيود الوصاية واعتزمت السفر الى الخارج ، لا من أجل انهاء التحصيل كما كان يقال في ذلك الحين ، وانما بدافع الرغبة في الفرجة على أرض الله الواسعة ، كنت موفور الصحة والشباب ، كثير المال ، خليّ البال ، أعيش ليومي ، وأحقق ما أشتهي ، مجمل القول : كنت أتفتح ولم يخطر لي آنئذ أن الانسان ليس نباتاً وأن ازدهاره لن يدوم طويلا ، فأن الشباب يأكل الكعك المذهب ويرى أن هذا خبز حياته اليومية ، ثم يأتي وقت ، فأذا بك تتمنى ولو كسرة من الخبز . ولكن ليس هنا بيت القصيد .

كان ترحّلي غير مقيد بهدف او خطة ، فكنت أتريث في المكان الذي يطيب لي ، وأغادره الى مكان آخر حينما أستشعر الرغبة فى رؤية وجوه جديدة ، فما كان ليجتذبني الا الوجوه بالذات ، فأن اهتمامي كله قد انصرف الى الناس . كانت نفسي تنبو عن الاماكن التاريخية التي تثير الفضول ،

وتجفو الاوابد الباهرة ، حتى ان سحنة الدليل كانت تثير في نفسي شعوراً بالضيق والنفور ، وقد فز عصبي وأنا في «الغريونه ــ غيفولبه» * بمدينة درسدن . كانت الطبيعة تترك في نفسي أعمق أثر ، ولكني لم أعلق ما يسمى بمحاسن الطبيعة ، كالجبال الشاهقة والصخور الهائلة والشلالات الفريدة ، فقد كرهت أن تفرض الطبيعة نفسها عليّ وتتحكم في أمري ، أما الوجوه الحية ، الوجوه البشرية، أحاديث الناس وحركاتهم وضحكاتهم ، فأن هذا ما كان يستعصى عليّ أن استغني عنه . كنت اشعر وأنا في غمار الناس بأني مستخفّ بالنشوة ، مغتبط في أن أسير حيث يسيرون وأصرخ حين يصرخون ، كان يشوقني في الوقت نفسه أن أرى اليهم وهم يصرخون ، وأعظم ما يمتعني أن أراقب الناس . . . لم أكن أراقبهم ، بل كنت أفتحصهم بشيء من الفضول المنهوم الممراح . ولكن ها أنذا أجنح عن الموضوع من جديد .

واذن فقد كنت أعيش قبل عشرين سنة في مدينة «ز» ، وهي مدينة المانية صغيرة تقوم على الضفة اليسرى من نهر الراين . كنت التمس العزلة بعد اصابة في القلب أحدثتها أرملة شابة التقيتها عند الينابيع ، كانت رائعة الجمال ذكية مغناجاً تغازل كل من هب ودب ، ذهبت تشجعني ــ أنا المارق ــ أول الامر ، فلما علقتها طعنت قلبي بقسوة ، فهجرتني وذهبت وراء ضابط بافاري أحمر الخدين ، وأعترف بأن الجرح لم يكن عميقاً في قلبي ، ولكن رأيتنى مضطرا الى الاستسلام للأسى والعزلة بعض الوقت ــ وهل من شيء لايتسلى به الشباب ؟ ــ فنزلت على مدينة «ز» .

---

* معناها بالالمانية «القبة الخضراء» وهو اسم مجموعة من الحلى والمجوهرات الثمينة تضمها القلعة الملكية في مدينة درسدن **(المترجم)** .

أعجبتني هذه المدينة بموقعها القائم على السفح بين هضبتين مرتفعتين ، وبأسوارها وقبابها المتداعية ، وزيزفونها العتيق ، وجسرها المتقنطر على النهر الوضّاء الذي يرفد نهر الراين . أسغت على الخصوص نبيذها الطيّب . عند غروب الشمس في الأمسيات (كنا وقتئذ في شهر حزيران) كانت الالمانيات الشقراوات الجميلات ، يتنزهن في شوارع المدينة الضيقة ، ويحيين الأجانب بصوت رقيق ودود قائلات : «Guten Abend!» * كان البعض منهن يمضي في النزهة الى ما بعد طلوع القمر وارتفاعه من وراء السطوح الحادة التي تظل البيوت العتيقة ، وانعكاس ضوئه في مايبرز من دقائق الحجر المنتثر على أرض الشارع . عندئذ كان يطيب لي أن أطوف على أنحاء المدينة ، والقمر يبدو كأنه يتأملها من سمائه الصافية ، والمدينة تشعر بهذه النظرة فتتصدى اها في هدوء ، وتغرق في ضوئه الذي يأخذها من كل جانب ، ذلك الضوء الرقيق الذي تهدأ له النفس وتضطرب في آن . والديك الذهبي فوق الابراج القوطية القديمة المستدقة في أعلى يتألق بلونه المذهب الشاحب ، ومثل هذا اللون المذهب ينتشر على صفحة النهر السوداء ، والشموع النحيلة (فان الالمان معروفون بالحرص) تتوقد بتواضع في النوافذ الضيقة تحت السقوف القرميدية ، وتبرز من وراء الاسوار الحجرية بطريقة مستخفية فروع الكرمة بذوائبها الملتوية ، وطيف غامض يمرق في الظل قرب البئر القديمة القائمة في الساحة المثلثة الاطراف ، وتقطع السكون على حين غرة صفرة ناعسة من حارس ليل ، ونبحة خافتة من كلب مسالم ، والهواء يجمّش الوجوه ، وأشجار الزيزفون يضوع منها أريج عذب يغري الصدور بأن تعبّ منه حتى الامتلاء ، وكلمة «غريتهين» تتردد على الشفاه في الأخذ والرد بين البادئين بالتحية وبين من يردونها .

---

* بالالمانية : مساء الخير ! **(المترجم)** .

تقع مدينة «ز» على مسافة فرسخين من نهر الراين ، كنت في أكثر الاحيان أمشي للتمتع بمرأى هذا النهر الجليل وانا متوفز الخاطر أفكر في الارملة الغادرة ، فأقضي الساعات الطويلة جالساً على مسطبة حجرية في ظل سنديانة ضخمة منعزلة ، من خلال أغصانها كان تمثال صغير للعذراء لــه وجه طفلي ترنو في أسى وعلى صدرها قلب في لون الدم غرزت فيه سيوف . على الضفة المقابلة تقــع مدينــة «ل» ، وهي اكبر قليلا من المدينة التي نزلت فيها . كنت أجلس في احدى الامسيات على مسطبتي الاثيرة أسرح بصري في ابعاد النهر ومراقي السماء او في حقول الكرمة ، وأمامي كان صبيــان شقر يتسلقون جوانب زورق مسحوب على الشاطئ مقلوب على جوفه المطلي بالزفت . والمراكب الصغيرة تنســاب في هدوء وقد نشرت أشرعة مسترخية ، والامواج الخضر تتدافع وتتواثب قليلا وهي تضوضي في خفوت ؛ وفجأة بلغت سمعي أنغام موسيقية . اصغيت ، فتبينت أنهــا موسيقى فالس تعزف في مدينة «ل» ، كان البوق الجهير يزفر في ايقـــاع متقطع ، والكمان يئن بنغمات غامضـــة ، والناي يصفر في مرح ، فسألت شيخاً كان مقبلا علي ، في صدار من المخمل ، وجوربين طويلين أزرقين ، وخفين مزينين بقفل :

ــ ماذا هناك ؟

فأجاب وهو ينقل غليونه من زاوية فمه الى اخرى :

ــ انهم الطلبة أقبلوا من مدينة «ب» ليقيموا احتفــال «الكوميرش» .

فقلت في نفسي : «أريد ان أرى هذه الحفلة ، ثم اني لم أزر مدينة «ل» من قبــل» . وذهبت أبحث حتى صادفت صاحب زورق حملني الى الضفة المقابلة .

٢

قد يكون هناك من لا يعرف شيئــاً عن هذا الاحتفال . انه نوع خاص من الاعياد المهيبة ، يجتمع فيها طلبة مقاطعة

واحدة او رابطة واحدة ، ويرتدي اكثر المشتركين في الاحتفال زي الطلبة الالمان التقليدي ، وهو سترة على الطراز المجري ، وحذاء عال ، وقبعة صغيرة مزينة بشريط لـه لون خاص . ويجتمعون كالعادة على مائدة غداء يرعاهـا اكبرهـم سنـــا ويسمونه «السينيور» ، ويمضون حتى الصباح في أكل وشرب وتدخين وفي انشاد أغاني الطلبة وإلقاء الخطب الهجائية التي يسخرون فيها من المتزمتين ، وقد يستأجرون فرقة موسيقية لهذه المناسبة .

كان احتفال «الكوميرش» يجري على هذه الصورة نفسها في مدينة «ل» . فقد أقيم في حديقة تطل على الشارع أمام فندق صغير يسمى «فندق الشمس» . فارتفعت الاعلام فوق الفندق وفي الحديقة ، وتحلّق الطلبة حول موائد صفت تحت زيزفونات مشذبة الاغصان ، وأقعى كلب ضخم تحت احدى هذه الموائد ، وأخذ افراد الفرقة الموسيقية مكانهم تحت عريشة لبلاب قائمة في طرف الحديقـــة ، وراحوا يعزفون بالآلات الموسيقية في اجتهاد ويجددون القوة بين الحين والآخر بجرعات من البيرة . واحتشد في الشارع قرب سياج الحديقة الواطئ جمع غفير من الناس . فقد شاء سكان مدينة «ل» الاطياب ألاّ تفوتهم هذه الفرصة السانحة فجاءوا يمتعون النظر بمرأى ضيفان بلدتهـم . فانضممت ايضـاً الى جمهور المتفرجين . وكان الطرب يستخفني وانا أرى الى وجوه هؤلاء الطلبة ، فأن ما يتبادلونه من العناق ، ومـــا يطلقونه من الصيحات ، وما يتظاهرون به من الزهو البرىء الذي ينتفخ به عود الشباب ، وما أراه من نظراتهم المتوقدة وضحكهم الذي يرسلونه دون سبب ــ وهو أمتع ضحك في الحياة ــ وهذا الغليان الممراح في حياة الشباب الطري ، وهذا الاندفاع ابدأ الى امام ــ في أي سبيل على ان يتجه الى الامام فقط ــ وهذه الآفاق المفعمة بالطيبة ، كل ذلك أثر في نفسي وألهبني حتى لقد ساءلت نفسي : «ألا من سبيل الى مشاركتهم بما هم فيه ؟» .

وفجأة سمعت صوت رجل يقول من ورائي بالروسية :

ـ أما اكتفيت من المشاهدة يا آسية ؟

فأجاب صوت فتاة باللغة نفسها :

ـ لنتريث قليلا .

فاستدرت برأسي في سرعة . . . فوقع بصري على شاب حسن الوجه ، في سترة عريضة ، على رأسه كاسكيت ، يتأبط ذراع فتاة ربعة القامة يختفي الجزء الاعلى من وجهها بقبعتها المصنوعة من القش .

ـ أأنتم روس ؟

انزلق هذا السؤال من لساني على الرغم مني ، فابتسم الشاب وقال :

ـ أجل ، نحن روس .

فقلت لآخذ باطراف الحديث :

ـ ما كنت لأتوقع . . . في هذا المكان النائي .

فقاطعني قائلا :

ـ ونحن ايضاً لم نتوقع . لا بأس ، فانها فرصة طيبة . اسمح لي بأن أقدم اليك نفسي : اسمي غاغين ، وهذه . . . ـ وتوقف لحظة ثم قال :ـ انها اختي ، فما اسمك اذا سمحت ؟

ذكرت له اسمي ، ثم ولجنا باب الحديث . فعرفت أن غاغين مثلي يلتمس المتعة في الترحال ، وأنه حل بمدينة « ل » منذ اسبوع فعلقها . ولم اكن ـ والحق يقال ـ لأستشعر رغبة في التعرف الى مواطنيّ الروس في المغترب . كنت أستطيع ان أميزهم حتى من بعيد ، بمشيتهم وهندامهم وبتعبير وجوههم على الخصوص ، وهو ينطق بالاعتداد والكبرياء ، وبالسلطان في الاغلب . ولكن هذا يتحول فجأة فيفصح التعبير عن الحذر والتهيب . . . فاذا المرء منهم نهب للقلق ، تتلفت عيناه بحركات المستريب . . . فكأن نظرته السريعة تقول : « آه

يا رب ! لعلني استغفلت ، هل كانوا يضحكون مني ؟» ...
ولا تمر لحظة حتى تكون الملامح قد عادت الى وقارها ، غير دهشة جوفاء تشوبها بين حين وآخر . أجل ، كنت أتجنب صحبة الروس ، ولكن غاغين أعجبني في الحال ، فهناك وجوه محظوظة يحب كل امرئ ان يطيل النظر فيهـا ، فكأنهـا تدفئك وتلاطفك ، وكان وجه غاغين منها ، فهو مليح ودود ، بعينين واسعتين وديعتين ، وشعر ناعم متموج . فاذا تكلم شعرت من نبرات صوتـه ، دون ان ترى وجهـه ، بانـه يبتسم .

أما الفتاة التي قال إنها أخته ، فقد بدت لي منذ النظرة الاولى رائعة الجمال ، كان في قسماتها تفرّد فذ ، وبخاصة في وجهها المستدير المشرب بسمرة خفيفة ،وفي أنفها الصغير الدقيق ، وخديهـا الشبيهين بخدود الاطفـال ، وعينيهـا السوداوين المتألقتين ، وقوامها الفارع المتناسق ، ولكنها الى هذا لم تكن تبدو مكتملة النضج ، ولم تكن لتشبه اخاهـا في شيء .

وقال غاغين يخاطبني :

ــ هل ترغب في أن تزورنا ؟ يخيل الي أننا تمتعنا حتى شبعنا من النظر الى الالمان . انهم اكثر تواضعاً مما ينبغي ، ولو كانت جماعتنا في مكانهـم لكسروا الزجـاج وحطمـوا الكراسي . ما رأيك يا آسية ، أمـا آن لنـا أن نمشي الى البيت ؟

فوافقت الفتاة بايماءة من رأسها ، فأضاف غاغين :

ــ اننا نقيم في بيت منعزل وراء المدينة ينهض فوق مرتفع تحيط به أشجار الكرمة ، كل ما حولنا خلاب ، وقد وعدت ربة البيت بان تهيئ لنا بعض اللبن الرائب ، ثم ان الظلام سيخيم بعد قليل ، فالأحسن لك ان تنتظر حتى يطلع القمر لتعبر النهر في ضوئه .

وأخذنا طريقنا حتى خرجنـا الى الحقول عبر بوابـات المدينة الواطئة (كانت المدينة محاطة من كل جهاتها بسور

قديم من الصخر ولا تزال تحتفظ ببعض الكوى الحربية)
بعد أن سرنا مئة خطوة على طول السور الحجري ، توقفنا أمام باب ضيق ، ففتحه غاغين ومشى بنا في درب مصعّدة حادة تقود الى الجبل . كانت أشجار الكرمة قائمة على الجانبين ، والشمس قد غربت في تلك اللحظة ، وتركت وراءها خيطاً قانئاً رقيقاً من نور الشمس انسكب على عناقيد العنب وتيجان الازهار العالية وعلى الارض الجافة التي انتثرت عليها حجارة من الكلس متفاوتة في الحجم وعلى الجدار الابيض من بيت صغير ذي دعائم سوداء مائلة وأربع نوافذ مضاءة كان يقوم في أعلى الجبل الذي نصعد فيه .

وصاح غاغين حينما اقتربنا من البيت الصغير :

ـ هذا هو منزلنا ! وتلك ربة البيت تحمل اللبن . Guten Abend, Madame!* سنتناول الطعام الآن ، ولكن متع البصر فيما حولك اولا ـ اضاف غاغين ـ فهل رأيت أمتع وأروع ؟

كان المنظر رائعاً في الواقع ، فأن نهر الراين يمتد تحت أبصارنا شريطاً من الفضة بين شاطئين أخضرين ، ويتوهج في ناحية منه بحمرة قانئة ؛ كشفت المدينة التي ركنت الى احضان الشاطئ عن بيوتها وشوارعها جميعاً ، وامتدت التلال والحقول على مدى بعيد . كان المنظر من تحتنا بديعاً ، ولكنه في أعلى ابدع ، وأشد ما استأسر اعجابي صفاء السماء وعمقها ، وهذا الشفف المضيء في الجو . كان الهواء النقي اللطيف يرتعش في وداعة وينساب في موجات هادئة فكأنه وجد منطلقه الرحيب في هذا المرتفع .

وهمست قائلا :

ـ لقد أحسنت اختيار موقع سكنك .

فأجاب غاغين :

ـ انها آسية التي اختارته .

---

* مساء الخير ياسيدتي (بالالمانية).

وأضاف :

ــ هلمّي يا آسية أصدري أمرك بأن يحمل الطعام الى هنا فنتناول العشاء في الهواء الطلق ونسمع الموسيقى من مكاننا على نحو اوضح ...

واستطرد يوجه الحديث اليّ :

ــ هل لحظت أن الفالس يبدو لك تافهاً مبتذل النغمات وأنت تسمعه من قريب ، ولكنه يغدو رائعاً وهو يترامى من بعيد ، ويهز في أعماقك أوتار العاطفة .

توجهت آسية الى البيت (اسمها الحقيقي أنّا ولكن غاغين كان يناديها آسية ، وأستأذنكم في أن أدعوها بهذا الاسم) وما لبثت أن عادت ومعها ربة الدار ، وبينهما طبق كبير تعاونتا على حمله ، فوقه وعاء لبن وخبز وفاكهة وسكر وصحون وملاعق . جلسنا الى العشاء ، وخلعت آسية قبعتها ، كان شعرها الاسود مشذبا ممشطاً كشعر صبى ، فاذا به يتهدل في جدائل كثيفة على عنقها وأذنيها . كانت تتهيبني أول الامر ، ولكن غاغين قال لها :

ــ كفاك انطواء يا آسية فانه لا يعض .

فابتسمت الفتاة ، وما لبثت بعد وقت قصير حتى بدأتنى هي بالحديث . لا اذكر انني رأيت مخلوقاً يشبهها في كثرة الحركة ، فما كانت تستقر في مجلس ولو لحظة واحدة ، فهي قائمة قاعدة مسرعة الى البيت او عائدة منه . وقد تغني بصوت خفيض او تضحك على نحو غريب ، فكأنها تضحك لما يخطر لها من الافكار لا لما تسمعه من الحديث . كانت عيناها الواسعتان ترسلان نظرات مستقيمة فيها صراحة وجرأة ، ولكن جفونها كانت تنضم بين الحين والآخر فتصبح نظراتها عميقة وديعة .

استمر الحديث بيننا ساعتين . كان ضوء النهار قد انطفأ منذ وقت بعيد ، وذاب المساء فى حنايا الليل ، زحف في أوّله متوهجاً كاللهب ، ثم صار الى حمرة قانئة صافية ، وما لبث حتى شحب واعتكر . ومضى حديثنا سمحاً هادئاً

كالجو المحيط بنا . طلب لنا غاغين زجاجة من نبيذ «الراين» ترشّفنا خمرتها في تمهل ، ولم ينقطع صوت الموسيقى خلال ذلك ، ولكنه على ما خيل الينا أصبح أرق وأعذب ، وتلألأت الانوار في المدينة وفوق النهر . أطرقت آسية فجأة برأسها فسقطت خصلات من شعرها على عينيها ، وأمسكت عن الحديث وتنهدت ، ثم قالت انها راغبة في النوم ، وقامت تسعى نحو البيت ، ولكني رأيتها تقف وراء نافذتها المغلقة دون أن توقد الشموع ، وبقيت في وقفتها وقتاً طويلا . ثم طلع القمر ، وأخذ ضوؤه يداعب وجه الراين ، فضاءت أشياء وتعتمت أشياء ، وطرأ عليها التبدل ، حتى ان ثمالة كؤوسنا كانت تتألق بوميض خفي . وسكنت حركة الانسام ، فكأنها الطير قد طوت اجنحتها وتجمدت ، وانبعث من الارض دفء مسائي عاطر . فهتفت قائلا :

ــ حان وقت العودة الى البيت ، وقد لا اجد نوتياً ينقلني .

فردد غاغين :

ــ حان الوقت .

وسلكنا درباً ضيقاً في هبوطنا . وفجأة تدحرجت الحجارة من ورائنا . كانت آسية تجري في إثرنا .

سألها أخوها :

ــ أما كنت نائمة ؟

ولكنها جاوزتنا دون أن تجيب بكلمة . كانت بقايا شاحبة من النار التي أوقدها الطلبة في حديقة الفندق تضيء أوراق الاشجار من أسفل وتضفي عليها رونقاً وسحراً . وجدنا آسية على الشاطئ ، كانت تتحدث الى نوتي ، فقفزت الى الزورق وأنا أودع صديقيّ الجديدين ، ووعدني غاغين بان يزورني فى الغد ، فشددت على يده ، ثم مددت يدي الى آسية ، فرفضت بايماءة من رأسها وهي تنظر اليّ . واندفع القارب في مجرى النهر السريع ، وضرب النوتي ــ وهو شيخ نشيط الحركة ــ مجذافيه في الماء الداكن بقوة .

وصرخت آسية :
ـ انك صدمت عمود القمر ، فجعلته حطاماً .
تحول بصري الى اللجة . كانت الامواج تتدافـع حول القارب مربدة سوداء .
وعاد صوت آسية يدوي :
ـ وداعاً .
فصاح غاغين في أثرها :
ـ الى الغد .
توقف القارب فقفزت منـه الى الارض وانـا انظر الى الوراء ، كان الشاطئ المقابل خالياً ، وعاد عمود القمر يمد جسراً من الذهب عبر النهر كله . وبلغت سمعي نغمات فالس قديم من وضع لانير * فكأنها تودعني . كان غاغين على حق فأن اوتار قلبي جميعاً قد ارتعشت تجاوباً مع تلك النغمات المبتهلة المسترحمة .
أتخذت سبيلي الى البيت عبر الحقول المظلمة وانا أترشف الهواء المشبع بعبير الازهار ، ثم بلغت غرفتي وملء نفسي احساس شفاف بهذا الارهاق العذب التي عانيته من الحاح أمنيات لا نهاية لها ولا هدف. شعرت بانني سعيد ... ولكن ممّ هذه السعـادة ؟ لم أكن راغبـاً في شيء ولا مفكـراً في شيء ... كنت سعيداً .
استلقيت على السرير وأنا أكاد أستغرق في الضحك طرباً لهذا الفيض من الاحاسيس اللذيذة الممراح الذي يملأ نفسي ، وتذكرت حين أخذ النعاس يثقل اجفاني أن ذكرى الارملـة الحسناء القاسية لم تخطر على بالي ولـو مرة واحدة طوال هذا المساء ... فساءلت نفسي : «ما معنى هذا يا ترى ؟ هل فرغت من حبها ؟» . ويبدو أنني غرقت في النوم بعد هذا السؤال ، فرقدت كأنني طفل في مهد .

---

* مؤلف موسيقي نمساوي (١٨٠١ ـ ١٨٤٣) . **(المترجم)** .

٣

في الصبـــاح (كنت قد استيقظت ولكني لم أبـــرح من فراشي) سمعت دقات عصا قرب نافذتي، وصوتاً عرفت في الحال أنه صوت غاغين، وكان ينشد هذه الاغنية:

أأنت نائم ؟
اذن ساوقظك بقيثارتي ...

أسرعت أفتح له الباب. فحياني غاغين وهو يدخل وقال:

ـ ازعجتك في هذا الوقت الباكر، ولكن انظر فما أجمل هذا الصباح. فهو طراوة ونداوة وتغريد طير ...

كان غاغين يبدو طرياً كالصباح بشعره المتموج اللامع وعنقه العاري وخديه الورديين.

ارتديت ملابسي وخرجنا الى الحديقة حيث جلسنـا في مقعد هناك، طلبت قهوة، وأخذنا في الحديث، فأخبرني عما أعده من الخطط للمستقبل: انه يملك من الثراء ما يكفيه، ولا يلزمه أحد بشيء فاعتزم وهو في هذا الوضـع المؤاتي ان يرصد حياته لفن الرسم، انه لا يأسف الا على الوقت الطويل الذى أضاعه هباء قبل أن يستقر على هذا العزم. أفضيت اليه بما كنت اترسّم لحياتي، وكشفت له بالمناسبة سرّ غرامي البائر، فكان ينصت اليّ في اشفاق، ولكني لحظت بقدر ما أستطيع ان ألحظ، أن لواعجي لم تثر فيه عطفاً فعلياً، فبعد أن تأوه في إثري مرتين من باب المجاملة، اقترح ان أذهب معه الى بيته لأشاهد رسومه التمهيدية، فقبلت دعوته في الحال.

لم تكن آسية في البيت، أنبأتنا ربة الدار بانها ذهبت الى «الاطلال»، وهي بقايـــا قصر من عصر الاقطاع تبعد فرسخين عن مدينة «ل». عرض غاغين عليّ كل لوحاته، وكان في رسومه التمهيدية كثير من الحياة والحقيقة، لم تكن تخلو من الانطلاق وسعة الافق، ولكنه لم يستتـم أي لوحة منها، وتبينت ان صنعته الفنيـــة خاليـــة من الاعتنـاء

والاصول ، وقد اعلنته رأيي في صراحة ، فأجاب وهو يتنهد :

ـ نعم نعم ، انك على حق ، فكل هذا خربشة غير ناضجة ، ولكن ما العمل ، فأني لم أتلق دراسة جدية ، ثم أن هذه الفوضى اللعينة التي تطبع «السلاف» قد أخذتني بأخذها ، فأنك تحلق كالصقر حينما تتصور ما ستقوم به من عمل ، وتشعر بانك قادر على ان تزحزح الارض من مدارها ، ولكنك تتحول عند التنفيذ الى امرىٔ موهون العزيمة بارد الهمة .

هممت بأن أحدثه بما يبعث الشجاعة والثقة في نفسه ولكنه صدّني باشارة من يده ، وجمع لوحاته بين يديه والقى بها على السرير ، وهمهم من خلال اسنانه :

ـ لئن كفاني ما عندي من الصبر والمثابرة فسأصل الى شيء يُذكر في حياتي ، واذا كان دون الكفاية فسأبقى عرقاً جاهلا بين النبلاء . هلمّ بنا نذهب ، فخير لنا ان نبحث عن آسية .

وغادرنا المنزل .

٤

يمتد الطريق المؤدي الى «الاطلال» على منحدر واد ضيق ظليل ، في قاعه نهير صغير يجري متوثباً صاخباً بين الصخور ، فكأنه يتعجل موعد امتزاجه بالنهر الكبير الذي يتلألأ في هدوء وراء حاجز قاتم من صخور جبلية حادة الانحدار . كان غاغين يلفت نظري الى بعض الاماكن التي ضاءت بالنور على نحو باهر . لم يكن في صوته حديث رسام بل روح فنان أصيل . ثم ظهرت لنا «الاطلال» وهي برج أسود ، مربع الاطراف ، يقوم على رأس صخرة هائلة جرداء ، مصدوع بشق في الطول ، كأنما قُطع قطعاً عمودياً ، ولكنه بقي ثابت الاركان . كانت الجدران المتصلة بالبرج يغطيها الطحلب ويتسلقها اللبلاب في بعض نواحيها ، والاشجار تميل بجذوعها وتطل الى أسفل من خلال الكوى

القديمة الشيباء والقبب المتهافتة . وهنـــاك درب ضيق مرصوف بالحجر يقود الى بوابـــة البرج ، وقد بقى لهذه البوابة مظهرها فلم يؤثر فيه مرور الزمن . كنا قد اقتربنا منها حين مرق أمامنا قوام امرأة ، جعلت تتنقل بين حطام الحجارة فى سرعة ، ثم توقفت على طنف ناتىء في السور عند موضع يشرف على الهاوية ، فهتف غاغين :

ــ انها آسية ، يالها مجنونة !

اجتزنا البوابة وصرنا الى ساحة غير واسعة تغطي جزءاً منها اشجار التفاح البرى والقراص . كانت آسية هناك فعلا تجلس على الطنف ، التفتت الينا بوجهها وضحكت دون ان تتحرك من مكانها ، فلوّح لها غاغين باصبعه مؤنبا على حين صرخت بها أرميها بالطيش ، فهمس اليّ غاغين قائلا :

ــ احذر أن تغيظها فانت لا تعرف طبعها . انها قد لا تتردد في ان تتسلق البرج ايضــاً ، خير لك أن تراقب دهاء الناس هنا وتطريه .

فأدرت بصري فيما حولي . فاذا عجوز تجلس في ركن كشك صغير تحوك الجوارب وتخالسنا النظر من زاويـــة نظارتها ، كانت تبيع من السائحين البيرة والكعك المحليّ والماء المعدنى . جلسنا في مقعد وأخذنا نشرب البيرة ، وكانت باردة قليلا ، في أكواب ثقيلة من القصدير . أما آسية فقد بقيت في مكانها جالسة القرفصاء دون حركة وعلى رأسها عصابـــــة رقيقة ؛ كان هيكلها الرشيق يرتسم واضحاً جميلا في السماء الصافية ؛ ولكني كنت أرامقها بين الحين والآخر بعين النفور . فقد لحظت من قبل .ان فيها شيئاً من التوتر والجموح ، ولم يكن طبيعياً هذا الشيء ، وقلت لنفسي : « انها تريد ان تثير فينا الدهشة ، فعلام ذلك ؟ وفيم هذا العبث الطفولي ؟ » . وكأنما حزرت ما كنت أفكر فيه فأرسلت نحوي نظرة سريعة نفاذة ، وعادت تضحـــك ثـــم قفزت من السور قفزتين ، واقتربت من العجوز تطلب منها كأساً مـــن الماء ، وقالت تخاطب أخاها :

ـ أتظن اني راغبة في الشرب ؟ لا ، فهناك أزهار على الجدران ، ولا بد ان أرويها بالماء .

لم يجب غاغين بكلمة ، وعادت ترتقي الاطلال وفي يدها كأس الماء ، فكانت تتوقف هنا وهناك ، وتنحني باهتمام طريف لتسكب بضع قطرات من الماء تتألق في ضوء الشمس . كانت حركاتها لطيفة جذابة ، ولكن حنقي عليها لم يتبدد ، غير اني لم استطع ان أصرف بصري عن النظر باعجاب الى رشاقتها ومهارتها . في منزلق خطر أطلقت صيحة اصطنعت فيها الخوف ، ثم استغرقت في الضحك ... فزاد حنقي منها .

تمتمت العجوز من أنفها وهي ترفع نظرها عن الجورب الذي تحوكه :

ـ انها تتسلق كالعنزة .

وعادت الينا اخيراً بعد ان أفرغت كأسها وهي تتمايل في دلع ، وابتسامة غريبة ساخرة تترقص في حاجبيها وأنفها وشفتيها ؛ وقفت تخزرنا بعينيها الغامقتين في شيء من التحدي والمرح ، وكأن قسمات وجهها تقول لي : «انك تعدّ سلوكي فجاً بعيداً عن التهذيب ، ولكني اعرف انك تطيل النظر اليّ في اعجاب» .

وخاطبها أخوها بصوت خفيض :

ـ مرحى لك يا آسية ، مرحى .

ويبدو أنها شعرت بالخجل ، فقد استرخت اهدابها الطويلة ، وجلست الينا في استكانة المذنب . فاستطعت هنا اول مرة ان امعن النظر في وجهها الذي لم أر له شبيهاً في سرعة التقلب . ففي لحظات قصار كان الشحوب يغطيه جميعاً ، ثم يكتسى بتعبير من التفكير يميل الى الأسى ؛ اوتبدو قسماتها ذاتها أكبر وأبسط وأحزم . ولم تلبث ان ركنت الى الهدوء والرزانة . قمنا نطوف بالاطلال (وفي إثرنا تسير آسية) وتمتعنا بما حولنا من منظر . كان موعد الغداء يقترب ، فطلب غاغين كوباً آخر من البيرة وهو يدفع الحساب للمرأة العجوز ، والتفت يقول لي بلهجة احتفالية ماكرة :

ـ في صحة سيدة قلبك وسالبة لبّك !
ففاجأتنا آسية بسؤالها :
ـ ولكن هل عنده ؟ .. هل عندك سيدة من هذا الطرز ؟
فقاطعها غاغين :
ـ منذا الذي يخلو أمره من مثل هذا ؟
أطرقت آسية لحظة ، وقد تغيرت اساريرها ، وعادت ترتسم في وجهها ابتسامة جريئة تنطق بالتحدي والسخرية .
زادت آسية في صخبها ودلعها ونحن في طريق العودة ، قطعت من احدى الاشجار غصناً طويلا وضعته على كتفها كما توضع البندقية وشدت العصابة التي تعصب بها رأسها . وأذكر أننا التقينا وقتئذ أسرة كثيرة العدد من الانكليز الشقر المحافظين ، فكانوا يشيعونها كلٌّ بدوره ـ كأنهم ينفذون أمراً صدر اليهم ـ بدهشة باردة ترتسم فى عيونهم الزجاجية ، فما كان منها الا أن رفعت عقيرتها بالغناء نكاية لهم عن هذا التزمت . حينما وصلنا الى البيت احتجبت آسية في غرفتها ولم تظهر الا وقت الغداء ، فأقبلت في أجمل ثوب وأحسن زينة ، ممشطة الشعر ، مشدودة الخصر ، في كفّيها قفازان . أخذت اثناء الأكل بآداب المائدة ، فتناولت الطعام بما لا يزيد عن اللمس ، ومست الماء في طرف الكأس . كان واضحاً أنها أرادت أن تلعب امامي دوراً جديداً وهو دور الست المؤدبة المهذبة . لم يزجرها غاغين . فما خفي عني انه اعتاد ان يغض النظر عن نزواتها جميعاً ، كان يكتفي كلما التقت نظراتنا بأن يرفع احدى كتفيه كأنه يريد أن يقول : «خذها بحلمك فأنها لا تزال طفلة» . عقب الانتهاء من الغداء ، نهضت آسية ، وحيت بالانحناء ، واستأذنت غاغين وهي تتناول قبعتها في زيارة السيدة لويزة .
فأجاب غاغين :
ـ ومتى كنت تستأذنين في مثل هذا ؟
اضاف وقد شاع في ابتسامته الدائمة شيء من الارتباك :
ـ أتشعرين بالسأم في مجلسنا ؟

ـ لا ، ولكني وعدت السيدة لويزة بزيارة . واحسب ان من الافضل لكما أن تكونا اثنين لا ثالث بينكما ، وقد يستطيع السيد «ن» عندئذ (واشارت اليّ) ان يحدثك بشيء .

وذهبت في سبيلها .

بدأ غاغين حديثه وهو يتحاشى نظراتي فقال :

ـ السيدة لويزة أرملة رئيس بلدية سابق في هذه المنطقة ، وهي عجوز طيبة ولكنها فارغة ، أحبت آسية حباً جماً ، وآسية تميل الى التعارف بأناس أدنى منها منزلة ؛ ويتأتى هذا عن الزهو على ما لحظت ، ولعلك رأيت انها مدللة كثيراً .

وأضاف بعد لحظة من الصمت :

ـ لا حيلة لي في هذا ، فأني لا أعرف كيف اؤاخذ الناس ولا سيما آسية ، وأراني **ملزماً** بان أتسامح معها .

لزمت الصمت ، ووجه غاغين الحديث في مجرى آخر ، كنت أزداد اعتلاقاً به كلما تعمقت امره . وما أسرع ما فهمت طبعه . فقد كان له ذلك الطبع الروسي الاصيل المجبول على الصدق والنبل والبساطة ، ولكنه للأسف على شيء من فتور الهمة ، مع افتقار الى العزيمة والحماسة ، لم تكن روح الشباب تنبثق منه كالينبوع بل كان يشع بضوء هادىء . كان غاغين موفور الذكاء والدماثة ، ولكني لا استطيع ان أتصور ما سيكون من أمره حين تنضج به السن . أما أن يصبح رساماً . . . فأن تحقيق هذه الامنية يحتاج الى عمل مرّ ودأب متصل .

ومن دون هذا لن يصبح رساماً . . . واما عن العمل ، فكرت وانا أتأمل في قسماته الرقيقة وأستمع الى حديثه الرتيب : فلا ، انك لن تبادر الى عمل ، لن تقدر على الارتباط به والانضباط فيه ، ومع هذا لم أملك الاّ أن أحب غاغين : فقد مال قلبي اليه ، فقضينا اربع ساعات مع بعضنا البعض جالسين على الاريكة او سائرين امام الدار في بطء ، وامتزج

الود بيننا في خلال هذه الساعات .

غربت الشمس وحان وقت عودتي الى البيت ، ولم تكن آسية قد عادت بعد ، فقال غاغين :

ــ يا لها من سائبــة عنيدة ! أتريد ان أمضي معك ، وسنعدل في طريقنا الى بيت السيدة لويزة فلعل آسية لا تزال هناك ، ان بيتها ليس بعيداً .

انحدرنا نحو المدينة ، وبعد ان مررنا بزقــاق ضيق متعرج ، وقفنا أمام بناية يبلغ عرضها نافذتين وارتفاعهــا أربعة طوابق ، وقد برز طابقها الثاني الى الشارع بما يزيد عن الاول ، وتجاوزه الطابقان الثالث والرابع ؛ فكانت البناية على العموم بتخاريمها الخشبية البالية ، وبالعمودين الضخمين اللذين يسندانها من أسفل ، وسقفهــا القرميدي الحــاد ، ومرفاع بئرها الناتيء من تحت السقف كالمنقار ــ تشبــه طائراً ضخماً أحدب .

صاح غاغين ينادي :

ــ آسية ! أأنت هنا ؟

سمعنا صرير نافذة مضيئة في الطابق الثالث ، وانفتحت النافذة فرأينا رأس آسية يطل علينا بشعره القاتم ويمتد من ورائه رأس الالمانية العجوز بفمهــا الأهتــم وعينيهــا العشواوين .

قالت آسية وهي تسند يدها بغنج على حافة النافذة :

ــ هأنذا ، واني لمغتبطة هنا .

وأضافت وهي تــرمي الى غــاغين بغصن من أزهــار الغيرانيوم :

ــ هاك ، خذ ، وتوهم أنني سيدة قلبك .

فضحكت السيدة لويزة ، وقال غاغين يقاطع آسية :

ــ ان السيد «ن» في طريقه الى بيته ويريد ان يودعك .

ـ أهو كذلك ؟ إذن أعطه غصن الزهر ، وسأهبط اليكما في الحال .

أغلقت النافذة ، ولا بد أنها قبلت السيدة لويزة ، ناولني غاغين عود الغرانيوم صامتاً ، فوضعته في جيبي وأنا صامت ايضاً ، وتوجهت الى معبر النهر حيث ركبت قارباً نقلني الى الشاطئ الآخر .

أذكر أنني سرت الى البيت غير مفكـــر في شيء ، ولكن قلبي كان يرزح تحت ثقل غريب ، وأفأت لنفسي حينمـــا تنسمت رائحة نفاذة مألوفة ولكنها نادرة في ألمانيا ، توقفت أستقصي أمرها فرأيت على كتف الطريق حوضاً صغيراً فيه أعواد من نبات القنب ، فذكرتني رائحتـــه ببراري الوطن ، وأثارت في نفسي حنيناً طاغياً اليه . وهفا القلب الى استنشاق هواء روسيا ، والانطلاق في أرضها . وهتفت : «أكان لي ما أعمله هنا ؟ علام أتسكع في جهة غريبـــة بين غربـاء ؟» . وفجأة تحول ما كان يبهظ قلبي من ثقل ماحق الى اضطراب مرير حارق . بلغت المنزل وأنا على حال تختلف عن الحال التي كنت عليها أمس . شعرت بأنني مغيظ ، وأخفقت في رد السكينة الى نفسي ، واشتملني غضب لم أعرف له سبباً ؛ ثم جلست أفكر في الارملة الغادرة (كان من الطقوس اليوميـــة أن أختتم اليوم بالتفكير في هذه السيدة) ، سحبت احـــدى رسائلها ، ولكني عزفت حتى عن فتحها ، فقد سلكت خواطري فجأة سبيلا آخر ، أخذت افكر في ... آسية ، ومما تذكرته ان غاغين أشار في بعض ما ألقى عليّ من حديث الى عقبـــة تحول دون عودته الى روسيـــا ... ورأيتني أقول بصوت عال : «أتكون أخته كما زعم ؟»

خلعت ملابسي وانضجعت ، حـــاولت ان أغفو ولكني أستويت جالساً في السرير بعد مرور ساعة ، اتكأت بكوعي على الوسادة وأنا افكر في هذه «الصبية المدلعة ذات الضحكة المصطنعة ...» انها مصبوبة في قالب «غالاتييه» الصغيرة

كما رسمها رافائيل في لوحة فارنيزينا * ، وهمست لنفسي : « أجل ، وانها ليست أخته ... »

أما رسالة الارملة فقد رقدت في سكون على الارضية وهى تلمع في ضوء القمر .

٥

عدت في الصباح الى « ل » وأنا أزعم لنفسي أنني أسعى الى لقاء غاغين ، ولكني في السر كنت مدفوعاً الى رؤية ما سيكون عليه مسلك آسية معي ، أتراها ستعود الى مثل تلعّبها أمس ؟ رأيت الاثنين يجلسان في غرفة الاستقبال ، كان من العجيب ـ ولعل سبب هذا انني اطلت التفكير في روسيا أثناء الليل وفي الصباح ـ أن آسية بدت نموذجاً للفتاة الروسية ، بل مجرد فتاة بسيطة ، ولعلها أشبهت قليلا وصيفة فندق . كانت في فستان عتيق ، شعرها مسرّح الى ما وراء اذنيها ، وقد جلست ساكنة قرب النافذة تطرز بأبرتها نسيجة مشدودة الى طارة ، كانت في هدوئها وتواضعها كأنها لم تزاول في حياتها الا هذا العمل ، بقيت صامتة لا تنطق الا بما قلّ ، لا ترفع بصرها عن شغلها ، وقد شاع في ملامحها تعبير عادي ساذج ذكرت به دون قصد فتياتنا البسيطات من كاتيا الى ماشا ، وكأنها أرادت لهذا الشبه أن يبلغ التمام ، فأخذت تغني بصوت خفيض أغنية « ماتوشكا غالوبوشكا » ** . تأملت في وجهها الصغير الشاحب الهامد ، فتذكرت أحلام أمس ، وامتلأت نفسي بالحسرة على شيء . كان الجو رائعاً ، وأعلننا غاغين بانه سيخرج لرسم منظر

---

* لوحة رسمها رافائيل (١٤٨٣ـ١٥٢٠) اسمها انتصار غالاتييه وقد رآها المؤلف في دارة فارنيزينا في روما . **(المترجم)** .

** اغنية شعبية روسية ، ومعناها : « امي يا حبوبتي » . **(المترجم)** .

حي ، فسألته أن يسمح لي بأن أرافقه اذا لم يكن في هذا ما يضايقه ، فقاطعني بقوله :

— بل على العكس فأنك قادر على أن تنفعني بنصحك .

لبس صداره ، ووضع على رأسه قبعة مستديرة « à la Van Dyck » وخرج متأبطاً ادوات الرسم ، فسرت في إثره ، بقيت آسية في البيت ، أوصاها قبل ان يخرج بأن تكون الشوربة ثقيلة المرق ، فوعدتـه بأن تمر بالمطبخ وتشرف على الطبيخ . حينما وصل غاغين الى الوادي الذي عرفته من قبل ، جلس فوق صخرة وبدأ يرسم شجرة بلوط عتيقة حفر الدهر في جذوعها ومدّ في فروعها . انضجعت أنا على العشب ، وأخرجت كتاباً ولكني لم أقرأ منه الا اقل من صفحتين ، كان هو يوسخ الورق ليس غير ، أمضينا أكثر الوقت في محادثة ، وناقشنا بتبصّر ودقة على ما أعتقد : الطريقة الصحيحة في العمل . ما ينبغي ان يطرح جانباً ، وما يحسن ان يتّبع ، أهمية الفنان في هذا العصر . ارتأى غاغين أخيراً أنه في مزاج لا يسيغ العمل اليوم ، وتمدد الى جانبي ، عندئذ أخذنا في حديث متدفق متطلق من أحاديث الشباب ، كان يحتدم بالحرارة حيناً وبالتأمل حيناً آخر ، او يصخب بالحماسة ، ولكن احاديثنا كان اغلبها مشوباً بالغموض وهي الطريقة التي يحبها الروسي بكل قلبه . ثم عدنا الى البيت بعد ان شبعنا من النظر والحديث ، كنا نستشعر الرضى كأننا قمنا بعمل وأصبنا نجاحا في هذا العمل . رأيت آسية على ما تركتها ، ترصدت حركاتها فلم تنبئ ولو بظل خفيف من الغنج ولا بعلامة على أنها تتعمد تمثيل أي دور من الادوار ، وسقطت في هذه المرة ذرائع اتهامها بالتصنع .

قال غاغين :

---

* بالفرنسية ، والمقصود انه من طرز فان ديك . **(المترجم)** .

ـ واه لها ، لقد فرضت على نفسها الصيام والنــدم .

في المساء تثاءبت عدة مرات تثاؤباً حقيقياً ، وذهبت الى النوم في وقت مبكر . لم أتلبث طويلا فقمت أودع غاغين ، وسرت الى منزلي غير سابح في الاحلام : فقد كان اليوم يوم الاحاسيس الحية ، ولكني اذكر انني لما تمددت للنوم سمعتني أقول بصوت مسموع :

ـ اي حرباء هذه الفتاة !

وأضفت بعد لحظة من تفكير :

ـ ومع ذلك فانها ليس أخته .

٦

مضى اسبوعان كنت فيهما أزور آل غاغين كل يوم ، وأظن أن آسية كانت تتهرب من الالتقاء بي ، ولكنها تركت ذلك التلعّب الــــذي أثار دهشتي في اليومين الاولين من أيــام تعارفنــا . كانت تبدو محزونــة او خجلى في السر ، وندر ضحكها ، كنت أراقبها بعين مستطلع .

كانت تتكلم باللغتين الفرنسية والالمانية في طلاقــة ، ولكن الواضح من أمرها انهــا لم تستأنس منذ طفولتهــا بتربية انثوية تأخــذ بيدهــا ، حصلت على تعليم غـــريب شاذ يختلف عما حصل عليه غاغين نفسه . فانه على الرغم مــن قبعتــه الـ «à la Van Dyck» وسترته القصيرة ، كانت قسماته ولفتاته تفوح بطراوة النعمة التي يتسم بها النبلاء الروس . لم تكن هي تشبه السيدة النبيلة ؛ بل كان في حركاتها جميعاً مسحة من قلق : فهي غرسة لم تطعـّم في أوانها وخمرة لم تختمر في دنانها . كان في طبيعتها حياء وتهيب ، فـــاذا ضاقت بخجلها أجهدت نفسها في التظاهر بأنها طليقة العنان جريئة القلب فلا يحالفها التوفيق في هذا الا قليلا . وما اكثر ما استدرجتها الى الحديث عن حياتها في روسيا ، عن ماضي

أيامها ، فكانت تجيب في غير اقبال على اسئلتي ، ولكني علمت أنها عاشت وقتاً طويلا في الريف قبل ان تسافر الى الخارج . التقيتها ذات يوم وهي تجلس وحيدة في يدها كتاب ، كانت تلتهم السطور بعينيها وقد أسندت رأسها بيديها وغرزت أصابعها في شعرها .فقلت لها وأنا أقترب منها :

ــ مرحى فكم أنت مثابرة !

فرفعت رأسها وأرسلت نحوي نظرات جادة حادة :

ــ أنت تظن أني لا احسن شيئاً غير الضحك .

قالت ذلك وهمت بالذهاب ...

نظرت في عنوان الكتاب فوجدت أنه قصة فرنسية ، فقلت :

ــ ولكني لا أستطيع ان أهنئك على حسن اختيارك .

فصاحت :

ــ ماذا عليّ ان أقرأ اذن ؟!

وأضافت وهي تلقي بالكتاب على المائدة :

ــ لعل الأولى ان أذهب لأمزح وأمرح .

وانطلقت ركضاً الى الحديقة .

جلست في ذلك المساء أقرأ على غاغين قصة «هيرمان ودوروتيبيه» ، كانت آسية تمرّ بنا اول الامر مروراً ، ثم توقفت فجأة وألقت الينا بسمعها ، وجلست الى جانبي هادئة مصغية حتى أتيت على آخر القصة . في اليوم التالي رأيتها فاستغلق عليّ أمرها من جديد ، ثم اهتديت الى انها استقرت على فكرة وهي ان تشبه «دوروتيبيه» في اهتمامها بشؤون البيت وشدة رزانتها . مجمل القول أنها كانت تبدو لي اشبه باللغز . كانت هذه المتيمة بحب ذاتها تستهويني حتى وانا حانق عليها . والامر الذي كنت ازداد به اقتناعاً هو ان آسية وغاغين ليسا بأخوين . كان يعاملها بغير المعاملة بين الاخ والاخت ، فيسرف في الحنو عليها والتسامح معها ولكن في شيء من التكلف .

ثم وقع حادث غريب جاء مؤكداً لما تداخلني من الشك .

تقول في انفعال و تبكي :
ففي احدى الامسيات جئت غاغين زائراً فوجدت باب الكرمة مقفلا ، لم أقض وقتاً طويلا في التفكير بل نفذت الى الكرمة قفزاً فوق جزء متهدم في سياجها كنت لاحظته من قبل ، اقتربت من عريش يظلله الطلح بعيد عن الممر ، وأوشكت ان أجتاز ... به لولا أن جمدت فجأة على صوت آسية و هي

— لا ، فأنا لا أريد ان أحب احداً غيرك . أنت وحدك والى الأبد .

فقال غاغين :

— كفى يا آسية ، اهدئي ، فانت تعرفين اني واثق بصدق ما تقولين .

كان صوتهما ينبعث من العريش ، رأيتهما من فرجة غير كثيفة بين الاغصان المعرشة من دون ان يشعرا بوجودي .

وعادت آسية تقول :

— انت ، انت وحدك .

وارتمت عليه تعانقه وتقبله وتلوذ بصدره وهي تشهق وترتجف ، اما هو فكان يمسح شعرها بيده مسحاً رقيقاً ويؤكد قوله :

— كفاية ، كفاية .

وقفت بضع لحظات جامداً في مكاني ... ثم اندفعت فجأة وقد ومضت في رأسي هذه الفكرة : «هل أدخل عليهما ؟ . . لا !» . فعدت مسرعاً الى السياج ، ونفذت من فوقه الى الطريق ، كدت أعدو في طريقي الى البيت . وكنت أفرك كفاً بكف وانا ابتسم واستغرب هذا الحادث الذي أثبت حدسي من حيث لا اتوقع (لم يخالطني ولو مثقال ذرة من الشك في صدق هذا الحدس) كان قلبي يمض مضيضاً من شعور مرّ ؛ وقلت في نفسي : انهما لقادران على التظاهر ! ولكن فيم هذا ؟ علام تلك الرغبة في التمويه عليّ ؟ . . ما كنت أتوقع منه ذلك . . . ثم ما معنى هذه المناجاة القلبية المؤثرة ؟

٧

قضيت الليلة في نوم مضطرب وأبكرت صباحاً في النهوض ، فوضعت كيس السفر على ظهري ، وأعلنت صاحبة الدار بأن لا تنتظر أوبتي في الليل ، وذهبت على قدميّ الى الجبل ، حيث المجرى الاعلى للنهر الذي ترقد على شاطئه بلدة « ز » . وهو من فقار سلسلة جبال تسمى ظهر الكلب (Hundsrück) ما زالت تجتذب اهتمام الجيولوجيين ، وتستأثرهم على الخصوص بجودة طبقاتها البازالتية ونقائها من الشوائب ، ولكن الابحاث الجيولوجية لم تكن مما أحفل به ؛ لم أكن قد استجليت رصيد ما يجري في داخلي ، غير شعور واحد كان واضحاً في نفسي ، وهو : عدم الرغبة في رؤية آل غاغين . كنت أوحي لنفسي بأن المبرر الوحيد لنفوري منهما كان الأسف لما انكشف من خداعهما ، فمن أرغمهما على التظاهر بانهما شقيقان حميمان ؟ وبذلت ما وسعني من الجهد في ابعادهما عن بالي ، فذهبت أطوف بالجبل والوادي متمهلا ، ومكثت وقتا طويلا في المطاعم الريفية فكنت أجاذب أصحابها ونزلاءها أطراف الحديث ، ثم افترشت صخرة مستوية دافئة أراقب منها السحائب وهي تجري سابحة في رحاب الفضاء ، ومن حسن الحظ ان الطقس كان رائعاً . وعلى هذا النحو قضيت ثلاثة ايام لم تخل من اسباب المتعة ، ولكن الضيق كان يعتصر قلبي في بعض الاحيان ، وتمازجت خواطري بما خيم على تلك الناحية من الهدوء .

استسلمت كل الاستسلام لعبث الاقدار الهادئ ، وللمشاعر العابرة تتعاقب في أناة وتسري في نفسي ثم تنصبّ اخيراً في احساس شامل واحد اجتمع فيه كل ما رأيته وما سمعته وما شعرت به في هذه الايام الثلاثة ، وجملته : هذا الاريج الخفيف الذي يضوع من صمغ الصنوبر في الغابات ، والصيحات الصاخبة التي تطلقها طيور النقار ، وثرثرة

السواقي الشفافة التي لا تصمت ، والاسماك الملونة قرب قاعها الرملي ، وخطوط الجبال الغامضة والصخور القاتمة ، والقرى النظيفة بكنائسها القديمة الوقور واشجارها ، وطيور اللقلق البري في المروج ، والطواحين الهوائية البديعة بمراوحها التي تدور بانتظام ودأب ، ووجوه السكان المضيافة وهم في صداراتهم الزرقاء وجواربهم الرمادية وعرباتهم التي تمر وهي تجري في بطء تجرها خيولهم الشحيمة او تجرها الابقار في بعض الاحيان ، والرحالون الشباب ذوو الشعور الطويلة يعبرون الطرق النظيفة المزروعة في جوانبها بأشجار التّفاح والكمثرى ...

ولا زلت حتى اليوم أجد الرضى في استعادة هذه الانطباعات ، فسلام عليك أيتها البقعة المتواضعة من أرض المانيا ، أيتها البقعة الراضية بنعمتها البسيطة ، المطرزة في كل جزء منها باثر الايدي الصناع وبأثر العمل الصابر المتأني ...

لك التحية وعليك السلام !

عدت الى البيت في نهاية اليوم الثالث . وفاتني ان أقول إن غضبي على آل غاغين حداني على محاولة ابتعاث طيف الارملة الغادرة ، ولكن جهودي كانت هباء . وأذكر أنني حينما أخذت أحلم بها ، رأيت أمامي طفلة فلاحة في الخامسة من عمرها ، يرتسم الفضول في وجهها الصغير المستدير ، والسذاجة في عينيها المتشوّفتين ، وهي تنظر اليّ ببراءتها الطفولية ... فاعتراني الخجل من طهر نظراتها ، وعزفت عن الكذب بحضورها ، ومنذئذ أمسكت عن بعث موضوع حبي الماضي ولم أعد اليه ابداً .

عثرت في البيت على كلمة من غاغين يقول فيها : انه في دهشة من بادرتي المفاجئة ، عاتب على أنني لم أستصحبه معي ، راغب في ان أذهب اليه من فوري حين أعود . قرأت هذه الرسالة متأففاً ، ولكني في اليوم التالي كنت في بلدة «ل» .

٨

استقبلني غاغين بالترحيب ، وأمطرني بسيل من عتابه الرقيق ، ولكن ما إن رأتني آسية حتى انطلقت تقهقه عامدة من دون سبب ، وغادرتنا من فورها على عادتها ، فارتبك غاغين ، وتمتم في اثرها قائلا بانها مجنونة ، ورجاني ان أصفح عنها . وأعترف بانني شعرت بالسأم الشديد من آسية ؛ فمن دون هذا كنت معتكر النفس ، فاذا هنا ايضاً هذا الضحك المصطنع وهذه الالاعيب الغريبة . ولكني تظاهرت بأني لم ألحظ شيئاً على الاطلاق ، وأقبلت على غاغين أحدثه عن تفاصيل رحلتي القصيرة ، وروى عليّ كيف قضى وقته في أثناء غيابي ؛ ولكن حديثنا لم يكن مؤاتياً . كانت آسية تدخل علينا الغرفة، دون ان تتلبث بل تدخل وتخرج ، وأعلنت اخيراً أن لديّ عملا عاجلا ، وقد آن لي ان أعود الى البيت . حاول غاغين اول الامر ان يستبقيني ، ثم تأملني بامعان ، وقال بانه سيرافقني . في المدخل رأيت آسية تقبل عليّ فجأة وتعطيني يدها ، فلمست أصابعها لمسة خفيفة وانحنيت لها . ذهبت مع غاغين ، فعبرنا ، الراين ، وعندما مررنا في طريقنا بسنديانتي الحبيبة حيث يقوم تمثال العذراء ، جلسنا على دكة هناك ، نتأمل في المنظر الخلاب الذي نطل عليه ، وهنا جرى بيننا حديث رائع .

تبادلنا كلمات متفرقة قليلة في البداية ثم خيم الصمت بيننا ، وانصرفنا الى مشاهدة النهر المضيء ، وفجأة قال غاغين وهو يبتسم ابتسامته المألوفة :

ــ قل لي ، ما رأيك في آسية ، ألا ترى انها كشفت عن كثير من الغرائب ؟

فاجبت بشيء من الحيرة لما بدهني من حديثه عنها :

ــ نعم .

فأضاف :

ـ يجب أن تعرفهـا على حقيقتها قبل ان تقضي في أمرها . ان لها قلبـاً موفور الطيبة ، ولكن رأسهـا حار ، ومعشرها صعب ، ومهما يكن فلا يجوز ان تدان بحكم ، حين تعرف حكايتها . . .

فقاطعته قائلا :

ـ حكايتها ؟ أظن أنك قلت انها . . .

فقال غاغين وهو يحدق في وجهي :

ـ هل ظننت أنها ليست اختي ؟ . .

وأضاف من دون ان يعبأ بحيرتي :

ـ الواقع انها أختي بنت أبي ، فأصغ اليّ ، اني أشعر لك بالثقة وسأحدثك بكل شيء .

كان ابي في جملته رجلا طيباً ذكياً مثقفاً ، ولكنه سيىء الحظ ، لم تكن قسمته اسوأ من كثيرين غيره ، ولكنـه فقد القدرة على الصمود أمام اول ضربة رماه بها القدر . فقـد تزوج عن حب ، وكان في غرارة الصبا ، لم تعش زوجتـه ، وهي أمي ، الا قليلا ، فعاجلهـا الموت وانـا في شهـري السادس ، فحملني ابي معه الى القرية ، ولم نغادرهـا طوال اثنتي عشرة سنة . أشرف هو بالذات على تربيتي ، وما كان لينفصل عني لو لم يأت عمي أخو ابي الى زيارتنـا في تلك القرية . كان عمي يسكن مقيماً في بطرسبورغ وله فيها منصب رفيع ، وقد ألحّ على ابي في امر نقلي الى رعايته ما دام ابي لا يريد ان يهجر القرية ابداً ؛ كان رأيه : ان صبياً بلغ مـا بلغت من العمر يجب ان يصان من العزلة والانفراد ، وأنني سأتخلف عن اترابي اذا عشت ونشأت في هذا الجو الموحش الصامت الذي يعيش فيه ابي ، ولا يبعد ان تسوء طباعي انا ايضاً . وقد عارض ابي طويلا فيما اقترحه أخوه ، ولكنـه وافق في النهاية ، فبكيت عندما افترقت عن ابي ؛ فقد كنت احبه على الرغم من اني لم أر ابتسامة على وجهه . . . لم ألبث بعد ان وصلت الى بطرسبورغ حتى نسيت وكرنـا المظلـم الكئيب . دخلت مدرسة عسكرية ، والتحقت بعدها بأحدى

كتائب الحرس . كنت أقضي في القرية بضعة اسابيع من كل سنة ، في كل سنة كان أبي يزداد حزناً وانطواء على نفسه واستغراقاً في التفكير وامعاناً في التهيب . كان يذهب الى الكنيسة في كل يوم ، وتعياه ان ينطق ولا يتكلم الا قليلا . وفي احدى زياراتي (كنت قد تجاوزت العشرين من عمري) وقع بصري اول مرة في منزلنا على فتاة نحيلة الجسم سوداء العينين في العاشرة من عمرها ، وكانت آسية . قال ابي انها يتيمة الابوين وانه آواها اليه ليطعمها من جوع ــ هذه كلماته بالحرف ــ لم ألق اليها أي انتباه ، وكانت هي شديدة النفار ، سريعة الحركة ، مغرقة في الصمت كالوحيشة ، فاذا رأتني أدخل غرفة ابي المفضلة ، وهي غرفة كبيرة مظلمة لفظت فيها امي انفاسها الاخيرة ، حيث كانت تتوقد شمعات حتى في النهار ، اسرعت الى الاختباء وراء مقعده الفولتيري او وراء خزانة الكتب . وحدث بعد تلك الزيارة ان شغلتني اعباء الخدمة فعاقتني عن المجيء الى القرية طوال ثلاث او اربع سنين ؛ كنت خلالها اتلقى من ابي رسالة قصيرة في كل شهر ، يندر فيها الحديث عن آسية ، او يأتي الحديث عرضاً . كان قد تجاوز الخمسين من عمره ، الاّ انه بقي شاب المظهر ، ولك ان تتصور مقدار فزعي حينما فوجئت على غير توقع برسالة من وكيلنا ينبئني فيها بأن ابي يعاني مرضاً خطراً مميتاً ، ويتوسل اليّ ان اسرع في المجيء بكل ما املك من القوة اذا اردت ان اودع ابي الوداع الاخير . فسافرت من فوري بأسرع ما استطيع ، ووجدت ابي لا يزال حياً ولكنه في انفاسه الاخيرة . تلقاني راضياً مغتبطاً قرير العين ، واحتواني بذراعيه الناحلتين ، وهو يطيل النظر في عينيّ كأنه يتفحصني بنظرته ويستشف دخيلتي او يتوسل اليّ ؛ فلما قطعت له وعداً بان أنفذ رجاءه الاخير ، أمر وصيفه العجوز بأن يأتي بآسية ، فجاء بها العجوز وهي تكاد لا تستقيم على قدميها ، فقد كانت ترتعد بكل بدنها . قال ابي وهو يبذل غاية جهده :

ــ اوصيك بابنتي ، فهي اختك ، وستعرف كل شيء من ياكوف .

قال ذلك وهو يومىء الى الوصيف .

فانفجرت آسية بالبكاء ، وارتمت بوجهها على السرير ...
بعد نصف ساعة كان ابي قد فارق الحياة .

كان ما علمته ان آسية بنت ابي من تاتيانا وصيفة امي في الماضي . ولا ازال أذكر تاتيانا هذه ، وأتذكر قوامها الممشوق الاهيف ، وقسماتها اللطيفة ، ووجهها الذكي ، وعينيها الغامقتين الواسعتين . كان المسموع عنها انها فتاة حاصنة عزيزة النفس . كل ما استطعت ان افهمه من الحديث المهذب المتحفظ الذي أدلى به ياكوف ، ان ابي عاشرها بضع سنين بعد وفاة امي ، ولم تكن تاتيانا تعيش اثناء ذلك في منزل سيدها ، بل كانت تقيم في بيت ريفي عند اخت لها متزوجة ترعى الماشية . كان ابي شديد التعلق بها ، اراد بعد رحيلي عن القرية ان يتزوج بها ولكنها لم توافق على الرغم من الحاحه .

وحدثني ياكوف وهو واقف الى قرب الباب بيدين مضمومتين الى وراء :

ــ كانت المرحومة تاتيانا فلاسييفنا امرأة عاقلة شاءت ألاّ تسيء الى ابيك ، فكانت تقول : «اي عقيلة لك انا ؟ وايّ ست بيت سيكون مني ؟» . سمعتها تقول ذلك في وجودي . ــ كذلك رفضت تاتيانا ان تنتقل الى منزلنا ، وآثرت أن تعيش مع آسية عند اختها . في طفولتي كنت أرى تاتيانا في الاعياد فقط ، اثناء الصلاة في الكنيسة ؛ كانت تعصب رأسها بعصابة غامقة ، على كتفيها شال أصفر ، وهي واقفة في الحشد الى قرب النافذة ــ وجانب وجهها المتناسق الدقيق يرتسم واضحاً على شفيف الزجاج ــ كانت تصلي بتواضع ووقار ، وتنحني في صلاتها الى أدنى على العادة القديمة ؛ لما أخذني عمي اليه ، كانت آسية في الثانية من عمرها ، فلما بلغت التاسعة كانت محرومة من الام .

بعد وفاة تاتيانا مباشرة بادر أبي الى نقل آسية الى بيته ، كان يتمناها الى جانبه من قبل ، ولكن تاتيانا تأبت عليه في هذا ايضاً . وتصوروا ما طرأ على شعور آسية حينما جيء بها الى السيد . انها لم تنس حتى الآن تلك الدقيقة التي لبست فيها أول مرة الفستان الحرير وانحنت الرؤوس تلثم يدها ؛ لقد أخذتها أمها بالشدة وهي في قيد الحياة ، فلما انتقلت الى ابيها أصبحت حرة طليقة من كل إسار . كان أبوها معلمها فلم يتع بصرها على غيره ، لم يدللها ويدلعها ، ولكنه أحبها بكل قلبه ولم يمنعها عن كل ما تريد : ولعله كان يشعر في أعماق نفسه بانه مذنب تجاهها . ولسرعان ما أدركت آسية انها الوجه الرئيسي في البيت ، وان سيد البيت أبوها ، ولكنها أدركت بسرعة ايضاً زيف وضعها ، فاشتد في نفسها حب الذات ، وانعدمت ثقتها بالناس ، واستجذرت فيها الخصال السيئة ، وفارقتها البساطة . لقد ارادت (وهذا ما اعترفت به اليّ ذات مرة) ان تحمل **العالم كله** على نسيان منشئها ، كانت تخجل من ناحية امها ، وتخجل من خجلها فتباهي بتلك الام . الحاصل أنها عرفت ، وهي تعرف ، ما لا ينبغي لمن في سنها ان يعرفه ... ولكن هل كانت هي المذنبة ؟ ان جذوة الشباب كانت تتوقد فيها ، ودمها يغلي ، وليس الى جنبها يد واحدة تأخذ بيدها وترشدها الى سواء السبيل . كان لها استقلالها الكامل في كل امر ! فهل من السهل ان تنهض بهذا العبء ؟ لقد اعتزمت ألاّ تتخلف عن غيرها من بنات النبلاء ، فانكبّت على المطالعة في الكتب ، ولكن اين وجه الفائدة من هذا ؟ ان حياتها تكوّنت على نحو غير صحيح لأن بدايتها لم تكن صحيحة ؛ بيد ان قلبها لم يتصدع وذكاءها لم يتزعزع .

وهكذا وجدتني وأنا في العشرين من عمري مسؤولا عن رعاية فتاة في ربيعها الثالث عشر . في الايام الاولي بعد وفاة ابي كانت نبرة صوتي المجردة تبعث فيها الرعدة ، وملاطفاتي تشيع فيها التبرم ، ثم أخذت تألفني قليلا قليلا في الخفاء ،

والحقيقة انها اقبلت عليّ بكل قلبها حينما أيقنت انني اعتبرها اختاً وأحبها حب الاخ للاخت ، وهي في كل عواطفها لا تعرف الحال الوسط .

نقلتها معي الى بطرسبورغ . ولئن كان الافتراق عنها شديداً عليّ ، فأني لم أقدر على السكنى معها ، فأدخلتها مدرسة من احسن المدارس الداخلية . وقد أدركت آسية ضرورة افتراقنا ولكنها مرضت في بداية الأمر حتى أشرفت على الموت ، وما لبث ان أخذت نفسها بالصبر فقضت في المدرسة أربع سنين ، فاذا هي على غير ما توقعت ، تخرج منها كما دخلتها من قبل ، وكثيراً ما كانت رئيسة المدرسة تشكوها اليّ قائلة : « يمتنع علينا ان نزجرها بالمعاقبة ، ولا تعبأ اذا عاملناها باللين » . كانت آسية لامعة الذكاء ، سارت في دراستها على نحو ممتاز تفوقت به على زميلاتها جميعاً . غير انها رفضت ان تكون مثل الآخرين ، وبقيت عنيدة متمردة ترمق من حولها بالنظر الشزر . . . وقد صعب عليّ أن أقسو في الحكم عليها ، ففي وضعها كانت أمام طريقين ، فاما ان تذعن ، واما ان تتمرد . ولم تجد بين زميلاتها من تستريح الى صحبته الا فتاة منبوذة رقيقة الحال عاطلة من الجمال ، اما باقي رفيقاتها في الدراسة واكثرهن بنات أسر كريمة ، فقد كن ينفرن من صحبتها ، ويسعين الى ايلامها بقوارص السخرية كلما وجدن الى ذلك سبيلا ، ولكن آسية لم تكن تسكت لهن في واحدة . وفي ذات يوم كان مدرس اللاهوت يتحدث عن السيئات ، فصاحت آسية بصوت ثاقب : « النفاق والجبن أسوأ السيئات جميعها » . مجمل القول انها مضت في سبيلها لا تحيد عنه ، لم يتحسن الا سلوكها فقط ، ولعل هذا التحسن كان طفيفا ايضا .

وما لبثت ان جاوزت السابعة عشرة من عمرها ، وتعذّر عليها ان تبقى في المدرسة بعد هذه السن ، كنت في حرج من الامر ، ثم خطرت ببالي فكرة طيبة مفاجئة ، وهي : الاستقالة والسفر الى الخارج مع آسية لمدة سنة او سنتين . وقد

انجزت ما فكرت فيه ، وها نحن اولاء على ضفاف الراين ، أحاول أنا أن انصرف الى الرسم ، على حين تمضي هي في عبثها وألاعيبها كما كانت من قبل ؛ وآمل ألاّ تكون شديدا في حكمك عليها ، فانها تهتم بكل رأي ، ولا سيما رأيك ، على الرغم مما تتظاهر به من عدم الاكتراث .

وعاد غاغين يبتسم ابتسامته الوديعة ، فأخذت يده وشددت عليها ، بينما استطرد يقول :

ـ هذا ما كان ، ولكن مصيبتي معها ، انها كتلة من البارود ؛ انها لم تعجب باحد حتى الآن ، وسيكون البلاء الاعظم حينما تحب ! فلا ادري وقتئذ كيف ينبغي ان اتصرف معها . واليك ما اقدمت عليه منذ ايام : لقد فاجأتني بالقول اني اصبحت لا اعني بها الا قليلا ، وجعلت تؤكد لي انها تحبني من دون الناس كلهم أجمعين ، وستبقى على هذا الحب أبداً . . . ولشد ما بكت وقتذاك . . .

ـ واذن كان الامر كذلك . . . . ـ تمتمت وانا أهم بالكلام ، ولكني كبحت لساني فقلت بعد ان سلك الحديث بيننا طريق الصراحة : ـ أيعقل حقيقة أنها لم تعجب بأحد حتى الآن ؟ فاين فتيان بطرسبورغ اذن ؟

ـ لا ، فليس يعجبها هؤلاء بالذات . ان آسية تطمح الى بطل ، الى انسان غير عادي ، او الى راع جميل يضرب في وديان الجبال . ولكن ما لي أستأخرك بمثل هذا الكلام الطويل ؛ ـ قال ذلك وهو يهم بالقيام ـ فقلت :

ـ اسمع ، ساعود معك ، فاني لا أرغب في الذهاب الى بيتي .

ـ وعملك العاجل ؟

لم أجب بكلمة ، فضحك غاغين في سماحة ، وعدنا معاً الى « ل » ، حينما رأيت الكرمة المألوفة والبيت الابيض الذي يطل من قمة الجبل ، شعرت بالنشوة تسري في قلبي ، فكأن الشهد المصفى ينسكب فيه قطرات ، وغمرتني راحة شاملة بعد هذا الحديث الذي ألقاه غاغين في سمعي .

استقبلتنا آسية على عتبة الباب ، كنت انتظر ان تأخذ بالضحك على عادتها ، ولكنها طلعت علينا شاحبة الوجه مطبقة الفم خفيضة العينين . وقال غاغين :

ــ ها هو ذا ، انتبهي الى انه شاء ان يعود من تلقاء نفسه .

نظرت آسية اليّ نظرة تساؤل ، فأخذت بيدها الممدودة ، وشددت بقوة في هذه المرة على أصابعها الباردة . كنت أشعر بالاشفاق عليها منذ ان ازددت ادراكاً لما يجري في نفسها ، ووضح لي ما كان يحيرني من امر : قلقها المقيم وعجزها عن ضبط النفس وجنوحها الى التصنع . لقد تعمقت دخائل هذه النفس ، فقد كان يسحقها ظلم خفي لا يريم ، وتمزق ترتطم فيه الكبرياء الساذجة بالقلق ، بيد ان وجودها كله كان يسعى الى الحقيقة . لقد ادركت لماذا ملكت عليّ نفسي هذه الفتاة الغريبة الاطوار : فلم تكن ملاحتها الآبدة التي انسكبت في جسدها النحيل كله هي التي تجتذبني اليها فقط ، بل كانت روحها تجتذبني ايضاً .

بدأ غاغين في تقليب رسومه فعرضت على آسية ان نقوم بنزهة في الكرمة فوافقتني من فورها بغبطة تشبه الاذعان . هبطنا المنحدر حتى بلغنا منتصفه حيث جلسنا هناك على صخرة مستوية عريضة . وبدأت آسية الحديث فقالت :

ــ ألم تشعر بالضجر وانت بعيد عنا ؟

فسألتها :

ــ وأنت ألم تشعرى بالضجر من دونى ؟

فرمقتنى آسية بطرف عينيها وقالت :

ــ أجل .

وأضافت من فورها :

ــ هل قضيت وقتاً طيباً في الجبال ؟ هل هي عالية ؟

أعلى من الغيوم ؟ حدثني عما شاهدته هنـــاك . كنت تحدث أخي ، أما أنا فلم أسمع شيئاً .

ــ هل كان من الضروري ان تنسحبي من مجلسنا ؟

ــ لقد انسحبت لأن ... لن انسحب بعـــد الآن ، ــ وأضافت بصوت حنون وديع : ــ كنت غاضباً اليوم .

ــ أنا ؟

ــ نعم ، انت .

ــ عفواً ، وممَّ ؟

ــ لا ادري ، ولكنك كنت غاضباً ، وغادرتنا غاضباً ، فكان أسفي شديداً لأنك ذهبت على تلك الحال ، وانا مغتبطة بعودتك .

فأجبت قائلا :

ــ وانا ايضاً مغتبط بعودتي .

فقوست آسية كتفيها كما يفعل الأطفال حينما يكونون راضين ، وتابعت قائلة :

ــ أوه ، اني لقادرة على التنبؤ بما تخفى الصدور ! كنت أعرف من سعال ابي في الغرفة المجاورة أغاضب هو مني أم راض .

لم تكن آسية قد تحدثت اليّ عن أبيها حتى ذلك اليوم ، فأدهشني ذلك منها .

ــ هل كنت تحبين بابا ؟

قلت ذلك وقد حز في نفسي هذا الاحمرار الذي شـــاع فجأة في وجهي . لم تجب آسية بل تضرج وجههـــا ايضـــاً بالاحمرار ، وخيم الصمت بيننا ونحن نرى الى سفينة كانت تمخر الراين من بعيد وتنفث الدخان .

وهمست آسية :

ــ ما لك لا تتحدث ؟

فسألتها :

ــ لماذا استغرقت في الضحك أول ما وقع بصرك عليّ اليوم ؟

ـ انني بالذات لا اعرف لماذا ، فقد اشعر احياناً برغبة في البكاء فأضحك . ينبغي ألاّ تحكم عليّ ... بما تراه من فعالي . وبالمناسبة ، ما القصد الذي رمت اليه تلك الاسطورة التي تتحدث عن لوريلا ؟ هل هذه التي تتراءى للعين صخرتها ؟ قيل انها كانت تغرق كل انسان ، فلما أحبت أغرقت نفسها . تعجبنى هذه الاسطورة . ان فراو لويزة تروي عليّ اساطير شتى وفي بيت فراو لويزة قط اسود ذو عينين صفراوين .

رفعت آسية رأسها وهزت خصلاتها ، وقالت :

ـ آه ، كم اشعر بالغبطة .

في تلك اللحظة بلغت سمعنا اصوات متقطعة رتيبة النغمة ، مئات من الاصوات كانت ترتل الصلوات في آن واحد ، وتقطع النشيد بالصمت بين الحين والآخر ، وظهر على امتداد الطريق في نهاية المنحدر جماعة من الحجاج يحملون الصلبان وصور القديسين ... قالت آسية وهي ترهف السمع لانفجارات الاصوات وهي تبتعد قليلا قليلا :

ـ ليتنا نذهب معهم .

ـ هل وصل بك التدين الى هذا الحد ؟

ـ أتمنى أن أذهب الى مكان بعيد ، لأصلي او لأقوم بمأثرة في عمل . ـ وأضافت : ـ ان الايام تمضي ، والحياة ستزول ، فما العمل الذي قمنا به حتى اليوم ؟

فقلت معلقا :

ـ انك طماحة ، تأبين أن تعيشي سدى ، وتطمحين الى ترك اثر في الحياة ...

ـ أهذا مستحيل يا ترى ؟

كادت لفظة «مستحيل» تفلت مني ، ولكني حدقت في عينيها اللامعتين وقلت :

ـ عليك أن تحاولي .

قالت آسية بعد صمت قصير سرت في اثنائه بعض الظلال على وجهها الذي اعتراه الشحوب :

ـ خبرني ، أكانت تعجبك تلك السيدة ... ألا تذكر ، لقد شرب أخي على صحتها ونحن في الاطلال ، في اليوم الثاني من تعارفنا ؟

فضحكت :

ـ كان أخوك يمزح ، فاني لم اعجب باي سيدة ، على أي حال ليس من سيدة أعجب بها الآن .

فسألت وهي تتلع رأسها بفضول بريء :

ـ وماذا يعجبك في النساء ؟

فهتفت قائلا :

ـ يا له من سؤال غريب !

فاضطربت آسية قليلا :

ـ لم يكن يليق ان اطرح هذا السؤال . أليس كذلك ؟ لا تؤاخذني ، فقد تعودت أن أنطق بما يخطر في بالي ، ولهذا أتهيب من الكلام .

ـ قولي ما شئت ، بالله عليك ، لا تخشي شيئاً ، فقد أسعدني انك خرجت اخيراً من انطوائك .

غضت آسية طرفها ، وأرسلت ضحكة هادئة رقيقة لم اكن اعرف ان لها نظيرها ؛ ثم اضافت وهي تسوي اطراف فستانها وترتبها على ساقيها كأنها تستعد لجلسة طويلة :

ـ هيا حدثني بشيء او اقرأ عليّ شيئاً . أتذكر ، انك قرأت لنا من « اونيغين » * ...

واستغرقت فجأة في التفكير ثم أخذت تقرأ في همس :

حيث الصليب وظلال الاغصان
على جدث امى المسكينة الآن !

فلاحظت قائلا :

---

* « ايفغيني اونيغين » قصيدة للشاعر الروسي الشهير بوشكين . **(المترجم)** .

ـ لم يأت البيت عند بوشكين على هذه الصورة .
فتابعت وهي لا تزال مستغرقة في التفكير :
ـ وددت لو انني كنت تاتيانا * .
واضافت بانفعال :
ـ هيا حدثني بشيء .
ولكني لم أجد رغبة في الحديث . كنت انظر اليها . كانت هادئة مطمئنة تغمرها أشعة الشمس المتألقة ، وكل ما حولنا وتحتنا وفوقنا يشرق بالمرح ، وخيل الى ان السماء والارض والماء ، بل الهواء ذاته قد فاضت جميعاً بالاشراق . فقلت بصوت خفيض من دون وعي :
ـ انظري ، فما اجمل هذا كله !
فاجابت بهدوء من دون ان ترفع بصرها اليّ :
ـ نعم ، انه لجميل ! لو اننا من الطير لارتفعنا وحلقنا في الاعالي وغرقنا في هذا المدى الازرق ... ولكننا لسنا من الطير .
فقلت معترضاً :
ـ ولكن قد تنبت لنا اجنحة .
ـ وكيف ذلك ؟
ـ من يعش ير ، فهناك مشاعر تسمو بنا الى ما فوق الارض ، وستنبت لك أجنحة فلا تقلقي .
ـ هل كنت بأجنحة ؟
ـ ماذا أقول ... يخيل الى اني لم احلّق بعد .
وعادت آسية الى تفكيرها ، فانحنيت عليها قليلا . وسألتني فجأة :
ـ أتحسن رقصة « الفالس » ؟
فقلت وقد شعرت بشيء من الارتباك :
ـ نعم .
ـ هيا بنا نعود إذن ، هيـــا ... وسأطلب من أخي ان

---

* البطلة في قصيدة بوشكين « ايفغيني اونيغين » . **(المترجم)** .

يعزف لنا مقطوعة فالس لكيما نتصور اننا نحلق باجنحتنا في اجواز الفضاء .

قامت تركض الى البيت فركضت في اثرها ، وبعد لحظات كنا ندور في الغرفة الضيقة على انغام لانير العذبة . رقصت آسية الفالس ببراعة وحماسة ، وقد شاعت فجأة في مظهر الفتاة الصارم رقة انثوية . لقد احتفظت يدي وقتاً طويلا بملمس خصرها الرقيق ، وبقيت وقتاً طويلا اسمع انفاسها السريعة القريبة ، وارى عينيها الغامقتين الساكنتين وهما في شبه اغماض على ووجها الشاحب على الرغم من انتعاشه ، وقد تهدلت عليه خصلات من شعرها الغزير .

١٠

انقضى ذلك اليوم على أحسن حال . سرحنا ومرحنا كالاطفال؛ كانت آسية في غاية العذوبة والبساطة ، وغاغين سعيد بما يراه من غبطتها . ثم غادرتهما في وقت متأخر ، فلما صرت في وسط الراين طلبت من النوتي ان يترك القارب على رسلته ، فرفع الشيخ المجذافين ، وانطلقنا نتهادى على غوارب هذا النهر العظيم . كنت أنظر فيما حولي مرهفاً سمعي مستعيداً ذكرياتي حينما شعرت فجأة بقلق خفيّ يمس شغاف قلبي ... رفعت بصري الى السماء فما وجدت هدوءا حتى في السماء : كانت موشومة بالنجوم وكلها يتململ ويتحرك ويرتعش . انحنيت على النهر ، فاذا النجوم هنا ايضاً في هذه الاعماق المظلمة الباردة ، ترتجف وتتموج . خيل اليّ أن في هذا الانتعاش قلقاً ماثلا في كل مكان ، فسرى القلق الى نفسي ايضاً . ارتميت على حافة القارب ... فكان يزعجني اصطفاق الماء على جوانبه وعزيف الريح في أذني ، ولم يروح عني ما كانت ترسله الأمواج من نفحات طرية ؛ وصدح بلبل على الشاطئ فملأني بما سكب في صداحه من السم العذب . فاضت عيناي بالدموع ، لم تكن دموع انفعال لا سبب له ، فأن ما شعرت به لم يكن ذلك الاحساس الغامض الذي اختبرته

مؤخراً ، وهو الاحساس بالرغبة الشاملة التي تتفتح فيها النفس وتغني ويخيل اليها أنها تحيط بكل شيء وتحب كل شيء ... لا ! فقد توقد في نفسي ظمأ الى السعادة ، ولئن خذلتني القدرة عن النطق بهذه الكلمة ، فان السعادة ، والسعادة حتى الارتواء والامتلاء ، هي ما كنت أريده وأهفو اليه ... وخلال ذلك كان القارب ينطلق والنوتي الشيخ يجلس منحنياً على المجذافين وهو يغالب النعاس .

١١

لم اسأل نفسي وأنا أتوجه في اليوم التالي الى بيت غاغين : هل تراني أحب آسية ؟ ولكني لم أنقطع عن التفكير فيها والانشغال بمصيرها ، كنت مغتبطاً بتقاربنا الذي حدث على غير توقع ، شاعراً بأني لم أعرفها الا أمس ، فهي قبل ذلك كانت تدير اليّ ظهرها ؟ أما وانها قد كشفت أخيراً عن سريرتها ، فأي نور آسر أشرق في وجودها ، وأي جدّة رأيت في هذا كله ، وأي جاذبية خفية كانت ترف في استحياء وخفر على هذا الوجود ...

سرت في الطريق المألوف بخطوات نشيطة ، وبصري معلق بالدار الصغيرة البيضاء التي تبدو من بعيد . كنت في غاية الغبطة ، لا يشغلني التفكير في المستقبل ، ولا في الغد القريب نفسه .

شاع الاحمرار في وجه آسية حينما دخلتُ عليها الغرفة ، ولاحظت أنها عادت من جديد الى التأنق في لباسها ، ولكن ملامح وجهها لم تكن منسجمة مع هندامها ، فقد كانت كئيبة . على حين أقبلت أنا مشرق الأسارير ! وخيل اليّ أنها جمعت أمرها على الفرار مني بحكم العادة ، ولكنها أكرهت نفسها على البقاء . وكان غاغين في تلك الحالة من

الحماسة والاستغراق التي تنتاب هواة الفن فجأة فيتوهمون أنهم افلحوا على حد قولهم في «القبض على الطبيعة من ذيلها» . كان يقف أشعث الشعر ملطخاً بالاصباغ أمام قطعة مشدودة من القماش ، يطوف بريشته عليها في حركات واسعة ، فلما رآني أومأ اليّ بحركة من رأسه فيها شيء من الجفوة ، وتحرك الى جانب وهو يوصوص عينيه ، ثم هجم مكرّاً على اللوحة كما ابتعد عنها . حاذرت أن أزعجه فجلست الى جانب آسية ، فتحولت اليّ بعينيها الغامقتين في بطء . قلت لها بعد ان أخفق جهدي في حملها على الابتسام :

ــ انك اليوم على غير ما كنت عليه أمس .

فاجابت بصوت بطيء هامد النبرة :

ــ هذا صحيح ولكنه غير مهم . لقد نمت نوماً قلقاً وقضيت الليل مؤرقة أفكر ...

ــ فيم ؟

ــ أوه ، في كثير من الاشياء ، فتلك عادتي منذ عهد الطفولة ، منذ ان كنت أعيش مع أمي ...

نطقت آسية هذه الكلمة في جهد ، ولكنها عادت تكررها :

ــ منذ ان كنت أعيش مع أمي ... كم تساءلت : لماذا لا يعرف أحد ما يخبئه له الغد ؟ ولماذا يرى المرء هجوم الكارثة في بعض الاحيان ثم يقف عاجزاً عن التماس النجاة منها ؟ ولماذا يتعذر الافضاء بالحقيقة الكاملة في كل الاحوال ؟ .. وعندئذ وقر في نفسي أنني أجهل كل شيء ، وعليّ ان أتعلم ، وأعيد تربيتي من أولها . ان ثقافتي سيئة جداً ، فأنا لا أعرف العزف على البيانو ، ولا الرسم ، ولا أجيد حتى صنعة الخياطة ، وليس لي أي موهبة ، وقد تكون مجالستي مما يبعث على الضجر .

فاعترضت قائلا :

ــ انك تظلمين نفسك بما تقولين ، فانت واسعة الاطلاع ، مثقفة العقل ، بذكائك هذا ...

فسألت باهتمام ساذج أضحكني على الرغم مني ولكنها لم تستجب لضحكي حتى بابتسامة :

ـ أتراني ذكية ؟

والتفتت تسأل غاغين :

ـ هل أنا ذكية يا اخي ؟

لم يجب غاغين بل استمر في عمله وهو لا يتوقف عن استبدال ريشة بأخرى ورفع يده الى أعلى .

تابعت آسية قولها وهي مستغرقة في أفكارها :

ـ لا أدري احياناً ما يدور في بالي ، أخاف احيانـاً نفسي ، قسماً بالله ! آه كم أردت ... الا ترى أن كثرة المطالعة لا تلائم النساء ؟ ..

ـ كثيرها غير ضروري ، ولكن ...

ـ بماذا تنصح لي ان أقرأ ؟

ثم أضافت بثقة ساذجة :

ـ أشر عليّ بما ينبغي ان أعمل ولن أخالفك في شيء .

لم اجد جواباً أقوله من فوري فقالت :

ـ هل تراك ستشعر معي بالضجر ؟

ـ عفوا ... ـ بدأت الكلام ، فقاطعتني قائلة :

ـ لك الشكر إذن ! لقد توهمت أنك ستشعر بالضجر .

وشدت بيدها الصغيرة الدافئة على يدي . وهتف غاغين في اللحظة نفسها :

ـ «ن» ! ألا تبدو أرضية الصورة مظلمة ؟

قمت مقترباً منه ، وقامت آسية تغادرنا .

١٢

عادت بعد ساعة فدعتني بأشارة من يدها وهي لا تزال واقفة عند وصيد الباب ، وقالت :

ـ خبرني ، لئن دهمني الموت فهل تحزن عليّ ؟

فصحت قائلا :

ـ ما هذه الخواطر التي تدور في رأسك اليوم ؟

ـ يخيل اليّ انني سأموت عما قريب ، ويتراءى لي في بعض الأحيان أن كل ما حولي يودعني ، فأن الموت خير من الحياة على هذا النحو . . . اني لا ألقى الكلام على عواهنه ، فلا ترمقني بهذه النظرة والا عاودني الخوف منك .

ـ وهل كنت تخافينني ؟

فقاطعتني قائلة :

ـ لئن كنت على ما رأيت من غرابة الاطوار ، فليس هذا ذنبي في الحقيقة . ألا ترى انني لم أعد قادرة حتى على الضحك . . .

وبقيت مهمومة حزينة طوال النهار ، فكأن شيئاً تعذر عليّ ادراكه يجري في داخل نفسها . كانت ترسل اليّ نظرات طويلة فينقبض قلبي تحت هذه النظرات الغامضة ، وأنظر اليها فأشعر على الرغم من مظهرها المطمئن برغبة في أن أقول لها دعي عنك هذا القلق . كم وجدت وأنا أتفحصها من الروعة المؤثرة في قسماتها الشاحبة وحركاتها المترددة البطيئة ، ولكنها تصورت من دون أن أدري أنني على غير حالتي ؛ وقبيل انصرافي قالت لي :

ـ اسمع ، اني لم اعد أطيق ان تحسبني طائشة . . . أرجو ان تصدق كل ما ساقوله لك في المستقبل ، ولتكن انت ايضاً صريحاً معي ؛ لن أحدثك الا بالصدق ، أقسم لك . . .

وحملتني هذه ال« اقسم لك » على الضحك من جديد ، فقالت في حماسة :

آه ، لا تضحكَ والا سألتك مثلما سألتَني امس : « لماذا تضحكين ؟ » .

وأضافت بعد قليل من الصمت :

ـ هل تذكر ما قلته لي أمس عن الاجنحة ؟ .. لقد نبت لي جناحان ، ولكن لا مجال للتحليق .

فقلت :
ـ ولكن اسمحي لي ، ان امامك السبل مفتوحة كلها ...
فحدقت آسية في عيني مباشرة ، ثم قطبت حاجبيها وقالت :
ـ انك تطوي فكرة سيئة عني اليوم .
ـ أنا ؟ أطوي فكرة سيئة ؟ عنك !..
وقاطعني غاغين قائلا :
ـ ما لكما اليوم مثل الماء المعتكر ؟ أترغبان في ان أعزف لكما مقطوعة فالس كالامس ؟
فاعترضت آسية وهي تشد يديها :
ـ لا ، لا ، ليس اليوم ولا بحال !
ـ هدئي روعك فأنا لا أفرض الامر عليك فرضاً ...
فعادت تكرر قولها وقد شاع الشحوب في وجهها :
ـ ولا بحال .

. . . .

«أتراها تحبني ؟» ـ فكرت بهذا وأنا اقترب من الراين ، وكانت امواجه القاتمة تتدفق مسرعة .

١٣

حينما استيقظت في صباح اليوم التالي كان السؤال الذي خطر ببالي : «أتراها تحبني ؟» . لم أشعر بالنزوع الى سبر أغوار نفسي . كانت طلعتها ، طلعة «الفتاة ذات الضحك المصطنع» قد ملأت روحي ، ولم يبد أنني قادر على التخلص منها في وقت قريب . ثم مضيت الى بلدة «ل» فبقيت فيها طوال اليوم ، ولكني لم أر آسية الا خلال لحظات ، فقد كانت متوعكة الصحة تشكو من الصداع . اقبلت علينا ولم تتريث . كانت معصوبة الجبين ، شاحبة ، هزيلة ، مسترخية الجفون ، ابتسمت ابتسامة وانية وقالت :

ـ طارئٌ سيزول ، وكل شـــيء الى زوال ، أليس كذلك ؟

وذهبت .

شعرت بالضيق ، وبشيء من الأسى والفراغ ، ولكني شعرت بالرغبة في أن استأخر ذهابي ، فعدت في وقـــت متأخر من دون ان أراها مرة ثانية .

مرَّ الصباح التالي وأنا في يقظة تشبه الحلم ، أردت ان اشغل نفسي بعمل فما استطعت . كنت لا أرغب في العمل ولا في التفكير ... ولكني عجزت . فقمت أطوف في أرجاء البلدة ، ثم اعود الى البيت لأغادره من جديد .

وسمعت من ورائي صوتاً طفولياً يقول :

ـ هل أنت السيد « ن » ؟

التفت فرأيت صبياً . أضاف وهو يناولني رسالة :

ـ هذه لك من فراولين Annette.

فتحتها ـ فعرفت خط آسية المتعرج السريع ، وقـــد كتبت فيها تقول : « لا بد أن أراك . تعال اليوم في الساعة الرابعة الى المعبد الحجري القائم على الدرب الى جانـــب الاطلال . كنتُ شديدة التهور اليوم ... سألتك الله أن تاتي وستعرف كل شيء ... قُلْ لحامل الرسالة : نعم » .

وسأل الصبي :

ـ هل من جواب ؟

فأجبت :

ـ قل لها ، إن الجواب نعم .

فانطلق الصبي راكضاً .

١٤

عدت الى غرفتـي ، فجلست وغـرقت في التفكير . كان قلبي يخفق خفقاً عنيفاً ... أعدت قراءة رسالـة آسيـة مرات ، ثم نظرت في الساعة : لم تكن بلغت الثانية عشرة .

فتح الباب ودخل غاغين .

كان وجهه عابساً . أطبق على يدي وشدّ عليها بقوة ، وكان يبدو في غاية الاضطراب .

سألته :

ــ ماذا حدث لك ؟

أخذ غاغين كرسياً وجلس قدّامي ، ثم بدأ حديثه متلعثماً يرسم ابتسامة متكلفة :

ــ لقد أذهلتك بما رويته عليك منذ أربعة ايام ، ولسوف أزيدك ذهولا اليوم . لو كان أمامي شخص آخر سواك لما جرؤت . . . بهذه الصراحة ، ولكنك انسان نبيل ، ثم انك صديقي ، أليس كذلك ؟ اسمع ، ان أختي آسية تحبك .

انتفضت بكل جسمي ، ونهضت قليلا ...

ــ أتقول أختك ؟ . .

فقاطعني غاغين :

ــ نعم ، نعم ، أقول لك انها مخبولة ، وستدفع بي الى الجنون . من حسن الحظ انها لا تستطيع ان تكذب ، وهي تثق بي . آه ، يا لروح هذه الفتاة ، انها ستورد نفسها موارد الهلاك لا محالة .

فقلت :

ــ لا بدّ أنك على خطأ .

ــ أبدا ، فما أنا على خطأ . لقد ازمت فراشها أمس ، أكثر النهار ، وأنت تعلم ذلك ، فلم تذق طعاماً ، ولا نبرت عنها شكاة ... فهي لا تشكو أبداً . لم يداخلني القلق على الرغم من الحمى الخفيفة التي ظهرت عليها في المساء . في الساعة الثانية من هذه الليلة ، أيقظتني صاحبة البيت وقالت : اذهب الى أختك فان حالتها تبدو سيئة . أسرعت الى آسية فاذا هي لا تزال في ملابسها ، كانت محمومة ، دامعة العينين ، يتلهب رأسها ، وتصطك أسنانها . سألتها : « ماذا بك ؟ هل أنت مريضة ؟ » ، فارتمت على عنقي وهي تتوسل

الى ان أرحل بها من هنا باقصى ما يستطاع من السرعة اذا كنت راغباً في الحفاظ على حياتها ... لم أفهم شيئاً مما بها ، حاولت أن اهدئ من روعها ... فزاد نشيجها ... وفجأة سمعت من خلال زفراتها ... مختصر الكلام ، سمعت أنها تحبك . اؤكد لك اننا على ما نحن عليه من رجاحة العقل ، قاصرون ولو بالتصور عن أن ندرك ما عندها من عمق في الشعور وبأي قوة يبرز لديها هذا الشعور ، فهو يفاجئها بشكل عاصف كأنه الصاعقـــة . ـ وتابع غاغين الكلام فقال ـ : انك انسان في غاية الظرف ، ولكن لماذا أحبتك هكذا ؟ اعترف باني لا أدري لماذا . قالت انهـــا اعتلقت بك من أول نظرة ، وهذا ما أهاجها على البكاء قبل ايام حينما كانت تؤكد لي انها لا تريد ان تحب احداً آخر غيري . تصورت انك تزدريها ، ورجحت أنك على علـــم بحقيقة أمرها ، وكان من الطبيعي ان اجيب : لا ، حينما سألتني : هل اطلعتك على حكايتها ، ولكن حدسها مخيف . انها لا تتمنى الا امراً واحداً وهو الرحيل ، ان ترحل من فورها . بقيت ساهراً معها حتى انبلج الصباح ، لم تغف عيناها الا بعد ان وعدتها بأن نرحل في الغد ، ثم اني مضيت افكر وافكر حتى انتهيت الى قرار بان أحدثك بالامر . في اعتقادي ان آسية على حق ، فمن الخير لنا نحن الاثنين ان نرحل من هنا ؛ كنت بسبيلي الى الرحيل معها اليوم لولا ان استوقفتني فكرة خطرت ببالي ، فقلت : من يدري ؟ قد تكون اختي اعجبتك ، فاذا كانت الحال كذلك فهل يحق لي ان أرحّلها . على ذلك صممت على نبذ الخجل ...ثم اني لاحظت أمراً ... فاعتزمت ... ان أعرف منك ... ـ واضطرب غاغين المسكين وهو يضيف : ـ أرجوك ان تعذرني فأني لم أتعود مثل هذه المواقف الحرجة .

فأمسكته من يده وقلت بصوت حازم :

ـ أتريد ان تعرف هل تعجبني أختك ؟ نعم انهـــا تعجبني ...

فحدق غاغين في وجهي وقال متلعثماً :
ـ ولكنك لن تتزوجها ؟
ـ كيف تريدني ان اجيبك على هذا السؤال في الحال ؟ لك أن تحكم انت ، هل تراني استطيع في الوقت الحاضر ؟..
فقاطعني غاغين :
ـ أعرف هذا ، أعرفه ، فأني لا املك ولو ذرة من الحق في مطالبتك بجواب ، بل ان سؤالي هذا بعيد عن اللياقة ... ولكن بماذا تأمرني ان أفعل ؟ لا يجوز المزاح مع النار ، فأنت لا تعرف آسية . انها قمينة بأن تمرض ، بان تهرب ، بان تضرب لك موعد لقاء ... يستطيع غيرها من الفتيات ان يتكتم وينتظر ، ولكنها ليست كذلك . ان هذا يحدث لها أول مرة ، وهنا المصيبة ! لو رأيتها وهي تنتحب عند قدمي اليوم لفهمت مخاوفي .
أطرقت مفكراً . كانت كلمات غاغين : «تضرب لك موعد لقاء» ، تخزني في قلبي ، ورأيت ان من المخجل ألاّ أقابل صراحته الشريفة بصراحة مثلها ، فقلت بعد تردد :
ـ نعم ، انك على حق ، فقد استلمت من أختك رسالة منذ ساعة ، وها هي ذي .
أخذ غاغين الورقة ومسحها بنظرة سريعة سقطت بعدها يداه على ركبتيه . كانت الدهشة التي ارتسمت في وجهه مضحكة ولكنها لم تحملني على الضحك . وقال غاغين :
ـ أعيد القول بانك امرؤ نبيل ، ولكن ما العمل الآن ؟ كيف ؟ انها بالذات ترغب في الرحيل ، ثم تكتب اليك ، وتلوم نفسها على تسرعها ... متى تسنى لها ان تكتب اليك ؟ ماذا تريد منك ؟
هدأت من روعه ، وأخذنا نتداول الرأي بما قدرنا عليه من الهدوء عما ينبغي ان نعمله .
وهذا ما اتفقنا عليه في النهاية : من أجل استدفاع

المصيبة ينبغي ان اذهب الى لقاء آسية ، وان أصارحها بشرف ؛ على ان يبقى غاغين في البيت من دون ان يبدي ما يدل على انه يعرف بأمر رسالتها ، ثم نلتقي مرة ثانية في المساء . وقال غاغين وهو يشد على يدي :

ـ ان أملي بك وطيد . كن رحيما بي وبها ، فأننا راحلون غداً على كل حال .

ثم أضاف وهو ينهض واقفاً :

ـ ذلك لأنك على ما يبدو لن تتزوج بآسية .

فاعترضت قائلا :

ـ أعطني مهلة حتى المساء .

ـ طيب ، ولكنك لن تتزوجها .

ما إن ذهب غاغين حتى ارتميت على الاريكة وأغمضت عيني . كان رأسي يدور ، فأن الاحاسيس التي اقتحمته دفعة واحدة كانت كثيرة . لقد ضاقت نفسي بصراحة غاغين ، ومن آسية ، فأن حبها أسعدني وأقلقني في آن واحد . ولم أستطع ان اهتدي الى السبب الذي دعاها الى البوح لاخيها بكل شيء ، كان يمزقني أن لا مناص من اتخاذ قرار سريع يشبه ان يكون وليد اللحظة . . .

قلت وأنا أهب واقفاً : «الزواج بفتاة في السابعة عشرة من عمرها لها مثل ذلك المزاج ، فهل هذا معقول ؟ !» .

١٥

عبرت الراين في الموعد المحدد ، كان أول وجه صادفته على الشاطئ الآخر ذلك الصبى الذى جاءني فى الصباح ، وكان ينتظرنى فيما يبدو ، فقد همس اليّ وهو يضع في يدي رسالة أخرى :

ـ هذه من فراولين Annette .

أنبأتني آسية انها غيرت زمان اللقاء ومكانه ، فأن عليّ ان أجيء بعد ساعة ونصف الساعة من الموعد الاول ، لا

الى المعبد بل الى بيت فراو لويزة ، وأن أقرع باب البناية ثم أصعد الى الطابق الثالث .

وسألني الصبي :

ـ هل الجواب : نعم أيضاً ؟

ـ نعم .

وذهبت أتمشى على ضفاف الراين . لم يكن الوقت يسمح لي بأن أعود الى البيت ، ولا كنت راغباً في ان أطوف بالشوارع . كان وراء سور المدينة حديقة صغيرة مسقوفة فيها مكان لهواة «الكرة الخشبية» وموائد لعشاق البيرة ، فدخلتها ؛ ثمة نفر من الالمان الكهول يلعبون بهذه اللعبة ، والكرات الخشبية تتدحرج فى ضوضاء لا تتظللها صيحات الاستحسان الا في القليل النادر . حملت اليّ نادلة مليحة الوجه باكية العينين كوباً من البيرة ، فلما نظرت في وجهها استدارت بتعجل وتولت عني .

ـ اي نعم ـ قال رجل سمين أحمر الخدين من أبناء البلد كان يجلس هناك ـ ان غانهيننا في اضطراب شديد اليوم فقد ذهب خطيبها الى الخدمة العسكرية .

نظرت اليها حيث انتبذت ركناً قصياً وجلست مسندة رأسها الى يدها والدموع تنفر قطرات من خلال أصابعها . طلب أحد الجالسين شيئاً من البيرة فحملت اليه الكوب وعادت الى ركنها . لقد تأثرت بمصيبتها فأخذت أفكر في الموعد الذي ينتظرني ، كانت خواطرى كئيبة خالية من المرح ، فأني ذاهب بقلب غير هادئ الى لقاء لا ينتظرني فيه الاستسلام الى افراح حب متبادل ، بل الوفاء بعهد قطعته لغاغين وتنفيذ هذا الواجب العسير . كانت كلمات غاغين : «لا يجوز الهزل معها» تنفذ في روحي كالسهام . ولكن ألم أتحرق ظمأ الى السعادة قبل أربعة ايام فقط وأنا في هذا القارب المحمول على الأمواج ؟ لقد أصبحت السعادة قريبة المنال ، وها أنا ذا أقف دونها متردداً ، أهمّ بدفعها ، بل اني مضطر الى دفعها بعيداً عني ... ان مفاجأتها

لي قد أشاعت الحيرة والارتباك في نفسي . واما آسية نفسها ، فانها على الرغم من رأسها الحامى وماضيها وتربيتها ، فأن هذه المخلوقة الجذابة بل الغريبة بعض الشيء ، أقول ، لقد أخافتني . بقيت المشاعر تصطرع في داخلي وقتاً طويلا . ثم اقترب الموعد المضروب ، فقررت في آخر الامر : «أنني لا أستطيع أن أتزوجها ، ولن تعرف أيضاً انني احببتها» .

نهضت فوضعت في يد غانهين المسكينة تاليرة (لم تنطق ولو بكلمة شكر) ثم توجهت الى بيت فراو لويزة . كانت ظلال المساء قد بدأت تسيل في رحاب الفضاء ، وفوق الشارع المعتم كانت فرجة ضيقة من السماء تبدو لامعة ببقايا الشفق القاني التي تركها الغروب . طرقت الباب طرقاً خفيفاً فانفتح في الحال ، فلما تجاوزت وصيده وجدتني في ظلام دامس . وسمعت صوت عجوز تقول :

ـ هنا ، انها تنتظرك .

بعد خطوة او خطوتين متلمستين ، شعرت بيد هزيلة تطبق على يدي ، فسألت :

ـ هل أنت فراو لويزة ؟

فأجابني ذلك الصوت نفسه :

ـ هي أنا يا زينة الشباب .

قادتني العجوز الى أعلى في سلم شديد الانحدار حتى بلغنا باحة الطابق الثالث ، عندئذ رأيت على خيط ضعيف من النور يسقط من كوة صغيرة ، وجه أرملة العمدة المتغضن وابتسامتها المداهنة التى وسّعت فمها الأهتم وضيقت عينيها الحائلتي اللون . واشارت نحو باب صغير ، ففتحته بيد مترددة ثم أغلقته ورائي .

١٦

كانت الغرفة الصغيرة التي دخلتها شبه مظلمة حتى اني لم اتبين آسية في الحال ، ثم رأيتها جالسة الى قرب

النافذة ، يلفّها شال طويل ، وقد أدارت رأسها ، وأخفت وجهها او كادت ، فكأنها الفرخ المروّع . كانت أنفاسها تتلاحق ، وأوصالها ترتعد ، فاعتصرني اشفاق عليها يفوق الوصف ، وأقبلت عليها فأشاحت عني برأسها ... فقلت :

ـ أنّا نيقولاييفنا .

فاعتدلت بكل جسمها فجأة ، ولكنها لم تقو على النظر اليّ ، فأمسكت بيدها ، كانت كفها باردة تسترخي كالمتية في يدي .

ـ كنت أتمنى ـ بدأت آسية الكلام وهي تحاول ان تبتسم فلم تطاوعها شفتاها الشاحبتان : ـ كنت أريد . . . لا ، فاني لا أستطيع ـ قالت ذلك وصمتت ، فصوتها في الواقع كان ينقطع عن النطق عند كل كلمة .

جلست الى قربها .

ـ أنّا نيقولاييفنا . ـ أعدت ندائي ولكني شعرت أيضاً بالعجز فلم أضف شيئاً .

وخيّم الصمت . كنت لا أزال أمسك بيدها وأرنو اليها . أما هي فبقيت على حالها ، منكمشة على نفسها ، تتنفس بصعوبة ، وتعض على شفتها السفلى في هدوء لتستدفع الانتحاب وتحتبس مسال الدموع ... نظرت اليها : كان في سكونها المتهيب شيء من العجز يثير الرحمة ، فكأنها في جلستها قد سقطت على هذا النحو بعد ان أرهقها الجهد في الوصول الى مقعد ، وشعرت بقلبي يذوب بين جوانحي .

ـ آسية ، ـ قلت بصوت يكاد لا يسمع ...

فرفعت اليّ عينيها في بطء ... ويالنظرة المرأة العاشقة ، أين من يقدر على وصفها ؟ كانت هاتان العينان تفيضان بالثقة ، بالتساؤل ، بالاستسلام . . . غلبني سحر هاتين العينين ، واستشعرت في جسدي ناراً رفيعة تنفذ فيه كالابر المحمّاة ، فملت عليها ، وضممت كفها الى شفتي ...

التقطت اذني همساً مرتجفاً يشبه الزفرة المتقطعة ،

واحسست على شعري بلمس رقيق من يدها المرتعشة كورقة الشجر . رفعت رأسي فرأيت وجهها ، ولشد ما تغير هذا الوجه فجأة ! لقد تبددت منه صورة الخوف ، وانطلقت نظرتها في الابعاد القصيّة وهي تشدني اليها وتتجاذبني ، وانفرجت شفتاها قليلا ، وشحب جبينها شحوب المرمر ، وانسابت خصلات شعرها الى وراء كأنها تواجه الريح . لقد نسيت كل شيء . جذبتها اليّ فاستسلمت يدها واستجاب جسدها كله ليدها ، انزلق الشال عن كتفيها ، واستراح رأسها في هدوء على صدري ، ثم رقد تحت شفتيّ الملتهبتين ...

ـ إني لك ... ـ همست بصوت خافت .

انزلقت يداي حول خصرها ... ولكن ذكرى غاغين لمعت في خاطري فجأة كالبرق ، فصحت وأنا اتراجع الى وراء : ـ ماذا نحن فاعلون ؟.. إن أخاك ... إنه يعرف كل شيء ... ويعرف أنني معك على لقاء .

انهارت آسية على الكرسي . تابعت كلامي وأنا أنهض وأبتعد الى زاوية في أقصى الغرفة :

ـ نعم ، إن أخاك يعرف كل شيء ... لقد وجب عليّ ان أفضي اليه بكل شيء .

ـ وجب ؟ ـ تمتمت آسية بصوت ضائع ، كان واضحاً انها لم تستعد زمام نفسها ، ولم تفهم من قولي الا قليلا .

ـ نعم ، نعم ، ـ قلت مكرراً في شيء من الحدة : ـ في هذا أنت وحدك المذنبة ، أنت وحدك . فعلام أفشيت سرك ؟ ماذا حداك على الافضاء الى اخيك بكل شيء ؟ كان أخوك بالذات عندي اليوم ، وهو الذي نقل اليّ ما تحدثت به اليه . ـ بذلت جهدي كي أتحاشى النظر الى آسية ، كنت اذرع الغرفة بخطوات واسعة . ـ لقد ضاع كل شيء الآن ، كل شيء ، كل شيء .

همت آسية أن تنهض عن الكرسي ، فصحت بها :

ـ تمهّلي ، أرجوك . انك تتعاملين مع انسان شريف ،

ـ نعم ، مع انسان شريف . ولكن خبريني اكراماً لله ماذا حداك الى القلق ؟ هل لاحظت عليّ شيئاً من التغير ؟ اما انا فما كنت قادراً على التكتم حينما جاءني أخوك اليوم .

وفكرت : «ما هذا الذي أقوله ؟» . كانت تجلجل في رأسي هذه الفكرة ، وهي أنني كاذب عديم الاخلاق ، وان غاغين يعرف أمر موعدنا ، وأن كل شيء أصبح شائهاً مفتضحاً .

وسمعت آسية تقول في همس خائف :

ـ اني لم أدع اخي بل جاء من تلقاء نفسه .

فتابعت قولي :

ـ لقد فعلت ما فعلت ، فانظري ، وها انت بعد هذا تريدين الرحيل ...

فهمست بصوت خفيض هادئ :

ـ نعم ، ينبغي ان أرحل ، وما رجوتك ان تأتي الى هنا الا لأودعك .

فقاطعتها :

ـ هل تظنين ان فراقك سيكون سهلا عليّ ؟

فكررت آسية في حيرة :

ـ واذن لماذا أخبرت أخي ؟

ـ افهميني ، لم يكن لي من سبيل آخر . ويا ليتك انت لم تبوحي بسر قلبك ...

فاعترضت ببساطة :

ـ لقد حبست نفسي في غرفتي ولم أعرف ان صاحبة المنزل عندها مفتاح آخر ...

كاد هذا الاعتراف البريء الذي نطقت به في تلك الدقيقة ان يثير غضبي وقتذاك ... اما الآن فلا استطيع ان اذكره من دون حسرة على الطفلة المسكينة الطاهرة الصادقة !

ـ وها هو كل شيء ينتهي الآن ! ـ بدأت الكلام من جديد . ـ كل شيء ، وينبغي علينا ان نفترق . ـ ونظرت خفية الى آسية ... فاذا وجهها يحمرّ فجأة ، وشعرت

بانها تعاني احساساً غامراً بالخجل والخوف ، كنت انـــا ايضاً اذرع الغرفة وأهذي كالمحموم . ـ انك لم تتركي مجالا تنمو فيه العاطفة التي اخذت في النضج ، قطعت ما بيننـا من الاواصر ، لم تثقي بي ، شككت في أمري .

في أثناء مضيّي بهذا الكلام كانت آسية تنحني شيئاً فشيئاً الى الامام ، وفجأة سقطت على ركبتيها ، ورمت رأسها بين كفيها وهي تشهق من البكاء . أسرعت اليهـــا وحاولـــت ان اعينهـــا على النهوض فكانت تتعصى عليّ وتستدفعني . لم يكن لي طاقة على احتمال دموع النساء ، فأني لا أكاد أراها حتى أفقد صوابي في الحال :

ـ أنّا نيقولاييفنـــا ، آسية ، ـ قلت في الحـــاح : ـ أرجوك ، أتوسل اليك ، كفاية اكراماً لله . . . . ـ وأخذت بيدهـــا من جديد . . . لكنهـــا ويالدهشتي ، هبت فجأة ، واندفعت كومضة البرق نحو الباب ، واختفت .

حينما دخلت فراو لويزة عليّ الغرفة بعد بضع دقائق ، كنت لا ازال واقفاً في وسطها كالمصعوق : لم افهـــم كيف انتهى هذا اللقاء على مثل ما انتهى اليه من السرعة والحماقة . انتهى قبل أن أقول ولو جزءاً صغيراً مما أردت ان اقول ، ومما يجب عليّ ان اقوله ، بل قبل ان اعرف ما هو الحل الذي ينبغي ان يختتم به هذا اللقاء . . .

سألتني فراو لويزة وهي ترفع حاجبيها الاصفرين الى أعلى جبينها :

ـ هل ذهبت الفراولين ؟

فنظرت اليها كالملتاث وخرجت .

١٧

تركت المدينة ، وانطلقت في الحقول ، يمزقني الغيظ ، وكان غيظاً مسعوراً . . . جعلت انحي على نفسي باللوائم : كيف فاتني ان أدرك السبب الذي حمل آسية على تغيير مكان

اللقاء ، واي ثمن استأداها اللجوء الى هذه الحيزبون ، ولماذا لم امسكها عن الذهاب ! ففي تلك الغرفة الصماء الغبشاء التي انفردت فيها بآسية ، وجدت القوة والجرأة على صدها عني ، بل حتى على تأنيبها ... اما الآن فأن صورتها تلاحقني ، وأنا اسألها الغفران ، وتحرقني منها الذكريات ، عن وجهها الشاحب ، عن عينيها المبللتين الحائرتين ، عن شعرها المسترسل على عنقها المائل ، عن رأسها وهو يلتمس الاطمئنان على صدري . كنت أسمع همستها : « أنا لك » ... فاؤكد لنفسي : « انني استجبت لنداء الضمير » ... ولم يكن ذلك حقيقة ! فهل أردت مثل هذا الفراق بالذات ؟ هل كنت قادراً على الافتراق عنها ؟ هل أصبر على الحرمان من قربها ؟ « مجنون ، مجنون ! » ـ كنت أردد ذلك بغضب ...

وبين هذا وذاك أقبل الليل ، فتوجهت بخطوات واسعة الى البيت الذي تقيم فيه آسية .

١٨

خرج غاغين للقائي ، وصاح قبل ان يصل اليّ :

ـ هل رأيت اختي ؟

فسألته :

ـ أليست في البيت ؟

ـ لا .

ـ أما عادت بعد ؟

ـ لا . ـ واضاف غاغين قائلا ـ : انا المسؤول في هذا ، فقد غلبني فراغ الصبر ، فذهبت الى المعبد على خلاف ما اتفقنا ، لم تكن هناك ، فهل اخلفت الميعاد ؟

ـ انّها لم تكن عند المعبد .

ـ ألم تقابلها ؟

فاضطررت الى الاعتراف بأني قابلتها .

ــ أين ؟

ــ في بيت فراو لويزة ، ثم افترقنا منذ ساعة .

وأضفت :

ــ كنت في يقين من أنها عادت الى البيت .

فقال غاغين :

ــ سننتظر .

دخلنا البيت ، وجلسنا بجنب بعضها البعض صامتين . كنا في غاية الضيق ، لا ننقطع عن التلفت نحو البـــاب ، واصاخة السمع ، ثم نهض غاغين وهو يصيح :

ــ هذا شيء ما له شبيه أبداً ! أصبح قلبي على شعرة ، وستقصف عمري أقسم بالله . . . هيا نخرج للبحث عنها .

خرجنا . وكان الظلام مطبقاً في الخارج .

سألني غاغين وهو يشد قبعته على عينيه :

ــ وفيم جرى حديثك معها ؟

فأجبت :

ــ لم يستغرق لقائي بها سوى خمس دقائق ليس غير ، حدثتها بما جرى عليه الاتفاق .

فقاطعني قائلا :

ــ أتعرف ؟ من الخير لنا أن نفترق ، فهذا أجدى علينا في البحث عنها ؛ ولتعد الى هنا بعد ساعة على كل حال .

١٩

انحدرت مسرعاً من الكرمة ، وانطلقت في المدينة أمسح شوارعها جميعها بنظرة عجلى . نظرت في كل ناحية حتى في نوافذ فراو لويزة ، ثم عدت الى الراين فقطعت شاطئه ركضاً ... صادفت قليلا من الاجسام النسائية ، ولكني افتقدت آسية في كل مكان . لم يعد يتأكلني الغيظ بل انه الرعب الخفي الذي يمزق الاوصال ... ولكن لا ، فقد كنت أشعر بالندم ، بحرقة الأسف ، بالحب ، بأرق ما يكون الحب ! كنت أعتصر كفي وأنادي آسية في ظلمة الليل الزاحفة ،

ناديتها بصوت خفيض ، ثم ارتفع صوتي شيئاً فشيئاً مكرراً مئة مرة انني أحبها . أقسمت ألاّ افارقها أبداً ، كنت قميناً بأن أهب كل ما في الوجود تلقاء تجدد عهدي بلمس يدها الباردة ، والاستماع لنبرتها الخافتة ، ورؤيتها أمامي ... لشد ما كانت قريبة مني ، وقد جاءت اليّ بملء عزمها ، بملء قلبها البريء واحساسها النقي ، وحملت اليّ شبابها الذي لم يمسه بشر ... فلم أضمها الى صدري ، حرمت نفسي هناءة النظر الى وجهها الحبيب وهو يشرق بالغبطة والابتهاج الهادئ ... كانت هذه الخاطرة تدفع بي الى الجنون .

صرخت من قرارة يأسي العاجز :ــ «اين أمكنها أن تذهب ، وماذا تراها صنعت بنفسها ؟» تراءى لي في تلك اللحظة طيف أبيض على الضفة ذاتها من الراين ، في موضع كنت أعرفه من قبل ، فهناك يقوم صليب من الحجر غاص نصفه في الارض ، حيث يثوي رجل مات غرقاً قبل سبعين سنة او اكثر ، وعلى الصليب نقوش قديمة . فجمد قلبي في صدري ... ثم انطلقت أجري نحو الضريح ، وكان الطيف قد اختفى ، صرخت منادياً : «آسية !» ، فأرعبني صوتي الرهيب ، ولم يرد عليّ احد .

اعتزمت ان أعود لأتبين هل وجدها غاغين .

٢٠

كنت أصعد في الدرب خلال الكرمة حينما رأيت النور يضيء في غرفة آسية ... فهدأ روعي قليلا .

واقتربت من الدار ، كان الباب الامامي مغلقاً . طرقته ففتحت كوة غير مضيئة في الطابق الاسفل بيد محاذرة ، وظهر رأس غاغين . فسألته :

ــ هل وجدتها ؟

أجاب في همس :

ـ بل عادت ، وهي في غرفتها تستبدل ثوبها ، وكل شيء في مجراه .

فهتفت مندفعاً بفرح يفوق الوصف :

ـ الحمد لله ! الحمد لله ! كل شيء في مجراه الآن ، ولكن لا بدّ أن نستأنف المحادثة .

ـ في وقت آخر ـ اعترض غاغين وهو يجذب اليه اطار الكوّة :ـ في وقت آخر ، اما الآن فوداعاً .

فقلت :

ـ الى الغد ؛ كل أمر سيكون مقضياً في الغد .

فكرر غاغين قوله : «وداعاً» ، وانغلقت النافذة .

أوشكت أطرق على النافذة ، فقد أردت أن أقول لغاغين آنئذ انني أطلب يد اخته . ولكن ما هذه الخطبة في مثل هذا الوقت ... فقلت في نفسي :ـ «الى الغد ، فانني سأكون سعيداً في الغد ...»

غداً اكون سعيداً ! ان السعادة ليس لها غد ، وليس لها امس ، فهي لا تتذكر الماضي ولا تفكر في المستقبل ، فانها بنت الحاضر ، وليس هذا الحاضر يوماً ، وانما هو لحظة .

لست أذكر كيف وصلت الى (ز) ، فلم تحملني قدمان ، ولا نقلني قارب ، وانما ارتفعت على اجنحة عريضة قوية . وقد مررت قرب شجيرة فيها بلبل يغرد ، فوقفت أصغي ، وخيل اليّ أنه يغرد بحبي وسعادتي .

٢١

حينما كنت اقترب من البيت المألوف في صباح اليوم التالي ، أذهلني ان أرى النوافذ جميعاً مفتوحة على مصاريعها ، وكذلك الباب ؛ وعلى وصيده ينتثر بعض الاوراق ، واليه خادمة في يدها مكنسة .

اقتربت منها ... وقبل ان أسألها : «هـل غاغين فى البيت ؟» ، بدهتني قائلة :

ـ رحلوا !

ـ رحلوا ؟ . . ـ كررت قولها . . . ـ كيف رحلوا ؟ الى اين ؟

ـ رحلوا اليوم صباحاً في الساعة السادسة ولم يقولوا الى اين . ولكن لحظة ، ألا يبدو انك السيد «ن» ؟

ـ نعم ، أنا السيد «ن» .

ـ لك رسالة مودعة عند صاحبة البيت .

وصعدت الخادمة الى فوق ثم عادت بالرسالة :

ـ هذه هي ، تفضل .

قلت :

ـ ولكن هذا غير ممكن . . . كيف حدث ذلك ؟ . .

فحدقت الخادمة الي في غباء وأخذت في الكنس .

فتحت الرسالة التي كتبها غاغين اليّ ، لم يكن فيها سطر واحد من آسية ، وقد استهلها بالرجاء ألاّ أغضب من رحيله المفاجئ ، وبالثقة من انني سأستحسن قراره بعد امعان النظر في الامر ، فأنه لم يجد من هذا الضيق مخرجاً آخر بعد ان تعقد الموقف وأنذر بالخطر . وكتب غاغين يقول : «لقد اقتنعت بأن الفراق ضربة لازم أثناء صمتنا ونحن نجلس معاً منتظرين آسية ، فهناك تقاليد بالية أشعر لها بالاحترام ؛ فلا يفوتني ان افهم لماذا يتعذر عليك ان تتزوج آسية . لقد حدثتني بكل شيء ، واضطرني توفير الاستقرار لها الى الاذعان لما طلبته هي في الحاح وشدة» . ثم أعرب في خاتمة الخطاب عن أسفه على السرعة التي اقتضبت هذا التعارف بيننا ، وتمنى لي السعادة ، وشدّ على يدي في ود ، وتوسل اليّ ألاّ أجدّ في البحث عنهما .

صرخت وكأنّه يسمعني :

ـ أين موضع التقاليد هنا ؟ ما هذا العلك ؟ ومن أين لك الحق في خطفها مني ؟ . .

وامسكت رأسي بيدي . . .

انفلتت الخادمة تنادي صاحبة المنزل بصوت ثاقب ، فأعادني فزعها الى رشدي ، وتأججت في باطني فكرة واحدة ، وهي أن اجدهما ، ان أجدهما مهما كلف الامر . كان تقبل الصدمة والاستسلام لمثل هذه القطيعة مما يفوق الطاقة . علمت من صاحبة البيت انهما ركبا في الساعة السادسة صباحاً سفينة أقلعت بهما متوجهة مع انحدار الراين . قصدت ادارة الميناء فأنبئت هناك بانهما أخذا بطاقتي سفر الى كولونيا . مضيت الى البيت لأعفش متاعي وأركب النهر في اثرهما . كان لا معدى لي عن المرور بقرب بيت فراو لويزة ... وهناك طرق سمعي صوت يناديني . رفعت رأسي فرأيت أرملة العمدة تطل من نافذة الغرفة التي قابلت فيها آسية أمس ، كانت تدعوني بابتسامتها المكروهة ، فأدبرت عنها وتابعت طريقي ، ولكنها صاحت ورائي تقول ان عندها شيئاً لي . استوقفتني هذه الكلمات فدخلت بيتها . وكيف يحيط الوصف بالمشاعر التي انتابتني وانا ارى هذه الغرفة مرة ثانية ...

قالت العجوز وهي تعرض عليّ رسالة صغيرة :

ـ كان المفروض ان أسلمك هذه الرسالة اذا مررت بي من تلقاء نفسك ، ولكنك شاب رائع فأليك بها .

أخذت الرسالة .

كانت رقعة صغيرة من الورق تحمل هذه الكلمات مسطورة في تعجّل بالقلم الرصاص :

«الوداع ، لن يرى احدنا الآخر بعد اليوم . اني لم أرحل بدافع من الكبرياء ـ لا ، فما كان لي من سبيل آخر . لقد بكيت أمامك أمس ، ولو أنك قلت لي كلمة واحدة ، كلمة ليس غير ـ لآثرت ان أبقى ، ولكنك لم تقلها ، ويبدو ان هذا هو الاحسن ... فوداعاً الى الأبد !»

كلمة واحدة ... آه ، اني لمجنون ! فقد قلت هذه الكلمة من قبل ... رددتها بين الدموع ... أطلقتها مع الريح ... أكدتها في رحاب الحقول ... ولكني لم أقلها لمن

ينبغي أن تقال له ، لم أقل لها انني أحبها ... نعم ، لم أستطع وقتذاك ان أنطق بهذه الكلمة . فعندما قابلتها في تلك الغرفة النحس ، لم اكن قد تبينت عاطفتي بجلاء ، لم يتفتح هذا الادراك حتى وانا جالس مع اخيها يخيم علينا ذلك الصمت الثقيل الاجوف ... ولكنه اندلع بقوة طاغية بعد لحظات فقط ، حينما كنت أبحث عنها وأناديها بقلب مفزوع من ان يكون فى الامر كارثة ... ولكن ذلك جاء بعد فوات الاوان . قد يقال : «ان هذا مستحيل !» ، ولا ادري أتكون الحال كذلك ام لا ــ ولكن ما أعرفه ان هذا حقيقة : ان آسية ما كانت لترحل لو انها على مسحة من التغنج ، او كان وضعها خالياً من الزيف . انها لم تكن تطيق ما يمكن ان تطيقه اي فتاة غيرها ، وهذا ما فاتني ان ادركه ؛ لقد احتبست ألمعيتي المشؤومة اعترافاً كان على فمي أثناء لقائي الاخير بغاغين امام النافذة المظلمة ، وبذلك أفلت من يدي الخيط الاخير الذي بقي مما أتعلق به .

عدت الى مدينة «ل» في ذلك اليوم نفسه ومعي حقيبة عيابي ثم ركبت قاصداً كولونيا . وأذكر ان السفينة أقلعت وانا على ظهرها أودع بالفكر هذه الشوارع بكل ما فيها من الاماكن التي قدر عليّ ان لا انساها ما حييت . وهنا رأيت غانهين . كانت تجلس على مصطبة تشرف على النهر ، شاحبة الوجه ولكن في غير حزن ، والى جنبها فتي جميل الطلعة يحدثها ويضحك . وعلى الضفة الاخرى من الراين ، كانت عذرائي الصغيرة لا تزال ترنو بنظرتها الأسوانة ، وقد تراءى لي تمثالها من خلال الخضرة القاتمة التى تنشرها شجـــرة السنديان العتيقة .

٢٢

في كولونيا وقعت على أثر لآل غاغين . عرفت أن الاخوين سافرا الى لندن ، فتبعتهما ، ولكن البحث عنهما في لندن انتهى الى اخفاق . بقيت وقتاً طويلا أدافع عوامل الاستسلام

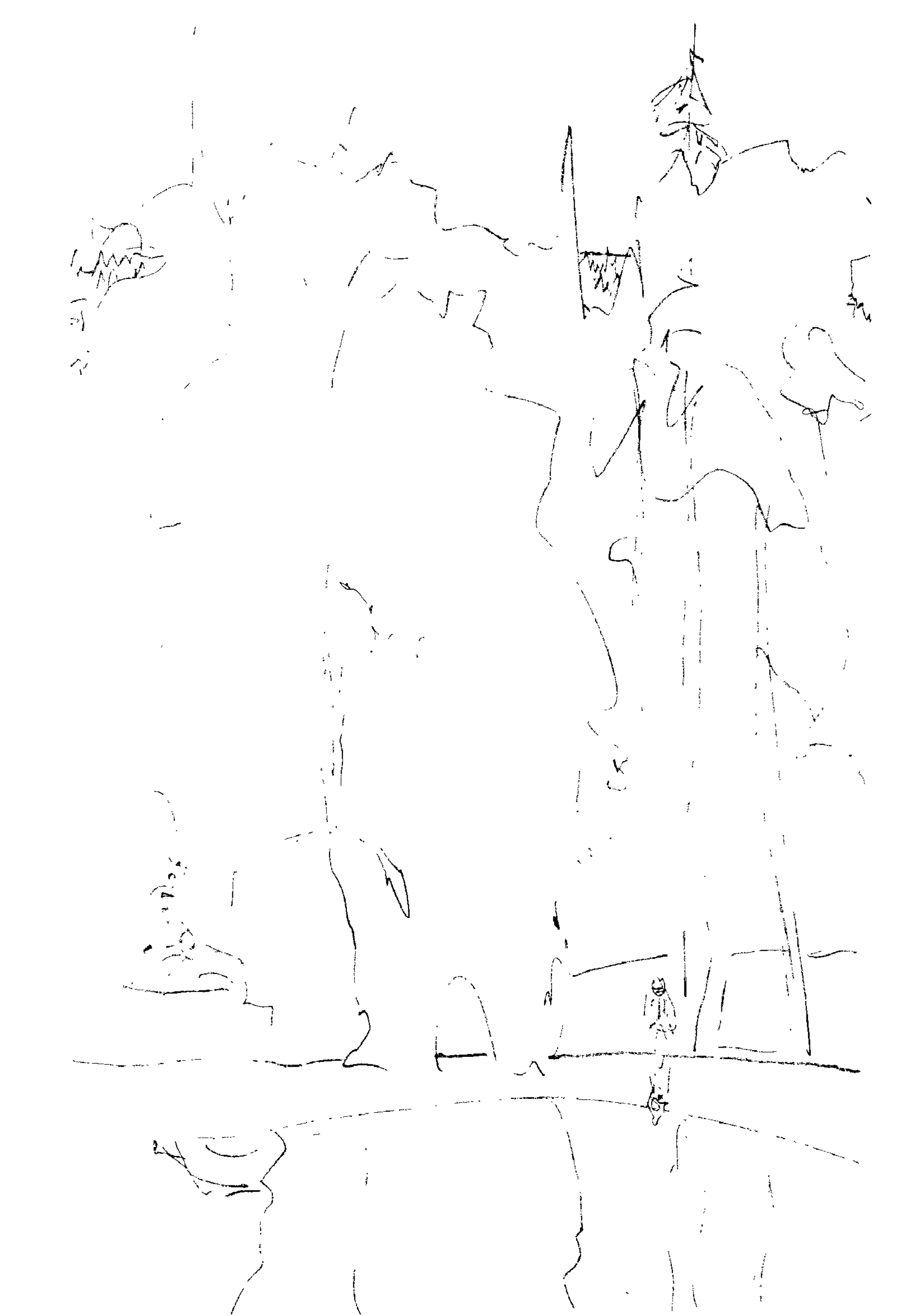
واقاوم ، ثم اضطررت في نهاية المطاف الى التسليم بانني فقدت كل أمل في العثور عليهما .

لم أرهما فيما بعد ــ لم أر آسية . بلغتني شائعات مظلمة عنه ، اما هي فقد اختفت ، واختفى عنها كل اثر وخبر ، بل اني لا اعرف أهي باقية على قيد الحياة ام لا . وفي ذات يوم ، بعد مرور بضع سنين ، وكنت خارج حدود البلاد ، لمحت امرأة في عربة القطار ، فذكرني وجهها في وضوح بتلك القسمات التي لا تنسى ... ولكن المرجح انني خدعت بهذا الشبه الذي جاء بالمصادفة ؛ وبقيت آسية في خاطري هذه الفتاة التي عرفتها في أزهى مراحل العمر ، ورأيتها آخر مرة وهي تميل على مسند كرسي خفيض من خشب .

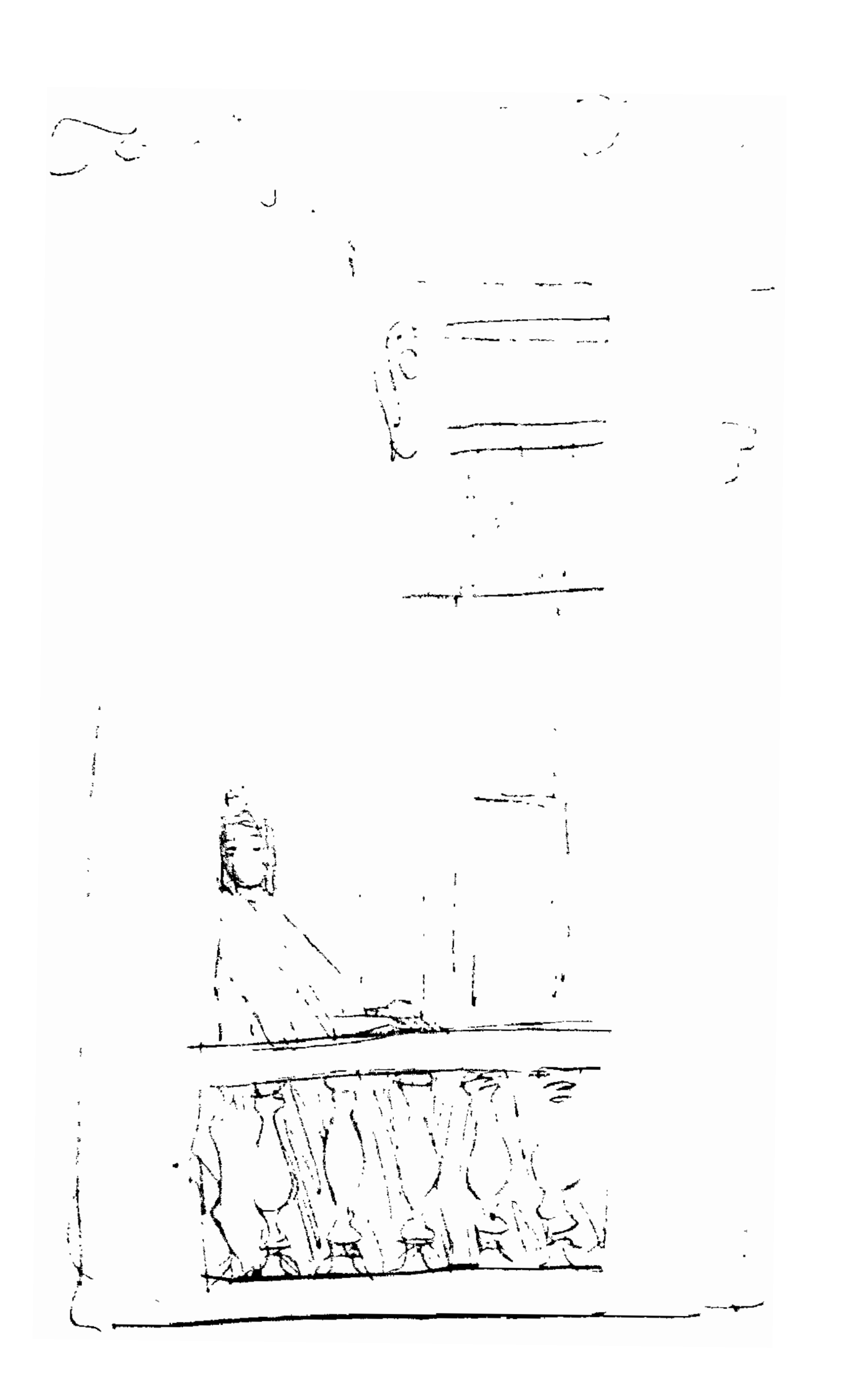
ولكن لا بد من الاعتراف بأن حزني عليها لم يستمر وقتاً طويلا ، وزدت على هذا فوجدت أن القدر أحسن صنعاً حين ابى أن يجمع بيني وبين آسية ؛ وعزّيت نفسي بالاعتقاد ان زوجة على هذه الشاكلة لن تهيئ لي أسباب السعادة . كنت شاباً وقتذاك ، وكان المستقبل ، هذا المستقبل القصير السريع ، يبدو لي رحيباً بغير نهاية ، وفكرت : ألا يمكن ان يتكرر ما كان ، على وجه أبدع وأروع ؟.. ثم عرفت من عرفت من النساء ، ولكن العاطفة التي أثارتها آسية في نفسي ، بما في هذه العاطفة من التوقد والرقة والعمق ، لم تتكرر فيما بعد . كلاّ ! فما كان بين العيون بديل يعوضني من هاتين العينين اللتين رأيتهما ذات حين ترنوان اليّ في حب ، ولم يستجب قلبي بمثل هذا الخشوع وهذا الفرح العذب لأي قلب آخر خفق على صدري ! وفي هذه الوحدة التي يحكم بها عليّ ، على أعزب محروم من الاسرة ، فأني أعيش سنواتي الاخيرة الموحشة ، ولكني أحتفظ بمثل ما يكون الحفاظ على المقدســات برسالتين الصغيرتين ، وبزهرة الغيرانيوم التي رمتني بها من نافذتها . انها جافة الآن ، ضعيفة العبير ، اما اليد التي أعطتني اياها ، هذه اليد التي لم أرفعها الى شفتي الا مرة واحدة ، فقد تكون ثاوية في قبرها منذ زمن بعيد ...

وانا نفسي ، الى أي مصير صرت ، ما الذي بقي مني ، ومن تلك الايام السعيدة المضطرمة بالانفعالات ، ومن تلك الاحلام والمطامح المجنحة ؟.. واذن ، فأن نفحة خفيفة من عشبة تافهة ، أقدر على البقاء من أفراح الانسان وأحزانه كلها ، بل هي أقدر على البقاء من الانسان نفسه .

سنة ١٨٥٧

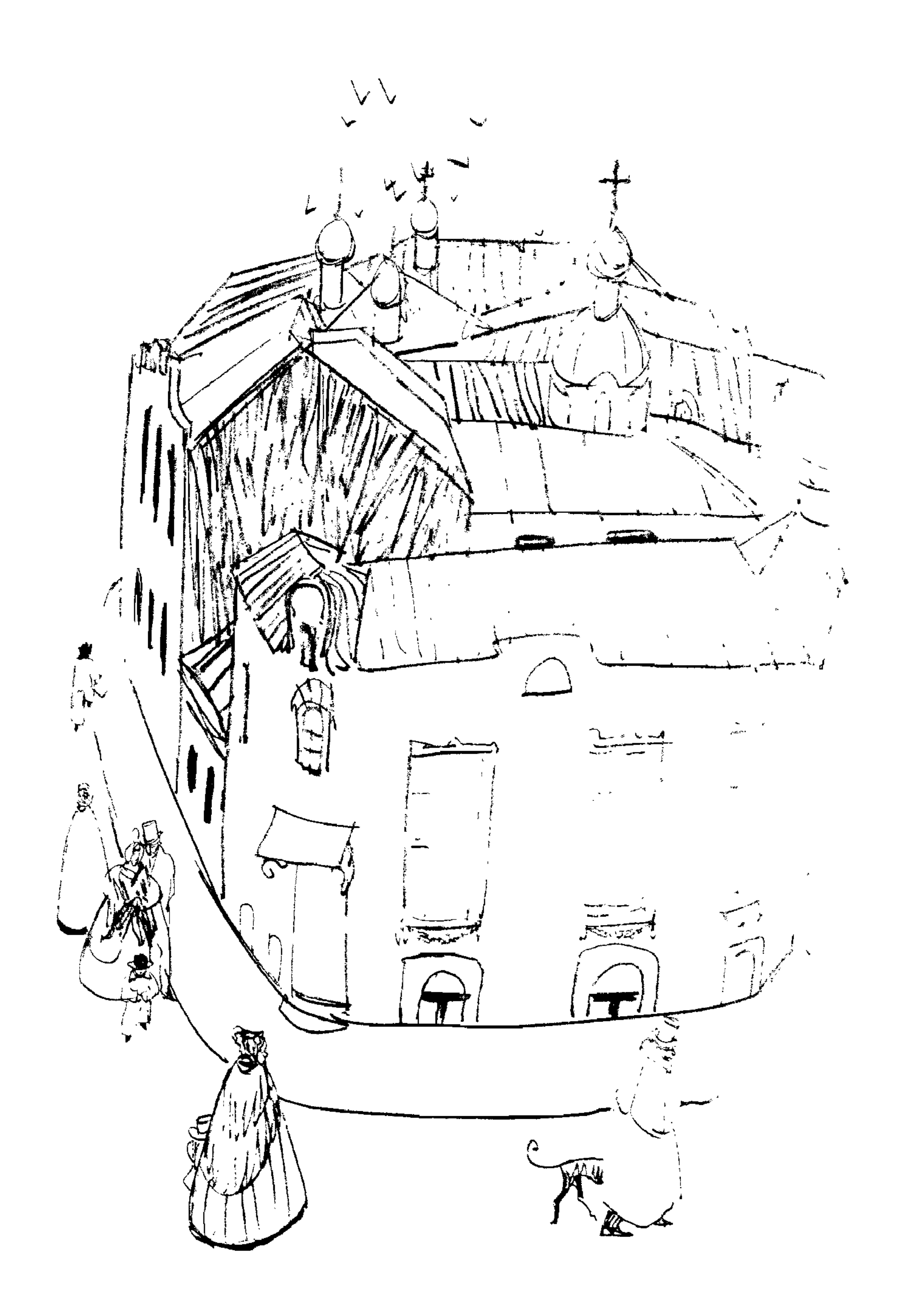


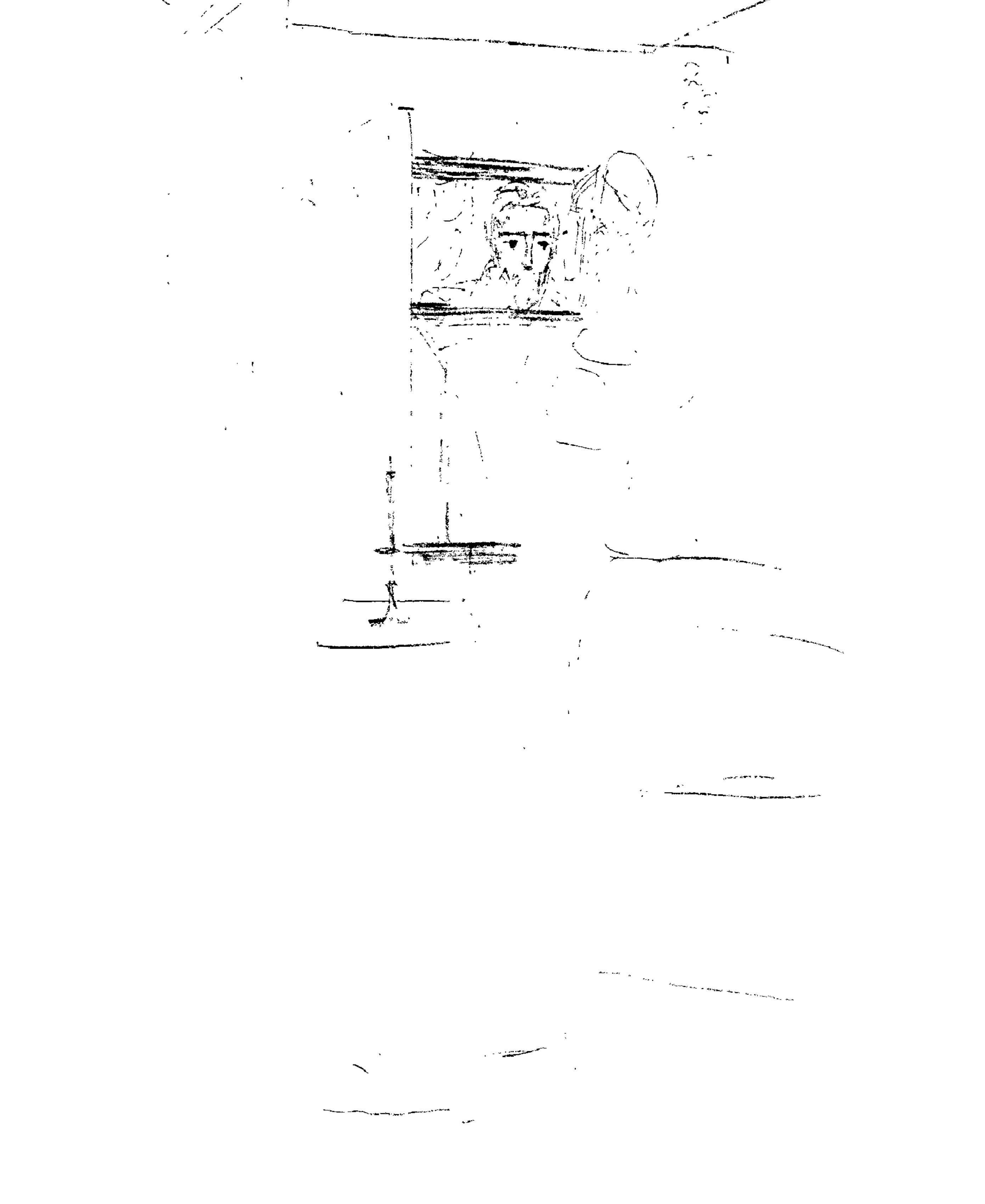






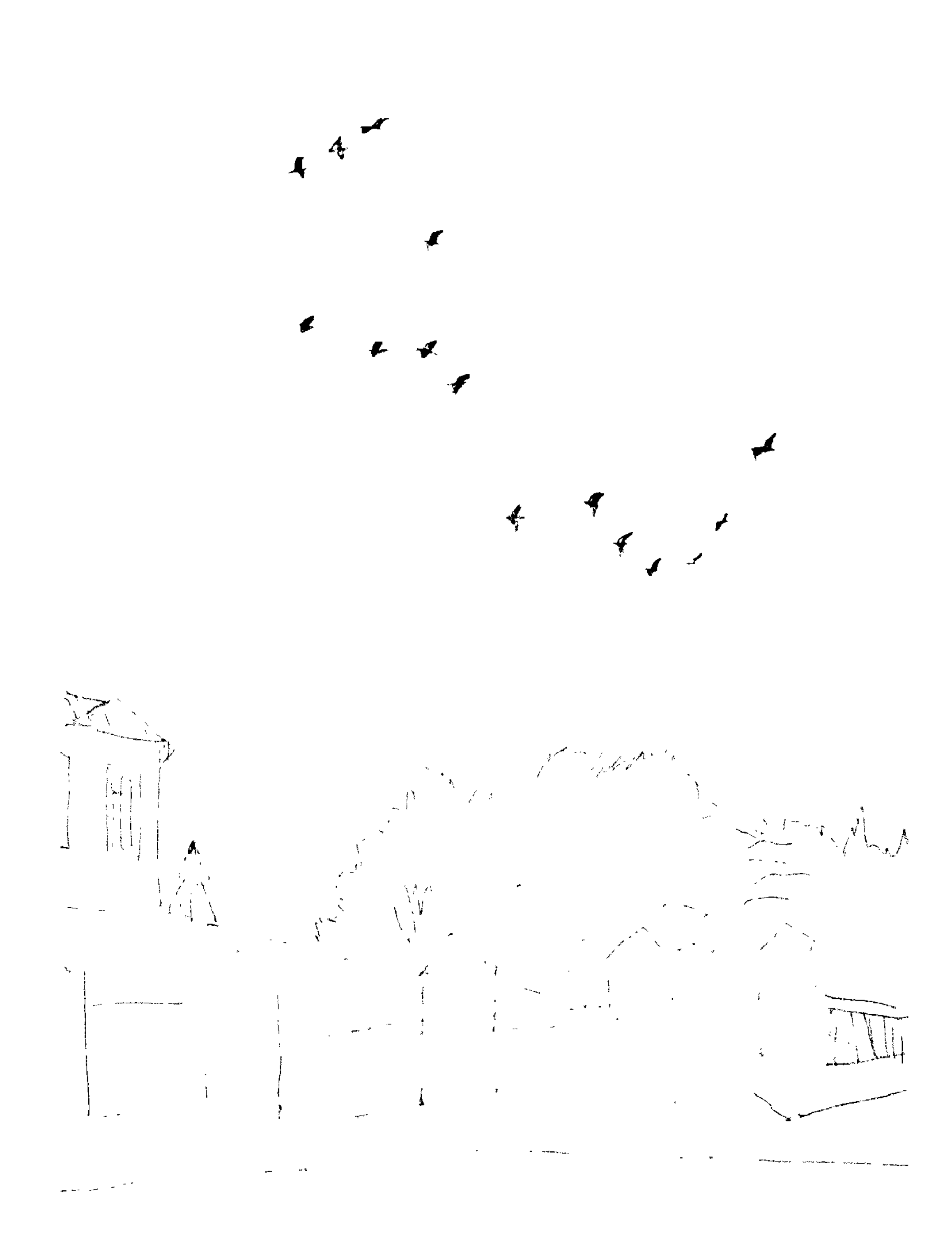








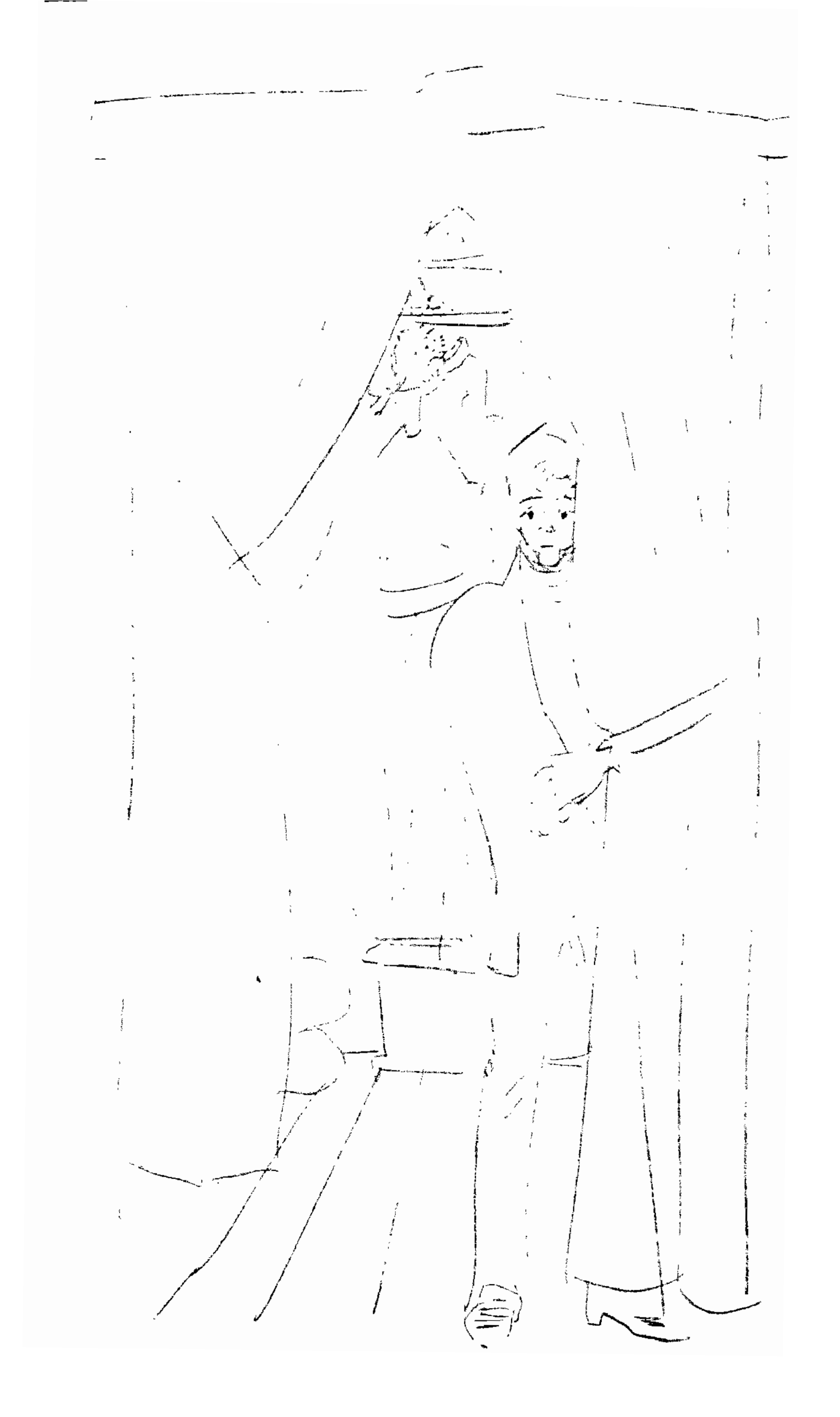
الحبّ الاول

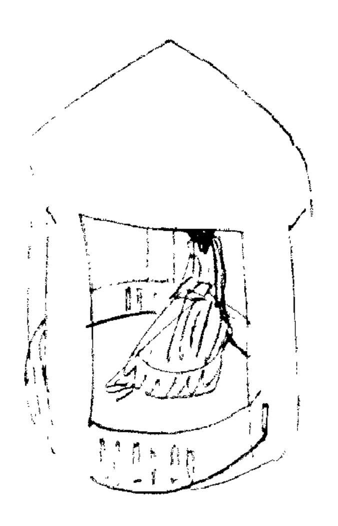














... كان الضيوف قد انصرفوا منذ وقت طويل ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الواحدة ، ولم يبق في الغرفة الا صاحب الدار وسيرغي نيقولايتش وفلاديمير بتروفيتش .

قرع صاحب الدار جرسا يدعو الخادم الى لملمة آثار العشاء عن المائدة ، ثم قال وهو يسترخي في مقعده وبيده سيجار :

ـ واذن فقد اتفقنا على أن يقص كلّ منا قصة حبه الأول ، وهذا دورك يا سيرغي نيقولايتش .

فالتفت سيرغي نيقولايتش ، وهو رجل جسيم لحيم منتفخ الوجه ، أبيض البشرة ، أشقر الشعر ، ونظر الى صاحب الدار ، ثم رفع بصره الى أعلى ، وقال بعد لأي :

ـ لم يكن لي حب أول ، وانما بدأت بحبي الثاني .

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ لا أبسط . كنت في الثامنة عشرة من عمري حينما تصبيّت ، أول مرة ، فتاة جميلة ، ولكني تصرفت كأنما

ليس في الأمر جديد ، وكما تصبيّت غيرها فيما بعـــد . والواقع ، أن غرامي الأول والأخير ، كان بمربيتي ، وأنا في السادسة من عمري ، ولكن هذا أصبح ذكرى بعيدة ، دارسة المعالم . ولو أني وقفت الى ابتعاثها فمنذا الذي يلقي اليها ببال ؟»

فقال صاحب الدار :

ــ ما العمل اذن ؟ لم يكن في غرامي الأول مستطرف يغري بالاستماع ، فما صبوت الى امرأة حتى التقيت زوجتي ، ولا تزال ، أنـّا ايفانوفنا . وقد سار كلّ شيء في لين ويسر ، فدبرّ والدانا أمورنا ، وما أسرع ما تبادلنا الحب ، فابتدرنا الزّواج . لا تزيد قصتي على كلمتين . لست أكتمكم أيهـــا السادة ، أنني كنت موصول الأمل بكما حينما أثرت موضوع الحب الأول ، فأنكما وان لم تطعنا في السن ، فما أنتما من العازبين الشباب ، فهل لك يا فلادِيمير بتروفيتش أن تمتعنا بما يحضرك ؟

فقال فلاديمير بتروفيتش في تردد ، وهو رجل في الاربعين من عمره ، وخط المشيب شعره الاسود :

ــ ان حبي الاول ، يتجـــاوز في الواقـــع حـــدود المألوف .

ــ آ ! ــ صاح صاحب الدار وسيرغي نيقولايتش في آن . ــ ذلك خير فارْوِ علينا حديثك .

ــ لا مانع ، ولكن أستسمحكما بألاّ أفعل فما أنا ممن يجيدون الرواية ، فقد تأتى جافة بايجازها ، او زائفـــة باطنابها ، ولو أذنتما في أن أكتب ما تسعفني به الذاكرة ، وأتلوه عليكما فيما بعد .

رفض رفيقاه هذا العرض أول الامر ، ولكنهما انتهيا الى ما ارتآه فلاديمير بتروفيتش ، وقد وفى بما وعد حين اجتمعوا بعد أسبوعين . وها هو ذا ما جاء في أوراقه :

١

كنت في السادسة عشرة من عمري ، وقد حدث ما سأرويه في صيف العام ١٨٣٣ .

كنت أعيش في موسكو مع أبويّ ، وكانا قد استأجرا دارة* قرب بوابة كالوجسكايا ، تجاه حديقة «نيسكوتشني ساد» . وكنت أستعد لدخول الجامعة ، فأدارس ولكن في ريث وتمهّل .

كانت حريتي مدى مفتوحاً ، لي فيه أن أفعل ما أشاء ، وبخاصة بعد أن حلّ عني معلمي الاخير ، وهو رجل فرنسي لم يكن لينسى أنه سقط على روسيا كالقنبلة (comme une bombe) ، فكان يتمدد في سريره طوال النهار ، وعلى وجهه سمة الغضب .

كان أبي يأخذني باللطف من دون اكتراث ، وأما أمي ، فأنّها تكاد لا تشعر بأمري ، على الرغم من أني وحيدها ، لأنها في شغل شاغل بهموم قلبها . كان أبي شاباً جميلا ، وقد تزوجها لثرائها ، وهي تكبره بعشر سنين . فكانت حياتها تتصرم أسوانة حزينة ، فما تقيم الا على قلق ، وغيرة ، وغضب ، ولكنها تتكتم ذلك كله في حضرته ، اذ كانت تتهيبه وتخشاه ، وكان هو في سلوكه ، بارداً صارماً عديم الاكتراث ... لم يقع بصري على من يضارع أبي في رزانته واعتداده بنفسه وقوة تأثيره .

لن أنسى الأسابيع الاولى التي قضيتها في تلك الدارة ، كان الجو رائعاً حينما غادرنا المدينة في التاسع من شهر نوار (مايو) ، وهو يوم القديس نيقولاي ، وكنت تارة أتجول في حديقة دارتنا ، او في حديقة «نيسكوتشني ساد» ، او أتخطّى حدود البلدة . وكنت أتأبط ما يقرأ ، مثل كتاب كايدانوف المدرسي ، او مما على هذه الشاكلة ، ولكني أكاد لا أفتحه

---

* ما يقابل معنى الفيلا ، او الداتشا عند الروس . (**المترجم**) .

الا في النادر ، بل كنت اقضي اكثر الوقت في انشاد الشعر الذي أجيد حفظ الكثير منه وانشده بصوت عال . كان دمي يفور ، وقلبي يخالطه ألم لذيذ غريب ، كنت في حال من الترقب لأمر ، والخوف من هذا الامر ، أراني مدهوشاً من كل شيء ، مترقباً كل شيء ، كان خيالي يلعب ، ويحوم مسرعا حول عدد من الآراء ، يبدئ فيها ويعيد ، كما يحوم طير الخطاف حول برج الناقوس عند انشقاق الفجر . كنت استغرق في التفكير او أغرق في الأسى ، وقد يستبدّ بي البكاء ، ولكن خلل الدمع والشجى ، يبتعثهما شعر عذب او مساء جميل ، كان ينبثق هذا الشعور من المراح الذي تصطبغ به حياة الشباب ، كما يبرض العشب من الثرى في الربيع .

كان لي جواد ، فكنت أسرجه بيدي ، وأنطلق به وحيداً ، بعيداً ، وأنا أتصور أنني فارس في حلبة (ويا للغبطة حينما كانت الريح تصفر في أذني) ، او أرفع وجهي الى السماء ، لأنهل بملء روحي من اشراقها وزرقتها .

أذكر أنني حتى ذلك الحين ، لم أكن قد تمثلت صورة المرأة ، ولا الأثارة من حب المرأة ، على نحو واضح ، ولكن كل ما افكر فيه ، وكل ما أشعر به ، كان ينطوي على شبه احساس مسبق خفيّ حييّ بشيء لذيذ انثوي .

كانت هذه الخواطر ، وهذا الترقب ، تخالط كيـــاني جميعاً ، فأتنفس بها ، وأستشعرها نبضاً في عروقي ، وفي كل قطرة من دمي ... وما أسرع ما تهيأ لها أن تتحقق .

كانت دارتنا تتألف من بيت كبير مزين بأعمدة ، ومن جناحين منخفضي السقف ، كان في أحدهما الواقع في الجانب الأيسر ، مشغلة صغيرة لصنع ورق الجدران الرخيص . فكنت أتردد عليها كثيراً لأرى الى نفر من صبيان نحاف عجاف ، شعث غبر ، في أسمال قذرة ، ووجوه شاحبة ، وهم يتوثبون على أمخال من الخشب ، حملت على اطار المطبعة المستطيل ، ضاغطين بثقل اجسادهم الضامرة ، لطبع الزخارف الملونة على

الورق . وكان الجناح الأيمن خالياً معروضاً للاستئجار .

في ذات يوم ، بعد مضي ثلاثة أسابيع على التاسع من شهر نوار (مايو) ، انفتحت النوافذ في هذا الجناح ، وظهرت فيها وجوه نسائية ، ذلك أن احدى الأسر قد انتقلت اليه . أذكر أن أمي سألت الوصيف في أثناء الغداء : من يكونون جيراتنا الجدد ؟ فلما سمعت اسم الأميرة زاسيكينا ، قالت في شيء من التهيب : « آه ... أميرة » ، ثم أضافت قائلة : « لعلها أن تكون في عسر » .

وقال الوصيف وهو يضع في احترام طبقاً على المائدة :

ــ لقد أقبلوا في ثلاث عربات ، ولكنهم لا يملكون عربة خاصة ، وكان المتاع رخيصاً .

فقالت أمي :

ــ نعم ، ولكني مسرورة على كل حال .

وعندئذ رماها أبي بنظرة باردة فسكتت .

وما كان للأميرة زاسيكينا ، أن تكون في الواقع ، امرأة من أهل الثراء ، ذلك أن الجناح الذي استأجرته ، كان على حال من التهافت والضيق والوطاء ، تتأبى فيها أي أسرة أن تسكنه ، اذا كانت على شيء من أسباب اليسر . ولكني ما كنت لأبالي بهذا الحديث وقتذاك ، ولم يؤثر فيّ لقب الأمارة ، لأن عهدي بمطالعة مسرحية « اللصوص » لشيللــــر لم يكن بعيداً .

٢

درجت على عادة التطواف كل مساء في حديقة الدارة ، ومعي بندقية ، هناك كنت أتربص للغربان ، مدفوعا بشعور قديم من الكراهية لهذا الطائر المستريب الماكر المفترس . وتوجهت الى الحديقة في ذلك اليوم الذي أتحدث عنه ، وبعد أن سلكت مساربها جميعا على غير طائل (كانت الغربان قد عرفتني فأخذت تنعب من بعيد بصرخات قصيرة) رأيتني

فجأة قرب السياج الخفيض الذي يفصل بين أرضنا ، وبين حديقة ضيقة ، واقعة وراء الجناح من الناحية اليمنى وتابعة له . فذهبت أسير مطرقا برأسي ، فإذا أصوات تطرق سمعي ، فنظرت عبر السياج ، فجمدت حتى لكأنني أصبحت حجراً ، ذلك أنني أبصرت مشهداً ولا أغرب .

فهناك على بعدة خطوات من موقفي ، عند منفسح بين شجيرات توت خضر ، كانت تقف فتاة سامقة القد رشيقة اللفتة ، في فستان ورديّ مخطط ، ومنديل أبيض على رأسها ، وحولها أربعة شبان ، وهي تجبهُهم بتلك الأزهار الرمادية الصغيرة التي لا أعرف اسمها ، على حين يعرفها الاطفال جميعا ، وتكون نواويرها حقاقاً صغيرة ، تنفجر وتطق اذا اصطدمت بجامد . كان الشبان يعرضون جباههم مغتبطين . وكانت لفتات الفتاة وايماءاتها ــ وكنت أرى اليها من جانب ــ تنطوي على قدر من الجلال والحنو والجاذبية وعلى شيء من السلطان والسخرية ، أكاد فيه أن أصرخ من الاعجاب والرضى ؛ كنت على استعداد لأن أعطيها العالم ، تلقاء لمسة تجبهني بها هذه الأصابع الرقيقة . أنزلق سلاحي على العشب ، وانا ذاهل عن كل شيء ، سوى النظر الى هذا القوام الأهيف ، وهذا الخصر الهضيم ، وهذا العنق المستقيم ، وهاتين الذراعين الجميلتين ، وهذا الشعر الاشقر تطل ذوائبه من ثنيّات منديلها الابيض ، وهاتين العينين الذكيتين الناعستين تظلّلهما رموشها الوطف ، وهذا الخد الأسيل تحت تلك الرموش الوطفاء . . .

ــ أيها الشاب ، ــ ارتفع صوت على قربي ــ أمن المباح أن تحملق على هذا النحو في فتيات لم تتعرف اليهن ؟

فانتفضت بالمفاجأة ، ولم أحر جوابا . كان ثمة رجل ذو شعر أسود قصير يقف قريباً مني وراء السياج ، ويرمقني بنظرة ساخرة ، وتلفتت الفتاة في اللحظة ذاتها نحوى . . . فرأيت العينين الرماديتين الكبيرتين في وجهها الطلق الممراح ، وترتعش قسمات هذا الوجه فجأة بالضحك ، فتتلألأ اسنانها

البيضاء ، ويشيل حاجباها . . . فاحمررت وأخذت سلاحي من الارض ، وانطلقت الى غرفتي ، تصخب ورائي ضحكات مرنان ، ولكنها بريئة من السوء . ارتميت على السرير مخفيا وجهي بكفيّ ، وقلبي يتوثب في صدري ، وشعور بالخجل والمرح في آن يملأ نفسي ، وانفعالات ما عهدت مثلها من قبل تضطرب في أعماقي .

وبعد أن استرحت قليلا ، قمت أمشط شعري ، وأصلح من أمري ، ثم نزلت لتناول الشاي ، كانت صورة الفتاة الشابة تتلامح أمامي ، وحار قلبي الى السكينة بعد توثبه ، ولزبته خفقة لذيذة .

سألني أبي فجأة :

ــ ما بك ؟ هل قتلت غراباً ؟

فوددت أن أروي عليه ما حدث ، ولكني أمسكت ، وانا أبتسم في داخلي ، ولا أدري لِمَ درت على كعب واحد ثلاث مرات قبل أن استلقى في الفراش ، ثم تطيبّت ، ونمت طوال الليل كالقتيل ، ولم أستيقظ الاّ لحظات عند الفجر ، حيث رفعت رأسي ، ونظرت فيما حولي في غبطة ، وعدت أستغرق في النوم .

٣

كان أول ما خطر لي حينما استيقظت في الصباح : « كيف السبيل الى التعرف بهم ؟ » ، وقبل أن أتناول الشاي ، ذهبت أسعى الى الحديقة ، دون أن أمضي قريباً من السياج ، ولم أر أحداً هناك ، ثم خرجت بعد الفطور أقطع الشارع الممتد امام الدارة ، ذهابا وجيئة ، وأنا أرامق النوافذ من بعيد . . . وخيل اليّ أنني لمحت وجهها من شفوف الستائر ، فابتعدت في خوف ولَهْوَجة ، ولكني فكرت : « بل ، يجب أن أتعرف إليها » ، كنت أتبطّأ في السير حول بقعـــة الارض الرملية امام حديقة « نسكوتشني ساد » : « ولكن كيف ؟ »

هذا هو السؤال» . وتذكرت أدق التفصيلات من صورة لقاء الأمس ، فكانت ضحكتها مني أبرز ما بقي في الذاكرة . وعلى حين كنت أجهد نفسي في تدبّر الخطط ، كان القدر يشد أزري .

ففي أثناء غيابي عن المنزل ، تلقت أمي من جارتها الجديدة رسالة ، في ورق رمادي ، كان مختوما عليها بالشمع الذي يختم به على مغلفات البريد وزجاجات الخمر الرخيص . وجاء في هذه الرسالة التي كتبت بخط رديء وملئت بالغلط ، ما يفيد بأن الأميرة تطلب من أمي أن تظلّها بحمايتها ، لأن أمي ، على حدّ ما ورد في الرسالة ، وثيقة الصلة بجماعة من أهل الحل والربط ، في يدهم مصيرها ومصير أبنائها ، بخصوص عدد من القضايا الخطيرة . وقد كتبت : «اني استقصدكم كامرأة نبيلة الى امرأة نبيلة ، وانا مسرورة بتسنّح * هذه الفرصة» . وختمت رسالتها بأن التمست من أمي أن تسمح باستقبالها . ورأيت أمي في حرج من أمرها ، فما كان أبي في البيت ، ولم يكن هناك من تشاوره في الموضوع ، ولا يُعْقَلُ أن يُمسك الجواب عن «امرأة نبيلة» ، بله أميرة . ولكن ما سبيلها الى الاجابة ؟ فما كانت لتستطيع أن تجيب باللغة الفرنسية ، وهذا ما يناسب المقام ، وكان علمها بقواعد اللغة الروسية دون المستوى الملائم للكتابة ، وانّها لتعرف ذلك ، وتأبى عليها الكرامة أن تكشف هذا الضعف ، ولهذا فرحت بعودتي ، وأمرتني بأن أذهب فوراً الى الأميرة ، وأنبئها مشافهة بان أمي على استعداد دائماً لأن تبذل ما تستطيع من اجل سموّها ، وانها حاضرة لاستقبالها في الساعة الواحدة تقريباً . انّ تحقق أمنيتي الخافية على هذا النحو المباغت قد ملأني بالفرح والخوف

---

* واضح أن الغلط الوارد هنا يصور الغلط الوارد في رسالة الأميرة . كقولها استقصدكم بدلا من اقصدكم ، وتسنّح بدلا من سنوح . (**المترجم**) .

في آن . ولكني طويت ما كنت استشعره من الاضطراب ، ومضيت الى غرفتي كي أضع رباط عنق جديداً ، وارتدي سترة ، وكان عليّ ان اكون في البيت بالصدار والياقة المفتوحة وهذا مما يضايقني .

٤

بشعور من الخوف العفوي عبرت مدخل الجناح ، وكان ضيقاً مهملا ، قابلني خادم عجوز ، أشيب الشعر ، ذو وجه نحاسي قاتم ، وعينين كئيبتين كعيون الخنازير ، وتجاعيد في جبهته وصدغيه لم يقع بصري على مثلها من قبل ؛ كان يحمل صحناً فيه بقايا من سمكة رنكة ، دفع برجله باب الحجرة يغلقه ، وسألني بجفوة :

ـ ماذا تريد ؟

فسألت :

ـ هل الاميرة زاسيكينا في البيت ؟

فصاح صوت نسائي أجش من وراء الباب : « فونيفاتي ! » فاستدبرني الخادم صامتاً . كان البلى قد لحس ظهر سترته ولم يترك فيه سوى زر يتيم عليه شعار رسمي . وابتعد بعد أن وضع الصحن على الارض .

وعاد الصوت النسائي نفسه الى السؤال : «هل ذهبت الى مركز الشرطة ؟» فتمتم الخادم شيئاً لم أتبينه ، وسمعت الصوت مرة ثانية يسأل : «هل جاء أحد ؟ نجل السيد من الدارة المجاورة ؟ ليتفضل» . عاد الخادم يقول وهو يرفع الصحن من الارض :

ـ تفضل في غرفة الاستقبال .

فاصلحت من شأني ، ودخلت غرفة الاستقبال .

رأيتني في غرفة صغيرة ، قليلة الترتيب ، فقيرة الاثاث ، نثرت فيها الاشياء على عجل ، وهناك امرأة تجلس قرب النافذة في مقعد كسير الذراع تناهز الخمسين من عمرها عاطلة من الجمال ، كانت عارية الرأس ، في ثوب اخضر

عتيق ، وشال من الصوف ذي ألوان ، حول عنقها . كانت تحدق فيّ بعينين سوداوين صغيرتين .

اقتربت منها وحييت بالانحناء :

ــ أيكون لي شرف الحديث الى الاميرة زاسيكينا ؟

ــ انني الاميرة زاسيكينا ، أفأنت نجل السيد ف . ؟

ــ اجل يا سيدتي ، واني قادم بتكليف من أمي .

ــ ألا تفضلت بالجلوس ؟ فوتيفاتي ، أين مفاتيحي ، ألم ترها ؟

أبلغت السيدة زاسيكينا جواب أمي على رسالتها ، فكانت تصغي اليّ وهي تنقر بأصابعها الغليظة الحمراء على طرف النافذة ، وعادت تحدق فيّ بعد ختام حديثي . وأخيراً قالت :

ــ حسن جداً ، أكيد سآتي . آه ، انك شاب ، اسمح لي ان اسألك ، كم لك من العمر ؟

فلعثمت قائلا :

ــ ست عشرة سنة .

فأخرجت الاميرة من جيبها أوراقاً قذرة مخربشة ، وقربتها من أنفها ، لتستعرض ما فيها ، ثم قالت فجأة « سن طيبة » ، وأخذت تلوب وتتململ في مقعدها ، وأضافت :

ــ ارفع الكلفة من فضلك ، فنحن في غاية البساطة .

فقلت في نفسي : « بساطة زائدة » ، وأنا ألقي ، دون ارادة مني ، نظرة اشمئزاز على قالبها القبيح .

في اللحظة نفسها ، انفتح بسرعة باب آخر لغرفة الاستقبال ، وظهرت عند وصيده تلك الفتاة التي رأيتها في الحديقة أمس ، وقد رفعت يدها ، وتألقت في وجهها ابتسامة.

قالت الاميرة وهي تشير اليها بمرفقها :

ــ انها ابنتي . يا زينايبدا ، هذا ابن جارنا السيد ف . ما اسمك ؟ اسمح بأن نتعارف .

فوقفت أجيبها وأنا أرتجف من الانفعال ، وقلت :

ــ فلاديمير .

ـ ولقبك ؟

ـ بتروفيتش .

ـ نعم . عرفت رئيس شرطة بهذا الاسم ، فلاديمير بتروفيتش . يا فونيفاتي ، لا تبحث عن المفاتيح فهي في جيبي .

كانت الفتاة لا تزال تنثر النظر اليّ بعينيها المضمومتين قليلا وابتسامتها الساخرة نفسها ، وقد مالت برأسها قليلا الى جانب ، ثم قالت :

ـ لقد رأيت السيد فولديمار من قبل (فسرى جرس صوتها الفضي في نفسي كالرعشة اللذيذة) لو سمحت بأن أناديك من دون لقب !

قلت :

ـ ليكن .

وسألت الاميرة :

ـ أين كان ذلك ؟

ولكن الاميرة الشابة لم تجب أمها ، بل قالت دون أن تحسر نظرتها عني :

ـ أأنت مشغول ؟

فقلت :

ـ لا !

ـ أتريد اذن أن تساعدني في لف شلة صوف ؟ تعال معي . واومأت اليّ برأسها ، وغادرت غرفة الاستقبال ، فتبعتها .

دخلنا غرفة أحسن أثاثا ، وأجمل ترتيباً ، ولكني لم اكن في الواقع على حال تسمح لي بأن ألحظ شيئاً ، فقد كنت أتحرك وكأني في حلم ، وشعور عارم بالغبطة يشيع في أطرافي .

جلست الاميرة الشابة ، وتناولت شلة صوف أحمر ، وأومأت الى كرسي تجاهها . أخذت تحل الصوف ، وتلفه حول يديّ ، وكانت تفعل ذلك كله في صمت ، وبطء لطيف ،

وعلى وجهها ابتسامة معابثة مشرقة ، وشفتاها منفرجتان . ثم بدأت تلف الصوف حول ورقة متثنيّة ، وفجأة ألقت اليّ بنظرة مختطفة صريحة ، فاطرقت الى الارض من دون ارادة . حينما كانت تفتح عينيها على آخرهما ، وهمـــا مضمومتان ، كان وجهها يتبدل جملة ، فكأن قسماتها تتلألأ بالضوء . وسألت :

ـ ترى ، أيّ فكرة خطرت لك عني أمس أيها السيد فولديمار ؟ ـ واضافت بعد ريث : ـ يخيل اليّ أنك استنكرت أمري ؟

فأجبت في ارتباك :

ـ أنا ... يا أميرة ... لم يخطـــر لي شيء ... كيف أستطيع ...

فقالت :

ـ انك لا تعرفني بعد ، فأنا غريبة الطبع ، أريد أن يصدقني الجميع القول . لقد سمعتك تقول انك في السادسة عشرة ، أما أنا ففي الحادية والعشرين ، أرأيت اذن أني أكبر منك سناً بكثير ، ولهذا ينبغي عليك أن تصدُقني القول ، وأن تكون لي سميعاً مطيعاً . ـ ثم أضافت قائلة : ـ انظر الي . علام لا تنظر اليّ ؟

فزاد ما كنت فيه من الحرج ، ولكني رفعت بصري اليها ، فابتسمت ، وكانت ابتسامتها مختلفة عن ذي قبل ، فهي ابتسامة يشيع فيها الاستحسان ثم قالت بصوت خفيض حنون :

ـ انظر اليّ ، ان هذا يسرني ، ان وجهك يعجبني ، وأشعر بأننا سنكون صديقين ، فهل اعجبك ؟

ـ أيتها الأميرة .... ـ استهللت كلامي . فقالت :

ـ اوّلا ، عليك أن تدعوني زينايبدا ألكسندروفنا . ثم ، ما هذه العادة عند الاطفال (واستذركت قائلة) عند الشباب ، فأنهم لا يُفْضون مباشرة بما يشعرون بـــه . هذا حسن للكبار . ألست معجباً بي ؟

فاستغضبتني صراحتها على الرغم من غبطتي بأنها تحدثت اليّ على هذا النحو ، ووددت أن أعالنها أنها ليست مع غلام غرير ، فاصطنعت على قدر ما أستطيع ، مظهراً متحرراً من الكلفة ، وقلت :

ـ لا شك أني معجب بك أشد الاعجاب يا زينايبدا الكسندروفنا ، ولست راغباً في اخفاء ذلك .

فأخذت تهز رأسها في بطء يمنة ويسرة ، وسألتني فجاة :

ـ ألك مربّ خاص ؟

ـ ليس لي مربّ منذ وقت بعيد .

كنت كاذباً في هذا ، فلم يكن قد مضى شهر على رحيل المربّي الفرنسي .

ـ آه ، أرى أنك أيفعت .

ونقرت أصابعي في لمسة خفيفة ، وقالت : ـ اجعل ذراعيك مستقيمتين ! ـ وبدأت تلف شلــة الصوف في اجتهاد .

افترصت فرصة كانت اثناءها مشغولة بما في يدها من عمل ، وأخذت أنظر اليها ، مخالساً في البداية ، ثم في جراءة اكثر . فظهر أن وجهها أجمل مما كان أمس ، كان كل ما في قسماتها دقيقاً ذكياً لطيفاً . كانت تجلس وظهرها الى النافذة ، حيث كانت ستارة بيضاء ، ينفذ منها شعاع من نور الشمس ، فينسكب في دَعَة على شعرها الذهبي الوثير ، وجيدها البريء ، وكتفها المنحدرة ، ونهدها الغض الوديع . كنت أنظر اليها ، فما أعزّ ما أصبحت عندي ، ما أشد قربها مني . شعرت بأني أعرفها منذ زمان بعيد ، وأني لم أعرف قبلها شيئاً ، ولم أعش شيئاً ... كانت تلبس ثوباً غامقاً عتيقاً عليه صدار ، فتاقت نفسي الى ملامسة كل ثنية من اثناء هذا الثوب وهذا الصدار ، وكان طرف حذائهـا يبرز من تحت ثوبها ، فكنت على استعداد لأن أسجد هياماً بهذين الحذائين ... كنت أفكر : «ها أنذا أجلس اليها .. ونحن متعارفان ، فما أعظم هذه السعادة يا رب !» وأوشكت

أنطّ عن مقعدي فرحاً ، ولكني أمسكت ، وأخذت في تحريك ساقي كالطفل يستمرئ مضاغة لذيذة .

كنت في أحسن حال ، كالسمكة في الماء ، وما رغبت في أن أبارح هذه الغرفة وهذا المقعد ولو مكثت أبد الدهر .

ارتفع جفناها في هدوء ، ورنت اليّ بعينين يتألق فيهما الحنو ، ثم عاذت تبتسم ابتسامتها المعابثة .

وقالت في تمهّل وهي تحذّرني بأصبعها :

ـ لشدّ ما تحدّق اليّ النظر .

فتضرج وجهي بالاحمرار ، وقلت في نفسي : «لا تفوتها شاردة ولا واردة ، وهل كان في مقدورها ألاّ ترى وتدرك ؟» .

وفجأة ندّ صوت في الغرفة المجاورة ـ صليل سيف . وتدهت الاميرة من غرفة الاستقبال :

ـ يا زينابيدا ، انه بيلوفزوروف يحمل اليك قطة .

ـ قطة ! ـ صاحت زينابيدا وهبّت من مقعدها فقذفت بشلة الصوف الى حِجْري ، وانطلقت خارجة .

قمت أنا كذلك ، فوضعت شلة الصوف على طرف النافذة ، وخرجت أقصد غرفة الاستقبال ، هناك توقفت حائراً مرتبكاً . كان في وسط الغرفة قطة مخططة تضطجع باسطة مخالبها ، وزينابيدا تجثو الى قربها وهي ترفع وجهها في ترفّق ، وكان شاب من الفرسان ذو شعر متموّج أشقر ، ووجه قرمزي ، وعينين جاحظتين ، يقف الى قرب الاميرة ، ويوشك أن يغطي بألواحه العريضة جزء الجدار القائم بين النافذتين . وسمعت زينابيدا تقول :

ـ انها تثير الضحك ، وما عيناها رماديتان بل خضراوان، وأذناها طويلتان . ما أطيبك يا فيكتور ايغوريتش ! فالشكر لك !

فابتسم الفارس ، وتبينت انه أحد الشبان الذين رأيتهم أمس ، ودق مهمازيه ، فجلجلت حمائل سيفه .

ـ وددت أمس أن يكون لك قطة مخططة كبيرة الاذنين ،

فها هي ذي . ان كلمتك قانون . ـ قال ذلك وعاد الى الانحناء .

أخذت القطة تموء في وداعة وهي تتشمم الارض . فصاحت زينايبيدا :

ـ فونيفاتي ، سونيا ، انها جائعة ، هاتوا الحليب .

دخلت الخادمة وهي تحمل صحناً مملوءاً بالحليب ، وكانت ترتدي ثوباً أصفر رثاً ، وحول عنقها منديل حائل اللون ، وقد انتفضت القطة حينما وُضع الصحن امامها ، وحشّفت عينيها ، ثم أقبلت تلعق الحليب .

ـ ما أشد حمرة لسانها ! ـ صاحت زينايبيدا . وكانت جاثية يكاد رأسها يمس الارض ، وهي تحاول أن ترى الى القطة من أدنى .

شبعت القطة ، فأخذت تهرّ ، وتبسط يديها راضية مستأنسة ، فقامت زينايبيدا ، وأشارت الى الخادمة بعدم اكتراث أن تأخذ القطة .

ـ يدك تلقاء القطة ، ـ قال الفارس وهو يبتسم وينثني بجماع جسمه الضخم الذي يركب ثوبه العسكرى الجديد .

ـ بل اليك بيديّ كلتيهما ، ـ اجابت زينايبيدا ، وبينما كان يقبل يديها ، أرسلت بصرها اليّ عبر كتفه .

لم أكن أدري وأنا واقف في مكاني لا أبرحه ، أكان علي أن أضحك ، او أن أقول شيئاً ، أو ألتزم الصمت ، وفجأة لمحت من فرجة الباب خادمنا فيودور ، وكان يومئ اليّ ، فذهبت اليه بصورة آلية اسأله :

ـ ما شأنك ؟

فهمس قائلا :

ـ أرسلتني والدتك في طلبك ، وانها غاضبة لأنك لم تعد اليها بجواب .

ـ هل قضيت هنا وقتاً طويلا ؟

ـ اكثر من ساعة .

ـ اكثر من ساعة ! ـ رددت قوله ذاهلا ، وعدت الى غرفة الاستقبال فاستأذنت مودعاً بتحية احتفالية* .

فسألتني الاميرة الشابة وهي تنظـــر اليّ عبر كتف الفارس :

ـ الى أين ؟

ـ ينبغي أن أعود الى البيت !

أضفت وأنا ألتفت نحو العجوز :

ـ سأنبيُ أمي بأنّك ستتفضلين بزيارتنا في نحو الساعة الثانية .

ـ أجل يا عزيزي ، قل لها هكذا .

تنـــاولت علبة سعوطهـــا على عجـــل ، وتنشقت بصوت مرتفع أشاع الرجفة في أوصالي ، وكررت قولها وهي تطرف بعينيها الدامعتين ، وتتمخّط : «قـــل لهـــا هكذا» .

فانحنيت مرة ثانية ، واستدرت خارجاً ، وأنا أشعر بهذا الحرج الذي يستشعره كل شاب يعرف انه هدف للانّظار من خلفه .

وصاحت زينابيدا وهي تطلق ضحكة :

ـ لا تنس أن تعود الى زيارتنـــا أيها السيـــد فولديمار .

فتساءلت في سرّي وأنا أرافق فيدور عائداً الى البيت : «علام تكثر من الضحك على هذا النحو ؟» ، وبقي فيدور يتحرك صامتاً ، ولكن من الواضح أنه لم يكن راضياً عني .

واجهتني أمي بعتابها متسائلة عما كنت أفعل عند تلك الاميرة في هذه المدة الطويلة ، فلم أنبس بكلمة ، بل مضيت الى غرفتي ، وأنا أشعر بحزن مفاجيُ ، وبذلت جهدي لكي لا أبكي ... فقد امتلأتُ بالغَيْرة من الفارس !

---

* التلويح باليد اليمنى ، والانحناء ، مع وضع اليد اليسرى على الصدر ، ودفع القدم الى الامام ، طريقة في التحية معروفة في الزمن القديم . **(المترجم)** .

٥

جاءت الاميرة لزيارة أمي كما وعدت ، فلم تستلفت اهتمامها . لم أحضر لقاءهما ، ولكني سمعت أمي تقول لأبي أثناء الغداء : ان الاميرة زاسيكينا* une femme très vulgaire ، لجوج ، ما فتئت تبهظها بمطالب الشفاعة لها عند الامير سيرغي ، فهي مثقلة** des vilaines affaires d'argent ، ولا بدّ أنها مطبوعة على الدس . ولكن أمي أضافت قائلة بأنها دعتها وابنتها الى الغداء في غد (حينما سمعت كلمة « ابنتها » طمرت وجهي في الصحن) لأنها جارة على كل حال ، وامرأة من ذوي المحتد العريق . وقال أبي : انه يذكر الآن من تكون هذه السيدة ، فقد عرف في شبابه الامير الراحل زاسيكين ، وكان على جانب كبير من التهذيب ، ولكنه فارغ طائش ، عرف في المجتمع بلقب*** «le Parisien» جرّاء اقامته الطويلة في باريز . كان واسع الثراء ، ولكنه بدّد ثروته كلها في المقامرة ، وتزوج بنت موظف صغير ، بدافع غير بيّن ، لعله أن يكون المال ، ــ هنا أضاف أبي وهو يبتسم في برود ــ على حين كان يستطيع أن يختار أفضل منها ؛ وانغمس بعد زواجه في المضاربات المالية حتى انتهى الى الخراب .

فقالت أمي : « أرجو ألاّ تحاول اقتراض النقود » .

فقال أبي : « ذلك غير مستبعد » ، ثم سأل : « أتتكلم الفرنسية ؟ »

ــ « في أسوء صورة » .

ــ « مهما يكن فالامر سواء . أظنّك قلت إنك دعوت ابنتها ايضاً . لقد بلغني أنها فتاة فائقة العذوبة والثقافة .

---

* امرأة وضيعة النفس .

** بالمشاكل والمسائل المالية الخسيسة .

*** الباريزي .

ـ آ ، لئن كانت كذلك فما أشبهت أمها في شيء .

ـ ولا أباها ، فقد كان هو ايضاً ذا ثقافة . ولكنه غبي ،ـ استدرك ابي .

فتنهدت أمي ، واستغرقت في افكارها ، وركن أبي الى الصمت ، وكنت في اشد حالات الضيق طوال هذه المحادثة .

مضيت بعد الغداء الى الحديقة ، ولكن من دون سلاح ، وقد عاهدت نفسي ألاّ اقترب من «حديقة آل زاسيكين» ، ولكن قوة لا تقاوم دفعتني الى هناك ، ولم يكن ذلك عبثاً . فما ان اقتربت من السياج حتى رأيت زينايبيدا ، كانت وحيدة هذه المرة ، في يدها كتاب ، وهي تسير في تمهّـــل ، ولم تلحظني .

فأوشكت أتركها لحال سبيلها ، ولكني داركت الامر فجأة ، فسعلت ، فاستدارت ، ولكنها لم تتوقف عن السير ، بل أزاحت بيدها شريطاً أزرق عريضاً يحلّي قبعتها المستديرة المصنوعة من القش ، ورمقتني بابتسامة هادئة ، وعادت تنظر في الكتاب . فرفعت قبعتي ، وتلكأت قليلا ، ثم غادرت مكاني مثقل القلب ، وأنا اقول في سري بالفرنسية (ربك أعلم لِمَ بالفرنسية) : «que suis — je pour elle?»* .

وسمعت وقع خطوات مألوفة قادمة من وراء ، فلما تلفّتّ رأيت أبي يقبل نحوي بمشيته السريعة الرشيقة ، وسألني قائلا :

ـ أهذه بنت الاميرة ؟

ـ نعم ، انها بنت الاميرة .

ـ أفأنت تعرفها اذن ؟

ـ لقد رأيتها هذا الصباح لدى الأميرة .

فتوقف أبي ، ثم استدار على كعبيه في حدة ، ومضى عائداً ، حتى اذا اقترب من زينايبيدا ، انحنى لها محيياً ، فردت عليه بانحناءة ، وفي محياها شيء من الدهشة ،

---

* من اكون عندها ؟

وقد خفضت كتابها ؛ ورأيت كيف تأثّرته بعينيها . كان أبي أنيق المظهر دائماً ، يلبس في ذوق وبساطة ، ولكنه لم يبد لي على مثل ما بدا من رشاقة الجسم ، ولا استقامت قبعته الرمادية بمثل هذه الرشاقة على شعره الجعد الذي بدأت تمتد اليه يد الزمن .

أقبلت أتصدّى لزينايبدا ، ولكنها لم تنصرف اليّ ولو بالنظر ، بل عادت تبسط كتابها ، وهي تمضي في سبيلها مبتعدة .

٦

قضيت ذلك المساء ثم صباح اليوم التالي كئيباً موزع النفس ، وأذكر أنني حاولت أن أعمل ، فتناولت كتاب كايدانوف ، ولكن السطور والصفحات من هذا الكتاب المدرسي الشهير كانت تتلامح امامي على غير جدوى . عشر مرات بدأت فيها وأعدت : «واشتهر يوليوس قيصر بشجاعته في معارك القتال» ، ولكن دون أن أعي شيئاً ، فتركت الكتاب . وقبيل الغداء ، رجّلت شعري ، وتطيّبت مرّات ، ولبست حلّتي* وعقدت رباط عنقي .

سألتني أمي :

ــ علام ذلك ؟ انّك لمّا تصبح طالباً ، وأمر امتحانك لا يعلمه الا الله وحده . ثم هل أصبحت سترتكَ قديمة العهد فنرميها ؟

فقلت بصوت خفيض وقد غلبني اليأس :

ــ ولكن سيكون عندنا ضيوف .

ــ علَيْك ! أيّ ضيوف هؤلاء ؟

كان لا بدّ من الاذعان ، فأبدلت الحلة بالسترة ، واحتفظت بربطة العنق وقدمت الاميرة وابنتها قبل نصف ساعة من موعد الغداء ، كانت العجوز ترتدي الثوب الاخضر

---

* القصد هنا الحلة الرسمية كالفراك وما اليه . **(المترجم)** .

اياه وعليه الشال الاصفر ، وفوق رأسها قبعة عتيقة الطراز ذات شرائط صارخة الالوان . وأخذت لساعتها تتحدث عن صكوك دينهـــا ، وتتأوه وتتشكى مـــن فقرهـــا و «تتوحوح» * ولم تتحرج من أمر : فكانت تتنشّق التبغ بالصوت الصفيق نفسه ، وتنوس في الكرسي وتتململ دون تحشّم ، كأن دماغها لم يهضم أنها اميرة . أما زينايبدا ، فقد كانت مالكة لزمام نفسها ، بل انها تكاد تكون في توقّر الاميرة الحقيقية . واكتسى وجهها بالبرود والعنجهية ، حتى لقد أنكرتها ، وأنكرت نظرتها وابتسامتها ، ولكنها ظهرت لي جميلة حتى في هذا المظهر الجديد ؛ كانت ترتدي ثوباً خفيفاً من الصوف تنداح فيه زخارف زرقاء ، وشعرهـــا يسترسل في خصل متموجة على امتداد الخدين ــ على الزي الانكليزي ــ وكان هذا يلائم التعبير الصارم الذي ارتسم في وجهها . جلس أبي الى جانبها في أثناء الغداء ، فكان يؤنس جارته بما طبع عليه من أريحية وتهذيب ، وينظر اليها احياناً فتنظر اليه ، وكان في نظراتها معنى مبهم يوشك أن يكون اختصاماً . كانا يتبادلان الحديث باللغة الفرنسية ، فأعجبت بما في نطق زينايبدا من الصفاء والطلاقة . أما الاميرة الأم ، فقد احتفظت بمسلكها الصفيق نفسه طوال وقت المائدة ، فكانت تطعم في نهم ، وتمتدح الطعام ، وكان واضحاً أن أمي تستثقل ظلها ، فقد كانت ترد عليهـــا في جفوة وازدراء ، فيقطب أبي من حين لآخر حاجبيه قليلا . ولم تستلطف أمي زينايبدا ايضاً ، ذلك أنها قالت في اليوم التالي :

ــ من تحسب نفسها هذه القنزعة ؛ ليتني عرفت فيـــم تشمخ بأنفها وهي avec sa mine de grisette** !

فأجابها أبي ملاحظاً :

---

* تتباكى لتستدر الحنان . من الكـــلام الدارج الصحيـــح . **(المترجم)** .

** لها مظهر المتكسبات .

ـ من الواضح أنك لم تشاهدي هؤلاء المتكسّبات .

ـ ايْ والحمد لله .

ـ له الحمد ولا ريب ، فكيف سوّغت الحكم عليهن ؟

لم يبد من زينابيدا أيّ انتباه لشأني ، وعقب الغداء ، قامت الاميرة من فورها للانصراف ، وقالت تخاطب أمّي وأبي كليهما بصوت مائع منغّم :

ـ ماريا نيقولايفنا ، بيوتر فاسيليفيتش ، سيكون أملي معلقاً برعايتكما . ما باليد حيلة ، كان لي زمان وراح . ـ واضافت في ضحكة آبية : ـ وها أنا كما ترون «صاحبة سموّ» اي نعم ، ولكن ما نفع هذا الشرف وليس في البيت ما يؤكل !

انحنى لها أبي في توقير ، ورافقها حتى الباب الخارجي ، على حين وقفتُ في مكاني ، بسترتي القصيرة ، وأنا مطرق برأسي كالمحكوم بالاعدام . لقد أصمتني زينابيدا بما فرط منها نحوي ، وأجهزت عليّ . فما أشد ما تولاني من الدهشة حينما أسرّت اليّ على عجل ، وهي تمر بي ، وفي عينيها ما كان لي به عهد من نظرتهما الرقيقة : «تعال الينا في الساعة الثامنة . اسمع ، من كل بدّ ...» ، فأسقط في يدي ، ولكنها كانت قد ابتعدت وهي تعصب رأسها بعصابة بيضاء .

٧

في تمام الساعة الثامنة ، كنت أدخل مدخل الجناح الذي تقيم فيه الاميرة بعد أن ارتديت حلّتي ومشطت شعري الى أعلى . ورمقني الخادم العجوز بنظرة عابسة وهو ينهض بتثاقل عن الدكة التي يجلس فيها . كانت تترامى من غرفة الاستقبال اصوات ممراح ، ففتحت الباب ، ولكن الدهشة ردّتني الى وراء ، فقد كانت الاميرة الشابة تتسنمّ كرسياً يقوم في وسط

الغرفة ، وبيدها قبعة رجالية ، وحولها خمسة رجـــال يتزاحمون على ادخال أيديهم في القبعة ، والفتاة تتخطفها الى أعلى وتهزها بشدة . حينما رأتني صاحت قائلة :

ـ على مهلكم ، انتظروا ! هذا ضيف جديد ، ويجب أن تكون له بطاقة أيضا .ـ ونطّت عن الكرسي برشاقة ، وأقبلت تأخذني من أكمامي وهي تقول : هيا بنا ، علام تقف هناك ؟ اسمحوا لي أيها السادة أن أكون لسان تعارف بينكم : انه السيد فولديمار ابن جارنا .ـ وتوجهت اليّ وهي تشير الى الضيوف واحداً بعد آخر :ـ الغراف* ماليفسكي ، الدكتور لوشن ، الشاعر مايدانوف ، القبطان المتقاعـــد نيرماتسكي ، وهذا بيلوفزوروف من الحرس الفرسان ، وقد رأيته من قبل . أرجو ان تقوم بينكم وشائـــج الاحترام والتعاطف .

لقد تملكني الارتباك حتى اني سهوت عن الانحناء لأحد منهم ، وعرفت في الدكتور لوشن ذلك السيد الاسمر الذي ساطني بسخريته القاسية في الحديقة ، وكانت وجوه الآخرين جديدة عليّ .

واضافت زينابيدا قائلة :

ـ أيها الغراف ، اكتب للسيد فولديمار بطاقة .

فاعترض الغراف قائلا بلكنة بولونّية خفيفة :

ـ ليس هذا عدلا ، فأنّه لم يشترك معنا في لعبة «الجزاء» .

كان الغراف قسيماً وسيماً اسود الشعر ، بعينين بنيـّتين ذكيتين ، وأنف ابيض صغير دقيق ، وشارب رفيع فوق فمه الصغير وثوب جميل أنيق :

ـ ليس هذا عدلا .

ردد هذا ايضاً بيلوفزوروف ومعه ذلك السيد الـــذي يسمونه القبطان المتقاعد ، وهو رجل في نّحو الاربعين من عمره ، ذو وجه مجدور يبدو دميماً ، وشعر مخوتم كشعر

---

* كونت او بارون .

الزنوج ، وظهر أحدب قليلاً ، وساقين مقوستين ، وكان في سترة عسكرية محلولة الازرار عاطلة من الشارات .

وأعادت الاميرة قائلة :

ـ قلت لكم ان تكتبوا البطاقة ، فما هذا ؟ أعصيان ؟ تلك أول مرة يلعب فيها السيد فولديمار معنا فلا جرم أن نتجاوز الأعراف من أجله ، فاصدع بما قلت لك ، ولا تجادل ، فأنا أريد ذلك .

فهز الغراف كتفيه ، ولكنه طأطأ خاضعاً ، وأخذ القلم بأصابعه البيضاء الحالية بالخواتم ، وقطع قصاصة من ورق ومضى يكتب .

استلم الكلام لوشن فقال بصوت ساخر :

ـ اسمحي لي على الاقل أن أشرح للسيد فولديمار طرف الخيط فأنه غارق في حيرته . والامر أيها الشاب أننا نلعب لعبة «الجزاء» ، وقد وقعت ضريبته على الاميرة ، فمن يسحب البطاقة المحظوظة يصبح من حقه أن يقبل يدها . أفهمت ما قلته لك ؟

فلم أفعل الا أن نظرت اليه وأنا لا أزال واقفاً كالمأخوذ ، أما الاميرة فقد وثبت الى الكرسي من جديد ، وعادت تهز القبعة وفيها البطاقات ، وأقبلوا عليها وأنا وراءهم .

قالت الاميرة توجه خطابها الى شاب طويل ، ذي وجه نحيل وعينين صغيرتين كليلتين وشعر أسود مسترسل : يا ميدانوف ، انك شاعر ، فينبغي أن تكون أريحياً بأن تنزل عن بطاقتك للسيد فولديمار لكي تتوفر له فرصتان بدلا من واحدة .

ولكن ميدانوف هز رأسه بالرفض وهو يرد شعره الى وراء . في أعقاب آخرهم أدخلت يدي في القبعة ، وسحبت بطاقتي وفتحتها . فيا لله مما اعتراني حينما قرأت فيها كلمة : قبلة !

ـ قبلة ! ـ هتفت دون وعي .

فردت الاميرة على الصوت :ــ مرحى ، لقد فاز واني لفي أشد الغبطة . ــ وهبطت من الكرسي وهي تنظر في عينيّ نظرة لا أصرح ولا أحلى حتى لقد اشتد خفق قلبي ، وسألتني :ــ هل أنت سعيد ؟

ــ أنا ؟

وفجأة همس بيلوفزوروف في اذني :

ــ بعني بطاقتك تلقاء مئة روبل .

فرجمته مجيباً بنظرة لاهبة بحيث صفقت لها زينابيدا ، وهتف لوشن :ــ يا للفتى ! ــ واضاف قائلا :ــ ولكن باعتباري مشرفاً على المراسم ، يجب أن أشرف على تطبيقها بدقــة ، ويقضى العرف أيها السيد فولديمار بأن تركع على ركبتك .

وقفت زينابيدا امامي ورأسها يميل الى جانب كأنهــا تتزيد من النظر اليّ ، ومدت يدها في جلال ، فزاغت عيناي ، كنت راغباً في أن أجثو على احــدى الركبتين ، فوقعت على الثّنتين ، ولمست أناملها بشفتى على نحو أهوج جعلنى أخدش أنفى بظفرها .

ــ طيب ! ــ قال لوشن وهو يساعدني في النهوض .

وأجلستني زينابيدا الى قربها بينمــا استمرت لعبــة «الجزاء» ، وما اكثر ما ابتكرته زينابيدا من ضروب الغرم. فقد اقتضى منها أن تقف كتمثال ، فــاختــارت الدميــم نيرماتسكي قاعدة لها ، وأمرته بأن ينبطح على الارض ورأسه في صدره . لم يكن الضحك لينقطع لحظة واحدة . أمــا وأني ترعرعت في بيت محترم ، وتلقيت تربية خاصــة منفردة ، فقد أدارت رأسي العربدة الضاحكة وعدم الكلفة في العلاقة مع هؤلاء الاغراب، فسكرت من دون خمر ، وطاولت الآخرين بالضحك والثرثرة ، حتى لقد تركت الاميرة العجوز مجلسها من الغرفة المجاورة ، وكانت مع موظف من دائرة الاسكان دعته للاستشارة ، وخرجت تنظر في . كنت أستشعر السعادة الى حدّ أطلقت فيه الأسار وخلعت العذار كما يقول المثل ، فلم اعبأ بغمزة سخر ، ولا بنظرة شزر . واستمرت زينابيدا

فيما اختصتني به من الامتياز ، ولم تسمح لي بأن أبتعد عنها . كان الغرم الذي وقع عليّ يقضي بأن أجلس ملتصقاً بها يغطي رأسينا منديل ، وأن أكاشفها بما أضمره من سر . واني لأذكر ما أطبق علينا في ذلك الظلام من أريج فاغم شفاف ، حيث كانت عيناها القريبتان تتألقان ، وانفاسها دافئة ، وأسنانها تلمع خلل شفتيها المنفرجتين ، وخصل شعرها تتأفعى كألسنة النار . كنت صامتاً فابتسمت هي في استخفاء ومكر ، ثم همست أخيراً : «وماذا بعد ؟» فما كان مني الا أن شاعت الحمرة في وجهي ، وضحكت وأنا أدير رأسي جانباً ، وقد ضاق صدري الى حد الغصّة .

داخلنا السأم من لعبة «الجزاء» هذه فتركناها الى لعبة «الحبل» . ويا لغبطتي حينما سهوت فعاجلتني بضربة قوية على أصابعي ، وقد أخذت اصطنع الابطاء في سحب يدي ففهمت قصدي وتجنبت أن تلمسها !

وما اكثر الألعاب التي قمنا بها في تلك الليلة ، فقد عزفنا على البيانو وغنينا ورقصنا ، واصطنعنا مخيماً للغجر ، حيث ألبسنا نيرماتسكي هيئة دب وسقيناه ماء مالحاً ، وعرض علينا الغراف ماليفسكي شعوذات شتى من ألعاب الورق ، ووزع الورق على نحو يجمع في يده كل الاوراق الرابحة ، «فتشرف لوشين بتهنئته على هذا» . وقرأ علينا مايدانوف مقاطع من قصيدته «السفاح» (كانت الحركة الرومانتيكية وقتئذ في فجرها) وكان يرغب في نشر هذه القصيدة بحروف كبيرة مطبوعة بلون الدم على غلاف أسود ؛ وسرقنا قبعة موظف دائرة الاسكان ، وفرضنا عليه تلقاء اعادتها أن يؤدي رقصة ، ووضعنا على رأس العجوز فونيفاتي قبعة نسائية ، بينما اعتمرت زينابيدا بقبعة رجالية ... ومن العسير أن نحصي كل ما حدث . أما بيلوفزوروف فأنه الوحيد الذي انطوى على نفسه وحيداً في ركن من الغرفة وهو غاضب مقطب الحاجبين ، كانت تلتهب عيناه حيناً ويحمر وجهه حيناً آخر ، ويبدو اثناء ذلك كأنه بسبيله الى الانقضاض علينا ليبعثرنا

في كل ناحية كأننا الهباء المنثور ، وعندئذ كانت الاميرة تشزره بنظرتها وتهز اصبعها محذّرة ، فيعود الى الانطواء في الركن الذي هو فيه .

شاع فينا الوهن أخيراً ، وشعرت الاميرة الام بالتعب فرغبت في بعض الراحة ــ وهي التي كانت على حد قولها تدّعي القدرة على تحمل التعب والضجة . ثم قدم الينا العشاء قبيل الساعة الثانية عشرة ، وكان قطعة من الجبن الناشف القديم ، وبعض الفطائر الباردة المحشوة بلحم الخنزير ، وقد أسغتها من أي طعام آخر . والى هذا كانت على المائدة زجاجة واحدة من الخمر لم تخل ايضاً من شذوذ المظهر ، فهي ذات لون مظلم وعنق أغدّ ، وفي نبيذها رائحة تشبه ما يفوح من صبغة حمراء ، وقد بقيت في أرضها ولم يشرب أحدٌ منها . كنت منهوكاً من السعادة حينما غادرت البيت ، فودعتني زينايدا وهي تشد على يدي ، وقد عادت الى ثغرها من جديد تلك الابتسامة المستخفية .

لفحت وجهي الملتهب أنفاس الليل المثقلة بالرطوبة ، وكان يبدو أن الجو بسبيله الى التجهم ، فقد أخذت الغيوم المكفهرة تتكثف وتتمدد في السماء وتزحف وهي كما يبدو لا تثبت على شكل . واضطربت الأنسام في قمم الاشجار القاتمة ، وفي الآفاق البعيدة كان الرعد يرسل زمجرة غاضبة مكتومة كأنه يهمهم لنفسه .

قصدت الى غرفتي من الباب الخلفي ، كان الوصيف ينام على الارض ، فاضطررت أن اخطو فوقه ، فاستيقظ ورآني ، وأبلغني أن أمي عادت الى استيائها مني ، وكانت راغبة في أن ترسله ورائي ولكن أبي استوقفها عن ذلك . (لم أكن قبل لأذهب للنوم الا بعد أن تستودعني الله وأتمنى لها ليلة سعيدة) ولكن هذا ما حدث .

قلت للوصيف باني سأخلع ملابسي دون عونه ، ثم أطفأت الشمعة . . . ولكني بقيت في ثيابي ولم أرقد في سريري . فقد جلست في كرسي وأنا مستغرق في جلستي

كالمسحور ... يغمرني شعور جديد عذب ، كنت أدير بصري دون أن تنهد عني حركة ، واتنفس في هدوء ، وقد تندّ بين اللحظة واللحظة ضحكة تنطلق مني في خفوت حين أستعرض ما حدث ، او تسري فيّ البرودة حين ترتادني فكرة أنني عاشق وأن هذا هـو الحب . كان وجه زينايبيدا يسبح أمامي في الظلام ، يكاد لا يغيب ، وشفتاها تبتسمان في استخفـاء ، وعيناها ترنوان اليّ بالطّرف ، وفيهما سؤال وتفكير وحنان مثل حالهما لحظة ودعتني . ثم تركت مجلسي اخيراً ، وذهبت الى السرير محاذراً ، في خطوات مسترقة ، وأرحت رأسي على الوسادة وانا لا ازال في ثيابي ، وكأني خائف أن تند أي حركة شديدة قد تقطع عليّ كل ما كنت ممتلئاً به ...

استلقيت دون أن يغمض لي جفن ، ولسرعان ما لحظت أن بعض الاضواء الشاحبة ما تفتـأ تتسلل الى غرفتي ... فنهضت قليلا في مرقدي وألقيت نظرة الى جهة النافذة ، كانت عوارضها السوداء ظاهرة على بياض الزجاج ، ففكرت بأنها العاصفة ، ولم أكن على خطأ ، ولكن العاصفة كانت تمضي في الابعاد القاصية ، حتى ان الرعد لم يبلغ سمعي ، وليس هناك الا البرق يومض في السماء من غير انقطاع في فروع طويلة شاحبة : والاحرى أنه لم يكن يومض بل كان يرف ويرتعش كجناح طائر يعالج سكرات الموت . قمت الى النافذة حيث بقيت حتى طلع الفجر ... لم يتوقف ومض البرق لحظة ، فقد كانت الليلة من ليالي عصفور الدوري على حدّ القول الشائع بين الشعب ؛ ووقفت مرسـلا بصري الى حقول الرمـال الصامتـة ، والى الظلال الغامقة التي تتكاثف في حديقـة «نيسكوشني ساد» ، والى واجهات المباني الصفـر البعيدة ، حيث بدت وكأنها ترتعش ايضاً بومض البرق ... كنت أرى ولا استطيع ان انتزع بصري : فقد بدت تلك البروق الصامتة والاضواء الخافتة كأنهـا استجابة لذلك الانفعال الصامت الخفي الذي ينبعث في ذات نفسي . ثم آذن النهار بالاشراق ، وبرز الصباح في واحات من الشفق الوردي ، واصبح ومض

البرق يحول ويقصر كلما اقترب بزوغ الشمس ، ومـا زال يرتعش ويتضاءل حتى ذاب جملة في الشروق ، وغرقت تلك البروق في ضوء النهار الطالع .

انطفأت البروق في نفسي ايضـاً ، وآدني تعب شديد ، وأطبق الصمت ... ولكن طيف زينايبدا بقي يرفرف امامي باهراً قاهراً ، وما لبث أن فاء الى الدعة . ومثلما تطير البجعة من فرجات اعشاب المستنقع كان هذا الطيف يبتعد عما يشوبه من الاطياف ؛ كنت آخذاً في التهويم حينما ألممت به أودعه بأشواقي الوديعة .

أيه ايتها العواطف الوادعة والاصوات الرقيقة . أيـّهذا الحنين تفيض به نفس وامقة ، ايتها السعادة تشرق عذبة في فجر الحب الاول ، أين أنت ، أين أنت ؟

٨

حينمـا نزلت في الصباح لاحتسـاء الشاي تلقتني أمي بالتانيب ولكن باقل ممـا كنت أتوقع ، وأمرتني بأن أروي عليها كيف قضيت المساء أمس ، فحدثتها بكلمات مقتضبة دون خوض في التفصيلات ، واجتهدت في التعبير على نحو يوحي بالبراءة ، فلاحظت أمي قائلة :

ــ مهما يكن من الامر فانهـم ليسوا *comme il faut وليس مـا يدعوك الى التقـرب منهـم بدلا من الاستعداد للامتحان .

لم أحاول أن أدخل معها في أخذ وردّ لأني كنت أعلم أن اهتمام أمي بدراستي انما يقف عند هذه الكلمات القليلة ؛ ولكن أبي جذبني من ذراعي بعد الفراغ من احتساء الشاي ، وسرنا نحو الحديقة ، ورغب اليّ هناك في أن أروي عليه كل ما رأيته في بيت آل زاسيكين .

---

* قوما على قـدّ المقام .

وكان لأبي تأثير غريب في نفسي ، وكانت الروابط بيننا غريبة ايضا ، فأنه لم يعن الا قليلا بتربيتي ، ولكنه صان لسانه عن أي كلمة تنطوي على تأنيبي ، وكان يحترم حريتي ، بل انه كان مهذباً معي ـ اذا جاز هذا القول ـ ولكنه لم يستدنني من نفسه . كنت أحبه وأنا مبهور به ، وأرفعه الى المثل الأعلى بين الرجال ، ولولا المخافة أن يذودني عنه بيده لغمرته باشواقي . بيد انه يستطيع من فوره حينما يريد ، ان يبث فيّ ثقة بهلا حدود لها ، وذلك بغمزة من عينيه او بكلمة من شفتيه او بايماءة من يديه . فأفتح له مغاليق روحي ، وانطلق معه في الحديث وكأني مع صديق ذكي ومرشد متسامح ... ولكن أبي كان ينسأى عني فجأة كما أقبل ، وينبذني ، بترفّق ونعومة ، ولكنه ينبذني .

وقد يبدو مرحاً في بعض الاحيان ، فيلهو معي ويلعب كالطفل (كان مولعاً بالحركة العنيفة) وفي ذات مرة ـ وهي الوحيدة ـ أحاطني بقدر من حنانه الغامر أوشكت فيه أن أبكي ... ولكن مرحه وحنانه كانا يغيضان فلا خبر عنهما ولا اثر ، فكان هذا الذي يحدث بيننا يغلق في وجهي كل أمل في المستقبل ، ويمضي كأنما رأيته في حلم . وفي أحيان كنت أرسل بصري الى وجهه القسيم الوسيم الصافي ... فيرتعش قلبي ويهفو كياني كله اليه . . . فكان هو ، وكأنه يتحسس بما يدور في نفسي ، يمرّ بي عابراً ويربت على خدي ، ثم يمضي او يتشاغل بأي أمر آخر ، او يتجمد كما لم يستطع أحد سواه أن يفعل ، وعندئذ أراني جامداً على حين غرة . لم تكن تلك الخفقات النادرة من حنانه لتنبعث استجابة لنداءاتي المبينة على الرغم من صمتها ، بل كانت تنبعث فجأة على غير توقع . وحينما أخذت فيما بعد أفكر في طبيعة أبي ، استنتجت أن السبب في عدم اكتراثه بي وبحياته العائلية ، يعود الى أنه موصول القلب بأمر آخر ، وأنه مغتبط بهذا الامر كل الاغتباط . وقد قال لي ذات مرة : «خذ بنفسك كل ما تستطيع أن تحصل عليه ، ولا تسمح لأحد بأن

يمتلكك . فأن لباب ما نسميه حياة انما هو أن تكون سيد نفسك» . وفي مـــرة اخرى انطلقت في حضرته اتحدث عن الحرية باعتباري من الشباب الديموقراطي (كان يومها «في مزاجه الطيب» حيث يكون في وسعي أن أفضي بمـــا أريد) فقال مرددا : الحرية ؟ أتعرف ما الذي يمكن ان يمنـــح الانسان نعمة الحرية ؟

ماهو ؟

ـ الارادة ، الارادة الذاتية ، وانها لتعطي السلطان أيضاً وهو أفضل من الحرية . ينبغي لك أن تعرف ما تريد فتصبح عندئذ حراً تملكّ أن تملي ارادتك على الآخرين .

كانت غاية أبي التي لا غاية بعدها أن يعيش حياته ... وقد عاشها ، ولعله كان يطوى شعوراً خفياً بأنه لن يستمتع طويلا «بهذا الذي نسميه حياة» ، فقد مات وهو في الثانية والاربعين من عمره .

لقد رويت على أبي في تفصيل كل ما كان من أمر زيارتي لآل زاسيكين ، فكان يستمـــع اليّ ببعض الانتبـــاه وبعض الشرود ، وهو جالس في المقعد يـــرسم على الرمل بطـــرف سوطه ، كان يستضحك احياناً ، ويرمقني بنظرة متألقة ، ويشجعني على المضيّ باسئلته المقتضبة واعتراضـــاتـــه . أمسكت في البداية عن ذكر اسم زينايـيـــدا ، ولكني لم أملك نفسي ، فمضيت أمتدح خصالها . ومضى أبي يضحك ، ثـــم استغرقه التفكير ، وتمطى متثائبا وهبّ واقفاً .

تذكرت أن أبي أمر قبل خروجه من البيت بأن يسرج له الجواد ، وكان فارساً لا يُشَقّ له غبـــار ، يستطيع أن يروّض أشد الخيول نفوراً بأسرع ما يستطيع السيد ريري . وسألته :

ـ هل لي أن ارافقك يا أبيّ ؟

ـ لا ، إذهبْ وحيداً اذا شئت ، وقل للسائس اني غير راغب في الركوب . ـ اجابني وقد عاد الى وجهه ما يكسوه في المعتاد من عدم اكتراث مشوب بالدماثة .

ثم ادار لي ظهره ، وابتعد بخطوات سريعة ، بينا ذهبت أتأثره ببصري حتى اختفى وراء البوابة ، ورأيت قبعتـــه تتحرك على طول السور ، ثم دخل منزل آل زاسيكين .

لم يمكث لديهم اكثر من ساعة ، توجه بعدها على الفور الى المدينة ولم يرجع الى البيت الا مع المساء .

بعد الغداء ذهبت أزور آل زاسيكين ، وهنـــاك رأيت الاميرة العجوز وحيدة في غرفة الاستقبال ، وحينمـــا رأتني هرشت في رأسها تحت عصابتها بصنارة الصوف ، وسألتني فجأة : أأستطيع أن أحرر لها عريضة استرحام .

فأجبتها وأنا أجلس على طرف الكرسي : «على الرحب» . فقالت وهي تعطيني ورقة مدعوكة : «ولكن عليك أن تكتب بحروف كبيرة ، فهل لك أن تنجزها اليوم يا شيخي» ؟

ـ سأنجزها اليوم .

انفرج باب الغرفة المجاورة قليلا ، وظهر في فتحته وجه زينايدا شاحباً ساهماً وشعرها قد عقص الى وراء . وارسلت اليّ نظرة باردة من عينيها الكبيرتين ، ثم ردت البـــاب في هدوء ، فهتفت أمها تناديها :

ـ زينايدا !

لم تجب زينايدا ، فحملت معي عـــريضـــة العجوز ، وانكببت عليها طوال المساء .

٩

وبدأ «ولهي» في ذلك اليوم . أذكر أنني شعرت وقتذاك بما يشبه شعور امرىء عند خطوته الاولى في الوظيفة ، لم أعد ذلك الصبي الغرير بل أصبحت عاشقاً . لقد قلت إن ولهي بدأ في ذلك اليوم ، ولكن ينبغي أن أضيف أن عذابـــي بدأ أيضاً في ذلك اليوم . فقد أصبح يشجيني غياب زينـــايبدا . أصبحت عاجزاً عن التفكير في أمر ، أفلت الزمام من يدي ، وانحصر فيها تفكيري طوال يومي . . . كنت أتألم . . . ولم تكن الحال وهي حاضرة بأحسن منها وهي غائبـــة ، فقد أصبحت

غيوراً وكنت أدرك ما في شأني من الهوان وما في غضبي من الغفلة ، كنت مستعبداً لها فما تفتأ تشدني اليها قوة قاهرة . وما من مرة جاوزت وصيد غرفتها الا استشعرت رعشة من السعادة . وما أسرع ما فطنت زينايبدا الى انني مغرم بها ، ولم أفكر في اخفاء هذا الشعور ، فضحكت من غرامي ، وأخذت تعبث بي تارة وتعذبني تارة أخرى . ومما يلذ للمرء أن يدرك أنه مصدر وحيد وسبب مطلق لما يستشعره امرؤ آخر من سعادة غامرة وحزن عميق . كنت في يدي زينايبدا أطوع من الشمع ، ولكني لم اكن الوحيد الذي يحبها ، بل كان الرجال الذين يطرقون بيتها جميعاً مجانين بها ، كانت تشدهم برباط الى قدميها ، وتحب أن تثير فيهم الأمل والشك ، وان تديرهم كالخاتم في اصبعها (كانت تسمى هذا ضرب الناس بعضهم ببعض) ولم يكن يفكر أحد منهم بالمقاومة ، بل كانوا يستسلمون اليها في غبطة . كان في طبيعتها الحية الجميلة مزيج لطيف جداً من المكر وعدم الاكتراث ، ومن التصنع والبساطة ، ومن الهدوء والصخب . وهي في كل ما كانت تقول وتفعل ، وفي كل حركة ترفرف روحاً خفيفة لطيفة ، وتظهر قوّتها اللعوب . كان وجهها لعوباً ايضاً ، فهو في تغير دائم ، يعبّر في آن عن السخرية والتفكير والشوق . وكانت العواطف والمشاعر المختلفة تجري خفيفة سريعة في عينيها وشفتيها كأنها ظلال السحب في نهار مشمس عاصف الريح .

كان كل فرد من المعجبين بها ضرورياً لها ، فأن بيلوفزوروف الذي كانت تناديه احياناً «يا وحشي» او تسميه احياناً شيتي* ، كان مستعداً لاقتحام النار في سبيلها ، وكان لا يفتأ يعرض عليها الزواج دون اعتماد على مواهبه وكفاءاته ، ويشير الى أن الآخرين لم يكونوا الاّ ثرثارين . وكان ميدانوف يستجيب للجانب الشاعري من

---

* شيتي في لهجة أهل الشام تقابل كلمة بتاعي في اللهجة المصرية ، والاولى من العامي الفصيح . (**المترجم**) .

نفسها ، وهو على شيء من برودة الطبع كأكثر الكتاب ، وكان يؤكد لها ، ولعله يؤكد لنفسه ايضاً ، أنه يحبها ، ويمتحدح خصالها في قصائد طويلة يقرأها بحماسة يشوب اخلاصها بعض التصنع . وكانت تنال منه بشيء من سخريتها على الرغم من تعاطفها معه ، ولا تثق بما يقوله الا قليلا ، وبعد أن تصغي لما يهرف به كانت تأمره بأن يقرأ شيئاً من شعر بوشكين لتنقية الهواء – على حد قولها . أما لوشن الطبيب ، فأنه رجل ساخر لاذع في كلماته ، وكان يفهم زينايبدا اكثر مما يفهمها الآخرون جميعاً ، ويحبها اكثر مما يحبها الآخرون رغم تعريضه بها في وجهها وفي غيابها . كانت تحترمه ولكن من دون شعور بالعطف ، بل انها كانت تفترص الفرص في شماتة مقصودة لتشعره بأنه في قبضة يدها ، وفي ذات مرة قالت له وأنا حاضر : «اني لعوب من دون قلب ، وممثلة بطبيعتي . طيب ! هات يدك ، وسأغرز فيها دبوساً ، فأنك ستخجل أمام هذا الشاب ، وستشعر بالألم ، ولن تضن علينا رغم ذلك بالضحك أيها السيد الصدوق» . فأشاح لوشن بوجهه المحمّر وهو يعضّ على شفته ، ولكنه مد اليها يده ، فوخزتها ، فأخذ يضحك بالفعل ... وضحكت هي أيضاً ، ومضت تغرز الدبوس على نحو أعمق وهي تحدق في عينيه على حين كان يحاول عبثاً أن يروغ بهما في كل ناحية ...

استغلق عليّ أن أفهم مقومات تلك العلاقة بين زينايبدا والغراف ماليفسكي . فقد كان جميلا ذكياً أريباً ، ولكن شائبة مخاتلة من الزيف والريبة كانت تخالطه ، وكان يدهشني أن زينايبدا لم تكن لتلحظ ذلك ، على حين شعرت به أنا الصبي ، ابن السادسة عشرة ؛ او لعلها لحظت ولم تستنكر . فأن جنوح تربيتها ، وغريب معارفها وعاداتها ، والتصاق أمها بها ، وحالة الفقر والفوضى الشاملة في البيت ، وتلك الحرية التي ترتع فيها هذه الفتاة الشابة مع شعورها بالتفوق على الجماعة المحيطة بها – كل هذا غرس فيها ضرباً من الاهمال والازدراء والقناعة . فكان يحدث – على سبيل

المثال ـ أن يأتي فونيفاتي قائلا ان السكر مفقود من البيت ، او تنفضح نميمة دنيئة ، او ينشب شجار بين الضيوف ، فلا تزيد إلاّ أن تهز خصل شعرها وتقول : كلام فارغ . ثم لا تحفل بشيء .

أما عنّي ، فقد كان دمي يفور حينما يقترب منها ماليفسكي بمكر الثعلب ، ويحيط ظهر كرسيها بذراعه ، ويأخذ بالهمس في أذنها وهو يبتسم متلطفاً مزهواً ، وهي تجلس متصلبة الذراعين ، تنظر اليه في اهتمام ، وتبتسم ، وتهز رأسها يمنة ويسرة . وقد سألتها ذات مرة :

ـ ما الذي يحدوك الى استقبال السيد ماليفسكى ؟

فأجابت :

ـ ان له شاربين رائعين . ولكن هذا لا يخصّك . ـ

وقالت في مناسبة أخرى :

ـ لعلك تظن أنني أحبه ؟ لا ، فأني لا أستطيع أن أحب هؤلاء الذين أنظر اليهم من عل . فما يلائمني الا ذاك الذي يستطيع أن يكسر شوكتي . وأظنني لن أعثر على مثل هذا الرجل ، فالحمد لله ! ولم أقع بين براثن أحد على الاطلاق .

ـ أيكون معنى هذا أنك لم تحبي أحداً ؟

فقالت وهي تضرب أنفي بطرف قفازها :

ـ وأنت ؟ أفلا أحبك ؟

نعم ، لقد كانت زينابيدا تتسلى بي كثيراً ، وكنت أراها كل يوم طوال الثلاثة الاسابيع الماضية ، فما اكثر ما رأيت منها .

كانت تزورنا قليلا ، ولم يؤسني ذلك ، فأنها في بيتنا تأخذ بمظهر الاميرة النبيلة ، فكنت أتهيبها ، وأخشى أن ينكشف أمري أمام أمي ، فهي لم تكن حفيّة بزينابيدا ، ولا كانت تنظر الينا بعين راضية . ولم أكن أخاف أبي الى هذا الحد فأنه كان يتجاهلني ، ويوجز معها الحديث ، ولكن كلماته ذكية بعيدة المرمى . لقد توقفت عن العمل والمطالعة ، وأمسكت حتى عن النزهة في الضواحي على صهوة الجواد ، بقيت أدور

حول بيت الحبيبة كالعصفور المربوط بخيط من رجله ، كنت على استعداد للبقـــاء هناك الى الابد ... ولكن ذلك مستحيل لأن أمي كانت تبربـــر عليّ ، حتى زينايبدا كانت تطردني في بعض الاحيـــان ، فأنطوى عندئذ في غرفتي ، او أعتزل في آخر الحديقة ، حيث أعتلى خرائب دفيئة قديمة من الحجر ، واجلس على الجدار المطل على الطريق بساقين متدليتين ، وأبقى هناك ساعات أنظر فيمـــا حولي ولا ارى شيئاً ، وبجانبي ترفرف بكسل فراشات بيض فوق العشب المغبار ، ودوريّ نشيط يحطّ غير بعيد على حفّ كسرة من القرميد الاحمر وهو يزقزق في نزوان ويلوب ناشراً ذيله ، والغربان المحترسة تطلق نعيبها بين حين وآخر وهي تحط في أعلى شجرة بتولة عارية ـ تلاعب الشمسُ والريحُ أغصانَها الجرداء في خفوت ، ويترامى اليّ أحياناً رنين هادئُ حزين من أجراس ديـــر دونسكوي ، فكنت أمكث في مجلسي أنظـــر وأصغي ، وملء نفسي شعور غامض ولكنه ينطوي على كل شيء ، فهو : الحزن والفرح ، والتشوف الى ما سيأتي بـــه الغد ، والرغبة في الحياة والرهبة منها . ولكني لم أكن افهم شيئاً من هذا وقتذاك ، ولا أستطيع ان أسمي كل ما يختمرفي نفسي ، ولعلني لو فعلت لجمعت ذلك كلـــه في اسم واحد وهـــو زينايبدا .

أما زينايبدا فكانت ماضية في لعبها بي كما تلعب القطة بالفأرة . كانت تقبل عليّ بمغازلتهـــا فيداخلني الاضطراب والابتهاج ، او كانت تصدني فجـــأة فلا أجرؤ بعدئذ على الاقتراب منها والنظر اليها .

وأذكر أنها مضت تعاملني ببرودة طوال بضعة ايـــام ، فامتلأت نفسي بالخوف ، وذهبت الى بيتها وانا متردد بين الاقدام والاحجام ، وحاولت هناك ان أبقى الى جانب الاميرة العجوز على الرغم من احتدام صراخها وشتائمها في ذلك الوقت بالذات بسبب اضطراب في شؤونهـــا المالية اضطر شرطي الحي أن يزورها بخصوصه مرتين .

وفي ذات يوم كنت أمرّ قرب حاجـز الحديقة المعهود فرأيت زينايبدا . كانت تجلس على العشب لا تندّ عنها حركة معتمدة على يديها ، فأردت ان أنسحب في حذر ، ولكنهـا استدارت برأسها فجأة وأومأت اليّ باشارة آمرة ، فتوقفت في مكاني غير مدرك أول الامر معنى اشارتها ، فلما أعادتها لم أتمهل بل قفزت الحاجز وأسرعت اليهـا تستخفّني سعادة غامرة ، ولكنها استوقفتني بنظرتها وأشارت الى ممر الحديقة الذي يبعد خطوتين عن مجلسها ، فجثوت على ركبتي وأنا حائر فيما ينبغي عليّ أن أفعل . كانت تبدو شاحبة ، تدل قسمات وجهها على ما يبهظها من الحزن ، حتى لقد تمزق قلبي حسرة لحالها ، فتمتمت على الرغم مني أسألها : ما لك ؟

فمدت زينايبدا يدهـا ، واقتلعت عوداً من العشب ، وأخذته بين أسنانها ، ثم قذفت به بعيداً .

وسألتني بعد لأي :

ـ انك تحبني كثيراً ، أليس كذلك ؟

فلم أجب بكلمة ، وعلام ينبغي أن أجيب ؟

فأعادت وهي لا تزال ترمقني بعينيها :

ـ بلى ان الامر كذلك . العيون نفسهـا ، ـ اضافت وشردت افكارها فغطت وجهها بيديها وهمست : ـ لقد زهقت من كل شيء . ليتنى أذهب الى آخر الدنيا ، فما استطيع أن أتحمل اكثر مما تحملت ، اني عاجزة .. وماذا ينتظرني فيما بعد !.. آه مما يثقلني ... يا ربي ما أشد ما يثقل قلبي !

فسألتها في وجل :

ـ فيم هذا ؟

لم تجب زينايبدا بل هزت كتفيها . كنت لا أزال جاثياً على ركبتي أنظر اليها في حزن عميق . وكل كلمة همست بها كانت تنفـذ في قلبي ، وتراءى لي في تلك اللحظـة أني على استعداد للتضحية بحياتي فداء لها مما يؤودها . كنت انظر اليها ولا استشف مصدر حزنها ، وقد تصورت حالها : استبد بهـا الحزن ، فهرعت الى الحديقـة ، وسقطت على الارض

بالعشبة المقصولة . كان كل مـــا يحيط بنا صافياً أخضر ، والريح تعبث باوراق الشجـــر ، وتؤرجح بين الحين والحين غصناً طويلا من شجرة توت فوق رأسهـــا ، والحمام يسجع هناك ، ويطنّ النحل وهو يحوّم دانياً من الارض فوق العشب المتناثر ، والسماء فوقنا زرقاء لطيفة ، ولكن ما أشد كآبتي في تلك الساعة .

قالت زينابيدا بصوت خافت وهي تتكئ على ساعدها :

ــ ألا تنشدني شيئاً من الشعر ؟ لكم أحب أن استمـــع اليك وأنت تقرأ الشعر . انك ترتله ترتيلا ، ولكن لا بأس فأن للشباب فرحه أنشدني «على تلال جورجيـــــا» . ولكن عليك أن تجلس أولا .

فجلست وأخذت أنشدها «على تلال جورجيا» . قالت زينابيدا وهي تعيد البيت الأخير :

ــ «لا يستطيع القلب الاّ أن يحب» . تلك هي حسنة الشعر ، انه يحدثنا عما ليس له وجود ، على نحو أحسن من الموجود ، بل أشد قرباً من الحقيقة ... نعـــم ان القلب لا يستطيع الاّ يحب ، ولعله يريد ولكنه لا يستطيع !

وعادت الى الصمت ، ثم تحركت فجأة وهبت واقفة وهي تقول :

ــ هيا نذهب ، فأن مايدانوف يجلس عند أمي ، وقد جاءني باحدى قصائده فتركته وهو الآن محزون ايضـــــاً ... ولكن لا حيلة لي في الامر ، ستعرف هذا ذات حين ... فلا تغضب مني .

ضغطت على يدي وانطلقت في اسراع تتقدمني وعدنا الى البيت ، أخذ مايدانوف ينشد قصيدة له كان قد فرغ لساعته من طبعها ، اسمها «السفاح» ، ولكني لم أصغ اليه ، ومضى ينشد رباعياته بصوت مرنان رتيب ، وقوافيه تجلجـــــل كاجراس الزحافة ، صخابة جوفـــاء . كنت لا أزال انظر الى زينابيدا محاولا أن استجلي معنى كلماتها الاخيرة حينما صاح ميدانوف فجأة بصوت أخن :

او لعل غريماً مجهولا بالمرّة
تصيّدك على حين غرّة

فالتقت عيناي بعيني زينابيدا ، وما لبثت أن خفضتهما وقد شاعت في وجهها حمرة خفيفة . لقد رأيتهـا وهي تحمر ، فجمدني الخوف ، كنت أغار عليها من قبل ، ولكن الخاطرة التي خطرت في رأسي في تلك اللحظة هي أنها تحب : «يـا آلهي ! انها لعاشقة !»

١٠

لقد بدأ عذابي الحقيقي منذ تلك اللحظة ، وكنت أفكر حتى يتفجر رأسي من التفكير ، وأراقب زينابيدا مخالسـاً دون انقطاع كلما سنحت الفرصة . كان واضحاً أن طارئاً ألمّ بها فبدّل من حالها . فقد كانت تخرج للنزهـة وحيدة وتغيب في نزهتهـا طويلا او تمسك عن الظهور للضيوف ، وتعتزل في غرفتها ساعات طوالا ، ولم يكن ذلك مألوفاً من عاداتها . وفجأة هبطت عليّ الفطنة ، او لعل هذا ما تراءى لي ، وذهبت أتساءل في قلق وانا استعرض في خاطري الرجال المحيطين بها : «أيكون هذا أم ذاك ؟» وظهر لي أن الغراف ماليفسكي كان أخطرهم جميعاً (وقد خجلت من هذه الخاطرة تجاه زينابيدا) .

ولكن المراقبة لم تزدني بصراً بما يتجـاوز أنفي . وقد حاولت أن أتكتم في الامر ، ولكن محاولتي لم تخدع أحداً ، فأن الدكتور لوشن على الاقل أدركني وكشف سري بسرعة ، ومهما يكن فقد تغير هو ايضاً في الايام الاخيرة . أصبـح مهزول الجسم ، لم تنفثئ حدة ضحكه ، ولكنه أصبح يضحك بصوت أجوف ، على نحو مستوفز متقطـع ، وتحولـت سخريته الخفيفة وتظاهره بالاستهتار الى لذع خليع ينطلق في حدة وعصبية .

كنا وحيدين حينما قال لي ذات مرة ونحن في غرفة الاستقبال بمنزل آل زاسيكين (كانت الاميرة الشابة لا تزال في نزهتها ، واما الاميرة العجوز فكان صوتها ينفذ الينا من الغرفة المجاورة وهي تؤنب خادمها) .

— فيم لا تمسك نفسك عن التردد دون انقطاع على هذا المنزل يا فتى ؟ ينبغي لك أن تدرس وتعمل ما دمت في سن الصبا ، فانظر ما أنت تفعل ؟

فأجبته بشيء من التعالي يداخله الارتباك :

— ولكن ما يدريك أنني لا أعمل في البيت ؟

— عن أي عمل تتحدث وفي رأسك موّال آخر ؟.. لا أريد أن أجادلك فانت وشانك ، فأن هذا طبيعى وأنت في هذه السن ، ولكنك لم تحسن الاختيار . أفلا تدري ما طينة هذا البيت ؟

فقلت :

— اني لم أفهم الى مَ تقصد .

— ألم تفهم ؟ أن هذا أدعى الى الرثاء ؛ كان من واجبي أن أحذرك . اني ومن على شاكلتي من الكهول العزّاب لا علينا من التردد على هذا البيت ، فأي ضرر يصيبنا ؟ نحن قوم تصلب عودنا فما يهزنا شيء ، ولكنك لا تزال طريّ العود ، هذا الجو ضار بك — صدقني ؛ فقد تسري اليك العدوى .

— وكيف ذلك ؟

— هكذا . فهل أنت موفور الصحة الآن ؟ او انت في حالة طبيعية ؟ وهل اعتقدت أن كل ما تشعر به يلائمك ويصلح لك ؟

فسألت وأنا أدرك في أعماقي أن الدكتور على حق :

— وما هذا الذي استشعره ؟

واستمر الدكتور قائلا :

— آخ منك يا فتى ، أيهذا الفتى . (كان يشد على هاتين الكلمتين كانما ليبث فيهما شيئاً من العتاب) انك لا تعرف المكر ، فان وجهك مرآة نفسك والحمد لله . ولكن ما الفائدة

من الشرح ؟ فما كنت أنا نفسي لأطرق هذا المكان لو لم ...
(وصرّ الدكتور بأسنانه قبل أن يضيف :) لو لم أكن من الطينة ذاتها . ولكن أشد ما يحيرني من أمرك أنك أنت الذكي ثم لا تدري بما يدور حولك .

فسألته وانا أرهف السمع :

ــ وما هذا الذي يدور ؟

فرمقني الدكتور بعطف ساخر وقال كأنما يحدث نفسه :

وما شأني ؟ أكان من الضروري أن أحدثه بكل ذلك ؟ ــ ثم أضاف بصوت عال :ــ أعيد عليك القول بأن هذا الجو لا يلائمك . قد يكون هذا الجو مما يعجبك . صحيح ، ولكن هذا لا يكفي ، فان الرائحة الزكية تعجبك في دفيئة الازهار ، ولكنك لا تستطيع أن تعيش في دفيئة . إي ، أصغ الي ، ولتعد الى كتابك المدرسي .

وجاءت الاميرة العجوز ، وجعلت تتشكى الى الدكتور من ألم في أسنانها ، ثم أقبلت زينايبدا ، فاضافت الأم :

ــ ها هي ذي أيها السيد الدكتور ، فلا تمسك عن تأنيبها ، فانها مضت تشرب الماء المثلج طوال النهار ، فهل كان هذا ليلائم صدرها الضعيف ؟

فسألها لوشن :

ــ علام فعلت ذلك ؟

ــ وأي ضرر فيما فعلت ؟

ــ اي ضرر ؟ قد يصيبك البرد فتموتين .

ــ أيحدث هذا حقاً ؟ هذا ما أستحقه .

ــ هكذا اذن ؟ ــ تمتم الدكتور .

وغادرت الاميرة العجوز الغرفة ، فأعادت زينايبدا :

ــ هكذا . هل في هذه الحياة مرح ؟ قلّب الطرف فيما حولك ... فأين ترى الخير ؟ ام لعلك تظن أنني لا أفهم ولا أشعر ؟ لقد طاب لي أن أشرب الماء المثلج ، وأنت تريدني جاداً أن أصدق أن حياة على هذه الشاكلة اثمن من أن اخاطر

بها وهي على حالها تلك من أجل لحظة هنـــاءة ولا اقول لحظة سعادة .

فقال لوشن ملاحظاً :

ـ آ ، نعم ، فان النزوان والاستقلال كلمتان تنطويان على موجز حياتك ، كل طبيعتك في هاتين الكلمتين .

فضحكت زينايدا بعصبية وقالت :

ـ اخبارك جاءت بعد فوات الاوان يا عزيزي الدكتور ، ان تشخيصك غلط ولا يمشي مع الزمن . ضع نظارتيك على عينيك ، سترى أن النزوان ليس من شاني الآن . وليس هنا شيء من المرح في ان استغفلكم واستغفل نفسي ... أمـا عن الاستقلال ...ـ وأمسكت فجاة عن كلامهـا وهي تدق الارض بقدمها وقالت :ـ مسيو فولديمار ، لا تلبس هذه السحنة الكئيبة ، فاني لا أطيق أن اكون موضع اشفاق .

وانصرفت مسرعة لا تلوي . فأعاد لوشن ما قاله لي :

ـ انه لمؤذ لك هذا الجو أيها الشاب ، مؤذ .

١١

في مساء ذلك اليوم انتظـم عقد الجماعـة في منزل آل زاسيكين وكنت بينهم .

انطلق الحديث حول قصيدة مايداتوف فأثنت زينايدا عليها في اخلاص ، قالت لـه : «ولكن أتدري لو أنني كنت شاعرة لطرقت موضوعـــات اخرى . قد يكون هذا لغواً فارغاً ، ولكن تراودني احياناً أفكار غريبة ، وبخاصة حينما أكون مسهدّة قبيل الفجر ، وقت اصطباغ السمـــاء باللون الوردي الرمادي . فمثلا ... ألا تضحكون مني ؟

فهتفنا جميعاً بصوت واحد : «لا ! لا !»

فقالت وهي تطوي ذراعيها على صدرها وتلقي ببصرها الى جانب :

ـ لكنت وضعت جماعة من الفتيات ، وهن على مركب عظيم يتهادى في الليل على مياه نهر هادئ ، تحت ضوء القمر المنير ، وقد ارتدين الابيض ، وعلى رؤوسهن أكاليل من الزهر الابيض ، وانطلقن يغنين شيئاً يشبه النشيد .

فتنطع * ميدانوف قائلا وهو يصطنع هيئة الفاهم والحالم في آن :

ـ مفهوم ، مفهوم ... امضي في حديثك .

ـ وفجأة تنفجر الضوضاء والضحكات ، وتتألق المشاعل ، وتدق الدفوف على الشاطئ ، ويظهر حشد حاشد من رعية آله المجون يقبل مسرعاً وهو يغني ويصخب . وهنا ينبغي عليك ايها السيد الشاعر أن ترسم من هذا لوحة ... ولكني أريد أن تكون المشاعل حمراء ينبعث منها دخان كثيف وأن تلمع عيون الماجنات تحت ازهار الاكاليل ، ويجب أن تكون الازهار قاتمة ، ولا تنس جلود النمور ، والكؤوس ، والذهب ، الوفرة من الذهب .

فسألها مايداتوف وهو يرفع شعره الى وراء ويمد أنفه :

ـ وأين ينبغي أن يوضع هذا الذهب ؟

ـ أين ؟ على الأكتاف وفي الأيدي والأرجل ، في كل موضع ، فقد كانت النساء ، على ما روى في قديم الزمان ، يتزيّن بالخلاخيل الذهب . وتنادي الماجنات فتيات المركب . فيمسك الفتيات عن الغناء ويتولاهن العجز عن المضي فيه ، ولكنهن لا يتحركن : كأن النهر يدفع بهن الى الشاطئ . فتقوم احداهن فجأة في سكون ... وهذا يحتاج الى براعة في وصف قومتها الساكنة تحت ضوء القمر الساطع ، ووصف الذعر الذي شاع في صديقاتها ... وتخطو فوق طرف المركب ، فتحيط بها الماجنات ويحملنها ويختفين بها في أعماق الليل ، في الظلمة ... وتصوروا سحب الدخان تنعقد ويسود الهرج

---

* تنطع بالكلام : تفصّح فيه وتشدق . (**المترجم**) .

فلا يسمع الا صيحات الماجنات وأكليلها متروك على الشاطئ .

قطعت زينابيدا حديثها فقلت لنفسي : «أوه انها عاشقة !»

وسألها مايدانوف قائلا :

ـ أهذا كل شيء ؟

فقالت :

ـ هذا كل شيء ..

فتنطع ملاحظاً :

ـ لا يصلح هذا موضوعاً لقصيدة طويلة ولكني سأعتمد هذه الفكرة فى قصيدة عاطفية .

فسأله ماليفسكي :

ـ أبالأسلوب الرومانتيكي ؟

ـ طبعاً بالاسلوب الرومانتيكي وبالطريقة البايرونية .

فقال الغراف الشاب باستهتار :

ـ في رأيي أن هوغو أطرف من بايرون .

فقاطعه مايدانوف قائلا :

ـ ان فيكتور هوغو كاتب من الطراز الاول ، ويقول صديقي تونكوشييف في روايته الاسبانية «التروفادور» ان ...

فقاطعته زينابيدا قائلة :

ـ آ ... أتقصد ذلك الكتاب المملوء بعلامات الاستفهام المقلوبة ؟

ـ نعم ، فأن هذا من التقاليد الاسبانية . وكنت أريد أن اقول ـ ان تونكوشييف ...

وعادت زينابيدا تقطع حديثه :

ـ يه ! ستعودون الى جدلكم حول الكلاسيكية والرومانتيكية . هيا نلعب لعبة فأن هذا أفضل ...

فتدخل لوشن وسألها :

ـ ألعبة الجزاء ؟

ـ لا ان لعبة «الجزاء» تشيع الملل . سنلعب لعبة التشبيهات . (كانت هذه اللعبة من بنات افكار زينايدا ، حيث تسمى الاشياء ويأخذ المتبارون في ابتكار التشبيهات المناسبة ويفوز بالجائزة من يأتي بأحسن تشبيه) .

وسارت زينايدا الى النافذة . كانت الشمس قد انحدرت لحظتها نحو الغروب ، وامتدت في أعلى السماء سحائب طويلة حمراء .

وسألت زينايدا :

ـ ماذا تشبه هذه السحب ؟

وأضافت دون ان تنتظر جواباً :

ـ في رأيي انها تشبه شراعاً قرمزياً على ذلك المركب الذهبي الذي حمل كليوباطره الى لقاء انطونيو . أتذكر يامايدانوف أنك رويت عليّ هذا منذ وقت قريب .

وقررنا نحن ، على طريقة بولوني في «هملت» ان هذه السحب تشبه ذاك الشراع ، ولا سبيل لأحد ان يأتي بأحسن من هذا التشبيه .

وسألت زينايدا :

ـ كم كان لانطونيو من العمر وقتذاك ؟

ولاحظ ماليفسكي :

ـ لعل الارجح أنه كان شاباً .

وأكد مايدانوف :

ـ نعم كان شاباً .

فصرخ لوشن :

ـ عفواً ، لقد كان فوق الاربعين .

فرددت زينايدا عبارته وهي تلقي عليه نظرة سريعة :

ـ فوق الاربعين .

عدت الى البيت في اسراع ، وتمتمت شفتاي على الرغم مني : «انها تحب ، ولكن من المحبوب ؟»

تعاقبت الايام ، ولا تزال زينايبيـــدا تزداد غرابـــة وغموضاً . دخلت عليها ذات يوم ، فرأيتها تجلس في كرسي من القش ورأسها مسترخ على حدّ المائدة ، فلما استقامت كان وجهها مبلولا بالدموع . قالت وهي تبتسم ابتسامة قاسية :

ــ أوه ، أهذا أنت ، تعال .

فاقتربتُ منها ، وكان أن وضعت يدهـــا على رأسي ، وأمسكت فجاة بخصلة من شعري وجعلت تبرمها .

فقلت لها بعد لأي :

ــ ان هذا يؤلمني .

ــ يؤلمك ؟ أفلا يؤلمني ، أفلا يؤلمني ؟

وصرخت فجاة حينمـا رأت أنهـــا اقتلعت خصلة من شعري :

ــ ما هذا الذي فعلته ؟ مسكين يا سيد فولديمار .

وأخذت تملس خصلـة الشعر في هدوء وتلفهـــا حول اصبعها حتى جعلت منها حلقة ، وقالت والدموع تلمـــع في عينيها :

ــ سأضـع شعرك في مدالية لأحتفظ به تذكاراً فلعـل هذا أن يحمل اليك العزاء ... أما الآن فوداعاً .

عندما عدت الى البيت رأيت الجو مشوباً بالاضطراب ، والتشاحن قائماً بين أبي وأمي ، فهي تلحوه في أمر ، وهو على عادته صامت في برودة وتأدب ، ولم يتلبث طويلا بـل غادر المنزل . وفاتني أن أسمع ما كانت تقوله أمي فمـــا همّني ذلك فقد كنت عنه في شغل شاغل . كل ما أذكره أنها أرسلت من يدعوني الى مكتبها بعد انتهاء المشاجرة وأبانت عدم رضاها من زياراتي الكثيرة للاميرة ، لأنها على حد قولها une femme capable de tout* فقبلت يدهـــا (على عادتي

* امرأة لا تزع نفسها عن أمر .

كلما رغبت في انهاء الحديث) وذهبت الى غرفتي . كانت دموع زينايبدا باعث حيرة في نفسي : فما أدري على أيّ وجه ينبغي تأويلها وأوشكت أنا نفسي على البكاء ، كنت طفلا على الرغم من سنواتي الست عشرة . لم أعد أفكر في الغراف ماليفسكي على الرغم من ان بيلوفزوروف كان يبدو اكثر قساوة بنظراته الماكرة التي كان يشزر بها الغراف كما يشزر الذئب الحمل ؛ فقد انقطعت عن التفكير في هذا وذاك . واستغرقتني الظنون ، وذهبت أنشد العزلة ، وأصبحت خرائب الدفيئة مكاني الأثير ، فكنت أتسلق جدارها العالي وأجلس وحيداً محزوناً حتى أصبحت أشفق على نفسي ، ولشد ما كان هذا الشجى ماتعاً ولشد ما اجتذبني الى الاستغراق فيه .

كنت أجلس ذات يوم على الجدار ، مرسلا بصري الى الآفاق البعيدة ، مصغياً الى رنين الاجراس الكنسيّة ... واذا شعور مباغت بأن شيئاً يزحف على جلدي ، فكان نسمة ولا نسيم ، ورعشة ولا ارتعاش ، بل لعله الاحساس بأن شخصاً يقترب مني ... فنظرت الى أسفل نحو الطريق ، فرأيت زينايبدا تغذّ في السير وهي في فستان رمادي خفيف وعلى كتفها مظلة حمراء . كانت قد رأتني ايضاً فتوقفت ، ولوت طرف قبعتها المصنوعة من القش الى أعلى ورفعت نحوي عينيها المخمليتين ، وسألتني وهي تبتسم ابتسامة غريبة :

ــ ماذا تفعل هناك على هذا المرتفع ؟ ــ واضافت : ــ انك ما تفتأ تؤكد لي أنك تحبني ، فاقفز الى الطريق ان كنت صادقاً .

فما كادت زينايبدا تأتي على نهاية هذه الكلمات حتى كنت أطير الى أسفل كأنما دُفعت من وراء . كان ارتفاع الجدار يزيد على قامتين فبلغت الارض واقفاً ، ولكن عنف الصدمة أعجزني عن التماسك في وقفتي فسقطت غائباً عن الوعي ، واستمر ذلك لحظة ، ولما أفقت لنفسي شعرت

وأنا مغمض العينين بأن زينايبدا بجنبي ، وسمعتها تقول وفي صوتها القلق والعطف وهي تنحني عليّ : «يا حبيبي الصغير . فيم فعلت هذا ، وعلام أصغيت اليّ ؟ .. أني أحبك ... هيا انهض !»

كان صدرها يتنفس قريباً من صدري ، ويداها تمسحان رأسي ، وفجأة ـ يا قلبي على ما جرى لي آنذاك ؟ ـ أخذت شفتاها الناعمتان الغضّتان تغطيان وجهي بالقبل ... وتتلمسان شفتي ... وهنا أدركت زينايبدا من التعبير المرتسم في وجهي أنني ثبتُ الى نفسي ولكني لا أفتح عينيّ ، فهبت واقفة بحركة سريعة وقالت : «قم من أرضك يا عفريت يا مجنون ، ما معنى رقدتك هذه على التراب ؟» فقمت من أرضي . وقالت زينايبدا :

«جئني بمظلتي من حيث أسقطتها ، ولا ترمقني هكذا ... ما هذا السخف ؟.. أأصابك أذى ، او لعل القراص قرصك ؟.. قلت لك لا تنظر اليّ ... ـ وأضافت كأنما تحدث نفسها : ـ اجل ، انه لا يفهم ولا يجيب . لتذهب الى بيتك يا سيد فولديمار لتتنظف ، واحذر ان تسير في إثري والا غضبتُ ، وعندئذ لن ...»

وأسرعت تمضي في سبيلها من دون أن تكمل خطابها ، على حين ذهبت أجلس على كتف الطريق ... كنت واهن الساقين ، ملتهب اليدين من القراص ، يؤلمني ظهري ويدور رأسي ، ولكن الهناءة التي ملأت نفسي وقتئذ لن تتكرر مهما عشت في هذه الحياة . كانت تخالجني كأنها ألم عذب يسري في أطرافي كافة ، ثم انفجرت اخيراً في قفزات وصيحات تلتهب بالحماسة . كان الأكيد : أني ما زلت طفلا .

١٢

لشد ما كنت مرحاً فخوراً طوال ذلك اليوم ، وكم كان حيّاً ذلك الاحساس بقبلات زينايبدا على وجهي ، وبأي

نشوة كنت أستعيد ما قالت كلمة كلمة . لقد حنوت على سعادتي المفاجئة بما يشبه الرعب ، وأصبحت لا أريد حتى أن أراها ، وهي المسؤولة عن هذا الشعور الجديد . وخيل اليّ أنني استنفدت تطلعاتي فلم يبق لي ما أجدّ في طلبه من القدر ، وكأنما آن لي «أن ألملـم أنفاسـي الاخيرة وألفظها جملة وأموت» . ولكني شعرت في اليـوم التالي بتهيب شديد وانا أتوجه الى بيت الاميرة واخفقت محاولتي في اخفاء هذا الشعور وراء مظهر وديع من عدم الكلفة ، لاعتقادي انه المظهر الملائـم لامرىء يرغب في اقامـة البرهان على انه كتوم للسر . واستقبلتني زيناييدا في بساطة لا أثر فيها للتحرّج ، ولم تفعل الا أنهـا هزت اصبعهـا وسألت : أيكون فيّ أثر من بقع زرق ؟ فأذا مظهر الجسارة المتواضعة والتكتم يفارقني في تلك اللحظة ، وزال معهما ارتباكي . وطبيعي أنني لم أكن أتوقـع أي امتياز خاص ، ولكن هدوء زيناييدا وقع عليّ مثل دلقة من ماء بارد . لقد ادركت أنني ما زلت في نظرها مجرد طفل ، فثقل ذلك عليّ ! كانت زيناييدا تسير في الغرفـة ذاهبـة جائيـة ، وترميني بابتسامة عابرة كلما تلاقت نظراتنا ، رأيـت في وضوح أن افكارها كانت بعيدة عني ... «وخطر ببالي ان أبدأها الحديث عن حادث أمس ، وفكرت : هل أسألها الى اين ذهبت مسرعة لأكون على علم بخاتمـة المطاف ...» ولكني لوحت بيدي وانتبذت مكانـاً في زاويـة الغرفـة جلست فيه .

أقبل بيلوفزوروف فاغتبطت لقدومـه ، وقال بصوت خطير :

ــ أخفقت في العثور على جواد هادئ يناسبك . لقد نصح لي السيد فريتاغ بواحد ، ولكني لم أثـق بقولـه ، وغلبني الخوف .

فسألت زيناييدا :

ــ وممّ تخاف ؟ اذا سمحت بالسؤال .

ـ ممّ ؟ انك لا تقدرين على ركوب الخيل . ربّ يا خفيّ الألطاف احفظنا مما نخاف . ثم ما هذا الوهم الذى ملأ رأسك فجأة ؟

ـ هذا شغلي يا مسيو وحشي وليس شغلك . وسألجأ في هذه الحال الى بيوتـر فاسيلييفيتش ... (كان هذا اسم أبي ، وقد أدهشني أنها نطقت به في يسر وطلاقة كأنها على يقين من حسن استعداده لخدمتها) .

فاعترض بيلوفزوروف قائلا :

ـ اذن هذا هو من تريدين أن تخرجي معه على صهوة الجواد ؟

ـ معه او مع غيره ، فأن هذا لا يخصك ، وليس معكَ في كل حال .

فردد بيلوفزوروف قائلا :

ـ ليس معي . كمـا تشائين . ماذا بيدي أن أفعل . سأدبر لك حصاناً .

ـ واحرص على الاّ يكون بقرة او مما في هذا الجنس ، فأنا أنذرك بأني سأنجرد به .

ـ تفضلي انجردي به ، ولكن مع من ؟ أهو ماليفسكي ؟

ـ ولِمَ لا يكون ماليفسكي أيها المغوار ؟

وأضافت :

ـ ولكن هدئ من روعك ، ولا تحملق بعينيك ، فأنك ايضاً من سآخذه معي ، وانت تعرف مـا موضع ماليفسكي عندي الآن ـ أف ! (ورفعت رأسها في استعلاء) .

فقال بيلوفزوروف متذمراً :

ـ انك تقولين ذلك من قبيل التعزية .

ـ هل يعزيك هذا ؟ أو ... و ... ه ايها المغوار . ـ وقد نطقت باواخر هذه الكلمة ، كأنها لم تعثر على كلمـة اخرى . ـ وأضافت :

ـ وانت يا سيد فولديمار ألا تريد أن تأتي معنا ؟

فقلت من دون أن أرفع بصرى :

ـ اني لا أحب .. أن أكون في جماعة كثيرة .

ـ *Tête-à-tête، هذا مـــا تفضلـه اذن ؟ .. لا عليك فالحرية للحر والجنة لمن نجى ** ـ وتنهدت ـ امض اذن يا بيلوفزوروف ، اني في حاجة الى الحصان غداً .

فتدخلت الاميرة العجوز بقولها :

ـ طيب ، والنقود ؟ من اين ستحصلين عليها ؟

فقطبت زينابيدا حاجبيها :

ـ لم أطلبها منك فأن بيلوفزوروف يثق بذمتي .

فغمغمت الاميرة العجوز :

ـ يثق ، يثق ...

وصاحت فجاة بملء صوتها :

ـ دونياشكا !

فلاحظت الاميرة الصغيرة قائلة :

ـ ماما ، لقد أهديتك جرساً لهذه الغاية .

وعادت العجوز تصيح :

ـ دونياشكا !

انحنى بيلوفزوروف مودعاً ، فقمت أقصد الذهاب معه ... ولم تحاول زينابيدا ان تستبقيني .

١٤

نهضت مبكراً في صباح اليوم التالي ، فاقتضبت قضيباً من شجرة ومضيت أتجول فيما وراء باب المدينة ، وقد قيل : اذا ضقت بمطرح فاتركه واسرح . كان النهار رائعاً مشرق الضياء معتدل الجو : والأنسام الممراح تتفسّح على الارض ، وتضوضى في حفيف خافت ، وتلعب فتهز كل ما تلمسه من دون أن تؤذيه . وأطلت في التجوال خلال الغابات والجبال ،

---

* راس لراس .

** مثل روسي ، معناه لك ما تريد .

ولكني لم أشعر بسعـــادة ، لأني غادرت المنزل وبى نزوع الى الاستغراق في الاحزان . ثم ما لبث الشباب اليافع ، والطقس الرائع ، والهواء النقي ، وتلك الغبطة التي يبتعثهـــا المشي السريع ، وراحة الاستلقـــاء على العشب الكثيف ، أن عملت عملها ، فتواردتني الذكريات : ذكريات الكلمات التي لا تنسى ، والقبلات . استشعرت الغبطة حينمـــا فكرت في أن زينايبيدا لا تستطيع أن تنفي أنني امرؤ لا تنقصه العزيمة والشجاعة ... «انها تفضل الآخرين عليّ . ليكن! ولكن الآخرين لا يتجاوزون حدود الحديث عما سيفعلون ، أما أنا فقد فعلت ... وأملك القدرة على أن أفعل في سبيلها فوق ما فعلت !..» وسرح بي الخيال ، فتصورتني أنقذها من قبضة أعداء ، ورأيتني غارقاً في الدم وانا أخلصهـــا من سجن مظلم ثـم أهوي ميتـــاً عند قدميها . وخطرت ببالي لوحة معلقة عندنا في غرفة الاستقبال وهي صورة الملك العادل يحمل ماتيلدة *... وهنا شغلت بنقار كبير ذي لون محبّر لامع يتسلق في اهتمام على شجرة بتولة دقيقة الساق وهو ينظر من خلفها ذات اليمين وذات اليسار في حذر كأنه عازف موسيقى وراء عنق كمان جهير .

ثم أخذت أغني : «الثلوج ليست بيضاء» ، وانتقلت منها الى الاغنية العاطفية الشائعة في ذلك الحين : «أنا في انتظارك حينما يتلاعب النسيم» . وقطعتها لأقرأ بصوت مرتفع خطاب يرماك الى النجوم في مأساة خومياكوف ، بل لقد حاولت أن أنظم ما يحضر من شعر العاطفة ، وارتأيت ان تختتم القصيدة بهذا البيت : «أوه ، زينايبيدا ، زينايبيدا !» . ولكن محاولتي أخفقت . وحل موعد الغداء في هذه الاثنـــاء ، فقمت أهبط الوادي . كان فيه طريق رملي ضيق يتأفعى ذاهباً حتى المدينة . فذهبت في هذا الطريق وترامى اليّ من ورائي خلال السير ايقاع مكتوم لحوافر جياد ، فالتفت الى وراء ، وتوقفت عن

---

* لوحة استوحى الرسام موضوعها من روايـــة عن الحروب الصليبية للكاتبة الفرنسية صوفي كوتون . **(المترجم)** .

غير قصد وانـــا أرفع قبعتي : رأيت أبي وزينايبدا ، كانـــا متواكبين ، وأبي يحدثها وهو منحن عليها بجسمه جميعـــاً معتمد بيده على عنق الجواد ؛ كان يبتسم ، وزينايبدا تصغي اليه صامتة وقد أرخت عينيها في جد ، وكزّت شفتيها . لم أر غيرهما أول الامر ، وبعد لحظات برز بيلوفزوروف من منعطف في الطريق ، وهو في حلة الفرسان ، وتحته حصان أدهم كان يلمع بالعرق ويرمح برأسه وينخر ويتوثب . كان راكبه يكبحه بالعنان ويهمزه بالمهمـــاز في آن ، فانتحيت جانب الطريق ، وأخذ أبي عنـــان الجـواد بيديـــه ، وابتعد عن زينايبدا ، بينما أرسلت هي اليه نظرة وانية ، وانطلقا يخبّان جواديهمـــا متواكبين ... وتبعهمـــــا بيلوفزوروف وسيفه يقعقع ... قلت في نفسي : «انـــه احمر كالسرطان البحري وأما هي ... ففيم شحوبها ؟ انها كانت تقضي الصباح كله في الركوب فلماذا هذا الشحوب ؟»

حثثت الخطى فبلغت الدار في موعد الغداء . كان أبي قد بدل ثيابه ، واغتسل فبدا نضراً ، وجلس بجنب مقعد أمي وراح يقرأ عليها بصوته الرتيب المرنان مقالة ساخـــرة في «Journal des Débats» كانت أمي تصغي في غير اقبـــال ، ولما رأتني سألتني : أين كنت شارداً طوال النهار . ثم اضافت قائلة : انها لا تحب من يتسكعون حيث لا يعلم الا الله ، او يرافقون من ليس يدري بامورهم الا الله . وهممت بأن اقول لها انني كنت أتنزّه وحيداً ، ولكنني نظرت الى أبي ، ولا ادري لماذا التزمت الصمت .

١٥

لم ألتق زينايبدا الالماما طوال الايام الخمسة او الستة الاخيرة ، قالت انها مريضة ، ولكن ذلك لم يمنع الزائريـــن التقليديين من الذهاب الى بيتهـــا لأداء الواجب ــ على حـــد

قولهم . كانوا يأتون الى بيتها جميعاً ما عدا مايدانوف ، فقد كان يشتمله القنوط والوهن كلما نضب معين إلهامه . وكان بيلوفزوروف ينتبذ ركناً قصياً من الغرفة ، فيجلس بوجه عبوس شديد الاحمرار ، وسترة مزررة حتى العنق . واستقرت في وجه الغراف ماليفسكي الدقيق ابتسامة شائلة ؛ فانه فقد في الواقع الحظوة عند زينايبيدا واصبح شديد الحرص على استرضاء الاميرة العجوز ، بل انه رافقها ذات مرة فى عربة الى دار الحاكم العام ، ولكن تلك الزيارة لم تثمر شيئاً ، وكان من نكدها عليه : أن القوم ذكّروه هناك بسابقة من السوابق اشترك فيها مع بعض الضباط ، ولم يكن لديه ما يدافع به عن نفسه الا القول بانه كان مغفلا عديم التجربة . أما لوشين فكان يأتى الى الجناح زائراً مرة او مرتين في اليوم ، ولكنه لا يمكث الا قليلا ، وقد اصبحت أخشاه بعض الخشية بعد حديثنا الاخير ، واشعر بالميل نحوه فى الوقت نفسه . وقد ذهبنا ذات مرة في نزهة خلال حدائق نيسكوتشني ساد ، فكان حديثه معي في غاية اللطف والرقة ، جعل يذكر لي أسماء الاعشاب والازهار المختلفة ، ويحدثني بخواصها ، ثم اذا هو يهتف فجأة ، ونحن على حدّ القول الدارج لا هنا ولا هناك ويضرب بيده على جبينه قائلا : « ما انا الا احمق . لقد ظننت أنها مجرد فتاة لعوب ، فظهر أن التضحية بالنفس مستعذبة عند البعض » .

فسألته :

ــ ماذا تريد بهذا أن تقول ؟

فأجابنى لوشن في حدة :

ــ لا شيء اريد أن أقوله لك أنت .

كانت زينايبيدا تتجنب مقابلتي ، ولاحظت انها تضيق ذرعاً برؤيتي ، وتشيح وجهها عني بصورة غريزية ... بصورة غريزية ؛ وهذا بالذات ما كان يعذبني ويسحقني وأنا لا أملك شيئا حياله . وقد جهدت في توقّي نظراتها ، واكتفيت بمراقبتها من بعيد ، فلم أفلح في ذلك كل الفلاح .

كان يتداخلها شيء مبهم يتعصّى على الفهم : أصبح الوجـه غير وجهها، وتغيرت أحوالها جملة . وأدهشني على الخصوص ما ظهر منها في ذات مسا هادئ دافئ . كنت أجلس في دكّة واطئة ، ورأسي تحت فرع عريض من شجيرة خزام ؛ وهو مضوع آثرته لأنه يكشف لي عن نافذة زينايبدا . كنت أجلس وفوق رأسي طائر صغير يلوب بين الاوراق المظلمة ؛ وتمطت قطة رمادية ثم انسلت الى الحديقة في هدوء ، واوائل الصراصير تملأ الجو بأزيزها الثقيل ، والفضاء ما زال شفافاً ولكنه غير مضيء . كنت أنظر من مجلسي الى النافذة وأنتظر ان تفتح ؛ وما لبثت ان فتحت ، وظهرت فيها زينايبدا . كان عليهـا فستان أبيض ، وهي نفسها ، بوجهها وكتفيها وذراعيها بدت شاحبة الى حد البياض . طال وقوفها من دون حركة ، وهي تنظر بحاجبين مقطبين نظرة ثابتة ولا تندّ منها حركة ،لم أكن أعرف أنها قادرة على مثل هذه النظرة ؛ ثـم ضمت يديهـا بأقصى ما تكون الشدة ورفعتهما الى شفتيها فجبينها ؛ وفجأة بسطت أصابعها وجعلت شعرها وراء أذنيها ، وهزت رأسها، ونفضت شعرها في عزم ، وصفقت مصراع النافذة .

التقينا بعد ثلاثة ايـام في الحديقـة ، أردت أن أمضي مجانباً ولكنها استوقفتني وقالت بلهجتها في الايام الخالية :

ـ هات أعطني يدك ، فاننا لم نثرثر مع بعضنا البعض منذ وقت بعيد .

نظرت اليها فاذا عيناها تضيئان بنور هـادئ ، وكأن وجهها يبتسم من خلال ضباب خفيف .

سألتها :

ـ أما زلت موعوكة ؟

فأجابت وهي تقطف وردة حمراء :

ـ لا ، فقد زال كل شيء الآن . اني متعبة قليلا ، ولكن هذا سيزول ايضاً .

ـ هل تعودين كما كنت من قبل ؟

فرفعت زينايبدا الوردة الى وجهها ، وعندئذ تراءى لي

كأن ضياء اوراق الوردة المتألـق ينعكس في خديهـا .
وسألتني :

ــ أتراني تغيرت ؟

فقلت بصوت خافت :

ــ أجل ، تغيرت .

فقالت زينابيدا :

ــ أعرف أنني كنت باردة معك ، ولكن ما كان ينبغي لك أن تهتم بهذا الأمر ... لم أكن أستطيع غير ذلك ... ولكن فيم الحديث عن هذا !

فصحت دون قصد بنبرة حزينة :

ــ لا تريدين لي أن أحبك . هذا هو الامر !

ــ لا جرم أن تحبني ولكن غير حبك من قبل .

ــ بل كيف ؟

ــ أن نكون اصدقاء .

وأضافت وهي ترفع الوردة لأشمها :

ــ اسمع . اني أكبر منك سناً ، وكان يمكن لي ان اكون عمتك ، ليس عمتك بل اختك الكبرى ، وأما انت ...

فقاطعتها قائلا :

ــ مجرد طفل في نظرك .

ــ أجل ، ولكنك الطفل الظريف الطيب الذكي الذي أحبه كثيراً . أصغ الي ، ستكون وصيفي الخاص منذ اليوم ، ولا تنس أن الوصيف لا يستطيع أن يبتعد عن سيدته . وها هي ذي شارة منصبك الجديد . ــ اضافت وهي تضع الوردة في عروتي ــ شارة رعايتنا لك .

فتمتمت قائلا :

ــ لقد تلقيت لوناً آخر من رعايتك فيما مضى .

فصاحت زينابيدا :

ــ آ ! ..

وأضافت وهي ترمقني بجانب عينيها :

ـ يا لقوة ذاكرته ! ولكن ما المانع ؟ فأنا مستعدة الآن ايضاً ...

وانحنت عليّ تطبع على جبيني قبلة صافية هادئة .

لم أملك سوى أن نظرت اليها ، بينما استدارت تقول : «هيا اتبعني يا وصيفي» ، وسارت نحو الجناح وأنا في أثرها . كنت في حيرة من كل هذا ، ورأيتني أقول في نفسي : «أيعقل أن تكون هذه الفتاة الوديعة الفطنة هي نفسها زينايبيدا التي عرفتها من قبل ؟» . لقد تغيرت حتى أن مشيتها تراءت لي أهدأ مما كانت ، وزاد جسدها كله جلالا ورشاقة ...

يا آلهي ، بأية قوة جديدة أصبح حبي يتلهب !

١٦

اجتمع الضيوف في الجناح بعد الغداء ، وخرجت الاميرة الشابة الى استقبالهم . التقى افراد الشلة جميعاً كما كانوا في تلك السهرة الاولى التي لن أنساها : بل حتى نيرماتسكي جاء ؛ وصل مايدانوف قبل الآخرين في هذه المرة ومعه قصيدة جديدة وبدأت لعبة الجزاءات ايضاً ، ولكن من دون تلك المزحات الشاذة وما اليها من الهرج والمرج ، فقد اختفى من ضوضائنا عنصرها النّوري ، وأضفت زينايبيدا على المجلس روحاً جديدة . جلست الى جانبها كما يقتضي من الوصيف . كانت قد اقترحت في اثناء اللعب أن يروي من يسحب الورقة الخاسرة ما رآه في المنام ؛ ولكن اقتراحها لم يحالفه النجاح ، فالاحلام جاءت اما سخيفة (رأى بيلوفزوروف في المنام أنه يعلف حصانه سمك الشبوط ، وأن للحصان رأساً من خشب) ، او لا أصل لها ولا فصل ، فقد تكرّم علينا مايدانوف بقصة طافحة بالتوابيت ، وبالملائكة في ايديهم المزاهر ، وبالازهار الناطقة ... والترانيم القصية الرنين ... ولكن زينايبيدا قطعت عليه حبل الاستمرار الى النهاية ،

وقالت : «ما دمنا في مجرى الاختلاق فليرو كل شيئاً من بنات الخيال» .

كان على بيلوفزورف أن يكون البادئ في الحديث .

ولكن الفارس الشاب حرجه الموقف فصاح :

ـ اني لا استطيع أن أبتكر شيئاً .

فقالت زينايبدا :

ـ ما هذا الكلام الفارغ ! افترض أنك ، على سبيل المثال ، متزوج ، فحدثنا كيف تعامل زوجتك . هل تغلق دونها الابواب ؟

ـ أجل ، كنت أحبسها .

ـ هل تجلس اليها أنت بالذات ؟

ـ أكيد كنت أجلس اليها .

ـ ظريف ، ولكن هب أنها انزهقت وخانتك ؟

ـ كنت أقتلها .

ـ واذا هربت ؟

ـ أذهب في طلبها ، ومهما يكن فأني أقتلها .

ـ ولكن هب أني زوجتك فماذا كنت تفعل ؟

فأمسك بيلوفزوروف عن الكلام لحظة ثم قال :

ـ كنت أقتل نفسي .

فضحكت زينايبدا وقالت :

ـأرى أن انفاسك في الغناء قصيرة* .

في السحب الثاني جاءت الورقة مع زينايبدا ، فرفعت عينيها الى السقف واستغرقت في التفكير ، ثم قالت أخيراً :

ـ اسمعوا ماذا اخترعت . تصوروا قصراً منيفاً ، وليلة صيف ، وحفلة رقص رائعة . الحفلة أقامتها ملكة شابة . في كل ناحية ذهب ومرمر وبلور وحرير وأضواء وألماس وأزهار وبخور وكل ما يشتهى من الترف .

فقاطعها لوشين قائلا :

---

* المقصود أنه ضيق الصدر قليل الصبر . (**المترجم**) .

ـ وهل أنت تحبين الترف ؟

فأجابت :

ـ الترف جميل ، وأنا أحب كل جميل .

فسأل :

ـ أكثر من الرائع ؟

ـ هذا تعقيد لا أفهمه فلا تشوش عليّ ... واذن فأن الحفلة غاية في الروعة . الضيوف كثرة ، وهم جميعا شبان وسماء شجعان ؛ وكلهم متيّم بحب الملكة .

فسأل ماليفسكي :

ـ هل بين الضيوف نساء ؟

ـ لا ... بل طوّل بالك ، أجل ، هناك نساء .

ـ وهل هنّ جميعاً غير جميلات ؟

ـ بل فاتنات الجمال ، ولكن الرجال كلهم واقعون في حب الملكة ، فهي هيفاء لفّاء ... تزين شعرها الأسود بأكليل صغير من الذهب .

نظرت الى زينابيدا فبدت لي في تلك اللحظة أرفع شأناً منا نحن جميعاً ، ورأيت الذكاء والاقتدار يتألقان في جبينها الوضاء وحاجبيها الثابتين ، فقلت في نفسي : «انك أنت تلك الملكة !» .

واستطردت زينابيدا :

ـ وأحاطوا كلهم بها يتملقونها بالمدائح .

فسأل لوشين :

ـ هل تحب الملق ؟

ـ يا لك رجلا لا يطاق ، ما تفتأ تقاطعني ... فمن لا يحب الملق ؟

فقال ماليفسكي :

ـ هناك ايضاً سؤال أخير . هل للملكة زوج ؟

ـ لم أفكر في هذا . ولكن ، لا ، فلماذا الزوج ؟

فقال ماليفسكي موافقاً :

ـ طبيعي فلماذا الزوج ؟

فصاح مايدانوف بالفرنسية وكانت لهجته فيها قبيحة :

– Silence!* ·

فقالت له زينايبيدا :

– Merci** · وعلى ذلك ، تستمع الملكــــة الى تلك المدائح ، وتصغي الى الموسيقى ، من دون أن تنظر الى أحد من الضيوف ؛ هناك ست نوافذ مفتوحة المصاريع من السقف الى الارض ، ووراءها السماء المظلمة والنجوم الكبيرة ، ثم ان الحديقة مظلمة ، فيها أشجار ضخمة ، والملكة بصرها في الحديقة ؛ بين الاشجار نافورة تسطع في الظلمة ، طويلة طويلة كأنهــا الشبح . وتستمع الملكــــة من خلال الكلام والموسيقى الى ترشش الماء الهادئ ؛ وانها لتنظر وتفكر : انتم جميعاً ايها السادة ، معشر نبلاء أذكياء أغنياء . وها أنتم أولاء تحيطون بي ، وتعتزون بكل كلمة من كلماتي ، كلكم مستعد للموت على قدمي ، وأنا المسيطرة عليكم ... ولكن هناك على مقربة من النافورة ، حيث يترشش ذلك الماء ، يقف ذاك الذي أحبه وينتظر ، ذاك الذي يسيطر عليّ ، ليس عليه ثوب فاخر ولا حجر كريم ، وهو مجهول ، ولكنه ينتظرني ، وهو على يقين من أنني سأجيء ، ولسوف أجيء ، فما من قوة تحبسني عنه حينما أريد أن أذهب اليه ، وألبث لديه ، ونضيع معاً في ظلمة الحديقة ، بين حفيف الشجر وخرير النافورة ...

سكتت زينايبيدا .

فسألها ماليفسكي في خبث :

– هل هذا من نسج الخيال ؟

ولكن زينايبيدا لم تتنازل حتى الى النظر نحوه . وقال لوشين فجأة :

– وماذا سنفعل نحن ايها السادة ، اذا كنــــا بين

---

* اسكت !

** شكراً .

الضيوف وعلمنا بأمر ذلك المحظوظ صاحب النافورة ؟
فقاطعته زينايدا بقولها :
ـ طوّلوا بالكم ، لا تعجلوا ، فأنا بالذات أقول ما سيفعله كلّ منكم . فأنت يا بيلوفزوروف تدعوه الى المبارزة ، وأنت يا ميدانوف تهجوه بمقطوعة ... ولكن لا ، فأنك قصير باع في كتابة المقطوعات ، ستهجوه بمعلقه على طريقة باربيه وتنشر خريدتك في مجلة «التلغراف» . وأنت يا ڤيرماتسكي تقترض منه ... كلا ، بل تقرضه النقرد بفائدة مئوية . أما أنت يا دكتور ....ـ وأمسكت لحظة ثم قالت ـ هل رأيت ، اني لا أدري ما كنت ستفعله أنت .
فأجاب لوشين :
ـ بصفتي طبيب البلاط ، كنت أنصح للملكة أن لا تحيي حفلات راقصة حينما تكون في مزاج ينبو بها عن الضيوف .
ـ لعلك أن تكون على صواب . وأنت يا غراف ...
ـ انا ؟ ـ عاد ماليفسكي يسألها وعلى وجهه ابتسامة خبيثة .
ـ أما أنت فكنت تقدم اليه السم في قطعة حلوى .
فارتعش وجه ماليفسكي ، واكتسى خلال لمحة بتعبير لئيم ولكنه ما لبث ان قهقه ضاحكاً .
وتابعت زينايدا متوجهة اليّ :
ـ وماذا بخصوصك يا فولديمار ... ولكن بس ففي هذا القدر كفاية ، وهيّا نلعب لعبة أخرى .
فقال ماليفسكي في لذع :
ـ ان السيد فولديمار وصيف الملكة ، وبهذا الحق سيحمل أذيال ثوبها حينما تهرع الى الحديقة .
فاختنق وجهي بالاحمرار ، ولكن زينايدا وضعت يدها على كتفي ونهضت ، وقالت بصوت فيه رجفة خفيفة :
ـ اني لم أسمح لسيادتك قط بأن تكون بذيئاً ،

ولهذا أرجوك أن تغادر هذا المنزل . ـ وأشارت له نحو الباب .

فتمتم ماليفسكي وقد شحب لونه :

ـ ما هذا الكلام يا أميرة ؟

فصاح بيلوفزوروف وهو ينهض أيضاً :

ـ ان الاميرة على حق .

فقال ماليفسكي :

ـ اقسم بالله أني ما كنت أتوقع ، ما كنت أظن أن في كلامي شيئاً مما ... لم يخطر ببالي شيء قد يسيء اليك ... سامحيني أرجوك .

فرمته بنظرة باردة ، وضحكت في برودة ، وقالت وهي تطوح يدها في أستخفاف :

ـ لك أن تبقى اذا شئت ، فقد غضبنا أنا والسيد فولديمار من دون مبرر . انت تمزح لتجرح ... تفضل صحتين .

فعاد ماليفسكي يقول :

ـ سامحيني أرجوك .

وتذكرت حركة زينايدا فقلت في نفسي ، ما كان لملكة حقيقية أن تومئ لمطرود نحو الباب بجلال أعظم من تلك الايماءة .

لم تستمر لعبة الجزاءات الا قليلا بعد هذا الحادث العابر ؛ فقد سرى التحرج بين الحاضرين جميعاً لا بسبب الحادث نفسه ، بل من جراء شعور ثقيل لم يتحدث عنه احد ، وانما استشعره كلّ في نفسه وأدركه في جاره . وانشدنا مايدانوف قصيدته ، فاندفع ماليفسكي يثني عليها بكثير من الحماسة ، فهمس لوشين في أذني : «ما أشد رغبته في أن يبدو كريم النفس الآن» . وما لبثنا أن تفرقنا ، فأن زينايدا قد استغرقت في التفكير ، والاميرة العجوز أرسلت من يقول انها تتألم من رأسها ، وأخذ نيرماتسكي يتشكى من روماتيزمه .

وتعصى عليّ النوم وقتاً طويلا فقد بهرتني قصـــة زينايبدا ، وساءلت نفسي : «هل قصدت ان تلمح بها الى أمر ، فما هو المقصود ، ومن هو المقصود ؟ واذا كان ما لمحت اليه واقعاً بحذافيره فكيف أقدمت ؟.. لا ، لا ، فان هذا مستحيل» ، ـ همست وانا اتقلب من خد متوقد الى آخر ... ثم تذكرت ما ارتسم في وجه زينايبدا من تعبير وهي تروي قصتها ... وصيحة لوشين التي اطلقها عفو لحظته في حديقة نيسكوتشني ، وما طرأ فجاة من انقلاب على مسلكها تجاهي ـ وارهقتني الظنون «فيمن يكون ؟» . كانت هاتان الكلمتان بالذات نصب عيني منقوشتين في الظلام ، وشعرت كأن سحابة منخفضة مملوءة بالشر تخيم فوق رأسي ، شعرت بضغطها وانتظرت ان تنفجر في أية لحظة . لقد تعودت كثيراً من الاشيـــاء في الآن الاخير ، ورأيت كثيراً من الاشيــــاء عند آل زاسيكين ، حيث : الفوضى ، واعقاب الشموع الذائبة ، والسكاكين المثلمة ، والشوكات المهتّمة ، وسحنة فونيفاتي العابسة ، ورثاثـــة الخدم ، وبدوات الاميرة العجوز . كل هذه الحياة الغريبة أصبحت لا تذهلني ... ولكني لم أستطع ان أتعود ما كان يبدو مستغلقاً في زينايبدا «المغامرة» ـ هذا ما قالته أمي عنها ذات مرة ، ان هذه «المغامرة» معبودتي ، إلهتي ! لقد ألهبتني هذه التسمية فالتمست الفرار منها باغراق وجهي في الوسادة . كنت مغيظاً ... ولكني مهيأ في الوقت نفسه لكل تضحية وبذل أبهظ ثمن تلقاء أن أكون أنا ذلك المحظوظ صاحب النافورة !..

كان دمي يغلي ويفور ، وفكــرت : «الحديقـــة ... النافورة ... عليّ ان اخرج الى الحديقة» . وفي ومضـــة كنت أرتدي ثيابي وأنسل من المنزل . كان الليل مظلماً ، والاشجار تتهامس في خفوت ، وبرودة هادئة تسقط من السماء ، ورائحة الشمّار تنبعث من المبقلة . ذهبت ارتاد دروب الحديقة ، ووقع خطواتي يثير فيّ الرهبة والانتعاش

في آن . كنت أتوقف وأنتظـــر وأصغى الى نبض قلبي وهو يخفق قوياً سريعاً ، واخيراً بلغت السور ، فاستندت الى احدى دعائمه الدقيقة . وفجأة شعرت ـ او لعل هذا ما توهمته ـ ان جسماً انثوياً على مبعدة بضع خطوات من موقفي ، قد انخطف مسرعاً . . . فحدقت في أعماق الظلام وأنا أحبس انفاسي . . . فما هذا ؟ أكان وقع خطواتي ، ام نبض قلبي ؟ وعدت أهمس : «من هناك ؟» . ولكن ما هذا أيضاً ؟ أهو ضحكٌ مكتوم ؟.. ام حفيف أغصان ؟.. ام انفاس تتردد في أذني؟ لقد ملأ الرعب قلبي فهمست باطراف شفتي: «من هناك ؟» .

تراوحت نسمة في خلال لحظة ، وبرق بارق في السماء ، وسقطت نجمة ، فهممت بان أسأل : «هل انت زينايبدا ؟» ، ولكن الصوت اختنق في حلقي ، وجثم فجأة سكون عميق كهذا السكون الذي يلمّ كثيراً في دلج الليل . . . وصمت كل شيء حتى أزيز الجنادب في دغل الشجيرات ، ثم سمعت صرير نافذة ، ولم أبرح مكاني بل مكثت قليلا وعدت بعدئذ الى غرفتي والى فراشي البارد . كنت اضطرم بانفعال غريب : فكأنني ذهبت الى موعد لقاء ، بقيت فيه وحيداً ، ومررت عابراً بسعادة امرئ غريب .

١٧

لم أستطع أن أرى زينايبدا في اليوم التالي اكثر من لمحة مختطفة وهي تمر في عربة مع أمها ، ورأيت لوشين ولكنه اختصر التحية ولم يتلبث ثم رأيت ماليفسكي ، فلبث الغراف الشاب يبتسم ويتحدث اليّ في ود ، كان الوحيد بين زبن الجناح الذي استطاع ان يندس علينا في المنزل وان يكون مقرباً من أمي . كان أبي يستثقل ظله ويسرف في التأدب معه الى درجة الاهانة . وبدأ ماليفسكي قائلا :

ـ Ah, monsieur le page,* اني لسعيد بلقائك . ترى ماذا تفعل ملكتك الرائعة ؟

* آه ، يا سيدي الوصيف .

وبدا وجهه النضير الجميل مقرفاً في تلك اللحظة ، ونظرته ماجنة مستهترة بحيث أمسكت دونه عن كل جواب .

ومضى يقول :

ـ ألا تزال غاضباً ، دع هذا العبث ، فما أنا من لقبك بالوصيف ، فأن اصطناع الوصفاء من حق الملكات ، ولكن اسمح لي ان ألفت انتباهك الى انك تهمل واجباتك .

ـ كيف ذلك ؟

ـ من واجبات الوصيف الاّ يفترق أبداً عن سيدته ، وعلى الوصفاء ان يحيطوا علماً بكل أمر ، والاّ يجهلوا ما يجري في السر . ـ واضاف بصوت خافت : ـ وعليهم ايضاً ان يراقبوهن في النهار والليل .

ـ ماذا تريد ان تقول ؟

ـ ماذا اريد ان اقول ؟ ما بعد هذا الافصاح زيادة في الايضاح . ليل نهار ، في النهار بين بين لأنه مبصر بنوره وبالناس ، وانتظر الفجاءات في الليل ، وانصح لك بأن تسهر الليالي ، وان تراقب بعين مفتوحة . راقب بكل ما تملك من القوة ، وتذكر : الحديقة والليل والنافورة ، فهناك ينبغي لك ان تترصد ، ولسوف تشكرني .

ضحك ماليفسكي وهو يدير لي ظهره . ولعل الأرجح أنه لم يكن يحفل كثيراً بما قال ؛ فالمعروف عنه أنه مهذار لا يشق له غبار ، كان مشهوراً بخداعه الناس في الحفلات المقنعة يساعده ما هو عليه من زيف يتغلغل في كل طبيعته . . . اراد ان يعبث بي فقط ، ولكن كلماته سرت في عروقي كأنها السم ، وصعد الدم في رأسي . . . وقلت لنفسي : « آ ، واذن هكذا ! طيب ! الامر اذن ان هواجسي امس كانت في محلها ، وان انجذابي الى الحديقة لم يكن من دون سبب ! » فصحت وانا أقرع صدري بقبضة يدي : « هذا لن يكون ! » ولم يكن في مقدرتي ان اعرف ما هذا الذي لن يكون . وفكرت : « لئن جاء ماليفسكي نفسه الى الحديقة (ولعله كان ينطق بالحقيقة ففي صفاقته ما يكفي لهذا) او

كان القادم شخصاً آخر (كان سياج حديقتنا منخفضاً فلا يصعب على احد ان يتخطاه) فان من سيقع في يدي لن يلقى ما يشرح الصدر ، ولا انصح لاحد ان يتصدى لمواجهتي ، سأثبت للعالم كله ، ولتلك الخائنة (أجل سميتها ، الخائنة) انني قادر على الانتقام !»

عدت الى غرفتي وسحبت من درج مكتبتي سكيناً انجليزية كنت اشتريتها منذ وقت غير بعيد ، وتحسست شفرتها القاطعة ، ثم وضعتها في جيبي بحركة باردة حازمة وانا مقطب الجبين كأنني صاحب سوابق عريق في نظائر هذا التدبير ، وقد توقد قلبي بالشر وأصبح كالحجر ، وبقيت مقطب الجبين مكتزّ الشفتين حتى أقبل الليل ، أروح وأجيء ، ويدي في جيبي تقبض على السكين الدافئة ، وقد اعددت نفسي لأمر رهيب . شغلتني هذه الاحاسيس الجديدة حتى انها أشعرتني بالمرح ايضاً ، ورأيتني لا افكر في زينابيدا الا قليلا ، وأطاف بي طيف الفتى النوري «أليكو» : «الى أين ايها الفتى الجميل ؟ ــ هيا توسد الارض ...» ثم : «انك خضبت بالدماء !.. اوه ماذا فعلت ؟..» ــ «لا شيء !»*، وباي ابتسامة قاسية رددت هذه الكلمة : «لا شيء» . لم يكن أبي في البيت ، ولكن أمي، وكانت منذ ايام تقيم على حال دائمة من الانفعال المكبوت ، تنبهت لما يظهر في سحنتي من علائم الشؤم ، فسألتني وقت العشاء : «فيم انت عابس الوجه مثل الفأر في الطحين ؟» فتلطفت عليها بابتسامة كانت فصل الجواب ، وانا اقول في نفسي : «آه لو انهم عرفوا !» . دقت الساعة الحادية عشرة ، فذهبت الى غرفتي ، ولكني لم اخلع ثيابي ، بل انتظرت أن ينتصف الليل ، وما لبثت الساعة ان دقت ، فهمست لنفسي من خلال أسناني المطبقة : «حان الوقت !» ،

---

* مقتطفات من قصيدة بوشكين «النوَر» . (المترجم) .

وزررت سترتي حتى العنق ، وشمرت عن ساعدي ، وانطلقت نحو الحديقة .

كنت قد انتقيت المكان الملائم للترصد : ففي آخر الحديقة حيث يتصل السياج الذي يفصل بين عقارنا وعقار آل زاسيكين ، كانت تقوم شجرة شوح متوحدة ، فلو انني وقفت تحت اغصانها الكثيفة المنخفضة ، لتمكنت ان ارى ما يجري حولي بالمقدار الذي تسمح به ظلمة الليل ؛ فهنا يتلوى الطريق الذي كان يبدو لي محاطاً بالغموض ، ويتأفعى ذاهباً تحت السياج ، وعليه في هذا الموضع آثار القافزين ، ثم يفضي الى عريش مستدير تناهت اليه فروع من أشجار الأكاسية . عندئذ مضيت الى شجرة الشوح واستندت الى جذعها وأخذت أرقب .

خيم على الليل سكون عميق يشبه ما خيم على الليلة الفائتة ؛ ولكن السماء بدت أقل ظلمة مما كانت أمس ، فظهرت أطياف الشجيرات وحتى الاطراف العالية من الازهار على نحو أوضح . مرت الدقائق الاولى من الانتظار مملولة بل مخوفة ايضاً ، كنت مستعداً لكل امر ، لا يشغلني الاّ كيف أبدأ الهجوم : أأرعد صائحاً : «الى اين تذهب ؟ قف ! اعترف او تموت !» ام أطعن فقط . . . كان كل صوت ، وكل نأمة من حفيف او هفيف يبدو لي مثيراً عجيباً خارقاً . . . فأتحفّز وأنحني الى امام . . . ولكن مضى نصف ساعة . . . ثم ساعة ، فهدأت فورة دمي وبردت ؛ وبدأت أدرك ان عملي هذا عبث لا جدوى منه ، وانني سلكت على نحو يدعو الى الضحك ، وان ماليفسكي قصد الى الهزء بي ، وقد سرى ذلك كله في نفسي ، فغادرت مكمني ، وذهبت أجوس خلال الحديقة . وبدا كأن في الامر قصداً لا صدفة ، فقد اشتمل السكون كل شيء ، فما يلتقط السمع نبرة ولا نأمة ، بل حتى كلبنا تكوّر منطوياً على نفسه عند باب الحديقة وغطّ في النوم . ثم تسلقت الدفيئة المتهدمة وأرسلت بصري من عليائها الى الحقول البعيدة ، وخطر ببالي التقائي بزينايدا فسرح ذهني .

ونقزت فجأة ... فقد شبّه علي أنني سمعت صرير باب يفتح ويتبعه على الاثر صوت غصن يتقصف في خفوت ؛ فرأيتني أبلغ الارض بوثبتين واجمد في مكاني . فهناك خطوات سريعة خفيفة ولكنها محاذرة كانت تخفق واضحة وتدب في الحديقة . . . أخذت تقترب مني ، فومض في قلبي : «انه هو ، ها هو ذا أخيراً !» وسحبت السكين من جيبي بيد يرعشها الانفعال ، وفتحتها مهتزاً والشرر الاحمر يتطاير من عيني ، وقد قفّ شعر رأسي من الخوف والغضب ... وزادت الخطوات اقتراباً مني ، فتربصت ، وهممت بها ... فتراءى لي شخص . . . ولكن يا إلهي ! كان الرجل أبي !

عرفته في الحال على الرغم من معطفه الاسود الذي أسبغه على جسمه ، ومن قبعته التي شدها على وجهه ، واجتاز بي على اصابع قدميه . لم يكن هناك ما يحجبنى ، ولكنه لم يلحظني . ذلك لأنني انكمشت وتضاءلت حتى لكأنني وطاءة من الارض . وتحول عطيل الغيران الظمآن الى الدم ، دفعة واحدة ، الى مجرد تلميذ . . . لقد أفزعني ظهور ابي المفاجئ ، حتى انني ذهلت للوهلة الاولى فلم ألحظ من أين جاء وأين اختفى ، ولما عاد السكون يمد رواقه حولي ، شددت قامتى وتساءلت : «فيم جاء هذا الاب يسير ليلا في الحديقة ؟» . كانت السكين قد سقطت مني في العشب أثناء الوهل ، ولكني لم أذهب في البحث عنها جرّاء ما اعتراني من شعور طاغ بالخجل . لقد أفقت لنفسي دفعة واحدة ، ولكني عجت في طريق العودة الى البيت على دكتي تحت شجيرة الطلح ، وأرسلت بصري الى نافذة الغرفة التي تنام فيها زيناييدا ؛ لم تكن النافذة كبيرة ، كان زجاجها المستدير قليلا يبدو أزرق اغبش تحت النور الضعيف الذي يسقط من غسق السماء . وفجأة أخذ لونه يتغير . . . ووراءه كان ستار ابيض ينزل ـ لقد رأيت هذا ، رأيته واضحاً بأم عيني ـ واستمر ينزل في بطء وهدوء حتى بلغ حافة النافذة ، ثم سكن عن الحركة .

حينما صرت الى غرفتي رأيتني اقول بصوت مرفوع : «ما هذا ؟ أكان ما كان حلماً أم مصادفة ام . . .» . لقد ازدحمت الظنون بغتة في رأسي ، وكانت جديدة غريبة بحيث تعصّى عليّ ان أركن اليها .

١٨

استيقظت في الصباح برأس موجوع ، وقد زال ما اعتراني في الليل من الانفعال ، وتبدل بشعور من دهشة ثقيلة ومن كآبة لم اعرف مثلها من قبل ، فكأن شيئاً يموت في نفسي .

وقال لوشين حينما التقينا :

ــ لماذا تنظر كالأرنب الذي نزع عنه نصف مخه ؟

جعلت استرق النظر في أثناء الفطور تارة الى أمي وتارة الى ابي ، فكان هو في مألوف عادتــه من الهدوء ، وهي في مألوف عادتها من الغيظ المكتوم . وانتظرت ان يأخذ أبي معي في حديث ودود مما يجري مثله بيننا في بعض الاحيان . . . ولكنه لم يتكرم عليّ بملاطفته اليومية الباردة . وقلت في نفسي : «هل أحدث زينايبدا بكل شيء ، فالامر سواء مادام كل شيء قد انتهى بيننا» . وذهبت اليها ، ولكن لم يتفق لي ان اتكلم معها على امر ، بل ما تاح لي أن أتحدث معها على حدة كما رغبت . فقد كان ابن الاميرة الحميم قد وصل قادمــاً من بطرسبورغ لتمضية العطلة ، وهو تلميذ نظامي * في الثانية عشرة من عمره ، فعهدت اليّ زينايبدا بامر أخيها قائلة :

ــ اليك بهذا الرفيق يا حبيبي فولوديا (هذه اول مرة تناديني على هذا النحو) ، اسمه فولوديا أيضاً ، أرجو ان

---

* رأينا ان نترجم كلمة كاديت الروسية على هذا النحو لأنهــا تدل في الاصل على طرز من تلاميذ المدارس العسكرية المعروفة في ذلك الحين . (**المترجم**) .

تحبه ، انه لا يزال وحيشاً * ولكن قلبه طيب . اخرج للتجول معه في حديقة نيسكوتشني ، او للنزهات ، فاني أعهد به الى رعايتك ، فهل تفعل ؟ انك لطيب على ما أعرف .

ووضعت يديها على كتفي بلطف فتضعضعت وضعت . لقد اعادني قدوم هذا الصبي الى عهد الصبا ؛ ونظرت صامتاً اليه ، وكان يحدق فيّ صامتاً ، فقهقهت زينايدا ودفعت بنا أحدنا نحو الآخر ، وقالت :

ـ هيا تعانقا أيها الطفلان !

فتعانقنا .

وسألت الصبي :

ـ أتريد ان أقودك الى الحديقة ؟

فأجابني بنبرة جشَاء ولهجة تلميذ نظامي :

ـ تفضلوا اذا سمحتموا .

فعادت زينايدا تضحك . . . فلاحظت ان وجهها لم يكن أبداً على ما كان عليه من الاشراقات البديعة . وانطلقت ذاهباً مع الصبي . كان في حديقتنا أرجوحة قديمة ، فأصعدته على مقعدها الخشبي الضيق ، وجعلت أؤرجحه وهو جالس من دون حركة ببذلته النظامية الجديدة المفصّلة من قماش سميك والمزينة بشرائط ذهبية عريضة ، وقد تشبث بالحبال في قوة .

قلت له :

ـ لماذا لا تحل ياقتك ؟

فقال وهو يجلو حلقه :

ـ لا بأس ، فنحن تعودنا .

كان يشبه اخته ، وقد ذكرتني عيناه خاصة بعينيها ، فأبهجني ان أعني بشؤونه ، كنت مؤوداً في الوقت نفسه بحزن دفين يمضّ في قلبي ، وفكرت : «اني الآن لا أزيد عن طفل ،

---

* المقصود انه لم يألف المجتمعات من الناس . **(المترجم)** .

واما امس . . .» وتذكرت أين سقطت مني السكين فوجدتها، وطلب الصبي أن أعيره اياها ، ثم انه قطع ساقاً غليظة من القصب فصنع مزماراً وجعل ينفخ فيه ، وكذلك فعل عطيل فكان له دوره في الزمير أيضاً .

ولكن هذا العطيل بكى في ذلك المساء بكاء شديداً على ذراعي زينابيدا حينما عثرت عليه في ركن الحديقة وسألته عما يحزنـــه ، لقد انهمـــرت دموعي بغزارة افزعتهـــا فسألتني :

ــ ماذا بك ، ماذا بك يا فولوديا ؟ ــ أعادت سؤالها بقوة فلما رأتني لا أجيب ولا أنقطع عن البكاء ، ارادت ان تقبل خدي النديّ ، ولكني استدرت عنها بوجهي وانا اتمتم من خلال الزفرات :

ــ اني أعرف كل شيء ، فلماذا عبثت بي ، وما الذي أحوجك الى بعث هذا الحب في قلبي ؟

فقالت زينابيدا :

ــ اني مذنبة تجاهك يا فولوديا . . . آه ، ان ذنبي لعظيم . . . ــ أعادت قولها وهي تضم يديها ــ ما أكثر ما أنطوي عليه من الشر والظلمة والأثم . . . ولكني الآن لا أعبث بك ، فانّني أحبـــك وانت لا تتصـــور لماذا ، وكيف . . . ولكن . . . ما هذا الشيء الذي تعرفه ؟

ماذا بمقدرتي ان أقول لها ؟ كانت واقفة امامى لا ترفع بصرها عني ، كنت مملوكها من رأسي الى قدمي تلقاء هذه النظرات اليّ . . . وبعد انقضاء ربع ساعة كنت أجري مع الصبي وزينابيـــدا في سباق ؛ لم أكن ابكي ، بــــل كنت أضحك ، وكان الضحك يستنفر دموعي فتطفر من أجفاني المتورمة ، وقد استبدلت من ربطة عنقي شريط زينابيدا ، كنت أصرخ من السعادة كلما تمكنت من اللحاق بها وتطويق خصرها ؛ لقد كانت قادرة على ان تفعل بي ما شاءت .

أصعب ما يصعب عليّ أن اروي بالتفصيل ، لو طلب احد ذلك ، كل ما عانيته طوال الاسبوع الذي تلا تلك الرحلة الاستطلاعية الليلية الخائبة ، فقد كانت اياماً غريبة محمومة، اختلطت فيها النقائض من المشاعر والافكار والظنون والآمال والاحزان واخذت تدور في دوامة . لكان يفزعني أن أنظر في ذات نفسي لو أن بمقدرة صبي في السادسة عشرة من عمره أن ينظر في ذات نفسه . كنت اخاف ان اناقش نفسي الحساب عما كان ، ولا افعل الا ان استدفع النهار واستعجل المساء . اما في الليل فكنت انام ، وقد ساعدتني غرارة سني. كنت لا أريد ان أعرف هل كانت تحبني ، ولا اريد ان اعترف لنفسي بانها لا تحبني ؛ وقد التمست كل مهرب من ابي ، أما التهرب من زينايبيدا فكان فوق طاقتي . . . كنت اضطرم كالنار وهي مني على قرب . . . ولم يهمني ان اعرف ما هذه النار التي أحترق فيها واذوب ما دمت ألتذّ ما اشعر به من احتراق وذوبان . كنت مستسلماً لكل انفعال مما يلم بي ، اخدع نفسي ، وأعرض عن الذكريات ، واغمض عيني عن هموم الغد . . . ولكن ما كان لهذا الشقاء ان يستمر وقتاً طويلا . . . فقد قصفته ضربة قاصمة قضت عليه جميعاً ودفعت حياتي في مجرى جديد .

عدت ذات يوم وقت الغداء بعد نزهة طويلة ، ففوجئت بمن اخبرني بانني سأطعم وحيداً ، فقد سافر أبي ، واعتزلت امي في غرفة نومها وهي موعوكة لا تشتهي ان تأكل . ولكن أدركت من وجوه الخدم ان واقعة غير عادية قد وقعت . . . لم اجرؤ على استجوابهم بالاسئلة ، ولكن كان لي فيهم صديق وهو الساقي الشاب فيليب ، وكان مولعاً بالشعر وبالعزف بالقيثارة ، فعلمت منه حين استجوبته ان مشاجرة مروعة شجرت بينهما (أمكن الاستماع لكل كلمة في غرفة الوصيفات وكان الحديث أكثره بالفرنسية ، ولكن القهرمانة ماشا قضت

خمس سنين من حياتها لدى خياطة من باريز فكانت تفهم ما يدور منه) ، وان امي قد اتهمت ابي في أمانته الزوجية، وبأنه على صلة موصولة بالجارة الصبية ، وكان ابي يتبرأ من التهمة في اول الامر، ولكنه غضب ايضاً بدوره، ورماها بكلمة وجيعة، «لعلها عن عمرها» ، فبكت أمي، وذكرته بامر كمبيالة أُعطيتها الاميرةَ العجوز، وتحدثت عنها وعن الآنسة ايضاً بأشد السوء ، وعندئذ استشاط ابي غضباً عليها . ثم أضاف فيليب قائلا :

ــ ولكن هذا البلاء كله انما وقع بعد رسالة خالية من التوقيع ، كتبها مجهول ، فانكشف بها الغطاء ، ولولاها لما كان هناك دليل .

فقلت بصوت متعب ، وقد شاعت بـــرودة في أطرافي وسرت رعدة في اعماق صدري :

ــ هل أردت ان تقول ان امرأ قد حدث ؟

فغمز فيليب غمزة ذات معنى وقال :

ــ لقد حدث ، فهذه أمور لا تخفى ، وقد كان ابوك في هذه المرة شديد الحذر ، ولكن لا يخلو الامر ، مثلا : تدبير عربة او شيء من هذا القبيل . . . ولا يمكن الاستغناء عن الناس في هذه الحالة .

صرفت فيليب ، وارتميت على الفراش . لم اشهق بالبكاء، ولا استغرقت في القنوط ، ولا تساءلت متى حدث ذلك وكيف ، ولا دهشت من اني لم افطن الى الامر منذ وقت بعيد ، بل اني لم اعذل أبي بلومة . . . كل ما أعلمته كان فوق ما أطيق : لقد سحقتني هذه المكاشفة . . . فانتهى كل شيء . وها هي ازهاري مقتلعة من الجذور ، مبعثرة فيما حولي تحت مواطئ الاقدام .

٢٠

أعلنت أمي في اليوم التالي أنها راحلة الى المدينة . فدخل ابي عليها في الصباح غرفة نومها ، وجلس اليها وقتاً طويلا .

لم يسمع أحد ما قال لها ، ولكن امي انقطعت عن البكاء ، واشتملتها السكينة ، وأمرت بأن يأتيها الطعام من دون ان تظهر في غرفة الطعام او تلغي قرارها . واذكر انني قضيت النهار في التجول ، ولكني لم أطرق الحديقة ، ولا القيت نظرة على الجناح . وفي المساء رأيت مشهداً أدهشني : كان أبي يأخذ الغراف ماليفسكي من ذراعه ويعبر به الصالة الى المخرج ويخاطبه في برودة على مرأي من الوصيف قائلاً : «منذ بضعة أيام مضت ، حدث في أحد البيوت أن دلوا سيادتكم على الباب ، والآن لا أريد ان أخوض معكم في الايضاحات ، ولكني أتشرف بابلاغكم بأنه اذا خطر لكم ان تتفضلوا بزيارتي مرة اخرى ، فسأرميكم من النافذة . ان خطكم لا يعجبني» . فانحنى الغراف ، وكزّ بأسنانه ، واصطنع المسكنة ، واختفى .

بدأت الاستعدادات للانتقال الى المدينة حيث كان لنا منزل في شارع آربات ؛ واغلب الظن ان أبي نفسه أصبح راغباً عن المكثان في الدارة ، ولكن كان من الواضح أنه أفلح في اقناع امي بان تحسم الحكاية . وجرى كل شيء في هدوء من دون استعجال ، بل ان امي أمرت بمن يبلغ الاميرة العجوز تحيتها والاعتذار عنها بان صحتها الموعوكة لا تساعدها في ان تمر بها مودعة قبل الرحيل . اما انا فقد كنت اتجول كالمأخوذ ، لا اتمنى الا امراً ليس غير ، وهو أن ينتهي هذا كله بسرعة . فكرة واحدة لم يتهضمها عقلي ، وهي : كيف أمكنها ، وهي الفتاة الشابة ــ والاميرة على كل حال ــ ان يخطر لها هذا المسلك ، على الرغم من علمها أن أبي امرؤ غير طليق ، وفي قدرتها ان تتزوج لو أرادت ، فها هو ذا بيلوفزوروف على سبيل المثال ؟ فعلى أي أساس أقامت أملها ؟ أفلم تخش ان تهدم مستقبلها جملة ؟ وقلت في نفسي : أجل ، هذا هو الحب ، هذا هو الهيام ، هذا هو الوفاء ... وخطرت ببالي كلمات لوشين : ان التضحية بالنفس مستعذبة عند البعض . . . ولمحت عيني في تلك

الاثناء بقعـــة بيضاء تراءت في احدى نوافذ الجناح ...
ففكرت : «أليس هذا وجه زينابيدا ؟» كان ذلك وجههـــا
من دون ريب ، فانتفى عنى الصبر ، ولم احتـمـل رحيلا
عنها من غير كلمة وداع ، فانتهزت فرصة سانحة وذهبت
أسعى الى الجناح .

في غرفة الاستقبال طالعتني الاميرة العجوز على عادتها
من ثقل الدم والاستهتار ، وسألتني وهي تدس السعوط في
فتحتي أنفها :

ـ ما هذا يا شيخي ، ان جماعتك قد ابكروا في اهتمامات
الرحيل ؟

نظرت اليها فانزاح عبء عن قلبي ، فان كلمة كمبيالة
التي قالها فيليب كانت تثقلني ، ولكن الاميرة العجوز كانت
خالية البال مما حدث ، او لعل هذا ما تراءى لي آنذاك .
وأقبلت زينابيدا من الغرفة المجاورة في ثوب أسود ، ووجه
شاحب ، وشعر محلول . من غير كلام ، أمسكت بيـدي ،
وقادتني الى غرفتها ، وابتدأتني قائلة :

ـ سمعت صوتك فأتيت من فوري ، فهل مـن اليسير
عليك ان تهجرنا ايها الولد الشرير ؟

فأجبت :

ـ جئت أودعك يا اميرة ، وأغلب الظن انه وداع الى
الابد ، ولعلكِ سمعت أننا عائدون .

فأخذت زينابيدا تمعن النظر في وجهي :

ـ نعم ، سمعت ، واشكر لك هذه الزيارة ، كنت اظن أنني
لن اراك ، اذكرني بالمعروف ، ولئن أسأت اليك في بعض
الاحيان ، على كـــل حال لست تلـــك التى تداخلـــك فيها
الظن .

استدارت واستندت الى حافة النافذة .

ـ الحقيقة اني لست كذلك . ولا أجهل انك تسيء
بي الظن .

ـ أنا ؟

ـ أجل ، أنت . . . أنت .

ـ أنا ؟ ـ كررت القول في شجى ، وقد ارتعش قلبي كما في الماضي تحت تأثير سحرها الغلاب الذي يتعصّى على الوصف . ـ انا ؟ صدقيني ، يا زينايبيدا الكسندروفنا ، ومهما يكن مما فعلت وعذّبت ، فاني سأحبك وأعبدك حتى آخر يوم من حياتي .

فاستدارت بسرعة ، واقبلت بذراعين مفتوحين على رحبهما ، فحّاطت بهما رأسي ، وقبلتني بقوة وحرارة ، ولا يعلم الا الله من كان المقصود بهذه القبلة الوداعية الطويلة ، ولكني انتهلت من عذوبتها في نهم ، وأنا أعرف أنها لن تتكرر على الاطلاق .

وأعدت بقوة :

ـ وداعاً ، وداعاً . . .

فانتزعت نفسها وذهبت ، فخرجت في اثرها . ليس في طوقي ان أصف ذلك الشعور الذي ملأ نفسي لحظة انصرافي ، ولا آتمنى أن يتكرر في يوم من الايام ، ومع هذا ما كنت احسب نفسي في السعداء لو أنني لم أُمتحن بهذه التجربة .

عدنا الى المدينة ؛ ولكن البرء من الماضي لم يكن سريعاً ولا كان اقبالي على العمل سريعاً ، فقد كانت جراحي تندمل في بطء ، ولكن نفسي لم تضمر ولو مثقال ذرة من الضغن على أبي ، بل على العكس : لقد كبر في عيني ؛ وليعلل علماء النفس هذا التناقض كما يشاؤون . في ذات مرة كنت أتجول في البولفار ، فكانت سعادتي تفوق الوصف حينما صادفت لوشين ، فقد كنت احبه اعجاباً باستقامته وصراحته ، وكان عزيزاً بما يوقظه في نفسي من الذكريات ، فاندفعت اليه حينما رأيته فقال وهو ينظر اليّ بحاجبين مقرونين :

ـ آها ، أهذا أنت يا فتى ؟ وعني أتبين احوالكَ . انكَ بعامة لا تزال ازغب الوجه ، ولكن تلك الكآبة القديمة زالت من عينيك ، وانت الآن انسان ولست كلب غرفة ، هذا حسن . والآن قل لي ، هل أخذت في العمل والجد ؟

فتنهدت ، لأني تأبيت عن الكذب ، واستحييت من قول الحقيقة . فقال لوشين :

ـ لا بأس عليك تشجع ، فان الاساس أن تكون حياتك طبيعية ، وألّا تتجاذبك الاهواء . فان هذا لا طائل فيه ، والسوء كل السوء ان ينجرف المرء حيث تجرفه الموجة ، على المرء ان يقف على قدميه ما دام له ولو حجر يعتمد عليه . انظر ما انا فيه ، اني أسعل . . . عن بيلوفزوروف ـ هل سمعت شيئاً ؟

ـ لا ، فماذا حدث له ؟

ـ اختفى فلا أثر ولا خبر ، ويقال إنه رحل الى القوقاز هذا درس لك أيها الشاب . وكل ذلك يتأتى لمن لايستطيع حين يأزف وقت الرحيل أن يتخلص من الشبكة . ويخيل اليّ على ما اظن أنك تخلصت . احذر ان تقع وقعة أخرى . وداعاً .

فقلت في نفسي : « لن أقع ، ولن أراها بعد اليوم » .
ولكن قدر لي أن أرى زينايبيدا مرة أخرى .

٢١

كان ابى يخرج كل يوم الى الطراد ، وكان عنده جواد انجليزي اصيل ممتاز ، طويل العنق ، كميت ، دقيق القوائم ، قوي جموح يسميه « اليكتريك » . وكان صعب المراس لا تلين صهوته لراكب غير أبي . دخل عليّ ذات يوم غرفتي وهو في مزاج رائق ما عهدته فيه منذ وقت بعيد . كان على أهبة الركوب وقد وضع في حذائه مهمازين، فالتمست منه ان يستصحبني ، فأجابني قائلا :

ـ الافضل لك أن تلعب بالنطة ، فانك لا تستطيع ان تجري معي وتجاريني بقزمك .

ـ بلى أستطيع ، وسأضع مهمازي .

ـ طيب تعالِ .

وخرجنا . كنت على جواد أشعث ، أدهم ، متين القوائم، خفيف الحركة ؛ كان ينبغي له في الحقيقة ان ينطلق بأقصى ما تسعفه قوائمه ليجاري «اليكتريك» في سيره الخبب ؛ ولكني لم اتخلف عن اللحاق في كل حال . وكان ابي فارساً لم تقع عيناي على نظيره ، فهو يستوي على الصهوة في جمال ورشاقة ، حتى ليبدو ان الجواد نفسه يشعر بهما ويرفع رأسه مزهواً بفارسه . وذهبنا نرود الشوارع المشجرة ، ثم طفنا حول منطقة «ديفيتشيه بوله» ، وتواثبنا على بعض الحواجز (الحقيقة انني فزعت من الوثوب اول الامر ، ولكني أقدمت عليه لأن أبي كان يزدري المفزّعين) . وعبرنا نهر موسكو مرتين ، فظننت أننا في طريقنا الى البيت ، ورجح هذا الظن حينما لاحظ أبي أن حصاني متعب ، ولكنه مال بجواده فجأة نحو مخاضة كريمسكي وانطلق على حفّ الشاطئ ، فانطلقت وراءه حتى أدركته عند كومة من الكتل الخشبية القديمة ، وعندئذ وثب عن «اليكتريك» فى خفة ، وأمرني بأن أترجل في إثره ، وألقى اليّ بعنان جواده ، وقال بأن عليّ أن أنتظره هنا عند كومة الخشب ، وأما هو فقد مال على طريق فرعي ضيق واختفى . فأخذت أذرع شاطئ النهر ذاهباً جائياً وأنا ممسكٌ بأعنّة الجوادين ، غير منقطع عن زجر «اليكتريك» الذي لم تهدأ له حركة ، فهو بين حران وجماح وتوثب واهتزاز ونخير وصهيل ، فاذا وقفت به وقف يفحص الأرض بحافره ، وجعل يصهل ويعض جوادي في رقبته ؛ والخلاصة كان يحسب نفسه في المدللين ويأخذ بسلوك أصحاب pur sang* كل ذلك ولما يعد ابي . وهبت من النهر رطوبة مؤذية، وتساقط مطر خفيف فانداحت قطراته في بقع محبرة صغيرة على تلك الكتل الخشبية الرمادية البليدة ، التي كنت ادور حولها متسكعاً حتى سئمتها . وهيمنت عليّ الكآبة ، ولكن ابي لم يعد . كان هناك

---

* الدم الازرق والاصل الاصيل .

حارس من أبناء الشمال ، كله رمادي ايضاً ؛ فوق رأسه خوذة ، وفي يده رمح (لم يكن في الخاطر أن يوضع حارس ليخطر على شاطئ نهر موسكو !) وما لبث أن أقبل عليّ ، وطالعني بوجهه العجوز وهو جلدة على عظم ، وسألني :

ـ ماذا تفعل هنا ومعك الخيل يا سيدي الشاب ؟ هات المقاود عنك .

لم أجبه ، فطلب مني شيئاً من التبغ ، وكنت ابتغي الخلاص منه (ثم ان صبري قد نفد) ، فمشيت بضع خطوات في الاتجاه الذي ذهب فيه أبي ، ومضيت في الشارع الفرعي حتى بلغت آخره ، وانعطفت وراء زاويته ووقفت أنتظر . في الشارع على مبعدة أربعين خطوة مني ، قرب نافذة مفتوحة من بيت خشبي صغير ، كان أبي يقف ، وظهره الى ناحيتي ، وقد اتكأ بصدره على حافة النافذة . في البيت جلست امرأة في ثوب عامق ، يحتجب نصف جسمها وراء الستار ، وأخذت في حديث مع أبي ؛ وكانت هذه المرأة هي زينايبيدا .

جمدت في مكاني . ولأعترف بأني لم أتوقع أن أرى ما رأيت في أي حال ؛ واتجهت حركتي الاولى نحو التماس سبيل الفرار ، وفكرت : «لو أن أبي التفت الى وراء لدهتني داهية . . .» ، ولكن شعوراً غريباً ، كان أقوى من الفضول واعظم من الغيرة ، واشد من الخوف ، أوقفني . فوقفت أرى وأسمع . كان يبدو أن أبي يطلب امراً ، وزينايبيدا ترفض هذا الامر . وكأنني أرى وجهها الآن ، كما رأيته وقتذاك ، فهو محزون رصين جميل ، فيه معنى يتعذر وصفه من الاستسلام والأسى والحب ، ومن شيء آخر لعله القنوط ـ فما أستطيع أن أجد غير هذه الكلمة . كانت لا تنطق الا بكلمات موجزة ، ولا ترفع عينيها ، ولكنها تبتسم في خضوع وعناد ، كنت قادراً على أن أتبين زينايبيداي القديمة من هذه الابتسامة وحدها . ورأيت أبي يهز كتفيه ويعدل وضع

قبعته ، وهي عنده علامة تدل على فـــراغ الصبر ... ثم سمعته يقول :

Vous dever vous séparer de cette*... فاعتدلت زينايبدا ومدت ذراعها الى امام . وفجأة شهدت عيناي مشهداً يبعث على الذهول : فقد رفع أبي السوط الذي يستعمله في الركوب وكان ينفض به معطفه ، وسمعت بغتة ضربة قاسية على ذلك الذراع العاري . فأمسكت نفسي عن الصراخ ؛ ولكن زينايبدا ارتعدت ، ونظرت الى أبي صامتة ، ورفعت يدها ببطء الى شفتيها وقبلت الأثر الدامي الذي تركه السوط . فرمى أبى السوط من يده ، وانطلق يصعد في درجات المدخل ، واقتحم البيت ... فابتعدت زينايبدا أيضاً عن النافـــذة ، وأقبلت عليه مفتوحة الذراعين ، ورأسها ملقى الى وراء .

ارتميت مرتداً على أعقابي في ذهول راعب هدّ عزيمتي وخلع قلبي ، ثم انطلقت أعدو هارباً في الطريق يكاد يفلت من يدي مقود «اليكتريك» ، ورجعت الى شاطئ النهر ، وأنـــا عاجز من جمع شتيت نفسي . كنت أعرف أن أبي قد يخرج عما فيه من برودة ورصانة مسوقا بنوبات مفاجئة من الغضب والهياج ، ولكنى عجزت عن أن أفهم هذا الذي رأيته . . . غير اني شعرت في الوقت نفســه بأننى مهمـــا قدر لي أن أعيش ، فلن أنسى مـــن زينايبدا تلـــك الحركـــة والنظرة والابتسامة ، وان صورتها التي برزت لي فجأة في هذا المظهر الجديد ستبقى في ذاكرتي الى الأبد . كنت أنظر من دون تفكير في النهر ، غير شاعـــــر بأن الدمـــوع تنحـــدر على خدي ، وأنا اقول في نفسي : «انه يضربهـــا ... يضربها ... يضربها ...» . ثم سمعت صـــوت ابي مـــن ورائي يقول :

ـــ ماذا بك ؟ هات ناولني الجواد .

فمددت اليه يدي بالعنان في حركة آلية ، فوثب على

---

* عليك ان تنفصلي عن هذه ...

صهوة «اليكتريك» . . . فشب الجواد المقرور وقفز الى الامام مقدار قامة ونصف القامة ... ولكن أبي أسرع الى كبحه ، فهمزه في خاصرتيه ، وضربه بقبضة يده في عنقه ... وتمتم : «آه ! لا سوط معي» .

فتذكرت ما كان منذ قليل من فحيح هذا السوط نفسه ومن ضربته ، فارتجفت ، وسألت أبي بعد قليل :

ـ وماذا فعلت به ؟

فلم يجبني أبي ، بل اندفع الى امـــام ، فلحقت به ، فقد استبدت بي رغبة في النظر الى وجهه ؛ فقال من خلال اسنانه :

ـ هل سئمت الانتظار من دوني ؟

ـ بعض الشيء . ـ وعدت أسأله : ـ أين سقط منك سوطك ؟

فرمقني أبي بنظرة مختطفة وقال :

ـ لم يسقط مني بل رميته .

وأطرق مستغرقاً في التفكير . . . وعندئذ رأيت أول مرة بل آخر مرة على الاكثر أي مقدار من الرقة والحنان يمكن لقسمات وجهه الصارمة أن تعبر عنه وتفصح .

وعاد يركض جواده ، ولكني لم أستطع ان ألحق به ، فوصلت الى البيت بعده بربع ساعة .

في تلك الليلة ، رأيتني أقول لنفسي مرة أخرى ، وأنا جالس الى مكتبي الذي بدأت تتركم عليه الدفاتر والكتب : «هذا هو الحب ، هذا هـــو الهيام ! فما كان ليخطـــر على البال أن يقدر امرؤ على الاذعان لضربة مهما كان مصدرها . . . ومهما كانت اليد التي ضربتها حبيبة ! ولكن يبدو أن هذا ممكن ، حينما تحب . . . اما انا . . . فكنت أتصور . . .»

انضجتني حوادث الشهر الاخير في السن ـ فبدا غرامي بكل ما فيه من الانفعالات والاشجان شيئاً صغيراً طفليـــاً ضئيلا تجاه ذلك الآخر ، ذلك المجهول الذي استطعت أن أستشف أمره بالظنون فقط ، والذي ملأني رعباً ، فكأنه

وجه غير معروف ، جميل ولكنه مكتئب ، يقصر السعى مهما بلغ من القوة عن تعمق ملامحه في الغبشة .

ورأيت حلماً غريباً مخوفاً في تلك الليلة نفسها . تراءى لي أنني أدخل غرفة مظلمة منخفضة السقف . . . وأبي واقف هناك في يده سوط وهو يخبط الارض بقدميه . وفي الزاوية قبعت زينابيدا لم يكن الاثر الاحمر في يدها بل في جبينها ... ومن ورائهما ينهض بيلوفزوروف ملطخاً كله بالدماء ، ويفتح شفتيه الشاحبتين بوجه ابي متوعداً مغيظاً .

بعد شهرين دخلت الجامعة ، وبعد ستة اشهر فارق أبي الحياة (عقب نوبة قلبية) في مدينة بطرسبورغ بعد وقت قصير من انتقالنا اليها ، أبي وأمي وأنا . وقبيل بضعة ايام من موته تلقى رسالة من موسكو حملت اليه قلقاً شديداً . . . فذهب الى أمي يلتمس منها شيئاً ، ويقال إن أبي ، نعم أبي ، قد بكى ! وفي نفس الصباح الذي أصيب فيه بالنوبة ، شرع يكتب اليّ رسالة باللغة الفرنسية قال فيهما : «يا ولدي ، تحرّز من حب المرأة ، تحرز من هذه السعادة ، من هذا السمّ . . .» . وبعد وفاته ، بعثت أمي الى موسكو مقداراً لا يستهان به من النقود .

٢٢

مضى أربع سنين ، وكنت قريب العهد بالتخرج من الجامعة ، ولكنني لم أكن قد عرفت على التحديد بم يحسن لي أن أبدأ ولا أي باب أطرق ، فكنت أقضي الوقت من دون عمل . وفي ذات مساء ، التقيت مايدانوف في المسرح ، فعلمت أنه أفلح في الزواج ، وانه يعمل في وظيفة حكومية ، ولكني لم ألاحظ فيه اي تغيير ، فلا يزال على ما كان ، ينبهر بصغائر الامور ويصاب بنوبات مفاجئة من الخور . وقال لي في عرض كلامه :

ــ أتدري أن السيدة دولسكايا هنا ؟

ــ ومن هذه السيدة دولسكايا ؟

ــ هل نسيت ؟ انها من كانت تسمى الاميرة زاسيكينا ، وكنا جميعاً متيمين بحبها ، وأنت معنا ايضاً . ألا تذكر أيام الدارة القريبة من حديقة نيسكوتشني ؟

ــ وهل تزوجت من دولسكى ؟

ــ نعم .

ــ وهل هي هنا في المسرح ؟

ــ لا ، انها في بطرسبورغ ، وقد جاءت منذ بضعة أيام . وتتهيأ للسفر الى خارج البلاد .

ــ وما طرز هذا الزوج ؟

ــ فتى رائع ، وذو ثراء أيضاً ، ومن زملائي بالوظيفة في موسكو . معلومك ، بعد تلك الحكاية . . . ولا بدّ ان هذا كله معروف لديك كل المعرفة . . . (وابتسم مايدانوف ابتسامة ذات مغزى) لم يكن من اليسير عليها أن تدبر أمر نفسها ، فقد كان للحكاية ذيل ... ولكن امرأة في ذكائها قادرة على كل شيء . اذهب اليها ، فأنها ستكون مسرورة بزيارتك ، ثم انها زادت جمالا على جمال .

أعطاني مايدانوف عنوان زينابيدا ، وكانت تقيم في فندق «ديموت» . وانبعثت ذكرياتي القديمة . . . فآليت على نفسي أن أزور «صاحبتي» القديمة في اليوم التالي . ولكن حدث ما استأخرني ، ففات اسبوع ، وتلاه اسبوع آخر ، ولما ذهبت اخيراً أسأل في فندق «ديموت» عن السيدة دولسكايا أعلمت أنها ماتت منذ أربعة ايام جراء عسر طارئ في الولادة .

لقد شعرت بما يشبه الصدمة في قلبي ، وكانت الفكرة بأنني كنت قادراً على رؤيتها ، ولم أرها ، وأنني لن أراها ابدا ، هذه الفكرة المرة كانت تنهش في نفسي بكل قوتها وتبهظني بتأنيبها الثابت القاطع . ورددت : «ماتت !» وانا انظر ذاهلا الى بواب الفندق ، وانسحبت الى الشارع، ومضيت لا أدرى الى اين اذهب . لقد انبعثت احداث الماضي واتّصبت

جميعاً امامي ، ورأيتني أفكر : « تلك هي نهاية المطاف ، وهذا هو المصير الذي كانت تسعى اليه في استعجال واضطراب تلك الحياة الفتية الحارة اللامعة ! » واستعدت في ذهني تلـــك القسمات الغالية ، تلك العيون ، تلك الخصل ـ ترقـــد في صندوق ضيق تطويه الارض الرطبة المظلمة ـ غير بعيد عني أنا الذي لا أزال حياً ، بل لعلها أن تكون راقدة على بضع خطوات من أبي . . . فكرت في هذا كله ، وحصرت فكري فيه ، وفيما بين ذلك رنت في نفسي هذه الكلمات :

شفاه غير مكترثة نقلت اليّ خبر الموت
وانا ، من دون اكتراث ، أصغيت . . .

آه لك ايها الشباب ! انك طليق لا تبالي بشيء ، فكأنك تملك كنوز الدنيا ، بل حتى الاحزان تزدهيك وتلبق بوجهك. انك تقول وانت واثق بنفسك معتدّ بها : انظروا اليّ ، فأنا فقط من يعيش ، على حين تمضي ايامك ثم تتلاشى فلا أثر ولا ثمر ، ويختفي كل ما فيك ، كما الشمع في وهج الشمس ، وكما الثلج ... وقد يكون السر فيما أنت عليه من السحر ، لا يكمن في قدرتك على تحقيق ما تريد ، وانما في قدرتك على الايمان بأنك قادر على تحقيق ما تريد ، وأن جوهره على الخصوص في استهتارك بتلك القوى التي تذريها في الريح حينما لا تجد لها منصرفاً آخر ، وفي أن كل فرد منا لا يعتقد انه يهزل حين يحسب نفسه في المبذرين وانه على حق اذ يقول : « أوه ، كم ذا كنت أستطيع أن أعمل لو لم أبدد وقتي في العبث ! » .

واليكم هذا النموذج ـ أنا . . . فألى أي أمنية كنت أتطلع ، وماذا كنت أنتظر ، وما هذا المستقبل الباهر الذي كنت أرتقبه ، على حين لم تندّ عني الا زفرة ولم أحزن سوى لحظة وأنا أودع طيف غرامي الاول ؟

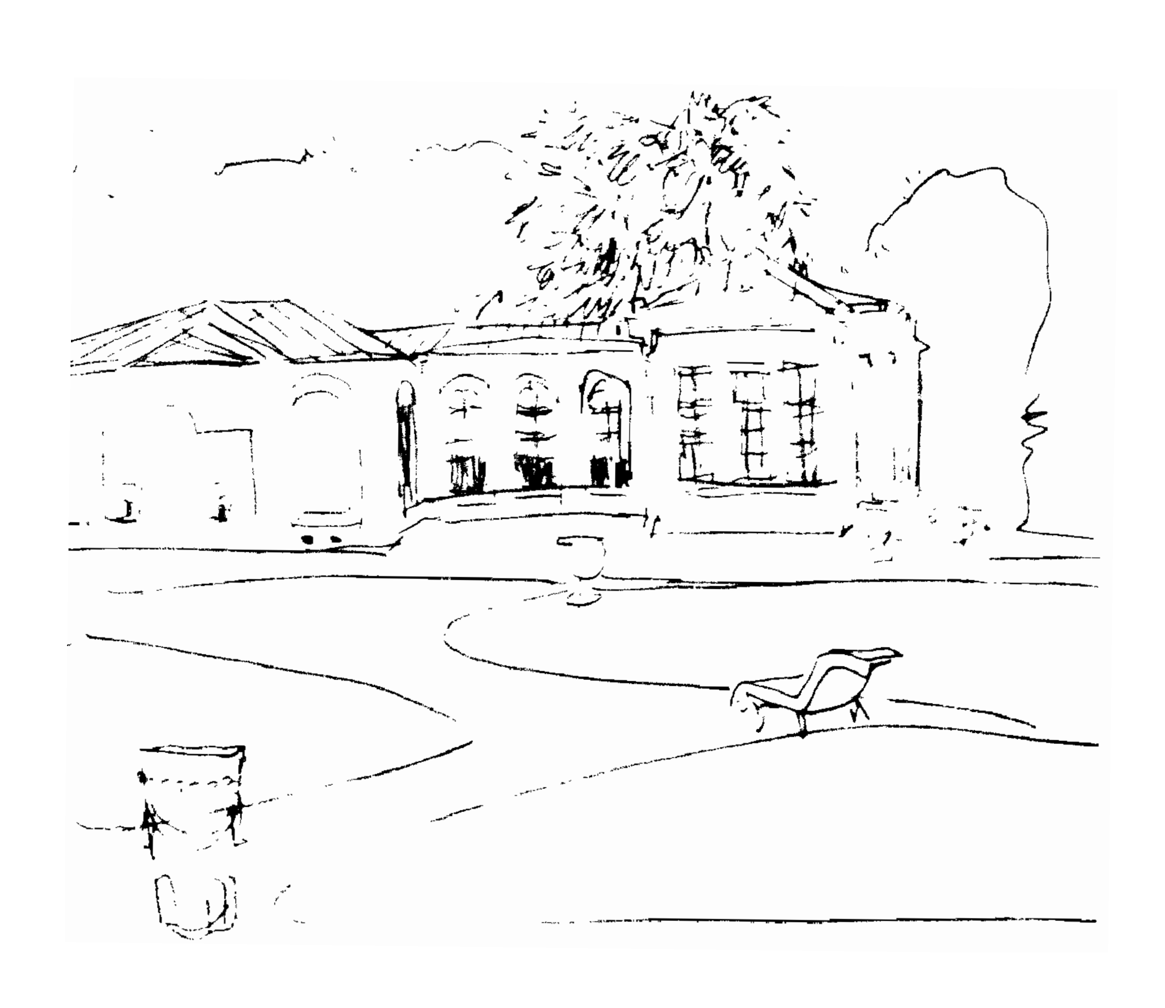
ماذا تحقق من جميع تلك الآمال التي طمحت اليهـــا وجددت في طلبها ؟ وماذا بقي لي الآن بعد أن أخذت حياتي

تمضي في ظلالها المسائية ؟ هل بقي شيء أنضر عندي وأغلى من ذكريات تلك العاصفة الربيعية المبكرة السريعة التي عبرت حياتي ؟

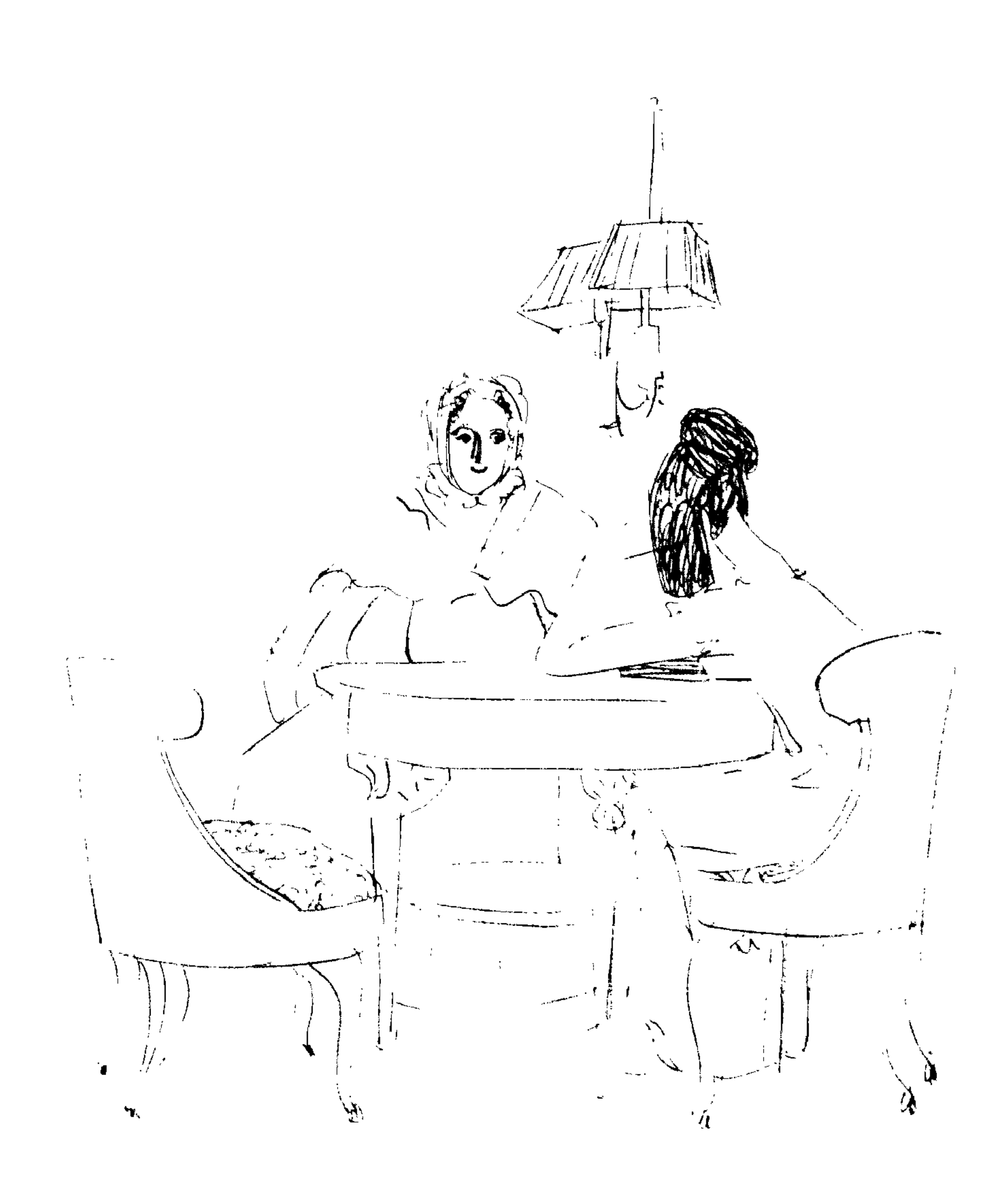
ولكن من العبث أن أفتري على نفسي ، فحتى في ذلك العهد الطائش من زمان الشباب ، لم أغلق سمعي دون ذلك الصوت الحزين الذي طار اليّ برنينه المهيب من وراء القبر . وأذكر أنني بعد انقضاء بضعة أيام على معرفتي بموت زينابيدا ، ذهبت مدفوعاً بدافع من نفسي لا يقاوم ، الى عيادة عجوز مسكينة مشرفة على الموت كانت تعيش في البناية التي تسكن فيها . كانت تلتحف غطاء مهلهلا ، وترقد على لوح من خشب ، وتحت رأسها كيس ، وهي تقاسي من احتضارها مرّ العذاب . لقد تصرمت حياتها جميعاً في صراع شديد من أجل القوت ، فما رأت قبساً من السعادة ، ولا تذوقت قطرة من عسل الحظ ، وكان المظنون أنها سترحب بالموت ، وترى فيه منطلقها الى الحرية والسكينة . ولكن أما وان جسدها البالي ما يزال يقاوم الموت ، وصدرها يتنفس في عسر شديد تحت ثقل اليد الباردة وبقية أخيرة من ذماء، ما تزال فيها ، فأن العجوز لم تنقطع عن التصليب وهي تهمس : «رب اغفر لي ذنوبي . . .» ومع انطفاء آخر شرارة من وعيها فقط ، اختفت من عينيها آية رعبها من النهاية . . . وأذكر عندئذ ، وأنا أشهد موت تلك العجوز المسكينة أن قلبي امتلأ بالخوف على زينابيدا ، ورغبت نفسي في الصلاة من أجلها ، ومن أجل أبي — ومن أجل نفسي .

فيوض الربيع









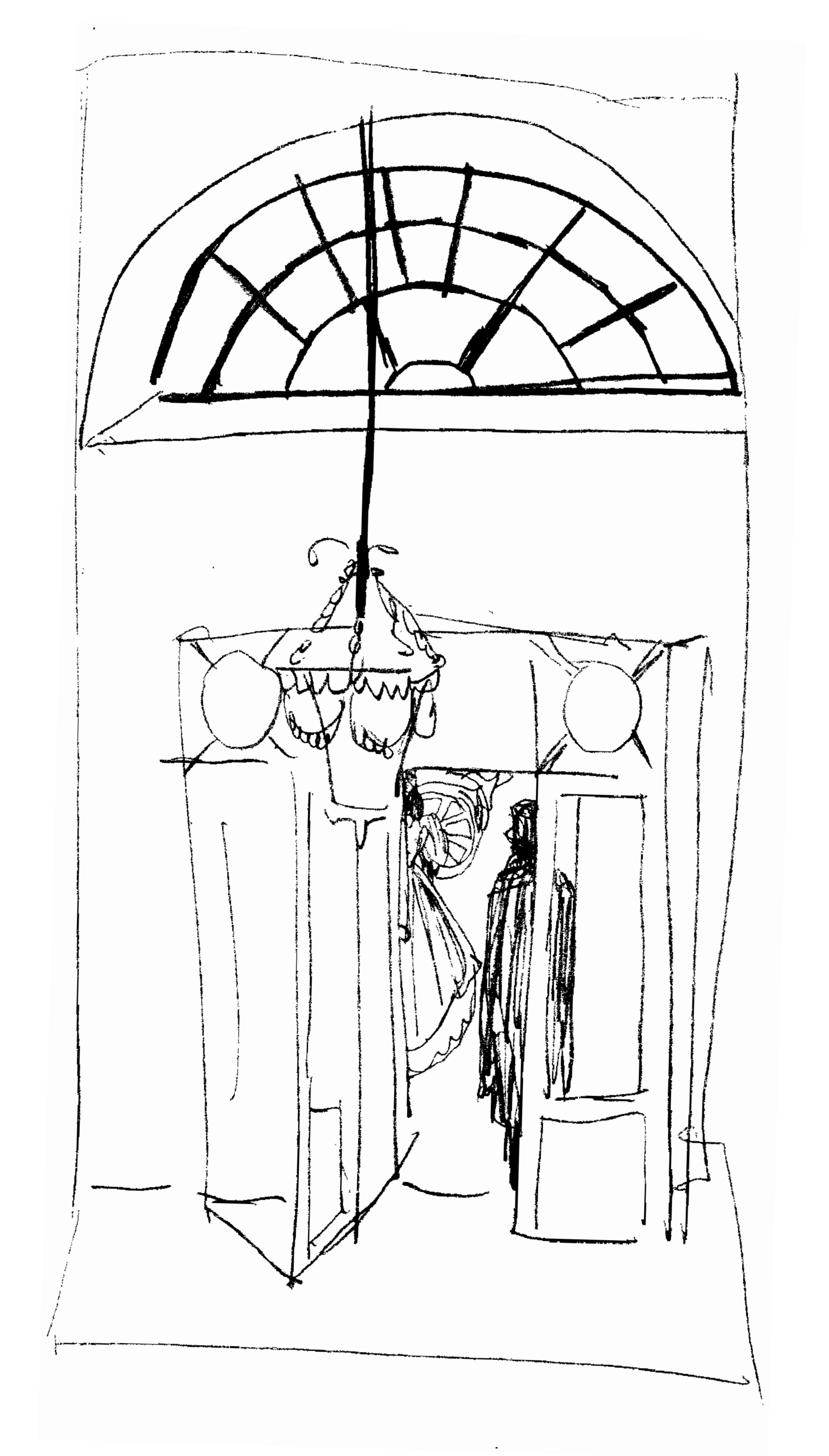














السنوات الرغيدة
والايام السعيدة
مثل فيوض الربيع
غيضها سريع !

من اغنية قديمة

... كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد نصف الليل حينما عاد الى مكتبه ، وبعد أن صرف الخادم الذي أوقد له الشموع ، ارتمى في مقعد الى جانب الموقد وغطى وجهه بكلتا يديه .

لم يحدث له أن شعر من قبل بمثل هذا التعب في الجسم والروح . كانت سهرته الليلة مع نساء لطيفات ورجال مثقفين ، وبين السيدات بعض الجميلات ، والرجال اكثرهم يمتازون بالذكاء والموهبة ، وهو نفسه قد جاذبهم الحديث فأحسن ولمع ... ولكنه مع هذا كله لم يشعر بهذا «taedium vitae» ، «السأم من الحياة» الذي تحدث عنه الرومان القدامى ، كما شعر الليلة . لقد طغى عليه وعذب روحه . ولو انه في سن أصغر لبكى من الحزن والضيق والغيظ . كانت نفسه تمتلئ بمرارة نفّاذة لاذعة كالعلقم ، وشيء لاصق ثقيل يحيل به من كل ناحية يشبه ليلة خريفية داجية ، وهو لا يدري كيف ينجو من هذا الظلام

وهذه المرارة . لم يحاول ان يلجأ الى النوم ، فقد كان يعرف ان النوم سيجفوه .

أطلق العنـــان لافكاره ... فسرحت به في بطء فاتـــر وشعور بالغيظ .

وجعل يفكر في ما يتصف به البشر من الزهو والرياء والتفاهة والزيف ، واستعرض بباله مراحل حياة الانسان في كل جيل على التتابع (كان وقتئذ في الثانية والخمسين من العمر) فلم يجد مرحلة واحدة تستحق منه المغفرة . ففي كلها جميعا نفس الميع الذي يسيل من فراغ الى فراغ ، وهذا الدق في الماء وهو ماء ، والغرور الذي يوهم بأن نصفه نزاهة ونصفه حكمة ــ وليتسلّ الطفل بما يشاء على أن ينقطع عن البكاء ــ وفجأة تسقط الشيخوخة كما يسقط الثلج على أم الرأس ، ويحلّ معها خوف من الموت يقيم في النفس وينخرها من غير انقطاع ، ولا تلبث هاوية النهاية ان تنفتح على حين غـــرة ! وليت الحيـــاة تقف عند هذا العبث ، فهناك فوق هذا ما يأتي قبل النهاية من العجـــز والآلم كما يتأتى الصدأ على الحديد ... لم يكن يرى الحياة بحراً هائجا مائجا على ما وصفه الشعراء ، وانما تصورها بحراً هادئا عديم الحس والحركة يشف ماؤه عما فيه حتى أغواره الاخيرة ، وهو نفسه جالس في قارب صغير متقلقل ؛ وهناك في القاع المظلم حيث يشتجر نبات العليق ، تعيش وحوش مهولة على هيئة السمك ، تمثل ما في الحياة من ألوان المساءة : كالمرض والحـــزن والجنـــون والحرمـــان والعماية ... وينظر فاذا هولة من هذه الوحوش تشـــق ظلمة القاع وترتفع الى أعلى في بطء حتى تظهر جملة بكل ما في حقيقتها من البشاعة ... فيعتمد يده ليحفظ توازن القارب ... فقد بدا ان الهولة توشك ان تقلبه براكبه ! ولكن ها هي ذي تعود الى الاختفاء ، وتأخذ في الابتعاد ، ولا تـــزال تهبط الى أسفـــل حتى تستقـــر في القاع ، فتستلقي هناك لا تكاد تتحـــرك الا قليلا ...

ولكن اليوم الموعود سيحين ، وسيقلب الوحش هذا القارب .

هز رأسه وهب من المقعد واقفا . ذرع الغرفة ذهابا وجيئة مرة او مرتين ، ثم سار الى مكتبه ففتح أدراجه ، وأخذ يقلب في أوراقه ورسائله القديمة واكثرها من نساء . لا يدري لماذا فعل ذلك ، فانه لم يكن يبحث عن شيء ، وانما اراد ان يشغل نفسه بشاغل يهرب اليه من أفكاره التي تعذبه . حرك الرسائل بيده وأخذ منها رزمة كيفما اتفق (كان فيها رسالة تطل منها زهرة ذابلة عقدت بشريط حائل اللون) . لم يفعل الا ان هز كتفيه ، ونظر الى الموقد ، وقذف بالرزمة الى ناحيته ، كأنما كان يريد ان يحرق هذه المهملات القديمة ، ثم عاد يدس يده في ادراج المكتب ، تارة هنا وتارة هناك ، وفجأة اتسعت عيناه ، واخذ يسحب في بطء ، صندوقا متوسط الحجم ، قديم الطرز ، مثمن الاضلاع ، وفي بطء ايضا رفع عنه الغطاء ؛ كان في طيات الصندوق اوراق صبغها القدم بالاصفرار ، بينها صليب صغير من العقيق الاحمر .

بقي بضع لحظات يحملق مدهوشا في هذا الصليب ، وفجأة ندّت عنه صرخة خافتة ... وارتسم في قسماته تعبير لعله الفرح او لعله الأسى . ان مثل هذا التعبير يرتسم في وجه امرئ يلتقي فجأة مع انسان فقد اثره وخبره وكان يحبه في الماضي حبا رقيقا ، فاذا هو يراه امام عينيه ، يخطر كما كان في الماضي ، ولكن السنين بدّلته تبديلا .

نهض وسار نحو الموقد ، ثم عاد فجلس في المقعد وغطى وجهه بيديه ... وتساءل في نفسه : « لماذا اليوم ، هذا اليوم بالذات ؟ » ؛ وخطرت بباله ذكريات كثيرة من الماضي البعيد .

وهذا ما تذكره ...

ولكن علينا ان نبدأ الحديث بالتعريف الى اسمه ولقبه وكنيته . اسمه ديميتري بافلوفيتش سانين .
وهذا ما تذكره :

١

حدث ذلك في صيف سنة ١٨٤٠ . كان سانين يجاوز الثانية والعشرين من عمره ، وهو في فرانكفورت بطريق عودته من ايطاليا الى روسيا . لم يكن من أهل الثراء ، ولكنه رجل طليق الاسار ، يكاد يكون خاليا من اعباء الاسرة . ورث بضعة آلاف من الروبلات بوفاة رجل تربطه به قرابة بعيدة ، فزينت له نفسه ان ينفق هذا المال في الخارج ، قبل ان يبدأ حياته العملية ، ويطوق عنقه باغلال الوظيفة ، وهي الوسيلة الوحيدة التي بقيت له الى الحياة الموفورة . وكان سانين حاذقا في انفاق المال ، حتى انه في حين وصوله الى فرانكفورت ، لم يكن في جيبه الا القدر الذي يكفيه للعودة الى بطرسبورغ . وكانت السكك الحديدية قليلة سنة ١٨٤٠ ، والسادة السياح يسافرون في العربات ، فدفع سانين ثمن بطاقة في عربة «بايفاغين» وكانت لا تتحرك للسفر الا في الساعة الحادية عشرة مساء ، فوجد ان الوقت طويل حتى هذا الموعد . ومن حسن حظه ان الطقس كان رائعا ، فتناول طعام الغداء في فندق شهير اسمه «البجعة البيضاء» ، وانطلق بعدئذ يتجول في المدينة ، فذهب لرؤية الاريادنا لدانيكر * فما أعجب بها الا قليلا ، ثم زار بيت غوته ، مع انه لم يقرأ من اعماله الادبية سوى كتاب «فرتر» وحتى هذا قرأه في الترجمة الفرنسية ، وتفسح على ضفة الماين ،

---

* يوهان هنريخ دانيكر ، نحات الماني (١٧٥٨ـ١٨٤١) فرغ من نحت تمثال اريادنا ، وهي فتاة على فهد ، من المرمر سنة ١٨١٤ ، وفي سنة ١٨١٦ اقام احد اغنياء فرانكفورت جناحا خاصا لهذا التمثال وفتح ابوابه للجمهور . **(المترجم)** .

وهو آخذ بمظهر الوحشة الذي يناسب مقام سائح يرعى الاصول . وفي الساعة السادسة مساء ، انتهى به المطاف بقدمين متعبتين مغبرتين الى شارع صغير من شوارع فرانكفورت ، وهو الشارع الذي سيعلق في ذاكرته حينا طويلا من الزمن ؛ هناك رأى على احد بيوته القليلة ، لافتة كتب فيها «الحلويات الايطالية ــ جيوفاني روزيللي» ، فكأنها تدعو عبّار السبيل اليها . فقصد سانين الى الدكان ليشرب كأسا من عصير الليمون . كانت تمتد في الغرفة الاولى منصة متواضعة ظهرت وراءها رفوف خزانة لامعة تذكر بالصيدلية ، عليها بضع زجاجات محاطة بورق مذهب ، ومرطبانات من الزجاج للبسكويت والشوكولاته والكعك والملبس ، لم يكن فيها من يتنفس سوى قط رمادي يطرف بعينيه ويهرّ ويتمطى بأظفاره وهو على مقعد مرتفع الى قرب النافذة ، وشعاع من الشمس الغاربة يسيل نوره المتألق على كرة كبيرة من خيوط الصوف الاحمر ملقاة على الارض بجانب سلة مقلوبة من الخيزران . كانت اصوات خافتة تسمع من الغرفة المجاورة ، فانتظر سانين حتى هدأ رنين جرس الباب ، وسأل بصوت مرتفع : «أليس من أحد هنا ؟» ، انفتح باب الغرفة المجاورة في اللحظة نفسها ، ورأى سانين ما عقد لسانه من الدهشة .

٢

اندفعت الى الدكان فتاة في التاسعة عشرة من عمرها ، بتهدل شعرها خصلات سوداء على كتفيها العاريين ، لما رأت سانين مدت اليه ذراعيها الحاسرتين ، وارتمت نحوه ، فقبضت على يده ، وجرته وراءها ، وقالت من خلال انفاسها اللاهثة : «أسرع ، أسرع الى انقاذه !» . لم يبادر سانين من فوره الى تلبية نداء الفتاة ، ولم يمسكه العزوف عن هذا بل أمسكته الدهشة لرؤيتها ، فوقف جامدا لا يبدي ولا يعيد وهو يرى الى هذه الحسناء التي لم يشاهد لها نظيرا في حياته .

التفتت اليه ؛ ويااليأس الذي شاع في صوتها ، في نظرتها ، في حركة يدها المتقبضة المرفوعة في توتر الى خدها الشاحب حينما قالت له : «تحرك بقي ، تعال !» ، فأسرع يتبعها في الحال ، وعبر الباب المفتوح .

في الغرفة التي دخلها وراء الفتاة ، كان صبي في الرابعة عشرة من عمره يستلقي على ديوان عتيق الطرز من شعر الخيل ، لبسه الشحوب فهو أبيض مشوب بالصفرة كما الشمع او المرمر العريق . كان يشبه الفتاة كل الشبه ، مما يرجح أنه أخوها . كانت عيناه مغلقتين ، وظل شعره الكثيف يرتمي كالبقعة على جبهة كأنها من الحجر وعلى حاجبيه الساكنين الازّجين ، وكانت شفتاه مزراقتين تنفرجان عن اسنانه المطبقة ، وبدا كأنه لا يتنفس ؛ واسترخت احدى يديه حتى بلغت الارض ، ورقدت الثانية خلف رأسه . كان لا يزال في ثيابه ، وفي صداره المزرر ، ورباطه يشد على عنقه .

صاحت الفتاة وهي تندفع نحوه :

ــ مات ، لقد مات ! منذ لحظة كان جالسا هنا يكلمني ، وفجأة وقع هامدا من الحركة ... ياآلهي ، ألا يمكن ان نساعده بشيء ؟ وامي ، انها غائبة ! بانتاليوني ، يا بانتاليوني ، ماذا عن الطبيب ؟ ــ قالت فجأة بالايطالية ــ هل ذهبت تدعو الطبيب ؟

فانبعث من وراء الباب صوت أجش يقول :

ــ لم اذهب انا يا سينيورة ، وانما ارسلت لويزة .

وأقبل يظلع في الغرفة عجوز ضئيل الجسم في سترة فراك ليلكي بأزرار سوداء وربطة عنق بيضاء عالية وسروال قصير من القطن وجوربين من الصوف الازرق . كانت رقعة وجهه الصغير مختفية وراء طوفان كثيف من شعر خالط الشيب لونه الحديدي ، وقد فز هذا الشعر وتثنى وتنافر في كل ناحية فأضفى على العجوز منظر دجاجة قنبرانية ، وزاد في هذا الشبه أنفه المدبب وعيناه الصفراوان تحت هذا الطوفان الكثيف من الشعر الرمادي القاتم .

وتابع العجوز الضئيل كلامه بالايطالية :

ــ تستطيع لويزة ان تركض بسرعة ، اما انا فلا استطيع .

وتحــرك ينقل على التوالي قدميــــه المفرطحتين المؤوفتين بالنقرس المحشوكتين في حذاء طويل ذي اربطة ، واضاف :

ــ لقد جئت انا بالماء .

كان يقبض على عنق زجاجة طويل باصابعه الجافــــة المعقوفة . وقالت الفتاة وهي تبسط يديها لسانين :

ــ ولكــــن اميــــل ، سيموت اذن ! آه يــــا سيدي ، o mein Herr! هل يصدق أنك لا تستطيع ان تساعده ؟

فلاحظ العجوز المسمى بانتاليوني قائلا :

ــ يجب أن يفصد ، فأن هذه صدمة عصبية .

على الرغم من أن سانين لم يكن يعرف مثقــال ذرة من الطب ، فقد كان واثقــا من امر واحد ، وهو ان الصدمــــة العصبية لا تصيب صبيا في الرابعة عشرة من عمره ، فقال يخاطب بانتاليوني :

ــ انه اغماء ، وليست صدمة ، فهل عندكم فرشاة ؟

فرفع العجوز وجهه وسأل :

ــ ماذا ؟

فردد سانين بالالمانية وبالفرنسية وهو يعبر عن مراده بما يشبه حركة مسح الثياب :

ــ فرشاة ، فرشاة .

فهم العجوز آخر الامر ما يراد منه :

ــ آ ، فرشاة ! Spazzette! أيعقل ألاّ يكون عندنَــا فرشاة !

ــ هاتها ، وسنخلع سترته ونفرك جسده .

ــ طيب ... Benone! والماء ، أليس من حاجة لصبّه على رأسه ؟

ــ ليس الآن ، بل فيما بعد ، اذهب بسرعــة وهات الفرشاة . وضع بانتاليوني الزجاجة على الارضيــــة ، وأسرع يغادر الغرفة ، ثم عاد مسرعا بفرشاتين ، احداهما للشعـــر

والثانية للثياب ، ودخل في اثره كلب من نوع البوديل جعد الشعر طفق يهز ذيلـه بقوة وهو يدير نظرات فضول بين العجوز والفتاة ، ويرسلها الى سانين ايضا ، كأنه يريد ان يتبين سبب هذا الارتباك .

وتنشط سانين الى خلع السترة عن الصبي الراقد ، ثم فك ياقته ، وشمر له عن ذراعيه، وتسلح بالفرشاة واخذ يفرك بها صدر الصبي ويديه ، وحذا بانتاليوني حذوه بالفرشـاة الثانيـة ، وهي فرشـاة الشعـر ، فأخذ يفرك بهـا حذاءه وسرواله . كانت الفتاة جاثية على ركبتيها الى قرب الديوان ، وقد غرست اصابعها في شعرها ، وعلق بصرها بوجه اخيها فما يطرف لها جفن .

كان سانين يعمل بالفرشاة ، ويسترق النظر الى الفتاة .
يا آلهي ، ما أبدع هذه الحسناء الفاتنة !

٣

كان أنفها يميل قليلا الى الكبر ، ولكنه أنف أقنى جميل ، وفوق شفتها العليا زغب خفيـف يكاد لا يدرك ، امـا لون وجهها ولا خلاف في انه يشبه العاج او الكهرمان الحليبي ، ولكن من غير تفاوت ولا بريق . شابهت يوديفه ـ آللوري المعروضة بقصر بيتّي * بشعرها المتموج اللامـع ، وبدت عيناها على الخصوص ، رائعتين آسرتين ، بلونهمـا الرمادي الغامق ، وانسانيهما المؤطرين بالسواد ، حتي حين انخطف بريقهما في وهلة الخوف والحزن ... لقد تذكر سانين من دون قصد تلك المنطقة الرائعة التي كان عائدا منها ، ولكنه لم ير حتى في ايطاليا ما يضارع هذا الجمال ! كانت الفتاة تتنهد

---

* قصر في فلورنسا يعود الى عصر النهضة . تحول الى متحف تعرض فيه لوحات الفنانين الطليان والاجانب ؛ يوديفه لوحة للفنان الايطالي كريستوفانـو اللوري (١٥٧٧ ـ ١٦٢١) معروضة في هذا القصر . (**المترجم**) .

بين الحين والآخر ، كأنها تنتظر في كل مرة : ألم يبدأ أخوها في التنفس ؟

مضى سانين في مسح جسم الصبي ، ولكنه لم يعلق بصره بالفتاة فقط ، فقد لفتت انتباهه هيئة بانتاليوني الطريفة . كان العجوز يلهث من التعب ، وينط الى اعلى عند كل ضربة فرشاة ، وينحّ ، فتتأرجح لبدته الكثيفة التي أثقلها العرق من ناحية الى ناحية ، مثل جذر شجرة عتيقة يتجاذبه الماء في جريانه . وكان سانين يهم بأن يقول له :

ـ اخلع الحذاء عن قدميه على الاقل . . .

ويبدو ان الكلب البوديل قد انفعل بما يجري حوله ، فجثا على قائمتيه الاماميتين واخذ يعوي ، فزجره العجوز قائلا : — Tartaglia — canaglia!*

في هذه اللحظة ، كان وجه الفتاة يتغير ، فارتفع حاجباها قليلا ، واتّسعت عيناها ، وتلألأت فيهما الغبطة . . .

التفت سانين ، فاذا الاحمرار يدب في وجه الفتي وجفونه تختلج ، وتحركت فتحتا انفه ، واخذ نَفسا طويلا من خلال أسنانه المطبقة ، وتنهد . . . فصاحت الفتاة :

ـ اميل ! اميليو ميو !

أخذ الفتي يفتح عينيه السوداوين في بطء ، والقى نظرة فارغة خالطتها ابتسامة واهنة ، وانحدرت هذه الابتسامة على شفتيه الشاحبتين ، ثم حرك يده المتدلية وقذف بها الى صدره في عنف .

ـ اميليو ! ـ رددت الفتاة ، وهمت بالنهوض . كانت طلعتها قوية متألقة فكأنها توشكّ أن تنفجر بالبكاء او بالضحك.

ـ اميل ! ماذا حدث ؟ اميل ! ـ ترامى صوت من وراء الباب ، ودخلت بخطوات سريعة سيدة انيقة يتألق شعرها الفُضي على وجهها الاسمر ، وفي اثرها رجل متقدم في السن ، وكان وجه الخادمة يتراءى من خلف كتفيه .

---

* تارتاليا ـ شيطان (بالايطالية) .

ركضت الفتاة الى لقـــاء القادمين ، وهتفت قائلة وهي تعانق السيدة بانفعال :

ـ لقد نجا يا ماما ، وهو حي !

فقالت الام :

ـ ماذا حدث ؟.. لقد كنت عائدة ... وفجأة وجدت السيد الطبيب ولويزة ...

اخذت الفتاة تروي على امها ما حدث ، وتحول الطبيـــب الى المريض ، وكان هذا يستعيـــد وعيـــه ولا ينقطـــع عن الابتسام : فكأنه بدأ يستشعر الخجـــل من هذه الهزة التي سببها لهم .

وقال الطبيب يخاطب ساتين وبانتاليوني :

ـ رأيت انكما فركتما جسده بالفرشاة . هذا عمـــل رائع ... وفكرة طيبة ... فلننظر الآن ماذا ينبغي له من العلاج ...

وجس نبض الفتي :

ـ هم ! هات أرني لسانك !

انحنت السيدة على الفتي وهي مستطارة اللب ، فاتسعت ابتسامتـــه ، وارتفـــع اليهـــا بصره ، واصطبـــغ وجهـــه بالاحمرار ...

خطر ببال سانين ان بقاءه لم يعـــد ملائمـــا فخرج الى الدكان ، ولكنـــه لم يكن قد امسك بمقبض الباب المؤدي الى الشارع حين رأى الفتاة تقف وتستوقفه قائلة وهي تنظر اليه في رقة :

ـ انك ذاهب ، فلا أملك أن استبقيك ، ولكن لا بد ان تجيء الينا في هذا المساء . نحن مدينون لك ، وقد تكون أنت من أنقذ أخي ، نريد أن نشكر لك جهدك ، وماما تريد ذلك . ثم لا بد ان نتعرف الى احوالك ، وان تشاركنا في سرورنا ...

فقال سانين متداركا :

ـ ولكني مسافر الى برلين اليوم .

فاعترضت الفتاة بحماسة :

ــ لا يزال لديك فسحة من الوقت ، فتعال بعد ساعة على فنجان شوكولاته . فهل تعد بالمجيء ؟ ينبغي ان اعود اليه ، فهل تأتي ؟

ماذا يستطيع سانين ان يفعل ؟ اجاب :

ــ سأجيءُ .

فصافحت الحسناء يده بسرعة ، وطارت من الدكان ــ اما هو فقد وجد نفسه في الشارع .

٤

لما عاد سانين الى دكان الحلويات ، أستقبل هناك كأنه قريب حميم . وكان اميل يجلس على نفس الديوان الذي ادركته عليه ايدي المدلكين . لقد وصف له الطبيب بعض الدواء ، واوصى « بالاناة الشديدة فيما يتعلق بشعوره واحساسه » ــ لأنه سريع الانفعال ، مهيأ للازمات القلبية . لقد ألمت به نوبات الاغماء من قبل ، ولكنها لم تبلغ المقدار الذي بلغته هذه المرة من العنف والطول . ولكن افاد الطبيب بان الخطر قد زال . ولبس اميل ما يناسب حالة الناقه : عباءة فضفاضة ، واحاطت أمه عنقه بوشاح من الصوف الازرق ، ولكنه بدا مرحا ، بل لعله في مزاج يشبه مزاج العيد ، وكل ما حوله كان ايضا في هذا الابتهاج الغامر . امام الديوان ، أقيمت مائدة مستديرة مغطاة بغطاء نظيف ، شمخ فوقها ابريق كبير من الخزف تفوح منه رائحة الشوكولاته اللذيذة ، واحاطت به الفناجين وآنية المرطبات وصحاف فيها البسكويت والكعك والخبز ، وكان كل شيء موفورا حتى الازهار ، وحول هذه الآنية الخزفية ، تألقت ست شمعات دقاق في شمعدانين قديمين من الفضة . والى جانب الديوان كان المقعد الفولتيري يفتح ذراعيه وحضنه الوثير ، فأجلس سانين في هذا المقعد بالذات ؛ وكل من تعرف اليه في دكان الحلويات هذا اليوم كان حاضرا بالوجه ، حتى الكلب البوديل تارتاليا والقط ؛ كلهم كان سعيدا بصورة تفوق

الوصف ، حتى لقد عطس الكلب من الجذل ؛ ما عدا القط ، فقد جلس وحده يهر ويتغنج ويطرف بعينيـــه . حاصروا سانين بالاسئلة عن أهله وبلده واسمه ، فلما قال انه روسي ظهر على السيدتين بعض الدهشة ، بل ندّت عنهما شهقة ايضا ، وقالتا بصوت واحد ان نطقه بالالمانية ممتـــاز ، ولكنه يستطيع ان يستعمـــل الفرنسيـــة اذا كانت أدعي لراحته ، لانهما تفهمان هذه اللغـة جيدا وتنطقان بهـا . لم يبطئ سانين في انتهاز هذا العرض . «سانَين ؟ سانين !» ، لم تنتظر السيدتان ان يكون في الكنى الروسية كنية على مثل هذه السهولـــة في النطق . واستظرفتـــا كذلك اسمـــه «ديميتري» ، وقالت الست الكبيرة انها سمعت في صباهـــا اوبرا رائعة اسمها «Demetrio e Polibio» ، ــ ولكن اسم «Dimitri» اجمل من «Demetrio» . وعلى هذه الصورة قضى سانين حوالي ساعة في جلسة وحديث ؛ وأطلعته السيدتان من ناحيتهما على ادق التفاصيل من حياتهما . وأدارت الام ذات الشعر الاشيب دفة الحديث اكثر الوقت ، فعرف سانين منها ان اسمها ليونورا روزيللي ، وانها ارملة وزوجهـــا المرحوم جيوفاني باتيستا روزيللي الذي اقام طوال خمس وعشرين سنة في فرانكفورت يصنع الحلويات ، وانـــه في الاصل من ابناء فيشنزا ، وهو رجل طيب ، ولكنه لم يخل من بعض النزق والتكبر ، يضـــاف الى هـذا ان نـزعتـــه جمهورية ! واشارت في اثناء كلامهـــا الى صورته الزيتية المعلقة على الجدار القائم وراء الديوان ، وتنهدت قائلة :ــ لا يبعد ان يكون الرسام الذي رسمها «جمهوريا ايضا !» ، فانه لم ينجح كل النجاح في التقاط الخطوط المشابهة لملامح زوجها ، فظهر المرحوم جيوفاني باتيستا على هذا القدر من التجهم والصرامة ، حتى لكأنه قاطع طريق على شاكلة رينالدو رينالديني * ! اما السيدة روزيللي فانهـــا من «المدينـــة

* قاطع طريق اسطوري .

القديمة الرائعة بارما ، حيث القبـــة المعجزة التي حليت برسوم كوريجيو الخالد !» . ولكنها اقامت وقتا طويلا في المانيا ، واستوطنتها حتى تألمنت او تكاد . ثم قالت في أسى وهي تهز رأسهـا : لم يبق لهـــا الا **هذه** البنت **وهذا** الابن (واشارت باصبعها الى كل منهما على التتابع) ؛ وان البنت اسمها ــ جيما ، والولد ــ اميل ؛ وانهمـا ولدان طيبـــان مطيعان ــ ولا سيما اميل ... (فقاطعتها ابنتهـــا قائلة : «وهل انا غير مطيعة ؟» ــ فاجابت الام : «آه ، انت ايضا نزعتك جمهورية !» . اما الاحوال فانها اسوأ منها مما كانت على ايام زوجها الذي كان معلمـــا عظيمـــا في صنـع الحلويات ... (وعندئذ نبذ بانتاليوني قائلا بهيئة صارمة : «Un grand'uomo!*») ، ولكن الحياة ، مع ذلك ، لا تزال ميسورة والحمد لله !

٥

كانت جيما تصغي الى أمها ــ وهي تبتســـم تارة ، او تتنهد تارة اخرى ، او تمسح بيدها على كتف أمها ، او تهز اصبعها محذرة ، او ترنو بالنظر الى سانين . ثم قـــامت فطوقت أمها بذراعيها ، وقبلتها في عنقها ، فأضحكت الام هذه الحركة ، التي أنغشتهـــا ؛ وقُدم بانتاليوني ايضـــا الى سانين ، فظهر انه في ذات زمـــان كان مغني اوبرا بالصوت الباريتون ، ولكنه انقطع عن اعمال المسرح منذ وقت بعيد ، واصبح في اسرة روزيللي بمقام وسط بين صديق العائلـــة وخادمها . اقام حينا طويلا من الزمن في المانيا ، ولكنه لم يتعلم من لغتها الا كلمات الشتائم ، ولم تسلم هذه الالفاظ ايضا من التحريف والتشويه عند نطقه بهـــا ، فكان يلفظ النعت الذي يطلقـــه على كل الماني بقولـــه : «فيروفلوكتو

---

* رجل عظيم (بالايطالية) .

سبيتشيبوبيـــو » *• . بيد ان نطقـــه بالايطالية في غايـــة الاتقان ، ذلك انـــه من ابنـاء سينيغاليـــا حيث تسمــع «lingua toscana in bocca romana!**» . امـا اميل فكان مستسلما لأحاسيس امرئٍ نجا وشيكا من خطر ، او شفى من مرض ، ومن الواضح فوق هذا ، انه في كل شيء صبي الاسرة المدلل . لقد شكر سانين في استحياء ، ولكنه اقبل على المرطبات والحلويـــات في جراءة . واجبروا سانين على شرب فنجانَين كبيرين من الشوكولاته الجيدة ، وأكل مقدار هائل من البسكويت : فما يكاد يزدرد واحدة حتى تأتيه جيما بواحدة غيرها ، ولا مجال عندئذ للرفض ! وسرعان ما شعر بانـــه في بيتـــه : لقد مرّ الوقت بسرعـــة لا تصدق ، وكان مضطرا الى ازجاء كثير من القصص ــ عن روسيا بعامة ، عن الجو الروسي ، والمجتمـــع الروسي ، والفلاحين الروس ــ وبخاصـــة عن القوزاق ، وعن حرب ١٨١٢ ، وعن بطرس الاكبر ، والكرملين ، وعن الاغاني الروسية ، وعن الاجراس . كانت معلومات السيدتين ضئيلة عن بلادنا النائية المترامية الاطراف ، فان السيدة روزيللي او فراو لينوري قد افزعت سانين بهذا السؤال : ألا يزال قائمـــا في بطرسبورغ ذلك القصر الذي اشتهر منذ القرن الماضي باســـم قصر الجليد ؟ وقالت انها قرأت عنه مقالا طريفـــا في كتاب وجدته عند المرحوم زوجهـــا عنوانه «Belezze delle arti»*** . فكان جواب سانين : «وهل ظننت ان الصيف لا يحل في روسيـــا ابدا ؟ !» ، فاعترضت فراو لينوري قائلة بانهـــا تتصور روسيا حتى الآن على هذه الصورة : الثلج الابدي ، والناس جميعا في الفرو ، وكلهم عساكر ، ولكنهم على درجة رائعة

---

* معناها «النصاب الملعون» (وصحيحها بالالمانية : verfluchte Spitzbube)

** اللغة التوسكانية من افمام رومانية (بالايطالية) .

*** «جمالات الفن» (بالايطالية) .

من الكرم ، وفلاحوها طيعون كل الطاعة ! وحاول سانين ان يعطي الام وابنتها معلومات اكثر دقة عن بلاده . لما لمس الحديث جانب الموسيقى الروسية ، رجته السيدتان أن يغني أحادية روسية من احدى الاوبرات ، واشارتا الى بيانو صغير قائم في الغرفة وضعت اصابعه السود في موضع البيض ، والبيض في موضع السود ، فأذعن سانين من غير تمنع او اغراق في انتحال الاعذار ، وأخذ يغني وهو يعزف باصبعين من يده اليمنى ، وثلاث من يده اليسرى (وهي الابهام والوسطي والخنصر) فغنى بصوت رفيع « تينوري » يخرج من انفه اغنية « سارافان » ، ثم غنى اغنية « خلال الشارع الرحيب » ، فامتدحت السيدتان غناءه وعزفه ، وارسلتا آهات الاعجاب بعذوبة اللغة الروسية ولطف جرسها ، وطلبتا اليه ان يترجم لهما معاني الاغنيتين ، فاستجاب سانين لهذا الطلب ، ولكن كلمات اغنية « سارافان » وبخاصة اغنية « خلال الشارع الرحيب » (جاءت في ترجمته لها على هذا النحو الطريف : sur une rue pauveé une jeune fille allait à l'eau*) فلم ينقل الى مستمعتيه كثيرا من دقائق الشعر الروسي . ولهذا غنى الاغنية « اني لأذكر اللحظة الرائعة » وهي من تلحين غلينكا وشعر بوشكين ، بعد ان قرأها ، وترجم معانيها ، ولكنه غالط قليلا في المقطع المينوري . هنا عصفت الحماسة بالسيدتين ـ بل ان فراو لينوري اكتشفت في اللغة الروسية شبها مدهشا باللغة الايطالية . وحتى اسما بوشكين (كانت تنطقه : بوسيكين) وغلينكا ـ رأت ان في جرسهما رتينا مألوفا في سمعها . ثم جاء دور سانين ، فرجا السيدتين ان تغنيا ما يحضرهما من الاغاني ؛ ولم تتمنعا ايضا ، فجلست فراو لينوري الى البيانو ، واشتركت معها

---

* في شارع رحيب تسير فتاة صبية الى الماء . (المترجم) .

جيما في غناء بعض المقطوعات الاحادية والثنائية . كان الكونترال ذات يوم رائعا في صوت الام ، اما صوت البنت فانه على شيء من الضعف ولكنه مطرب .

٦

ولكن سانين كان معجبا بجيما نفسها لا بصوتها . جلس بجانبها الى وراء منها قليلا وطفق يفكر قائلا في نفسه : ليس من نخلة — حتى في شعر بينديكتوف وكانت موضته شائعة وقتذاك — بقادرة على منافسة امتشاق قامتها وهيف خصرها ؛ وخيل اليه وهو يرى اليها منصرفة بحواسها الى الغناء ، رافعة عينيها الى أعلى ، ان السماء التي لا تفتح رحابها لمثل هذه النظرات لم توجد في هذا الكون . بل ان العجوز بانتاليوني الذي استند بكتفه الى الباب واغرق ذقنه وفمه في ربطة عنقه الواسعة ، وأصغى في وقار اصغاء الخبير العارف ، كان ينظر في افتتان الى وجه الفتاة الرائع ، كان مذهولا به ، وهو الذي تعود رؤيته ولا شك ! لما انتهت فراو لينوري من الغناء مع ابنتها اشارت قائلة : ان اميل له صوت ممتاز ، مثل رنين الفضة الاصيلة ، — ولكنه الآن في السن التي يتغير فيها الصوت (كان في الواقع يتكلم بصوت فيه خشونا متقطعة) ، ولهذا فهو ممنوع عن الغناء ، اما بانتاليوني فانه قد يستطيع أن يجدد أيامه الخوالي على شرف الضيف ! أظهر بانتاليوني عدم الرضى من فوره ، وتجهم وجهه ، وأخذ ينبش في شعره ، ثم أعلن : أنه أهمل ذلك وتركه منذ وقت بعيد ، على الرغم من أنه استطاع في صباه ان يثبت وجوده ، وأنه بصورة عامة ينتمي بزمانه الى ذلك العصر العظيم الذي عاش فيه المغنون الكلاسيكيون الحقيقيون الذين يجلّ غناؤهم عن الموازنة بمواء المغنين المحدثين ! فوقتئذ كانت مدرسة حقيقية للغناء . وانه هو بانتاليوني تشيباتولا من أبناء فاريزه ، قدموا اليه في مودينا

اكليلا من الغار ، وأطلقوا الحمائم البيض في المسرح لهـذه المناسبة ؛ وان الامير الروسي تاربوسكـي «il principe Tarbusski» الذي كانت بينهما صداقة وثيقة كان يدعوه كثيرا أثناء أكلهما في العشاء للسفر الى روسيا ، ووعده بأن يكون له جبل من الذهب ، جبل ! .. ولكنه أبى ان ينفصل عن ايطاليا ، وطـن دانتـي — il paese del Dante! — ثم حدثت أمور مؤسفـة ، وهـو بالذات لم يلتزم جانـب الحذر ... وهنا قطع الشيخ حديثه ، وصعد زفرة عميقة مرة او مرتين ، وأطرق برأسه ، ثم عاد يتحدث عن عظمة عصر الغناء الكلاسيكي ، وعن المغني التينور الشهير غارسيا الذي يشعر له بقدر غير محدود من الاحترام . وقال :

ــ يا له من انسان ! فأن غارسيا العظيم ــ «il gran Garcia» ــ لم يهن نفسه أبدا بغناء يسفّ به الى مستوى مطربي هذا الزمان — tennoracci — كان غناؤه من صدره ، من صدره ــ voce di petto, si!* ــ وهنا أخذ العجوز يدق بيده الصغيرة اليابسة على صدارته ــ وياله من ممثل ! بركان ، signori miei** بركان ، un Vesuvio! . لقد تشرفت وسعدت بالغناء معه في أوبرا « عطيـل » التي وضعهـا dell'illustrissimo maestro*** روسيني ! وكان غارسيا في دور عطيل ، ــ وأنا في دور ياغو ــ ولما أخذ يؤدي هذا المقطع ...

هنا اتخذ بانتاليوني وضعا مسرحيا ، وبدأ يغني بصوت مرتعش مبحوح ولكنه جهير فخم :

L'i... ra daver... so daver... so il fato
Io più no... no... no non temerò!****

---

* صوت الصدر ، نعم (بالايطالية) .

** يا سادتي (بالايطالية) .

*** المايسترو الاشهر (بالايطالية) .

**** لتغضب الاقـدار فاني لـن اخافهـا بعـد اليـوم (بالايطالية) .

ـ لقد اهتز المسرح signori miei! ولكني لم أتقهقر بل غنيت بعده :

L'i... ra daver... so daver... so il fato
Temèr più non davró!*

ـ وانقض هو فجأة كالبرق ، كالنمر ، بهذا المقطع :
Morro!.. ma vendicato!..**
ـ او اسمعوا هذا ايضا ، عندما غنى ... عندما غنى هذه الاحادية الشهيرة Pria che spunti...*** من اوبرا «Matrimonio segreto»**** ... هنا اضاف il gran Garcia بعد كلمتي : l'cavalli di galoppo(* قوله : Senza posa cacciera(** . فاسمعوا ما أروع هذا ، com'é stupendo! ـ وهنا بدأ العجوز في ترديد نغمة فذة ، لكنه توقف عند نوطتها العاشرة ، وأخذ يسعل ، ثم طوح بيده ، وغمغم وهو يستدير برأسه : ـ لماذا أنتم تعذبونني ؟

فنهضت جيما من مقعدها في تلك اللحظة ، وهتفت وهي تصفق بملء قوتها : برافو !.. برافو ! واسرعت الى ياغو المتقاعد المسكين تهزه من كتفيه بترفق وحنان . ولكن اميل وحده كان يضحك من دون شفقة ، فان هذه السن ـ Cet âge est sans pitié ـ لا تعرف الشفقة ـ هكذا قال لافونتين .

---

* لتغضب الاقدار فليس حتماً ان اخافها بعد اليوم (بالايطالية) .

** اني أموت !.. ولكني أموت منتقماً !.. (بالايطالية) .

*** قبل ان يطلع ... (بالايطالية) .

**** «الزواج السري» ـ اوبرا من تلحين الملحن الايطالي دومينيكو تشيماروزي (١٧٤٩ـ١٨٠١) .

*) جياد السباق (بالايطالية) .

**) سنطاردها من غير توقف (بالايطالية) .

حاول سانين أن يواسي المغني العجوز : فحاطبه باللغة الايطالية ، (كان قد التقط بضع كلمات منها اثناء جولته الاخيرة) وحدثه عن *«paese del Dante, dove il si suona» وكانت هذه الجملة مع جملة **«Lasciate ogni speranza» هي كل ما حملته من ايطاليا حقيبة السائح الشاب من المتاع الشعري الايطالي . ولكن بانتاليوني لم يؤخذ بهذا التملـق ، فزاد رأسه انخفاضا ، وذقنه غوصا في رباط عنقه ، واكتأبت نظراته الشتيتة ، وصار من جديد يشبــه الطائــر ، بل ان الغضب جعله كالغراب ، او أدهى ، كالحدأة ؛ وعندئذ سرت حمرة خفيفة في وجه اميــل كمـــا يحدث للاولاد المدللين ، والتفت يقول لاخته : ان خير ما تفعله اذا كانت ترغب في امتاع الضيف ان تقرأ عليه شيئا من اعمال الكاتب الفكاهــي مالتز فانها تجيد قراءتها . فضحكت جيما وقالت وهي ترشق أخاها بيدها : «انه هكذا دائما في تفكيره ! » ، ولكنها قامت من فورها الى غرفتها ، وعادت بكتاب صغير ، فجلست الى المائدة امام المصباح ، ثم التفتت وهي ترفــع اصبعهـــا ــ «صمتا . هس !» ــ حركة ايطالية صرف ــ وطفقت تقرأ .

٧

كان مالتز أديبا من فرانكفورت ، اشتهر في الثلاثينات *** بضرباته القلمية الهزلية التي أرسلها في مقطوعات قصيرة ، مكتوبة باللغة المحلية الدارجة ، كذلك اشتهر بنوادره التي لم تكن عميقة المعنى ولكنها ظريفة مرحة ، وقد صور بهذا كله نماذج من سكان فرانكفورت . وظهر ان جيمـا تحســن

---

* بلاد دانتي حيث ترن كلمة نعم (بالايطـاليــة ــ «CU»).

** «دع الامل الى الابد» (من دانتي ، بالايطالية) .

*** واضح ان المقصود هنا ثلاثينات القرن التاســـع عشر . **(المترجم)** .

الالقاء كالممثلين . كانت تعبر بحركات وجهها عن سمات كل شخصية ، وتلتقط خصائصها بصورة ممتازة ، مستعينة بوسائلها الموروثة عن جنسها الايطالي في ابراز هذه الخصائص . لم تأخذها الرحمة بصوتها الرقيق ولا بوجهها الرائع ، فحين تقتضي منها المناسبة تقليد عجوز ملتاث العقل ، او حاكم بليد ، كانت تقلّب سحنتها في اشكال هزلية شتى ، وتكيفها على أوضاع ساخرة شائهة ، فتغرب عينيها ، وتجعد أنفها ، وتلثغ او ترأرئ ، وتموء ، وتصئي . . . لم تضحك وقت القراءة ، ولكن حينما كان المستمعون (ما عدا بانتاليوني ، فقد خرج غاضبا عندما بدأ الحديث عن (quel ferroflucto Tedesco* حينما كان المستمعون يقاطعونها بانفجار من قهقهتهم المشتركة المشجعة ، كانت تضع الكتاب على ركبتيها ، وترنّ ضحكتها ، وعندئذ ترتد برأسها الى الوراء ، وترتعش خصل شعرها الاسود في حلقات ناعمة على عنقها ، وعلى كتفيها المهتزين ، فاذا سكن الضحك ، عادت الى الكتاب ، وجعلت ملامحها في الوضع الملائم ، واستأنفت القراءة في جد وتوتر . لم يستطع سانين ان يكبح جماح اعجابه بها . بهرته خصوصا بأن وجهها المثالي الرائع اتخذ ، على نحو يشبه الاعجاز ، هذه السمات الهازلة بل حتى الماجنة في بعض الاحيان . ولكن جيما لم توفق الا قليلا في تأدية ادوار الفتيات التي تمثلها من تسمى «jeunes premières»** ، لم تنجح على الخصوص في تأدية المقطوعات الغرامية ، وقد شعرت هي بذلك ، فكانت تضيف على هذه الادوار نبرات خفيفة من السخرية ـ كأنها لا تصدق كل هذه المطارحات الغرامية الحارة ، وهذه الخطب الرنانة التي حاول المؤلف ان يتجنبها بقدر ما استطاع .

لم يلحظ سانين ان الوقت يُطير . تذكر موعد سفره

---

* الالماني الملعون (بالايطالية) .

** الفتاة الاولى (بالفرنسية) .

القريب عندما دقت الساعة العاشرة ، فقفز من مقعده كالملسوع ؛ فسألته فراو لينوري :
ـ ماذا بك ؟
ـ ينبغي ان اسافر اليوم الى برلين ـ وقد احتجزت مكانا في العربة .
ـ متى تتحرك العربة للسفر ؟
ـ في منتصف الساعة الحادية عشرة .
فقالت جيما :
ـ واذن فاتك الموعد ، فابق ... سأواصل القراءة .
فسألت فراو لينوري باستطلاع :
ـ أدفعت قيمة التذكرة كلها أم دفعت عربونا فقط ؟
فأجاب سانين وهو يزفر من صدر مثقل :
ـ كلها !
نظرت اليه جيما ، ورأرأت بعينيها وضحكت ، فأنبتها أمها قائلة :
ـ أضاع الشاب نقوده في الهواء وانت تضحكين .
فقالت جيما :
ـ لا باس ، فان هذا لن يفقره ، وسنحاول ان نخفف عنه . هل تريد ليمونادة ؟
فشرب سانين كأسا من الليمونادة ، وشرعت جيما في القراءة من مالتز ، وسار كل شيء في سهولة ويسر كالزيت .
دقت الساعة الثانية عشرة ، فتهيأ سانين للانصراف ، وقالت جيما :
ـ لا بد لك ان تبقى بضعة ايام في فرانكفورت ، فالى أين يقتضيك الاسراع في الرحيل ؟ لن تكون مدينة اكثر مرحا من فرانكفورت ـ وبعد ان امسكت قليلا عن الكلام اضافت بابتسامة ـ الحقيقة لن تكون . لم يجب سانين بشيء . كان يفكر : ان فراغ جيبه سيضطره الى البقاء في فرانكفورت حتى يأتي جواب صديق من برلين اعتزم ان يكتب اليه

ويطلب ان يقرضه شيئا من النقود . وقالت فراو روزيللي :

ـ ابق ، ابق ، سنعرفك الى السيد كارل كلوبير خطيب جيما . لم يستطع ان يجيء اليوم لان لديه مشاغل كثيرة في مخزنه ... لا شك انك رأيت في شارع تسيل اكبر مخزن للاجواخ والحراير . انه مدير هذا المخزن ، ولكنه سيكون مسرورا جدا بان يقدم لك نفسه .

شعر سانين بالخيبة ـ ولا يعلم سببها الا الله ـ تلقاء هذه الانباء ، ولمعت في ذهنه هذه الخاطرة ـ «ما أسعد هذا الخطيب» ، ونظر الى جيما فخيل اليه ان مسحة من السخرية خالطت نظرتها . أخذ يودع مضيفيه ، فسألته فراو لينوري :

ـ الى الغد اذن ؛ هل اتفقنا ؟

وقالت جيما بلهجة التوكيد لا بلهجة السؤال كأن الامر حتم لا محيص عنه :

ـ الى الغد !

فاجاب سانين :

ـ الى الغد !

سار معه اميل وبانتاليوني والكلب تارتاليا يشيعونه حتى زاوية الشارع . ولم يصبر بانتاليوني على كتمان عدم رضاه عن طريقة جيما في الالقاء :

ـ ما أقل حياءها ! تتمسخر ، وتصئي ، una carricatura* . كان عليها ان تمثل ميروبه او كليتيمنيسترة ، اي شيئا لشوامخ التراجيديين ، ولكنها جعلت تتماجن مثل ألمانية مريبة ! أنا أيضا أستطيع ان أرطن بهذه الميرتز والكيرتز والسميرتز ـ قال ذلك بصوته الخشن المبحوح وهو يدفع ذقنه الى الامام ويمد اصابع يده ، فاخذ الكلب تارتاليا

---

* واحدة كاريكاتورية (بالايطالية) .

ينبحه ، واغرق اميل في الضحك ، فاستدار الشيخ مرتـــدا الى الوراء .

عاد سانين الى فندق «البجعة البيضاء» (كان قد ترك اشياءه في الصالة العامة) ، بنفس يعتلـــج فيهـــا احساس غامض ، وفي أذنيه يرنّ هذا الخليط من الالمانية والفرنسية والايطالية .

ـ خطيبة ! ـ همس وهو يستلقى على السرير في الغرفة المتواضعة التي أعطيها ـ وما أروع جمالها ! واذن ما بقائي في هذه المدينة ؟

ولكنه في اليوم التالي أرسل رسالة الى صديقه في برلين .

٨

ما كاد يلبس ثيابه حتى دخل الخادم ينبئه بأن سيدين ينتظران مقابلته . وظهر ان اميل احدهما ، اما الثاني ، وهو رجل يملأ النظر ، مديد القامة ، في مقتبـل العمر ، وسيـــم الملامح ، فكان الهر كارل كلوبير خطيـــب الحسناء الرائعـــة جيما .

أغلب الظن ان مدينة فرانكفورت من أولها لآخرهـــا لم تعرف وقتذاك في أي مخزن من مخازنها مديرا تجاريا يشبه في لياقته وتهذيبه وخطورة شأنه وعذوبـــة محضره السيـــد كلوبير . لقد تناسبت أناقته التي لا تشوبها شائبه بمظهره المتحرز المهذب . والحقيقة ان أناقته مشوبة بقليل من برود الانكليز وتحفظهم (كان قد قضى سنتين في انجلترا) ، ولكنه مع هذا كله آسر ساحر بمحضره ومظهره . لا تخطئُ العين منذ النظرة الاولى ان هذا الشاب الجميل ، الصارم قليلا ، الجم التربية والتهذيب ، النظيف كل النظافة ، قد تعود ان يَخضع للاعلين ، وُيخضع الادنين ، وان عليه وهو الى جانب منصة البيع في المخزن ان يوحى حتى الى الزبائن انفسهم بالاحترام . وما عليك الا ان تنظر الى ياقته المنشاة الصلبة لتدرك ان نزاهته ابعد من ان يعلق بها ولو مثقال ذرة من الشك !

اما صوته فهو مما تتوقعه من رجل على طرزه ، فهو قوي واثق ريان ، هادئ وقور رقيق النبرات ، يلائم على الخصوص توزيع الاوامر على المرؤوسين بمثل هذه العبارات : « انزل هذه القطعة الوردية من المخمل ! » او « احضر كرسياً لهذه الست ! » .

بدأ السيد كلوبير بتقديم نفسه ، فبأي جلال أحنى جذعه ، وبأي لباقة شد ساقيه ، وبأي تأدب ضم كعبيه . وكان لهذا من قوة التأثير ما يشعر « بأن لهذا الانسان ثوبا وروحا من الصنف الاول ! » . ان اناقة يده اليمنى النظيفة العارية (اليسرى مكسوة بقفاز سويدي ، ممسكة بقبعة سوداء عالية تلمع كالمرآة ، وفي داخلها الفردة الثانية من القفاز) التي مدّها الى سانين في تواضع ولكن في قوة ، برزت على نحو يبهر العقل : كل ظفر منها قد أخذ ما يكفيه من العناية والاتقان . ثم افاد بلغة ألمانية عالية : انّه يود ان يعبر عن احترامه وامتنانه وعرفانه لجميل السيد الاجنبي الذي أدى مثل هذه الخدمة الجليلة لقريبه العتيد شقيق خطيبته ؛ وبسط أثناء ذلك يده على رحبها الى ناحية اميل ، وكان هذا يقف في استحياء ملتفتاً بوجهه نحو النافذة واصبعه في فمه . واضاف السيد كلوبير انه سيكتب نفسه في السعداء اذا استطاع من جهته ان يكون في حالة استعداد لتوفير البهجة للضيف الكريم . فأجاب سانين بلغة ألمانية لا تخلو من العسر انه سعيد جدا . . وان ما قدمه لا يستحق الذكر ، ودعا ضيفيه الى الجلوس . الهر كلوبير عبر عن امتنانه ، ورفع ذيل فراكه كلمح البرق ، وانزلق على الكرسي ولكن بأي رشاقة وخفة انزلق ، وجلس من دون استقرار ، حتى ليتعذر على المرء ألاّ يدرك أن « هذا الانسان يجلس من باب المجاملة ويوشك ان يطير ! » . والواقع انه لم يبطئ ، فقد رفرف فجأة ، وراوح بقدميه مرة او مرتين في خفر وحياء كأنه يهم بأن يرقص ، وأعلن أنه على غير ما يتمنى لا يستطيع ان يطيل المكوث وقتاً أطول ، وانه عليه ان يسرع

الى مخزنه فأن ـ العمل قبل كل شيء ـ ولكن ما دام الغد يوم احد ، فانه سيعدّ نزهة مرحة الى «سودين» بعد موافقة فراو لينوري وفراولين جيما ، ويشرفه ان يدعو السيد الاجنبي اليها ، والمأمول ألاّ يرفض السيد الاجنبي اضفاء البهاء على هذه الرحلة بحضوره الكريم . لم يرفض سانين اضفاء البهاء على هذه الرحلة . فقدم الهر كلوبير نفسه مرة ثانية وذهب ؛ وكانت سراويله تخفق بلونها الفستقي اللطيف، ونعل حذائه الجديد يبعث صريرا مستعذب الوقع .

٩

بقي اميل واقفا في مكانه ملتفتاً بوجهه الى النافذة حتى بعد دعوة سانين له بأن يستريح : فلما غادر صهره العتيد الغرفة ، استدار من فوره يسرة ، وأقبل مبرطما كالطفل ، أحمر الوجه من استحياء ، ورجا سانين ان يسمح له بالمكث عنده قليلا ، وقال : «ان حالتي الصحية الآن احسن مما كانت قبل ، ولكن الطبيب لم يسمح لي بالعمل» . فأسرع سانين الى القول :

ـ لك ان تبقى فانك لا تعيقني في شيء .

كان يسره مثل ايّ روسي اصيل ان يعتصم بأول ذريعة تعرض له ، على ان لا يوضع بها في موضع المضطر الى القيام بعمل من الاعمال .

شكره اميل ، وبعد قليل من الوقت ، كان في الفة مع المضيف وغرفته ، فأخذ يتفرج على اغراضه واشيائه ، ويسأل عن هذا وذاك منها ، من أين اشتراه ، وما ثمنه ؟ ثم ساعده في الحلاقة ، واقترح عليه ان يطلق شاربيه ، وانتهى به المطاف الى الافضاء بكثير من التفصيلات عن شؤون امه واخته ، وعن بانتاليوني ، بل حتى عن الكلب البوديل تارتاليا ، وعن كل شاردة وواردة من امور حياتهم وسعيهم ، وزال عنه كل أثر من آثار الحياء ، وشعر فجأة بميل عارم الى سانين ، لا لانه أنقذ حياته امس ، بل لانه مؤنس جذاب ،

وأسرع الى البوح له بكل اسراره ، وبخاصة ما تخمّر لديه من ان امه تريد جاهدة ان تصنع منه تاجرا ، ولكنه يعرف ، وهو على يقين مما يعرف ، انه ولد رساما ، موسيقيا ، مغنيا ، وان المسرح هو المكان الحقيقي الذي يدعوه ، وان بانتاليوني يشجعه في هذا ، ولكن السيد كلوبير يدعم امه في موقفها بما له من نفوذ عليها ، والفكرة عن اعداده ليكون تاجرا انما جاءت على الخصوص من السيد كلوبير هذا ، ففي عرفه انه ليس من شيء في العالم يستحق ان يوازن ويقارن بلقب تاجر ! والتاجر يبيع الجوخ والمخمل و ــ يغش الناس باسعار «Narren — oder Russen-Preise» (يدفعها الحمقى او الروس) ــ هذا هو مثله الاعلى ! *

وما كاد يفرغ سانين من ارتداء ملابسه وكتابة رسالة الى برلين حتى هتف به اميل قائلا :

ــ اذن ! وبعدين ؟ ينبغي ان تذهب الينا الآن !

فلاحظ سانين :

ــ ولكن الوقت مبكر الآن .

قال اميل وهو يدنو منه في نعومة :

ــ لا عليك ، فلنذهب . سنمرّ بمكتب البريد ، ومنه الينا . ستكون جيما سعيدة ! وستفطر عندنا ... ولسوف تتحدث الى امي في أمري وأمر مستقبلي .

فقال سانين :

ــ طيب ، لنذهب .

وغادرا الغرفة .

---

* كانت الحال في الماضي ، بل لا تزال حتى الآن ، ان يبدأ الروس في التوافد على مدينة فرانكفورت عند بداية شهر مايو من كل سنة ، فيطرأ عندئذ ارتفاع على اسعار السلع في كل المخازن ولذلك اطلق اسم «Russen» (« روسية ») ــ او للاسف ! ــ «Narren-Preise» (« اسعار الحمقى ») على هذه الاسعار المرتفعة . **(ملاحظة المؤلف)** .

أقبلت عليه جيما في غبطة لا شك فيها ، واستقبلته فراو لينوري بأعظم ترحيب : كان واضحا انه ترك في نفسيهما اثرا طيبا امس ، وقبل ان يجري اميل ليوصي باعداد الفطور ، همس في اذن سانين قائلا : «لا تنس !» ، فأجاب سانين : « لن أنسى ! »

كانت فراو لينوري متوعكة الصحة ، تشكو صداعا ، وتسترخي في مقعدها من دون حركة ؛ وجيما تلبس بلوزة صفراء ، وتشد خصرها بزنار أسود من الجلد . كانت تبدو متعبة ايضا ، يكسو وجهها بعض الشحوب ، وتحت عينيها ظل من السواد ، ولكن بريقهما لم يكن اقل ، بل ان الشحوب قد اضفى على قسمات وجهها ذات الطابع الكلاسيكي شيئا من الغموض والعذوبة . وكان سانين في هذا اليوم بالذات مأخوذا بهذا الجمال المنساب من كفيها ، كلما رفعتهما ترد خصلاتها اللامعة او لتسوّيها ـ لم يكن قادرا على ان يحول بصره عن أصابعها الرشيقة الطويلة المتباعدة بعضها عن بعض مثل فورنارينا * كما رسمها رافائيل .

كان الحر شديدا في فناء الدار ، فأراد سانين ان ينصرف بعد الفطور ، ولكن القوم أشاروا بأن خير ما يفعله المرء في مثل هذا اليوم القائظ ان لا يتحرك من مكانه ، فوافق ونزل . كانت الغرفة الخلفية التي جلس فيها مع مضيفيه تمتاز بشيء من لطف الجو ؛ تطل نوافذها على حديقة صغيرة مزروعة بشجيرات الاكاسيا ، المكسوة بالازهار الذهبية حيث اجتمعت في خمائلها أسراب النحل والدبابير والصراصير ، وانتثرت في طنين متصل كان يتسرب الى الغرفة من صفق

---

* فتاة بائسة أحبها رافائيل وأبرز ملامحها في كثير من لوحاته . في قصر بربريني بروما لوحة بهذا الاسم ، ولكنها نسخة منقولة أصلها المفقود . (**المترجم**) .

النافذة الموارب ، ومن خلال الاستار المسدلة ، فكأنه ينبئ بما يسيل في الخارج من القيظ ، وان الاستقرار في منزل مغلق مريح أحلى من العسل .

تحدث سانين كثيرا كما فعل أمس ، ولكنه لم يتحدث عن روسيا ولا عن الحياة الروسية . لقد تمنى ان يرضى صديقه الشاب الذي أُرسل بعد الافطار مباشرة الى السيد كلوبير ليتمرن على اعمال المحاسبة ، فدفع الحديث دفعا الى الموازنة بين ما يفيد وما لا يفيد في كل من الفن والتجارة . ولم يدهشه ان فراو لينوري وقفت الى جانب التجارة فقد توقع ذلك منها ، ولكن جيما كانت ايضا متفقة مع امها في الرأى :

ـ حينما تكون فنانا ، ومغنيا على الخصوص ـ أكدت هذه الكلمة بحركة حماسية من يدها من أعلى الى أدنى ـ فلا بدّ ان تكون في المقام الاول ! ولا يليق المقام الثاني ابدا ، فمن يدري ، هل تستطيع ان تستأثر بالمقام الاول ؟

كان بانتاليوني يشترك في الحديث (سمح له بالجلوس على مقعد في حضرة السادة باعتباره خادما قديما وشيخا عجوزا ، ثم ان الطليان بعامة لا يتشددون في الرسميات) . وصمد بانتاليوني كالجبل في دفاعه عن الفن ، ولكن الحجج التي أدلى بها لم تكن مما يعتدّ به كثيرا ، فقد اعتمد في اكثر دفاعه على القول بأن المفروض في الفنان ان يتمتع قبل كل شيء ـ d'un certo estro d'inspirazione ـ بنفحة من الالهام ! فلاحظت فراو لينوري قائلة بأنه كان يتمتع ايضا بهذا «estro» ولكنه مع ذلك ... فأجاب بانتاليوني في جفوة :

ـ كان لي أعداء .

ـ ولماذا تعرف أنت (الطليان يستعملون ضمير المفرد بسهولة) ان اميل لن يكون له اعداء حتى حين يكتشف لديه هذا «estro» ؟

فأجاب بانتاليوني غاضبا :

ــ هيا اذن ، اعملي منه تاجرا ، ولكن ما كان جيوفاني باتيستا ليفعل هكذا على الرغم من انه بالذات كان حلوانيا !

ــ جيوفاني باتيستا ، زوجي ، كان انسانا عاقلا ، ولو انه في صباه شغف ...

ولكن الشيخ كان قد عزف عن الاصغاء فخرج وهو يكرر في عتاب :

ــ آ ! جيوفاني باتيستا !

واندفعت جيما الى القول لو ان اميل كان يشعر مواطناً بأن عليه ان يحشد قواه جميعا من اجل تحرير ايطاليا ، فان هذه الغاية السامية المقدسة تستحق ولا شك ان يضحي بمستقبله الرخي في سبيلها ، ولكن ليس في سبيل المسرح ! هنا ظهر القلق على فراو لينوري ، فأخذت تتوسل الى ابنتها ان لا تضلل أخاها على الاقل ، وتكتفي هي بأن تكون تلك المتحمسة للجمهورية ! وما إن انتهت من قولها حتى اخذت تتأوه وتشكو من رأسها الذي «يوشك ان ينفجر» (كانت فراو لينوري تخاطب ابنتها بالفرنسية مجاملة للضيف) .

وأسرعت جيما من فورها الى العناية بها ، فكانت تنفخ على جبينها في هدوء ، وتبلله بماء الكولونيا ، وتقبل خديها في رقة وتمهد وضع الوسادة تحت رأسها ، وتوصيها بالصمت عن الكلام ، ثم تعود الى تقبيلها ؛ والتفتت اخيرا تروي على سانين ما كانت عليه أمها من الجمال والفتنة ، واستدركت قائلة : «لماذا اقول كانت وهي الآن ساحرة ! انظر ما افتن عينيها !»

واختطفت جيما من جيبها منديلا أبيض غطت به وجه أمها ، ثم أخذت تسحبه من طرفه في بطء الى اسفل ، فكان جبينها يبرز شيئا فشيئا ، ثم برز حاجباها ، ولما ظهرت عينا فراو لينوري ، انتظرت جيما لحظة ، ثم طلبت الى أمها ان تفتح عينيها ، فأطاعت الام ، وعندئذ صرخت جيما صرخة افتتان (كانت عينا فراو لينوري جميلتين جدا ولا شك) ثم

أزلقت المنديل بسرعة الى اسفل حيث ظهر جزء من وجه امها اقل تناسقا مما عداه ، وعادت تقبلها من جديد . طفقت فراو لينوري تضحك وهي تصطنع مدافعة ابنتها عن نفسها ، وكذلك اخذت جيما تصطنع المقاومة وتتمسح بأمها اثناء ذلك ، ولكن بحركات لا تشبه تغنج القطط ، ولا تشبه التشخيصات الفرنسية ، ولكنها في تلك الرشاقة الايطالية التي تنطوي دائما على الشعور بالقوة .

أعلنت فراو لينوري اخيرا أنها متعبة . . . فنصحت لها جيما بأن تغفو قليلا حيث هي على مقعدها ، — وسنبقى انا والسيد الروسي — «avec le monsieur russe»* — هادئين هادئين . . . مثل فأرين صغيرين . . . — «comme des petites souris» * * — فأجابتها فراو لينوري بابتسامة وهي تغمض عينيها ، وبعد ان تنهدت قليلا ، أخذت تهوّم ، فانزلقت جيما على المقعد اللاصق بمقعد امها ، وجلست ساكنة لا تند عنها حركة الا فيما ندر — كانت تضع سبّابتها على شفتيها ، وتسند الوسادة تحت رأس امها بالثانية — وتهمس لسانين بصوت خافت : «هس» وهي ترمقه بجانب عينيها حينما تند عنه حركة ولو ضئيلة . وانتهى ذلك كله بسانين الى التجمد عن الحركة ، والجلوس كالمسحور ، والاتجاه بكل روحه وقلبه الى النظر في اعجاب الى هذه اللوحة التي تعرض عليه في هذه الغرفة المعتمة ، حيث تتألق هنا وهناك ازرار الورد الحمراء وتطل من اكمامها الناضرة المؤنقة في كؤوسها الخضراء العتيقة ، وهذه المرأة النائمة بيديها الملمومتين في تواضع ، ووجهها الطيب المتعب ، تؤطره وسادة في بياض الثلج ، وهذه الصبية اليقظة الحساسة ، وهي الى هذا طيبة ذكية طاهرة ، ولا جدال في انها مخلوق رائع

---

* بالفرنسية .

* * بالفرنسية .

فوق الوصف بعينيها السوداوين العميقتين اللتين تتلألآن على الرغم من هذه الظلال الوطفاء التي تغمرهما . ما هذا ؟ أهو حلم ام حكاية ؟ وكيف وقع هو **نفسه** هنا ؟

١١

رن الجرس المعلق في الباب الخارجي ، ودخل الدكان فتي من الفلاحين ، بقبعة من الفرو ، وصدار احمر ، لم يكن قبله اي زبون قد دخل الدكان منذ الصباح ...

ــ على هذه الصورة نحن نتعاطي التجـــارة ! ــ تنهدت فراو لينوري وهي تخاطب سانين اثناء الافطار . وعادت الى تهويمها .

تهيبت جيما ان تسحب يدها من تحت الوسادة ، فهمست الى سانين قائلة : «دبر الامر هناك بدلا مني!»

فقام سانين يسعى الى الدكان على اصابع قدميه كي يعطي الفتي مطلوبه وهو ربع رطل من اقراص النعناع ، وهمس من خلال الباب الى جيما :

ــ كم يطلب منه ؟

فاجابت هامسة مثله :

ــ ستة كريتزورات * !

وزن سانين ربع رطل ، وانتقى ورقة جعلها على شكل مخروط ، وما كاد يضع فيه الاقراص حتى سقطت ، فأعادها الى الورقة ، ولكنها تبعثرت من جديد ، وأخيرا أعطاها الفتي ، وقبض منه النقود ... كان الفتي يراقبه في دهشة وهو يعتصر قبعته على بطنه ، وفي الغرفة المجاورة ، كانت جيمـــا تشد بيدها على فمها وهي تكاد تموت من الضحك ؛ وما ان ذهب هذا الزبون حتى جاء زبون آخر ، ثم ثالث ... فقال سانين في نفســـه : «لا بدّ أن يدي مباركة» . طلب الزبون الثاني كأساً من عصير اللوز ، وطلب الثالث نصف رطل من السكاكر،

---

* نقود المانية . (**المترجم**) .

فأقبل سانين يلبي ما طلباه ، وارتفع رنين الملاعق ، ونقل الاطباق ، وكان يدس اصابعه في الصناديق والمرطبانات من دون تهيب ، وظهر له بعد الحساب انه تقاضي في عصير اللوز أقل من سعره ، وأخذ في السكاكر زيادة بلغت كريتزورين ، ولم تنقطع جيما عن ضحكها المكتوم ، بل ان سانين نفسه كان يستشعر مرحا يزيد عن المألوف ، ونفحة من السعادة العارمة تسري في روحه ، وخيل اليه انه يستطيع ان يبقى قرنا من الزمن وراء هذه المنصة يبيع السكاكر وعصير اللوز ، بينما هذه المخلوقة الجذابة تنظر اليه من وراء الباب بعينيها المعابثتين ، وشمس الصيف تتدفق في الظهيرة من خلال فروع الكستناء الكثيفة النامية قرب النافذة وتملأ الغرفة كلهـا بذهب الاشعة المحضوضر وبالظلال ، وقلبـه الهانئ يحس تراخيا عذبا وفراغا من الهموم ، ويحس بالشباب ـ بفورة الشباب الاولى .

طلب الزبون الرابع فنجانا من القهوة فاضطر سانين ان يدعو بانتاليوني (لم يكن اميل قد عاد من مخزن السيد كلوبير حتى تلك اللحظة) . وجلس سانين الى جنب جيما من جديد ، كانت في فرح عظيم لان امها مستغرقة في قيلولتها ، وقالت لسانين في همس :

ـ ان الصداع يزول عن امي في اثناء النوم .

وحدثها سانين ـ في همس كما من قبل ـ عن « تجارته » ، واستعلم منها في جد عن اسعار الحلويات ، فأجابته جيمـا بنفس لهجته الجدية عن هذه الاسعار ، وكانا في سرية والفة كأنما يدركان انهما يمثلان دورا في تمثيلية كوميدية مرحة للغاية . وفجأة ارتفع في الشارع صوت « شارمانكا » * وهي ترسل اغنية من اوبرا « فريشيوتس » . «Durch die Felder, durch die Auen. . .»** وانبعثت النغمة رنانة نائحة ، تهتز

---

* آلة موسيقية تدار باليد . (المترجم) .

** «خلال السهول ، خلال الوديان . . .» (باللغة الالمانية) .

في الهواء الساكن وتصفر ، ففزعت جيمـــا ... « سيوقظ أمي ! » ، فأسرع سانين الى الشارع ، وفــرك كف الرجــل ببضعة كريتزورات ، وأجبره على أن يصمت ويبتعد عن هذا المكان . ولما عاد ، شكرته جيما بايماءة خفيفة من رأسها ، وأخذت تدنّ بصوت يكاد لا يسمع الا قليلا ، متذكرة وهي تبتسم ، تلك المقطوعة من موسيقى فيبر التي يعبر فيهـــا ماكس عن حيرته من أحاسيس الحب الاول . ثم سألت سانين عما اذا كان يعرف « فريشيوتس » ويحب مؤلفهـــا فيبر ، واضافت انها على الرغم من اصلها الايطالي تسيغ هذه الموسيقى اكثر مما تسيغ غيرها . ثم تفرع الحديث من فيبر الى الشعر والرومانسية ، الى هوفمان ، وكان دارجا بين القراء حتى في ذلك الزمان ...

اما فراو لينوري فقد بقيت نائمة طوال هذا الوقت ، بل انها شخرت قليلا ، وضوء الشمس يرسل من صفق النافذة خيوطا رفيعة تكاد لا ترى ، ولكنها في تدفقها الدائم ، تتنقل منسابة على الارض والاثاث ، وعلى فستان جيمـــا واوراق الازهار واكمامها .

١٢

كان الواضح ان جيما لا تشعر بالميل الى هوفمان ، بل انهـــا تراه ... مملا ! فأن الطابع الضبابي في خيال ابناء الشمال ، وهو الطابع الغالب في قصصه ، كان مستغلقا على طبيعتها الجنوبية وفطرتها . لقد اكدت باستخفاف : « ان كل ذلك حكايات كتبت جميعا للاطفال ! » ، واحست كذلك ، ولو بصورة غامضة ، غياب الشاعرية عند هوفمان بل ان قصة واحدة من قصصه نسيت اسمها ، قد اعجبتها جدا ، او الاصح انها اعجبت ببدايتها التي لا تذكرها ، اما نهايتهـــا فانها لا تدري هل أهملت قراءتها ام قرأتها ونسيتها . تدور

أحداث القصة حول شـاب يلتقي فتاة في موضع يبدو انه دكان حلوى ، والفتـاة يونانية رائعة الجمال يرافقهـا شيخ غامض شرير . ويحب الشاب هذه الفتـاة من اول نظرة ، فتبادله هي نظرة حزينة كأنهـا تتوسل اليه ان يحررها . ويخرج الشاب لحظة ثـم يعود فلا يجد اثرا لا للفتاة ولا للشيخ ، فينطلق في طلبهما ، وكلما لاح له اثر جديد ذهب وراءه لعله يلقاهما ، ولكنه أخفق في العثور عليهمـا بأي صورة او وسيلة . لقد اختفت الحسناء الى الابد ، وتعذر عليه طوال حياته ان ينسى نظرتها المتوسلة ، وبقي معذبا بهذه الفكرة ، وهي ان سعادة العمر قد انزلقت من يديه ...

من المشكوك فيه ان هوفمان وضع لقصته هذه الخاتمة ، ولكن جيما تصرفت بها على هذا النحو ، وهكذا استقرت في ذاكرتها .

واضافت :

ـ اعتقد ان امثال هذا اللقاء وهذا الفراق تحدث في العالم اكثر مما نتصور .

بقي سانين صامتا ... ثم أخذ بعد ان أمسك قليلا عن الكلام يتحدث عن ... السيد كلوبير ، وهذه اول مرة يتذكره فيها ، فانه لم يخطر بباله حتى هذه اللحظة .

صمتت جيما بدورها ، وطفقت تفكر في هدوء وهي تقضم ظفر سبّابتها وتحدّ النظر الى ناحية ، ثـم أخذت تمدح خطيبها ، وأشارت في حديثها الى رحلة الغد التي اعدّ العدّة لهـا ، ثم عادت الى الصمت بعد ان اختلست نظرة سريعة الى سانين .

لم يعرف سانين عمّ ينبغي له ان يتحدث ، فكان في غاية السرور حينما اندفع اميل الى الغرفة في ضوضـاء فأيقظ فراو لينوري ...

نهضت فراو لينوري عن المقعد عندما ظهر بانتاليوني ليعلن ان الغداء جاهـز ، ذلك ان صديق الاسرة ، المغني بالامس والخادم اليوم ، كان يقوم ايضا بوظيفة الطاهي .

١٣

بقي سانين بعد الغداء ايضا ؛ استبقاه مضيفوه متذرعين بالحر المخيف ، ولما انفثأ الحر في الاصيل دعوه الى شرب القهوة في الحديقة تحت ظلال الاكاسيا ، فوافق سانين . كان يشعر بانه في حالة طيبة ، فأن الحياة تنطوي على فتنة عظيمة في تواترها الهادئ وجريانها المطمئن ، وقد استسلم سانين الى لذاذة تلك الفتنة ، فلا يطلب شيئا معينا من يومه الحاضر ولا يفكر بهموم الغد ولا يستعيد ذكريات الامس . وأي نعمة أغلى من هذا التداني المجرد مع فتاة مثل جيما ؟ انه سيفارقها عما قريب ، ولعله فراق الابد ، ولكن الزورق المسحور الذي وصفته اغنية أولاند * العاطفية ما يزال نفسه حتى الآن يحملهما في مجرى حياة مروضة التيار ـ فاسعد وتمتع يا أيها السائح ! فكل شيء يبدو له سائغا جذابا . عرضت عليه فراو لينوري مبارزة يشترك فيها بانتاليوني بلعبة «التريستو» ، وعلمته هذه اللعبة الايطالية البسيطة من العاب الورق ، وقد ربحت منه بضعة كريتزورات فكان في غاية الرضى ؛ واستجاب بانتاليوني لرجاء اميل ، فحمل الكلب تارتاليا على ان يعرض كل العابه ، فقفز على العصا ، و «تكلم» ، اي انه نبح وعطس ، واغلق الباب بأنفه ، وحمل الى صاحبه حذاءه المفلطح ـ ثم وضعت على رأسه قبعة «كيفر» ** قديمة ، ومثل دور الماريشال برنادوت وهو يواجه من الامبراطور نابليون حملة عنيفة من التأنيب تلقاء خيانته . وطبيعي ان بانتاليوني كان في دور نابليون ، وقد مثله بدقة وأمانة : صلب يديه على صدره ، وكبس قبعته المثلثة حتى عينيه ، وأخذ يتحدث ، على نحو خشن قاطع

---

* اولاند لودفيغ (١٧٨٧ـ١٨٦٢) شاعر غنائي الماني .

** قبعة عسكرية بولونية من الجلد مزينة بالريش .

(المترجم) .

لاذع بالفرنسية ، ولكن رباه ! بأي لغة فرنسية !اما الكلب نارتاليا فقد أقعى أمام مولاه خاشعاً مرتبكا منكمش الذيل ، وهو يطرف بعينيه ، شعوراً بالخجل واعترافاً بالذنب ، او توصوص بهما من تحت القبعة المائلة على رأسه ؛ وكلما رفع نابليون صوته بين الحين والآخر ، كان برنادوت يقف مستقيما على قائمتيه الخلفيتين ، واخيرا صرخ نابليون — «Fuori traditore!»* — كأنما اخرجه الغضب عن طوره فنسي ان موقفه يقضي بأن يستمر الى النهاية محتفظا بمزاجه الفرنسي ، فاذا برنادوت يندفع من غير تبصر ويرمي بنفسه تحت الاريكة ، ولكنه عاد من مخبئه في اللحظة نفسها وهو ينبح جذلا مغتبطا كأنما يريد ان يعلن للحاضرين ان العرض انتهى . لقد ضحك المتفرجون كثيرا ، وضحك سانين اكثر مما ضحكوا جميعا .

كان لجيما ضحكة لطيفة ، متصلة ، خافتة ، مأنوسة برنين خفيف عذب ... وقد خلبت سانين بهذه الضحكة حتى لقد تمنى ان يقبلها من اجل رنينها المأنوس !

ثم هبط الليل ، واصبح من حسن الذوق ان ينصرف ، فقام يودع مضيفيه واحدا واحدا ، ويردد لكل منهم قوله : الى الغد ! (حتى انه قبل اميل) ثم ذهب الى مسكنه حاملا في نفسه صورة الفتاة الصبية ، فهي ضاحكة ، او مفكرة ، او هادئة ، او حتى غير مكترثة ، ولكنها في كل حالاتها فاتنة ! كانت عيناها تتفتحان على رحبهما تارة ، فهما مشرقتان كالنهار ، او تسترخيان تارة اخرى في ظل اهدابها الوطف ، فهما عميقتان مظلمتان كالليل . هكذا مثلت عيناها امام عينيه ، نافذتين في غرابة وعذوبة من خلال مختلف الصور والاوضاع .

اما عن السيد كلوبير ، وعن دواعي بقائه هو في فرانكفورت — فانه على الجملة ، لم يفكر بكل هذا ، ولا بكل ما كان يقلقه امس ولو مرة واحدة .

---

* «اغرب عن وجهي ايها الخائن» ! (بالايطالية) .

١٤

ولكن يجب علينا ان نتحدث ببضع كلمات عن سانين بالذات .

اولا ـ كان جذابا في غاية الجاذبية ، ممشوق القامة أهيفها ، ملامحه لطيفة ولكنها مهزوزة قليلا ، شعره ذهبي ، وعيناه وديعتان مكحولتان بالزرقة ، وبياضه الناصع مشرب بالحمرة ـ والأهم : أن ملامحه تفيض بالبساطة وطيب السريرة ، مع صراحة توحي للوهلة الاولى بانه ساذج . مثل هذا الوجه كان يحملك في الماضي على التسليم من فورك بأن صاحبه ولد من أولاد الذوات ، سليل أسرة محافظة ذات حسب ونسب ، « ابن ابيه » ، فهو فتى طيب ، ولد وترعرع في رحابنا الطليقة التي يقتسمها السهل والغابة ، مشيته متعثرة ، وفي صوته نبرة ، ما تكاد تنظر اليه حتى يبتسم كالطفل ... فهو في الجملة كل الطراوة والنضارة والصحة والنعومة ، كل النعومة ، هذا هو سانين . ولكنه ، ثانيا ـ لم يكن بليداً ، ولا فارغا من بعض ما جمع واستوعى ، حافظ على طهارته ونضارته على الرغم من تنقله خارج الحدود ، اما الاحاسيس المقلقة التي تسرق خيرة شباب اليوم فما كان يعرف منها الا قليلا .

بعد اخفاق ادبنا مؤخرا في العثور على « البشر الجدد » بدأوا يخرجون طرزا من الشباب ممن يبذلون كل ما في وسعهم ليحافظوا على نضارتهم ... وهي نضارة تشبه اصداف فلينزبورغ التي تستورد الى بطرسبورغ ... لم يكن سانين يشبه هؤلاء . فاذا ذهبنا الى التشبيه والمقارنة ، فان سانين يذكر بفرع غض من فروع التفاح طعّم منذ وقت قريب في تربة حدائقنا الخصيبة ـ او انه في احسن الحالات : مهر من المهار المدللة ، ناعم الجلد ، سمين القوائم ، رقيق ، في عامه الثالث ، ترعرع في اسطبل سيد من « اصحاب الاسطبلات » ، ولا يزال رسن الترويض جديدا عليه ... اما

الذين رأوا سانين فيما بعد ، حينما صوّحته الحياة وبدلته تبديلا وأذبلت لحمه المكتنز بالشباب ، فقد رأوا فيه امرأ يختلف كل الاختلاف عن ذلك الانسان .

في اليوم التالي كان سانين لا يزال راقدا في فراشه حينما اقتحم اميل عليه الغرفة ، وهو في حلة العيد ، في يده عصا انيقة ، وفي زينته اسراف شديد ، وأنبـأه ان الهر كلوبير قادم اليه بالعربة ، والطقس يعد بأن يكون مدهشـا ، وان كل شيء لديهم جاهز ، ولكن ماما لن تذهب معنـا ، لان رأسها يؤلمها من جديد . ثم اخذ يستعجل سانين ويحثه على ان لا يضيع دقيقة واحدة ... أكيد ان الهـر كلوبير وصل قبل ان يتم سانين زينته . طرق الباب ، وانحنى بجذعـه ، وأبدى استعداده للانتظار مقدار ما يلزم ـ ثم جلس ، ووضع قبعته على ركبته في اناقة . كان البيّاع في أبهى منظر ، فهو يلمع من شدة الغندرة ، تفوح منه رائحة عطر نفاذة : كل حركة من حركاته ترافقها دفقة قوية من العطر . جاء في عربة مكشوفة فارهة مما كان يطلق عليه اسم «لاندو» ، استقرت وراء حصانين ضخمين قويين ولكنهما عاطلان من الجمـال . بعد ربع ساعة كانت عجلات هذه العربة تخب في أبّهـة ، حاملة سانين وكلوبير واميل الى دكان الحلوى . هناك رفضت السيدة روزيللي بكل قوتها ان تشـارك في هذه الرحلـة ، فأرادت جيما أن تبقى مع أمها ، ولكن أمها ذادتها عن نفسها وقالت في ثقة :

ـ لست في حاجة الى أحد ، فاني سأنام ، لقد أردت ان ارسل معكم بانتاليوني ايضا ، ولكن الدكان ما فيه احد .

وسألها اميل :

ـ هل استطيع ان آخذ تارتاليا ؟

ـ تستطيع ولا شك .

لم يبطئ تارتاليا فاندفع في جذل يتسلق العربة ويجلس في موضع السائق وهو يلمظ بلسانه ، وكان واضحا انه متعود

على مثل هذه الرحلة . وكانت جيما تضع على رأسها قبعة واسعة من القش ، ذات شريط بنّي ، التوت حافتها من امام الى أسفل فأخفت وجهها ، ووصل ظلها حتى شفتيها : وكانت شفتاها تفيضان بالحمرة والطراوة والرقة كما تكون براعم الورد ، وأسنانها تلمع في استخفاء وبراءة مثل براءة الاطفال . وكان مجلسها في مقعد الصدر الى جنب سانين ، وجلس كلوبير واميل في المقعد المقابل ، ولما ظهر هيكل فراو لينوري الابيض من خلال النافذة ، لوحت جيما لها بمنديلها ، وانطلق الجوادان .

١٥

سودين ــ بلدة غير كبيرة تقع على مسافة نصف ساعة من فرانكفورت ، وترقد في منطقة جميلة في أذيال جبل تاؤونوس ؛ مشهورة عندنا في روسيا بمياهها التي يقال انها مفيدة للمصدورين . اكثر ما يقصدها اهل فرانكفورت للفسحة ، لأن في هذه البلدة حديقة غنّاء ، فيها مختلف المقاصف التي تقدم البيرة والقهوة تحت ظلال أشجار الزيزفون والاسفندان العالية . والطريق من فرانكفورت الى سودين يمتد على ضفة نهر الماين اليمنى ، وكله مغروس بأشجار الفاكهة . كانت العربة تدرج في هدوء خلال طريق رائع ، وسانين يراقب في الخفاء كيف تعامل جيما خطيبها : فهو اول مرة يراهما مجتمعين . اما **هي** ، فقد احتفظت بهدوئها وبساطتها ولكن مع مقدار يزيد على المعتاد من الانطواء والجد ، وأما **هو** ، فكان ينظر في تسامح الوصي الذي سمح لنفسه ولمن في معيته بشيء من المتعة المتواضعة المهذبة . ولم يلحظ سانين انه يخص جيما بتلك الاهتمامات التي يسميها الفرنسيون «empressement»* . كان واضحا ان الهر كلوبير يحسب هذه القضية منتهية ، فلا يرى ما يدعوه

* اهتمامات حميمة (بالفرنسية).

للهم او القلق ؛ ولكن التسامح لم يفارقه لحظة ! فحتى قبيل الغداء ، اثناء الجولة الكبيرة خلال الغابات الجبلية والوهاد المحيطة ببلدة سودين ، وفي وقت الاستمتاع بجمال الطبيعة ، كان يخصها في هذه الطبيعة نفسها بكل تسامحه ، وقد ينفذ هذا التسامح في بعض الاحيـــان من خلال صرامتــه الآمرة الناهية . مثلا : لاحظ على ساقية من السواقي انها تجري في وهدة تزيد استقامة عمـــا ينبغي ، بدلا من ان ترسم بعض الالتواءات العفوية ؛ واستهجن سلوك طائر ــ من الحساسين لأن تغريده يفتقر الى شيء من التشكيل والتنويع ! لم يبد على جيما انها تشعر بالسأم ، بل كانت تبدو راضية مغتبطة ، ولكن سانين لم يرها كما عرفها : وما ذلك لان موجة من الظل طغت عليها ، فأن جمالها لم يتلألأ كمـــا تلألأ في هذا الحين ، ولكن نفسها انطوت في قرارة ذاتها . فتحت مظلتها من غير ان تنزع قفازيها ، وذهبت تتفسح في مظهر رصين وخطوات وئيدة كما تتفسح البنات المثقفات ولا تتكلم الا قليلا . وقد أحس اميل ايضا بالخجل ، فكيف سانين . كان يزيده ارتباكا ان الحديث في هذا الظرف يجري بالالمانية . اما تارتاليـــا فانه الوحيد الذي لم يكتئب ولم يمل ! كان يجري وراء مـــا يصادفه من الشحارير ، وهو يهر وينبح من غير انقطـــاع ، ويقفز فوق الحفر ، وفوق جذور الاشجار وبقايا جذوعها ، ويرمي بنفسه في الماء ، ويلعق قطراته في سرعة ونهم ، ويهز جسمه وهو ينبح ، ويطوح لسانه الاحمر الى كتفه من جديد . وعمل السيد كلوبير من ناحيته كل ما ارتأى انه باعث على المرح ، فعرض عليهم ان يجلسوا في ظل شجرة بلوط كثيفة الاغصان ، ونسل من جيبه كتيبا يسمى «Knallerbsen — oder du sollst und wirst lachen! (« متفجـــرات * ــ او يجب ان تضحك وستضحك ! ») وبدأ يقرأ بعض النوادر الطويلة المفصلة التي امتلأ بها الكتـــاب فقرأ حوالي اثنتي

---

* المقصود هنا ما يؤدي الى تفجير الضحك .

عشرة نكتة ، ولكن المرح الذي اشاعته كان قليلا . ما عدا سانين فانه طفق يكشر عن أسنانه من باب المجاملة ، وكان السيد كلوبير نفسه يصدر بعد كل نكتة ضحكة قصيرة لازمة مع انها متسامحة ايضا . وفي الساعة الثانية عشرة عادت الجماعة الى سودين ، وقصدوا الى احسن نزل في البلدة .

ثم حان الوقت للايعاز بتحضير الغداء .

كان من رأى السيد كلوبير ان يكون الغداء في عريش محتجب من كل جانب ـ «im Gartensalon»* ، ولكن جيما اعترضت فجأة على هذا ، واعلنت انها لن تتغدى الا في الهواء الطلق ، في الحديقة ، على احدى الموائد الصغيرة الموضوعة امام النزل ، لأنها سئمت ان تكون مع نفس الناس ونفس الوجوه ، وتريد ان ترى الى غيرهم . وكانت جماعات من الضيوف قد وصلت وجلست الى بعض الموائد .

ومع هذا أذعن السيد كلوبير « لأهواء خطيبته » ، وذهب لبحث الامر مع النادل ، ووقفت جيما من غير حركة ، مسترخية العينين مطبقة الشفتين . كانت تشعر بأن سانين يلح عليها بنظراته المتسائلة ـ ويبدو ان ذلك أغضبها . وأخيرا عاد الهر كلوبير وأعلن ان الغداء سيكون جاهزا بعد نصف ساعة ، وارتأى ان يقضوا هذا الوقت في لعب القناني الخشبية ، وأضاف ان ذلك مفيد لتحسين الشهية خه ـ خه ـ خه ! ولعب بمهارة المعلم ، اتخذ اثناء قذف الكرة وضع فتوة تصنع العجائب ، فارقص عضلات يديه ، وتأرجح متغندرا على ساق واحدة . كان عتلا على طريقته ، رائع الجسم ! ويداه ايضا كانتا رائعتين وكذلك منديله الذي كان يمسح به يديه ، فانه من الحرير الهندي الثمين المطرز بالنقوش المذهبة !

ثم حانت لحظة الاكل فجلست الجماعة الى المائدة .

---

* صالة في الحديقة . (بالالمانية) .

هل يجهل احد ما هو الغداء الالماني ؟ انه حساء مائع ، فيه حبات من العجين والقرفة ، وقطع من اللحم ممزقة من طول الغلي ، جافة مثل الفلّين ، يعلق بها الدهن الابيض ، ومعها قطع ملساء من البطاطا ، وشيء من الشوندر المنفوخ والفجل الحار . ثم قطعة مزرقة من السمك تسبح في الخل والخردل ، ولحم مقلي مع مربى ، ولا مفر بعد هذا من «Mehlspeise» وهي شيء من قبيل الخشاف ذو مرق احمر وطعم حامض قليلا ؛ تلقاء هذا كان النبيذ والبيرة غاية ما هناك ! هذا هو الغداء الذي قدمه النادل «السوديني» الى ضيوفه . لقد مرّ الغداء بسلام ولكن للحقيقة انه كان من دون بهجة ، ولم تظهر هذه البهجة حتى حين شرب الهر كلوبير وهو يهتف بصحة «ما نحب !» („Was wir lieben!“) . وكان كل شيء يجري في غاية الاحتشام والتهذيب . ثم قدمت القهوة بعد الغداء ، فكانت مائعة مصفرة ـ او بصراحة ، كانت قهوة ألمانية . وطلب السيد كلوبير من جيما ، كما يكون الفارس الحقيقي ، ان تسمح له بتدخين سيكارة ... ولكن حدث فجأة أمر لم يكن في البال ولا في الخاطر ، وهو على التحديد حادث مكدر ، بل حادث فظيع !

كان يحتل احدى الموائد المجاورة بعض الضباط من حامية الماين ، وكان يلحظ بسهولة من نظراتهم وهمساتهم ان جمال جيما أذهلهم . بينهم واحد يبدو انه من رواد فرانكفورت ، فكان لا يرفع نظره عنها ، كأنه يعرفها كل المعرفة ، او لعله فيما يبدو يعرف من تكون . وفجأة هب هذا الضابط واقفا ، وكأسه في يده ـ كان السادة الضباط قد أسرفوا في الشرب ولا يزال على مائدتهم كثير من الزجاجات ـ واقترب من المائدة التي تجلس جيما اليها . كان شابا صغير السن ، اشهب الشعر ، على قسط من حسن المظهر ، ومن جمال الملامح ايضا ، ولكن السكر شوه هذه الملامح ، فكان

خداه المختلجان ، وعيناه الزائغتان المؤرقتان ، تضفي عليه مظهرا شائها سليطا . حاول رفاقه ان يمنعوه اول الامر عما هو مقدم عليه ، ولكنهم ما لبثوا ان تركوه : وليكن ما يكون ــ فماذا سيحصل من هذا ؟

وقف الضابط أمام جيما وهو يترنح قليلا على ساقيه ، وصرخ بصوت مرتفع انفلت من دون ارادته اثناء صراع قام في داخل نفسه ، فقال : « اشرب على صحة أجمل صاحبة مقهي في كل فرانكفورت وفي كل العالم (و « بلع » الكأس دفعة واحدة) ــ وتعويضا عن كل عطل وضرر آخذ هذه الزهرة التي قطفتها اناملها الآلهية ! » واخذ الوردة الملقاة على المائدة قرب صحن جيما . اعترتها الدهشة اول الامر ، ثم اعتراها الخوف ففرّ لونها ... وما لبث خوفها ان صار الى اشمئزاز ، فاحمرت فجاة حتى منابت شعرها ، واسلطت عينيها على هذا المتهجم السليط ، وغامت عيناها في الوقت نفسه واستطار منهما الشرر ، ثم اظلمتا وهما تتوقدان بلهب من غيظ أفلت من كل عقال . ولا بد ان الضابط تلبّك من هذه النظرات ، فتمتم بشيء غير مفهوم ، وانحنى ، ثم استدار عائدا الى جماعته . وهناك استقبلوه بالضحك والتصفيق الخفيف .

عندئذ نهض السيد كلوبير عن المائدة في الحال ، واستقام على طول قامته ، ووضع قبعته على رأسه ، وقال بصوت وقور لا يتجاوز ارتفاعه حدود السمع : « هذا شيء لم يسمع بمثله ! وقاحة لم يسمع بمثلها! » («Unerhörte! Unerhörte Frechheit!») وفي اللحظة نفسها دعا اليه النادل بصوت صارم وطلب قائمة الحساب ... ولم يكتف بذلك بل امر بأعداد العربة ، وأضاف ان كرام الناس ينبغي الاّ يقصدوا هذا المكان ، لأنهم يلقون الاهانات ! كانت جيما لا تزال جالسة في مكانها وهي جامدة عن الحركة ، فلما نطق بهذه الكلمات أخذ صدرها يخفق ، واستدارت اليه بعينيها ، واحدّت اليه

النظر كما فعلت حين كانت تشزر الضابط . وكان اميل ينتفض من الغضب . وقال الهر كلوبير بالصوت الصارم نفسه :

ــ قومي يا «مايين فراولين» * ، هذا مكان لا يليق بك ان تبقي فيه . سنذهب الى داخل المطعم !

قامت جيما صامتة ، فثنى ذراعه وقدمه اليها فتأبطته ــ فسار الى المطعم في تعاظم وخيلاء يزيدان كلما ابتعد عن مائدة الغداء . وسار اميل المسكين يجر قدميه في اثرهما .

كان الهر كلوبير لا يزال يحاسب النادل ، وقد أمسك يده عن البخشيش على سبيل العقاب فلم ينقده كريتزرا واحدا . في هذه الاثناء كان سانين يذهب بخطوات مسرعة الى المائدة التي يجلس اليها الضباط ــ وخاطب الضابط الذي أهان جيما (كان في هذه اللحظة يطوف بالوردة على رفاقه ليشموها بالدور) وقال بلسان فرنسي مبين :

ــ ان ما عملته الآن يا سيدي الكريم لا يليق برجل شريف ، بل لا يليق بالزي العسكري الذي ترتديه ، وقد جئت لأقول لك انك وقح فاسد التربية !

هب الشاب واقفاً على قدميه ، ولكن ضابطا آخر اكبر منه سنا أجلسه بحركة من يده ، ثم التفت الى سانين وسأله بالفرنسية ايضا :

ــ ماذا ، هل انت قريب حميم لهذه البنت ؟ أأخوها أم خطيبها ؟

فصاح سانين :

ــ أنا غريب عنها قطعا ، فأنا روسي ، ولكني لا استطيع ان اقف مكتوف اليدين تجاه السفاهة . هذه هي بطاقتي وعنواني حيث يستطيع السيد الضابط ان يجدني .

وأتبع قوله بأن رمى بطاقته على المائدة ، وانتزع في اللحظة نفسها وردة جيما وكانت ملقاة في صحن احد الضباط الجالسين ، فحاول الشاب ان يقوم مرة ثانية عن مقعده ،

---

* يا آنستي . (بالالمانية) . (**المترجم**) .

ولكن زميله أمسكه من جديد وهو يقول : « دونغوف ، الزم الهدوء ! » (Dönhof, sei still«)ونهض هو نفسه فرفع يده بتحية عسكرية ، وكان الاحترام باديا في هيئته وصوته حين قال لسانين بأن احد ضباط كتيبته سيكون له الشرف في ان يوافيه الى مسكنه . اجاب سانين بانحناءة مختصرة ، وعاد مسرعا الى جماعته ،

تظاهر السيد كلوبير بأنه لم يلحظ غياب سانين ولا الايضاح الذي رمى بـه السادة الضباط ، وأخذ يستحث الحوذي على الاسراع في شد الجوادين الى الـعربـة ، وهو غاضب من بطئه . كذلك لم توجه جيما اي كلمة الى سانين ، بل انها لم تلتفت اليه : ولكن تقطيب حاجبيها ، وانطباق شفتيها ، وجمودها عن الحركة ، كانت تنبئ جميعا بما في حالتها النفسية من الكدر . كان واضحا ان اميـل وحده يتمنى الحديث مع سانين . تمنى ان يستوضحه : فقد رآه يذهب الى الضباط ، ويدفع اليهم بشيء ابيض ـ لعله ورقة او رسالة او بطاقة . . . كان قلب الفتى يخفق خفقا عنيفا ، ووجنتاه تشتعلان ، وكله استعداد للارتماء على سانين ، والبكاء مقدار ما تسعفه الدموع ، او للذهاب معه في هذه اللحظة الى هؤلاء الضباط السفهاء ، ونتف زغبهم ووبرهم وتكسير عظامهم ! ولكنه امسك بزمام نفسه ،واكتفى بان ينظر في انتباه الى كل حركة تصدر عن صديقه الروسي النبيل .

فرغ الحوذي اخيرا من شد الجوادين ، واستـقـرت الجماعة في العربة ، اما اميل فقد تسلقها الى مقعد الحوذي وراء تارتاليا : لقد شعر في هذا المكان بهدوء البال ، فما كان ليستطيع ان ينظر الى كلوبير بـعدم اكـتـراث ، فـآثر ان يبتعد عن مجال نظره .

مض الهركلوبير يتشدق طوال الطريق . كان يتشدق وحده ، لا يعترض عليه احد ، ولا يوافق على كلامه احد

أيضا ، وكان يلف ويدور على الخصوص حول هذه النقطة ، وهي ان هذا الحادث المكدر ما كان ليحدث لو أنهم أصغوا الى نصيحته ولم يضيعوها سدى حينما اقترح ان يكون الغداء في العريش المحتجب . ثم ازجى بعض الآراء اللاذعة وحتى الليبيرالية ، عن تسامح الحكومة مع هؤلاء الضباط وتهاونها في الرقابة على تقيدهم بواجبات النظام ، وعدم احترامهــا للعناصر المدنية في المجتمع (das bürgerliche Element in der Societät)، وان هذا سيؤدي بمرور الزمن الى انفجار السخط ، وليس السخط بعيدا عن الثورة ، وان هذا المثل المؤسف (وزفر في حنان ولكن في صرامة ايضا) ــ قد يفضي الى المثل المؤسف الذي وقع في فرنسا ! ولكنه استدرك هنا ايضا بانه شخصيا عظيم الولاء للحكومة ، ولن يكون ثائرا قطعا ،.. وابدا ! . ولكنه لا يستطيع ان يحبس استنكاره تجاه هذه السفاهات ! ثم اضاف بضع ملاحظات عامة عما هو اخلاقي وغير اخلاقي ، وعن الاحتشام والشعور بالكرامة !

اثناء هذا «التشدق» كله لم يظهر على جيما شيء من الرضى تجاه السيد كلوبير ، كالحال التي كانت عليهــا خلال النزهة التي سبقت وقت الغداء ــ ولهذا احتفظت بشيء من التباعد عن سانين ، فكأن وجوده زادها استحيــاء ، وكان واضحا انها اصبحت تشعر بالخجل لان لها هذا الخطيب ! وما اشرفت الفسحة على نهايتها حتى كان ضيق جيما شاملا ، ولكنها بقيت على تباعدها عن سانين فلا تبادله بالحديث ، وفجاة أرسلت اليه نظرة متوسلة ... وكان يشعر من جهته ان شفقته عليها أشد من غضبه على السيد كلوبير ، بل لعله شعر في السر بغبطة مبهمة تجاه ما حدث في هذا النهار على الرغم من الدعوة التي قد تنتظره في صباح الغد .

وانتهى اخيرا عذاب partie de plaisir* هذه . وعنــد

---

* رحلة المرح (بالفرنسية) .

نزول جيما من العربة امام الدكان وضع سانين في يدها وردتها التي استردها من غير ان ينطق بكلمة ، فالتهبت بالاحمرار ، وضغطت على يده وهي تخفي الوردة في لمح البصر . لم يشأ ان يدخل البيت ، رغم ان المساء كان في لحظات بدئة ، ثم انها لم تدعه الى الدخول ، وزاد على هذا ان بانتاليوني ظهر في مدخل الباب ، وأعلن ان فراو لينوري أوت الى سريرها ؛ وأقبل اميليو على استحياء فودع سانين كأنه يلتمس الفرار منه : وهو شديد الاعجاب بهذا الانسان ؛ اما كلوبير فقد اوصل سانين الى فندقه ، وانحنى يودعه في تأدب . ان هذا الالماني المطبوع على الدقة كان يشعر بالارتباك على الرغم من كل ثقته بنفسه ، وكذلك كان شعورهم جميعا .

ولكن هذا الشعور – الشعور بالارتباك – تبدد عن نفس سانين بسرعة ، وصار الى شيء من الارتياح المبهم ، بل الى شعور بالغبطة ، وأخذ يذرع الغرفة وهو يصفر ، خلي البال من كل تفكير ؛ وكان راضيا عن نفسه .

١٧

« سأنتظر السيد الضابط لتبادل الايضاح حتى الساعة العاشرة – قال هذا في نفسه وهو يأخذ زينته في صباح اليوم التالي – وعليه بعدها أن يبحث عني ! » . ولكن الالمان يستيقظون مبكرين ، فما كادت الساعة تدق التاسعة حتى دخل الخادم ليخبر سانين بأن الملازم الثاني (der Herr Seconde Lieutenant) فون ريختر يرجو رؤيته . أسرع سانين الى وضع سترته على كتفيه وأشار للخادم قائلا : « ليتفضل » . وعلى غير ما انتظر سانين ، كان الهر ريختر صغير السن ، بل انه يكاد يكون غلاما وقد أراد ان يكسب وجهه الأمرد طابع الخطورة – ولكنه أخفق ، بل أخفق حتى في اخفاء حيرته – فعندما جلس على الكرسي اوشك ان يقع متعثرا بسيفة ، ولم

يسعفه النطق فتلعثم وتأتأ وهو يعلن سانين بلغة فرنسية ركيكة بأنه قدم بناء على تكليف من صديقه البارون فون دونغوف ، وان الغاية من هذا التكليف هي دعوة السيد فون زانين الى الاعتذار عما فرط منه أمس من كلمات الاهانة ، فاذا رفض السيد فون زانين هذا من جهته ، فأن البارون فون دونغوف يتشرف بدعوته الى المبارزة . وأجاب سانين بأنه لا ينوي الاعتذار ، وانه على استعداد لتنفيذ التسوية ، وعندئذ سأل الهر فون ريختر بطريقته المتعثرة عمّن يكون شاهده ، وفي أي مكان وأي زمان يستطيع ان يقابله لمحادثته في كل ما ينبغي لهذا الامر ؟ فأجابه سانين بانه يستطيع المجيء اليه بعد ساعتين فأنه ، اي سانين ، سيسعى الى العثور على شاهد (وفكر في هذه الاثناء بينه وبين نفسه : « الى الشيطان ، من أين لي ان أدبر هذا الشاهد ؟») . ووقف الهر فون ريختر متهيئا للانصراف ... ولكنه توقف عند وصيد الباب كأنه شعر بتأنيب الضمير ، والتفت الى سانين يقول ان صديقه البارون فون دونغوف ... لم يخف عن نفسه انه الى حد محدود ... يستحق المؤاخذة عما حدث امس ـ ولهذا يرتضي بكلمة اعتذار خفيفة ـ «des exghizes léchères» . وأجاب سانين على هذا بأنه لا ينوي ان يقدم اي كلمة اعتذار ، لا ثقيلة ولا خفيفة ، فهو لا يعتقد أنه ملوم في شيء .

فأجاب الهر فون ريختر وقد زاد احمرارا :

ـ في هذه الحالة لا بد ان يكون تبادل اطلاق النار بصورة ودية ـ des goups de bisdolet á l'amiaple! .

فقال سانين :

ـ لم أفهم هذا على الاطلاق ؛ فهل سنطلق النار في الهواء يا ترى ؟

فتمتم الملازم وقد بلغ به الارتباك نهايته :

ـ اوه ، ليس هذا ولا ذاك ، ولكني ظننت ان ما يحدث بين كرام الناس ... ولكني سأبحث الامر مع شاهدك .

قال ذلك قاطعا كلامه نفسه وانصرف .

غاص سانين في مقعده فور انصراف الملازم ، وأخذ يحدق في الارض : «ماذا يعني كل هذا ؟ وكيف ادار هذا دولاب حياتي فجأة ؟ كل ما فات ، وكل ما هو آت ، غاب فجأة . واختفى ، ولم يبق منه الا انني في فرانكفورت وهناك مبارزة ، وفيم ؟» وخطرت بباله عمة له مجنونة كانت تحب كثيرا ان ترقص وتغني :

يا ملازمنا !
يا خيارتنا !
يا ساكن في مهجتنا !
تعال نرقص في سهرتنا !

وأخذ يقهقه ضاحكا وهو يغني كما كانت تغني : «يا ملازمنا ! تعال نرقص في سهرتنا !» ، ثم قال بصوت عال :

ـ ولكن حان وقت المبادرة ، وينبغي ألّا نضيع الوقت !

وهب واقفا ، فاذا بانتاليوني امامه وفي يده رسالة .

ـ طرقت الباب مرارا ولكنك لم تجب ، خطر لي انك غائب عن الغرفة ـ هذه لك من السينورينا جيما .

واعطاه الشيخ الرسالة ؛ فتناولها سانين بحركة آلية كما يقال ، ثم فضها وقرأها . كتبت اليه جيما بأنها قلقة الآن من جراء القضية التي يعرفها ، وترجو ان تراه في الحال . وبدأ بانتاليوني الكلام :

ـ السينورينا قلقة (وكان واضحا انه يعرف مضمون الرسالة) وقد امرتني ان أرى ما تعمل وأعود بك اليها .

نظر سانين الى الايطالي الشيخ ، وطفق يفكر. وفجأة ومض في رأسه خاطر مفاجىء ، بدا له غريبا في اللحظة الاولى حتى

لكأنه المستحيل ... ولكنه سأل نفسه : «ولماذا لا ؟» ، ثم هتف بصوت عال :

ـ ايها السيد بانتاليوني !

فجفل الشيخ ، وأخفى ذقنـــه في رباط عنقه وشخص ببصره الى سانين ، بينما تابع سانين يقول :

ـ هل تعرف ماذا حدث أمس ؟

لمظ بانتاليوني بشفتيه ، وهز خصلة شعره المتدلية .

ـ أعرف .

(اميل حدثه اثر عودته بكل شيء) .

ـ آ ! انت تعرف ! ـ هه ، هذا هو اذن . والآن فقط ذهب من عندي ضابط ؛ فقد أرسل ذلك الوقح يدعوني الى المبارزة ، وقبلت دعوتـــه ، ولكن ليس عندي شاهد ،فهل تريد ان تكون شاهدي ؟

اضطرب بانتاليوني ازاء هذا العرض ، وارتفع حاجباه الى أعلى حتى اختفيا تحت فروة شعره . ثـــم قال بالايطالية وكان حتى هذه اللحظة يتكلم بالفرنسية :

ـ هل عليك ان تعارك من كل بد ؟

ـ من كل بدّ ، واذا احجمت لحقني العـــار الى الابد .

ـ هم .ـ واذا لم اوافق على ان اذهب معك شاهدا فهل تنشد عندئذ شاهدا آخر ؟

ـ سأفعل ولا شك .

فأطرق بانتاليوني .

ـ اسمح لي ان اسألك يا سينور دو تسانيني ، الا ترى ان هذه المبارزة ستلقي شيئا من الظل لا يليق بسمعة شخص معين ؟

ـ لا أعتقد ؛ ولكن الامر هكذا ، وليس من حل آخر .

فاختفى بانتاليوني كله في ربطة عنقة ، ثم صرخ فجأة وهو يرفع رأسه الى اعلى :

ـ ولكن هذا الفيروفلوكتو كلوبيريو ـ ماذا عنه ؟

ـ هو ؟ لا شيء .

فهز بانتاليوني كتفيه بازدراء .

ـ كه (Che*) .

ثم قال بصوت مرتجف :

ـ يجب عليّ ان اشكرك في كل حال ، لأنك استطعت ان تقرّ ، وانا في حالتي المهينة الراهنة ، باني انسان شريف ـ ! un galant 'uomo ـ وبهذا برهنت على انك انسان galant 'uomo حقيقي ، ولكن ينبغي لي ان افكر فيما عرضته .

ـ ولكن الوقت لا ينتظر يا عزيزي المحترم السيد تشيب ... تشيبا ...

فذكره الشيخ قائلا :

ـ تولا ! ـ ارجو ان تأذن لي مقدار ساعة ، فان الامر يمسّ بنت أولياء نعمتي ... ولهذا يجب علي ، بل يفرض علي ان أفكر !! بعد ساعة .. بعد ثلاث أرباع الساعة ستعرف رأيي .

ـ طيب سأنتظر .

ـ والآن ... ما هو الجواب الذي سأحمله الى السينورينا جيما ؟

فسحب سانين قطعة من الورق وكتب فيها : « لتطمئني ، يا صديقتي العزيزة ، بعد ثلاث ساعات سأجيء اليكم ، وسأشرح لك كل شيء . أشكر لك من كل قلبي هذه المشاركة » ـ ثم سلّم بانتاليوني الرسالة .

تناولها بانتاليوني في حرص ، ووضعها في جيبه ، وكرر مرة ثانية قوله : « بعد ساعة ! » ـ واتجه نحو الباب ثم استدار الى سانين ، وأسرع فامسك بيده ، وشدها الى صدره وهو يرفع عينيه الى السماء ، وصاح :

ـ ايها الشاب النبيل ، ايها القلب الكبير ! (Nobil

---

* صرخة عبب ايطالية لا يمكن ترجمتها مثل : « نو ! » عندنا . (ملاحظة المؤلف) . (وبالعربية معناها « يا للعجب ! » . **(المترجم)** .

giovanotto! Gran cuore!) اسمح لشيخ ضعيف (a un
vecchiotto) ان يشد على يدك القوية (la vostra valorosa
destra!) ثم قفز قفزة قصيرة الى الوراء ، وبسط يديه
مرفرفا بهما ، واندفع خارجا .

نظر سانين في اثره ... وتناول جريدة وأخذ يقرأ . ولكن عينيه كانتا تجريان على السطور ولا تريان المسطور ، لم يكن يفهم شيئا على الاطلاق .

١٨

بعد انقضاء ساعة من الزمن ، دخل الخادم الغرفة على سانين وقدم اليه بطاقة عتيقة رثة فيها هذه الكلمات : « بانتاليوني تشيباتولا ، من فاريزي ، مغني بلاط (cantante di camera) صاحب السمو دوق مودينا » ، وظهر في اثر الخادم بانتاليوني بالذات وقد تبدل كله من المفرق حتى القدمين . كان عليه فراك حال سواده الى اصفرار ، وصدار من البيكية الابيض تتدلى منه سلسلة براقة من النحاس الاصفر ذات طرة ثقيلة من العقيق تنوص على سرواله الاسود الضيق . في يده اليمنى قبعة سوداء من وبر الارنب ، وفي اليسرى قفازان من الجلد المخملي . ربطة عنقه معقودة بشكل زادها عرضا وارتفاعا عما هي في الحالة المعتادة ، وصدرته المنشأة مشكوكة بدبوس في رأسه حجر مما يسمى « عين القط » (ocill de chat) . أصبعه الشاهدة باليد اليمنى مزينة بخاتم على شكل يدين مضمومتين على قلب ملتهب ، وفي هذا كله ثوت رائحة هي شيء من الكافور والمسك ، وفاحت من حضرة الشيخ جميعا .. كان هذا الاحتفال الشديد بمظهره جديرا ان يدهش حتى من ليس يدهشه شيء ! ونهض سانين الى استقباله .

— اني شاهدك .

قال بانتاليوني بالفرنسية وهو ينحني بكل جسمه الى الامام ويفرج قدميه كما يفعل الراقصون واضاف :

ــ جئت أتلقى تعليماتك فهل تنوي ان تقاتل من غير رحمة ؟

ــ لماذا من غير رحمة يا عزيزي السيد تشيباتولا ؟ ان ما قلته امس لا يغريني شيء في العالم على سحبه ، ولكني لست سفاك دماء ! ان شاهد خصمي سيأتي الآن فاصبر ، وسأذهب الى الغرفة المجاورة ، ريثما تتفقان ، وثق باني لن أسي يدك طوال حياتي ، وانا شاكر لك صنيعك من كل قلبي .

فأجاب بانتاليوني :

ــ الشرف فوق كل شيء ! ــ وارتمى على احد المقاعد قبل ان يدعوه سانين الى الجلوس ، وقال في مزيج من الايطالية والفرنسية : ــ اذا كان هذا الفيروفلوكتو سبيتشيبوبيو ، اذا كان هذا البياع الغشاش كلوبيريو قد عجز عن ادراك واجبه بالذات ، او جبن عنه ، فان هذا أسوء له !.. وهو تافه النفس وبس ! اما بخصوص المبارزة فأني شاهدك ، ومصلحتك عندي مقدسة ! عندما كنت أعيش في بادويا كانت ترابط هناك كتيبة من فرسان الدراغون البيض ، وكانت العلاقة بيني وبين اكثر ضباطها وثيقة ، فكل قواعدهم معروفة لديّ ، وما اكثر ما جلسنا انا وبرنسكم تاربوسكي وتناقشنا حول هذا الموضوع ... اما كان ينبغي على هذا الشاهد ان يسرع في المجيء ؟

ــ اني انتظره دقيقة فدقيقة ــ واضاف وهو ينظر الى الشارع : ــ ولكن ها هو ذا ، انه نفسه القادم .

نهض بانتاليوني وهو ينظر في الساعة ويهز فروة شعره ، وأسرع الى دس رباط جوربه في حذائه وكان متدليا من سرواله ، ثم دخل الملازم الشاب احمر الوجه متلبكا ، فقدم سانين الشاهدين احدهما الى الآخر :

— M-r Richter, souslieutenant! — M-r Zippatola, artiste!*

---

* ــ السيد ريختر ، ملازم ثان ! ــ السيد زيباتولا ، فنان ! (بالفرنسية) .

دهش الملازم قليلا وهو يرى الى الشيخ ... فماذا تراه يقول لو همس في اذنه وقتئذ ان «الفنان» الذي قدم اليه فنان في الطبخ ايضا !.. ولكن بانتاليوني اتخذ وضعا يناسب الموقف ، فكأنه تعود المشاركة في المبارزات الفردية حتى اصبحت من اموره العادية . والواقع ان ذكرياته المسرحية ساعدته في هذا ، فأدى دور الشاهد كما يؤدي دورا على المسرح ؛ وبعد ان ساد الصمت قليلا بينه وبين الملازم ، بدأ الكلام وهو يلعب بطرّته العقيق ، فقال :

ـ ماذا ؟ هل نبدأ ؟

فأجاب الملازم :

ـ سنبدأ ، ولكن وجود احد الخصمين ...

فصاح سانين :

ـ سأترككم من فوري ايها السادة ...

وانحنى لهما ، وذهب الى الغرفة الداخلية واغلق الباب وراءه .

تهافت على الفراش ، وطفق يفكر في جيما ... ولكن حديث الشاهدين تسرب اليه من خلال الباب المغلق ؛ كان يدور بالفرنسية ، وكلّ منهما يشوّه هذه اللغة بطريقته من غير رحمة . وعاد بانتاليوني فأقحم ما رواه عن الدراعون في بادويا وعن البرنس تاربوسكي . وتحدث الملازم عن «exghizes léchéres»* وعن «goups á l'amiaple»**، ولكن الشيخ أبى حتى مجرد الاصغاء لشيء يتعلق بـ exghizes*** ! وافزع سانين ان الشيخ بدأ يحدث جليسه فجأة عن بنت صبية بريئة اصبعها البنصر أغلى من كل ضباط العالم ... (oune zeune damigella innoucenta, qu'a ella sola dans soun péti doa vale piu que toutt le zouffissié del

---

* كلمة اعتذار خفيفة (بالفرنسية) .

** اطلاق النار بصورة ودية (بالفرنسية) .

*** بالاعتذار (بالفرنسية) .

mondo!) وكرر قائلا في انفعال: «هذا معيب ، هذا معيب!»
«E ouna onta, ouna onta!»). لم يعارضه الملازم أول الامر، ولكن نبرة غاضبة سرت في صوت الشاب ، ولاحظ قائلا بانه لم يأت ليصغي الى المواعظ الاخلاقية ، فقال بانتاليوني :
ـ من المفيد لمن في سنك ان يصغي دائما لكلمة الانصاف !

وتطورت المناقشة بين الشاهدين فكانت تشتد احيانا وتعصف ، ودامت على هذا المنوال اكثر من ساعة ثم اختتمت في النهاية بالاتفاق على هذه الشروط : «يجري تبادل اطلاق النار بين البارون فون دونغوف والسيد دي سانين في الساعة العاشرة من صباح الغد ، في الغابة الصغيرة الواقعة قرب غاناو . تفصل بينهما مسافة مقدارها عشرون خطوة ، ويحق لكل منهما ان يطلق النار مرتين بعد اشارة الشاهد ، ويكون المسدسان غير محلزني الفوهة» . ثم انصرف السيد فون ريختر اما بانتاليوني فقد فتح الغرفة الداخلية على سانين بحركة احتفالية ، وابلغه نتائج الاجتماع وهو يصيح :ـ
«Bravo, Russo! bravo giovanotto!»* سيحالفك النصر ! »
بعد دقائق ذهبا يقصدان دكان روزيللي ، واشترط سانين على بانتاليوني قبل ذلك ان يحتبس قضية المبارزة في سر عميق ، فكان جواب الشيخ انه رفع اصبعه الى اعلى ، وضيق عينيه ، وهمس مرددا مرتين متتاليتين : Segredezza ! (هذا سر !) وكان يبدو عليه انه عاد الى عهد الشباب ، بل انه أصبح طليق الحركة خفيفها ايضا ، فان هذه الاحداث الخارقة التي لا تخلو ايضا من بواعث الضيق ، قد بعثت فيه بهاء ذلك العصر الذي كان يتلقى فيه التحدي ويستجيب الى دعوة الخصم ــ صحيح ان ذلك جرى على المسرح ، ولكن المعروف عن هؤلاء المغنين انهم مزهوون بأدوارهم كالديوك .

---

* برافو ايها الروسي ، برافو ايها الشاب ! (بالايطالية) .

خرج اميل يعدو الى استقبال سانين ، بعد انتظار زاد على ساعتين واسرع يهمس•اليه في اذنه بان الام لا تعرف شيئا عما حدث امس من السوء ولا يجوز حتى مجرد التلميح اليه ، وقد أرسلوه الى المخزن من جديد !! ولكنه لم يذهب ، بل ارتأى ان يتوارى عن النظر . شرح هذا في ثوان معدودات ، ثم التصق فجأة بكتف سانين واختطف منه قبلة ، وانطلق يهبط الشارع . في الدكان جاءت جيما تستقبل سانين . كانت تريد ان تقول له شيئا ولكن اعياها ان تنطق ، قوقفت بشفتين مرتعشتين ، وعينين توصوصان في كل ناحية ، فأخذ يهدئ من روعها ويؤكد لها ان القضية انتهت وهي حادث طفيف ، فسألت :

ــ ألم يأت اليك احد اليوم ؟

ــ نعم ، جاءني وجه واحد وتبادلنا الحديث ، وقد توصلنا الى تفاهم .

فاستدارت جيما وعادت تقف وراء المنصة ، ففكر في نفسه :

ــ انها لم تصدقني .

ولكنه ذهب الى الغرفة المجاورة ، فوجد هناك فراو لينوري .

لقد ذهب عنها الصداع ، ولكنها بدت مكتئبة النفس ، وابتسمت لسانين في حفاوة ، ولكنها حذرته في الوقت نفسه من انه سيشعر معها بالملل لأنها ليست على استعداد لأيناسه ، ورأى عند اقترابه منها ان اجفانها محمرة منتفخة :

ــ فراو لينوري ، ماذا بك ؟ أتراك كنت تبكين ؟

ــ هس ، ــ وأومأت برأسها الى الغرفة التي كانت فيها بنتها ــ لا تقل ذلك بصوت عال .

ــ ولكن لماذا تبكين ؟

ــ آه يا مسيو سانين . انا نفسي لا اعرف لماذا .

ـ ألم يسيء اليك احد ؟

ـ اوه ، لا !.. شعرت فجأة بالاكتئاب . تذكرت جيوفاني باتيستا ... شبابي وما بعده . ما أسرع ما تولى هذا. اني أتقدم في السن يا صديقي ، ولم استطع باي وجه من الوجوه ان أتلاءم مع هذه الفكرة ، ويخيل اليّ انني لا ازال كما كنت من قبل ، اما الشيخوخة فها هي ذي ، كما ترى !

ونفرت الدموع من عيني فراو لينوري .

ـ ارى انك تنظر اليّ في دهشة ... ولكن السن ستتقدم بك ايضا يا صديقي ، وستعرف كم في هذا من مرارة !

أخذ سانين يواسيها ، فذكرها بولديها اللذين يتفتح فيهما شبابها وينبعث ، وحاول ان يمازحها فزعم لها انها فعلت ذلك لتسمع الاطراء ... ولكنها طلبت اليه من غير مزح ان « يكف » ، فأيقن عندئذ للمرة الاولى ان مثل هذا الاسى الذي يشعر به من تتقدم به السن يجلّ عن كل تعزية ، ويجب الانتظار حتى يذهب من حد ذاته . عرض عليها ان يلعبا بالتريستو ، وكان هذا أحسن ما يستطيع ان يفكر به ، فوافقت من فورها ، وبدا كأنما عاد اليها الانشراح .

بقي سانين يلعب معها بالورق قبل الغداء ثم بعد الغداء ، واشترك بانتاليوني ايضا في اللعب وقد زادت غرته نزولا على وجهه ، وذقنه غوصا في ربطة عنقه بشكل لم يسبق له نظير ابدا . كل حركة من حركاته كانت تتنفس بالتركيز والاهتمام ، والنظرة اليه توحي من غير قصد بهذه الفكرة : على أي سر يحافظ هذا الرجل بمثل هذه القوة ؟

ـ ولكن ـ segredezza, segredezza!

سلك كل سبيل طوال اليوم لابداء احترامه وتقديره لسانين ، فتجاوز الجالسين جميعا في أثناء الاكل وأقبل عليه يقدم له الطعام باهتمام وحفاوة ، وحاباه في اللعب ، ولم يطبق عليه جزاءات اللعبة ، وقال من دون مناسبة بأن الروس أعظم أهل الارض أريحية وشجاعة وعزيمة ! ففكر سانين في نفسه :

ـ «آه منك ايها العجوز المراوغ !»

ولم تدهشه هذه الحالة النفسية الطارئة في السيدة روزيللي مقدار ما أدهشته معاملة ابنتها له ، ولا يعود هذا الى انها كانت تتجنبه ... بل على العكس ، فأنها كانت تجلس اليه كثيرا ، وتصغي الى حديثه في اهتمام ، وتديم اليـــه النظر ، ولكنها وطدت نفسها على ان لا تأخذ معه في اي حديث ، بل انه ما يكاد يبدأ بازجاء الحديث اليها ، حتى تنسل من مكانها ، وتبتعد في هدوء بضع دقائق ، ثم تعود مرة ثانية ، فتنزوي في ركن من الغرفة من غير ان تند عنها حركة ، وتجلس مفكرة ذاهلة ... ولكنها ذاهلة اكثر مما هي مفكرة . وقد سألتها امها مرة مرتين عما بها ؟ فأجابت جيما :

ـ لا شيء ، فانت تعرفين انها حالة تنتـــابني في بعض الاحيان .

فوافقت أمها قائلة :

ـ الامر كذلك بالضبط .

وانقضي ذلك اليوم الطويل على هذا النحو . كان فاترا خاليا من الحياة ، لم يشع فيه المرح ولا الملل ، ولو ان جيما ساست نفسها بشكل آخر ، فمن يدري كيف يكون سانين ؟ لعله لا يملك نفسه وقتئذ عن التظاهر قليلا ، او لعلـــه كان يستسلم الى الشعور بالأسى تلقاء ما قد يجد من فراق الى الابد .. فلما تعذر عليه ان يتحدث الى جيمـــا ولو مرة ، أصبح عليه ان يلتمس الراحة ربع ساعـــة على الاقل قبيل قهوة المساء ، فجلس الى البيـــانو يعزف بعض الالحـــان الهادئة .

عاد اميل في وقت متأخر ، ولم يلبث ان انسحب ليتجنب الاسئلة عن السيد كلوبير ، ثم حان وقت انصراف سانين ، فلما اخذ في توديع جيما ، تذكر ، ولا يدري لماذا ، ساعة الوداع بين لينسكي وأولغا في رواية «اونيغين» * . شد بقوة

* من تأليف بوشكين . **(المترجم)** .

على يدها ، وحاول ان ينظر في وجهها ، ولكنها استدارت قليلا ، وحررت اصابعها من يده .

٢٠

حينما خرج الى الشارع كانت النجوم تملأ السماء ، وتنتثر في رحابها كبيرة صغيرة صفراء حمراء زرقاء بيضاء ، كلها يومض ويتلألأ ويتبارى بهذا اللعب البديع . لم يكن القمر قد طلع ولكن كل شيء على الرغم من غيابه كان واضحا في غبش السماء الخالي من الظلال . تمشى سانين في الشارع حتى نهايته ... فما كان راغبا في العودة الى مسكنه في هذه الساعة . كان يشعر بالحاجة الى الفسحة في الهواء الطلق . ثم استدار عائدا ، وما كاد يقترب من واجهة البناية التي فيها دكان روزيللي حتى انبعث صرير من احدى النوافذ المطلة على الشارع ، وانفتحت النافذة فجأة على مصراعيها ، ورأى من خلال زواياها المظلمة (لم تكن الغرفة مضاءة) جسما انثويا ، وسمع صوتا يناديه باسمه : «Monsieur Dimitri!»

فاندفع من فوره نحو النافذة ... جيما !

كانت متكئة بكوعيها على حافة النافذة وهي منحنية الى الامام .

وبدأت الكلام بصوت محترس :

— Monsieur Dimitri ، حاولت طوال هذا النهار ان أعطيك شيئا ... ولكني ترددت في الامر ، ثم رأيتك الآن على غير توقع ، فخطر ببالي ان هذا قدر على ما يبدو ...

وتوقفت جيما فجأة عن الكلام غير قادرة على ان تزيد كلمة : فقد حدث في هذه اللحظة بالذات حادث من الخوارق .

ففي أعماق هذا السكون ، وتحت سماء خالية من الغيوم ، هبت فجأة نفحة من الهواء فزلزلت الارض تحت الاقدام ،

---

* سيد دميتري ! (بالفرنسية) .

وتدفق خيط نجمي رفيع مرتعش ، وأخذ الهواء يـدور في دوامات ليست باردة ولكنها دافئة وحتى حارة ، جعلت تعصف بالاشجار وبسطح المنزل وجداره ، وبالشارع ، اختطفت قبعة سانين ، وبعثرت شعر جيما في كل ناحية . كان رأس سانين قريبا من حافة النافذة ، فانحنى نحوها بحركة عفوية ، واذا جيما تتشبث بكتفيه ، وتلقى بصدرها على رأسـه . استمر الصخب والرنين والهدير حوالي دقيقة ، فكأن سربا من الطيور الهائلة مرق ذاهبا في مهب الريح ، ثم عاد السكون العميق يخيم من جديد .

ويا للمعجزة التي رآها سانين فوقه حينما استقام . اي وجه خائف مضطرب متهيج ، واي عينين واسعتين باهرتين ، وأي حسنـاء رأى حتى لقد جمد لحسنهـا القلب ، فلمس بشفتيه خصل الشعر المرسلة على صدره ، وقال عندما أسعفته القدرة على الكلام :

ـ آه يا جيما !

فسألت وهي تدير عينين واسعتين في الفضاء ، من غير ان ترفع ذراعيها العاريين عن كتفيه :

ـ ما هذا الذي حدث ؟ هل هو برق ؟

فكرر سانين قائلا :

ـ جيما !

فتنهدت . ثم نظرت خلفها في الغرفـة ، وانتزعت من نطاقها في لمح البصر ، وردة ذابلة ، رمت بها الى سانين .

ـ أردت ان اعطيك هذه الوردة ...

وعرف سانين فيها تلك الوردة التي استعـادها بالقوة امس ...

وانصفقت النافذة ، واصبح الزجاج مظلما لا يرى وراءه ظل ولا طيف ...

وعاد سانين الى مسكنه من غير قبعة ... ولم يلحظ انه فقدها .

٢١

لم ينم الا في الصباح ، ولا غرابــة في ذلك ، فبعــد هذه الصدمة التي حملتها العاصفة الصيفية الخاطفــة ، ومض في نفسه شعور لا يزيده علما بأن جيما رائعة الجمال او بانها تستأثر باعجابه ، فان هذا قد عرفه من قبل ، وانمـــا هو الشعور بأنه يحبها ! لقد داهمه الحب في لحظة خاطفة مثل تلك العاصفة . ولكن امامه هذه المبارزة السخيفة ! وبدأت تعذبه الهواجس . وعلى فرض انه لم يمت ... فما يجديــه ان يحب فتاة مخطوبة لآخر ؟ او على فرض ان هذا «الآخر» لم يعد خطرا عليه ، وان جيما ستحبه هو ، او انها احبته ... فماذا بعد هذا ؟ لماذا السؤال ؟ فتاة على مثل هذا الجمال الرائع ...

أخذ يذرع الغرفة ، ويجلس الى المنضـــدة ، ثم سحب ورقة فخط فيها بعض السطور وما لبث ان شطبهـــا ... وتذكر جسم جيما المدهش في النافذة المظلمة تحت النجوم المنتثرة في السماء وكله مبعثر في العاصفة الحـــارة . تذكر ذراعيها المرمريين كما آلهة الاولمب ، وأحس بثقلهما الحيّ على كتفيه ... ثم أمسك بالوردة التي ألقتها اليـــه ، فخيل اليه ان وريقاتها الذاوية يضوع منها شذى أرق من أشذاء الورد المألوفة ...

«واذا قتلوه فجأة او شوهوه ؟»

لم يستلق في فراشه بل نام بثيابه على الديوان .

شعر بمن يهزه من كتفيه ...

فتح عينيه فرأى بانتاليوني . وقال الشيخ :

ـ انك تنام مثل الاسكندر المقدوني ليلـــة معركـة بابل * !

---

* يروى ان الاسكندر المقدوني نام نوماً عميقاً ليلة المعركة التي قادها بوجه دارا الثالث ملك الفرس (٣٣١ ــ ق . م .) لأنه كان مطمئنا الى ان النصر سيكون حليفه . **(المترجم)** .

فسأله سانين :
ـ كم الساعة الآن ؟
ـ السابعة الا ربعا ، والركوب الى غـانـاو يستغرق ساعتين ، ولكن يجب ان نكون السباقين الاوائل الى المكان ، فان الروس سباقون دائما على الاعداء ! لقد أخذت أحسن عربة في فرانكفورت !
وبدأ سانين في الاغتسال .
ـ وأين المسدسان ؟
ـ سيحملهما ذلك الفيروفلوكتو تيديسكو ، وسيـأتي ايضا بطبيب .
كان واضحا ان بانتاليوني يحاول ان يبدو نشيطا كمـا بدا امس ، ولكن المغني السابق صديق فرسـان الدراغون في بادويا تبدل بغتة حينما جلس في العربة مع سانين وساط الحوذي الجوادين فانطلقا يخبـان مسرعين ، فقد اعتراه الانزعاج فالخوف ، وكأن شيئا قد انهار في نفسه كما ينهار الحائط الهش . وصاح فجأة وهو يمسك بشعر رأسه :
ـ ما هذا الذي نعمله يا الهي ، ايتهـا santissima Madonna* ـ ما هذا الذي اعمله انا الاحمق العجوز ، انا المجنون frenetico ؟ . .
فوجئ سانين فأخذ يضحك ، وطوق بانتاليوني قليلا بذراعه وهو يذكره بالمثل الفرنسي القائل : «Le vin est tiré — il faut le boire»** (او بالمثل الروسي : «حين تمسك باللجام لا تقل انه صعب») .
فأجاب الشيخ :
ـ نعم ، نعم ، سنشرب هذه الكأس معا ، ولكني في كل حال معتوه ـ انا معتوه . كم كانت الحال هادئة طيبة . . . وفجأة : تا ـ تا ـ تا ، ترا ـ تا ـ تا !
فعلق سانين قائلا :

* العذراء المقدسة (بالايطالية) .

** «الزجاجة مفتوحـة ، فيجب ان تشرب» . **(المترجم)** .

ـ هذا يشبه tutti* في الاوركسترا .
واضاف مع ضحكة مغتصبة :
ـ ولكن المسؤول ليس انت .
ـ أعرف اني لست المسؤول ، فما كان ناقصني الا هذا ، ولكن هذا كله تهور ، Diavolo! Diavolo!*
أخذ بانتاليوني يكرر ذلك وهو يهز غرته .
اما العربة فكانت تجري ، وتجري .

كان الصباح رائعا ، والحياة بدأت في شوارع فرانكفورت ، فهي تفيض نظافة واناقة ، ونوافذ البيوت تتـألق بألوان شتى مثل ورق الزينات ، ولما جازت العربة بأبواب المدينة ، كانت أصوات القنابر تتساقط من أعلى ، من السماء الزرقاء القاتمة . وفجأة تراءى لسانين وجه مألوف كان وراء شجرة حور عالية ثم تقدم بضع خطوات ، ووقف لا يريم ، فحدق سانين اليه . . . يا آلهي ! هذا اميل ! والتفت الى بانتاليوني يسأله :
ـ هل كان يعرف شيئا ؟
فاجاب الايطالي المسكين بصوت كأنه النحيب :
ـ قلت لك اني معتوه ، وهذا الولد المنحوس لم يترك لي كل الليل سبيلا الى الهدوء ـ وفي النهاية ، كشفت له هذا الصباح عن كل مخبأ !
فقال سانين في نفسه : « اما segredezza معك ! »
لما صارت العربة في محاذاة اميل ، أمر سانين الحوذي بأن يوقف الجياد ، ودعا اليه هذا « الولد المنحوس » ، فأقبل اميل مترددا شاحب الوجه يشبه ما كان عليه في يوم اغمائه ، ويكاد لا يتماسك على ساقيه . سأله سانين بلهجة صارمة :
ـ ماذا تعمل هنا ؟ ولماذا لست في البيت ؟
فتمتم اميل بصوت مستعطف :

---

* التوتي ـ اصطلاح موسيقي معناه اشتراك الآلات كلها في تادية نغمة واحدة في وقت واحد ، والكلمة ايطالية .

** شيطان ! شيطان ! (بالايطالية) .

ـ اسمح لي ... اسمح لي ان اذهب معك .

وضم يديه ، واصطكت اسنانه كأنما ادركتـــه رعدة الحمى .

ـ لن أعيقك عما انت فيه ، ولكن خذني معك !

فقال سانين :

ـ لو انك متعلق بي مقدار شعرة ، او لو انك تشعر نحوي بالاحترام ، لعدت من فورك الى البيت ، او لذهبت الى مخزن السيد كلوبير ، وانتظرت عودتـــي من غير ان تقول كلمة لأحد .

فقال اميل بصوت يرن ويتقطع :

ـ عودتك ؟ ولكن اذا ...

فقاطعه سانين وهو يوميء بعينيه الى ناحية الحوذي :

ـ اميل .. ثب الى نفسك . أرجوك يا اميل ، عد الى البيت . أصغ اليّ يا صديقـــي ! انت على يقين انك تحبني ، واذن ارجوك !

قال ذلك ومد اليه يده مودعا ، فانحنى اميل عليهـــا ، واستعبر باكيا وهو يضمها الى شفتيه ، ثم قفز الى جـــانب الطريق ، وعاد ركضا الى فـــرانكفورت من خلال الحقول ؛ فغمغم بانتاليوني قائلا :

ـ قلب نبيل ايضا .

ولكن سانين نظر اليه عابسا ، فانزوى الشيخ في زاوية العربة . لقد أقر بذنبه ، وفوق هذا كان يزداد دهشة في كل لحظة : أيعقل ان يكون **هو** من اصبح في عالم الحقيقة شاهد مبارزة ، وانه **هو** من دبر الجياد واعد كل امر ، ثم فـــارق مسكنه الهادئ في الساعة السادسة من الصباح ؟ يضاف الى هذا ان ساقيه ترمضان وتؤلمان .

رأى سانين ان عليه ان يترضاه ، فاختار ناحية حساسة ، وانتقى لها الكلمات الملائمة .

ـ اين همتك القديمة يا سينوري المحترم تشيباتولا ؟

ـ اين il antico valor?

15-1855

فشد السينور تشيباتولا قامته وقطب وجهه ، وقال بصوت عميق :

— Il antico valor? Non e ancora spento il antico valor! !
(لم تتبدد الهمة القديمة كلها) .

واتخذ وضعا ملائما ، وطفق يتحدث عن فلاحه ونجاحه : عن الاوبرا ، وعن المغني العظيم غارسيا ، فلما وصل الى غاناو كان مثل شيخ الشباب ، فتأمل : ليس في العالم شيء اقوى من الكلمة . . . ولا اضعف منها !

٢٢

تقع الغابة الصغيرة التي تقرر ان تجري فيها المبارزة على مسافة مقدارها ربع ميل من غاناو ، وقد وصل اليها سانين مع بانتاليوني قبل غيرهما كما تنبأ الشيخ : أمرا الحوذي بأن ينتظر على طرف الغابة ، وتوغلا في ظلال شجر كثيف الاغصان كثير الفروع ، وقد اقتضى منهما الانتظار حوالي ساعة .

لم يشعر سانين بثقل الانتظار ، فقد راح يتمشى ذهابا وجيئة في الدروب ، مصغياً الى تغريد الطير ، متتبعا طيرانه ، وحاول ، كأكثر الروس في هذه المواقف ، ألاّ يفكر في شيء . لم تخطر بباله هذه الفكرة الا مرة واحدة : فقد صادف شجيرة زيزفون قصفتها عاصفة امس على ما يظن ، فرقدت ميتة . . . ويبس كل ما عليها من الاوراق . «ما هذا ؟ أنذير شؤم ؟» ، لمح هذا السؤال في رأسه كالبرق ، ولكنه جعل يصفر في اللحظة نفسها ، ووثب فوق الزيزفونة ذاتها متابعا سيره في الدرب . اما بانتاليوني ، فقد وقف يتذمر ويسب الالمان ويتأوه ويحك في ظهره وفي ساقيه ، بل كان يتثاءب ايضا من القلق فيضفي التثاؤب شكلا مضحكا على وجهه الصغير المنكمش ، وكاد سانين يقهقه ضاحكا لما نظر اليه .

طرق السمع اخيرا وقع عجلات على الطريق الناعم فصاح بانتاليوني :

ـ هؤلاء هم !

واستقام مرهفا سمعه وهو يرتجف قليلا من الانفعال ، ويغطي انفعاله بهذا الصوت : بررررر ! متذرعا بالقول ان الصباح بارد ؛ والانداء كانت تفيض على العشب واوراق الاشجار ، ولكن الحر اللافح ينفذ في اعماق الغابة نفسها .

لاح بعد قليل ضابطان تحت قبة الغابة ، ومعهما رجل صغير الجسم مفتول الاعضاء بارد المزاج له وجه ناعس ـ وهو الطبيب العسكري ؛ وكان يحمل بأحدى يديه جرة ماء من اجل الطوارئ ، ومن كتفه اليسرى تتدلى حقيبة فيها عدة الجراحة والضمادات . والواضح انه تعود مثل هذه الجولات فهي من جملة موارده : كل مبارزة تدر عليه ثمانين روبلا ـ يدفع منها كل مقاتل اربعين . اما السيد فون ريختر فقد حمل صندوق المسدسات ، وكان الهر فون دونغوف يدير سوطا صغيرا بيده ـ لعله على الارجح من مقتضيات « الشياكة » .

همس سانين الى الشيخ :

ـ بانتاليوني ، اذا ... اذا هم قتلوني ـ ولا يستبعد أمر عن الحدوث ـ فاسحب من جيبي الجانبي ورقة ملفوفة على زهرة ، وسلم السينيورينا جيما هذه الورقة . أتسمع ؟ وتعد ؟

نظر اليه الشيخ فى أسى ، وأومأ برأسه موافقا ... ولكن هل فهم ما طلبه سانين ؟ علم ذلك عند الله وحده .

تبادل الخصمان والشاهدان الانحناء بعضهم لبعض تبعا للتقاليد . اما الطبيب ، فانه الوحيد الذي لم يتحرك له حاجب ، فجلس يتثاءب على العشب : « ليس ما يدعوني الى التظاهر بآداب الفروسية » . وطلب السيد فون ريختر الى السيد « تشيبادولا » ان يختار المكان ، فأجاب السيد « تشيبادولا » بصوت متبلد ولسان سقيم (انهار « الحائط » مرة ثانية في نفسه) : « ابدأ انت يا مولاي صاحب السعادة ، وعليّ ان أراقب ... »

بدأ السيد فون ريختر في العمل ، فوقع في الغابة على بقعة رائعة مكسوة كلها بالازهار ، فذرع المسافة بخطواتـه ، وحدد مكانين للمتبارزين بعصا اقتضبها من شجرة وأعدها في تعجل ، ثم أخرج من الصندوق مسدسين وقعد القرفصاء ليحشوهما بالرصاص . مجمل القول : عمل الرجل ما عليه ، وبذل غاية جهده ، وما انقطع عن مسح وجهـه المستعرق بمنديل ابيض . وقد رافقه بانتاليوني فكان كثير الشبه برجل مقرور ، وفي خضمّ هذه الاستعدادات ، كان الخصمان يقفان كل منهما في ركن قصي ، وفي منظرهما ما يذكر بتلميذين نزل بهما العقاب فوقفا يرمقان مؤدبهما بالنظر الشزر .

ثم حانت اللحظة الحاسمة . . .

وكلّ امسك بمسدسه . . . *

هنا لفت الهر فون ريختر انتباه بانتاليوني الى ان اعراف المبارزات تقتضي منه بصفته الشاهد الأسنّ ، ان يعرض على الخصمين قبل ان يحم وقت العد : «واحد ، اثنين ، ثلاثة» هذا العرض الاخير ، وهو : ان يجنحا الى السلم . وعلى الرغم من ان هذه النصيحة لم تسفر في وقت من الاوقات ولا في حالة من الحالات عن نتيجة ، فأنها على العموم اجراء شكليّ مجرد ، ولكن قيام السيد تشيباتولا بهذا الاجـراء الشكلي سيخفف عن نفسـه بعض المسـؤوليـة ؛ وان مثـل هذه «الآلوكوتسيا» ** في الحقيقة يجب ان يعهد بتأديتها الى من يطلق عليه اسم «الشاهد المحـايد» (unparteiischer Zeuge) ، ولكن ما دام نظير هذا الشاهد لا وجود له عندهم ، فانه هو ، فون ريختر ، يتنازل بطيبة خاطر عن هذا الشرف

---

* من كلمات بوشكين في رواية «يفغيني اونيغين» . **(المترجم)** .

** آلوكوتسيا : عند قدماء الرومان ، هي الخطبـة التي كان يلقيها القائد قبيل بدء المعركة . **(المترجم)** .

لزميله المحترم ؛ اما بانتاليوني الذي كان مختبئا وقتئذ وراء بعض الشجيرات لكيلا يقع بصره على الضابط المسيء ، فانه لم يفهم اول الامر شيئا من خطبة السيد ريختر ، لا سيما وان هذا كان يتكلم بصوت أجش ؛ ولكنه اختلج فجأة ، واندفع ناشطا الى الامام وهو يضرب بيديه على صدره صارخا بصوت أجش يرتجف من الانفعال وكلام اختلطت فيه اللغات :
«A la la la... Che bestialitá! Deux zeun'ommes comme ca qué si battono-pechè? Che diavolo? Andate a casa!*

فأسرع سانين يقول :

ــ اني لا اوافق على الصلح .

فردد خصمه في اثره :

ــ وأنا أيضا لا أوافق .

فقال فون ريختر يُخرج بانتاليوني من ذهوله :

ــ عليك اذن ان تصيح : واحد ، اثنين ، ثلاثة !

هنا أسرع بانتاليوني الى الاختباء في مكمنه وراء الشجيرات . ومن هناك وقف يتلوى ، وبعد ان أغمض عينيه واشاح بوجهه ، صاح بملء صوته : Una... due... e tre!

كان سانين الاول في اطلاق النار ، فأخطأ الهدف ، ورنت رصاصته في شجرة ، واطلق بعده البارون فون دونغوف ، مصوبا الى الفضاء عن عمد .

وخيم صمت مشحون بالتوتر ... لم يتحرك احد من مكانه ، ثم تأوه بانتاليوني ، وقال دونغوف :

ــ أتأمر بمتابعة المبارزة ؟

فسأله سانين :

ــ لماذا أطلقت في الهواء ؟

ــ ليس هذا شغلك .

فعاد سانين يسأل :

---

* ما هذا التوحش ! لماذا القتال بين اثنين لهما مثل هذا الشباب ؟ اخزوا الشيطان داذهبوا الى البيت . (بالايطالية) .

ـ أتنوي ان تطلق مرة ثانية في الفضاء ؟
ـ يجوز ، فأني لا أدري .
واعترض فون ريختر قائلا :
ـ اسمحوا لي ، من فضلكم ايها السادة . ليس من حق المتبارزين ان يتبادلوا الكلام . هذا مخالف للنظام .
ـ اني أتنازل عن اطلاق رصاصتي .
قال سانين هذا ورمى بالمسدس الى الارض .
فصاح دونغوف وهو يلقي أيضا بمسدسه :
ـ وانا كذلك لا أنوي ان أمضي في المبارزة ؛ وأضيف الى هذا انني مستعد الآن للاعتذار ، فقد كنت مسيئا اول امس .
ووقف منطويا في مكانه ، ثم مد يده في تردد الى امام ، فأسرع اليه سانين يصافحه ، وأخذ الشابان ينظران الى بعضهما البعض مبتسمين مصطبغين بالاحمرار .
وصرخ بانتاليوني فجأة مثل المجنون :
— Bravi! bravi!
واندفع مثل الحمامة من خلال الشجيرات وهو يصفق بيديه . اما الدكتور ، وكان يجلس في ناحية على جذع شجرة مقطوع ، فقد بادر الى النهوض ، وسفح الماء من الجرة ، ثم مضى يغربل في مشيته الكسول الى طرف الغابة .
وأعلن فون ريختر قائلا :
ـ لقد استوفى الشرف حقه ، وانتهت المبارزة !
وعاد بانتاليوني يصرخ مرة ثانية من خلال ذكريات الماضي :
— Fuori!*

---

* بالايطالية ، صيحة معناها : بديع او رائع ، كان النظارة ـ قبل عصر المؤلف ـ يحيون بها الممثلين المجيدين . ثم استبدلت بكلمة « برافو » التي كانت متداولة في زمان تورغينيف كما هي اليوم . **(المترجم)** .

انحنى سانين لكل من الضابطين ، وجلس في العربة . كان يملأ وجوده شعور ، إن خلا من الغبطة ، فأنــه لم يخل من بعض الراحة ، كالحال بعد الخلاص من عملية جراحية . ولكن شعورا اخر آخذ يدب في نفسه أشبه بالخجل . . لقد ظهر له ان هذه المبارزة التي فورغ قبل لحظات من لعب دوره فيها ، كانت شيئا زائفا ، واجراء شكليا تمّ الاتفاق عليه من قبل ، وحيلة مألوفة بين الضباط والطلبة . وتذكر سانين الطبيب الخامل ، تذكر كيف ابتسم الطبيب حتى تغضن انفه حينما رآه يغادر الغابة ، مع البارون دونغوف بل انه كان يأخذ بذراع البارون . ثم تذكر لحظــة دفع بانتـــاليوني لهذا الطبيب استحقاقه وهو اربعون روبلا . . . ايخ ! قد حدث شيء لا خير فيه !

لا شك أن سانين كان يحس بشيء من تأنيب الضمير ، ومن الخجل . . . ولكن ماذا كان عليه ــ من ناحية ثانية ــ ان يفعل ؟ أكان عليه ان يترك سفاهة الضابط الشـــاب من غير عقاب ويتشبه بالسيد كلوبير ؟ لقد فعل ما فعل من اجل جيما ، ودافع عنها . . . ومع هذا ، كانت نفسه تعذبــه ، وضميره يؤنبه ، ويؤوده الخجل .

يقابل هذا عند بانتاليوني انه ــ ببساطة ــ في حالة عيد ! فقد استأثر به الزهو دفعة واحدة ، فما يباريه في الرضى عن نفسه جنرال منتصر يعود من المعركة التي انتصر فيها . لقد استفاض اعجابه بسلوك سانين اثناء المبارزة ، فنادى به بطلا ، وأبى ان يستجيب الى نصح هذا البطل حتى بعــد ان صار نصحه الى رجاء ، فشبهـــه بنصب من المـــرمر او من البرونز ، ثم شبهه بتمثال القائد في قصـــة «دون جوان» واعترف بانه شعر ببعض الاضطراب ، ثم لاحظ قـــائلا : «ولكني فنان عصبي الطبع ، امـا انتَ ــ فـأنك ابن الثلوج وصخور الغرانيت» .

ولم يعرف سانين على التحديد ما السبيل الى تهدئة فنان أطلق لهياجه العنان .

في نفس المكان من الطريق ، او غير بعيد عنـــه ، حيث تركا اميل قبل ساعة ـ ساعتين ، وجـــداه يندفع من وراء شجرة وهو يطلق صيحات السعادة ، ويلوح بقبعتـــه فوق رأسه ، ويتوثب ، ثم قذف بنفسه نحو العربة حتى لقد أوشك ان يقع تحت عجلاتها ، ولم ينتظر حتى تقف الجياد ، فتسلقها خلال بابها المغلق ، وأخذ يحدق في سانين مرددا بالحاح :

ـ انت حي ، ما بك جرح ! اصفح عني فـــأني عصيت كلمتك فلم أرجع الى فرانكفورت ... ما قدرت ! فانتظرتك هنا ... قص علي ما حدث ؛ هل قتلته ؟..

وجد سانين مشقة شـــديـــدة حتى هدأ من روع اميل وأجلسه .

روى عليه بانتاليوني تفاصيل المبـــارزة فأطنب وتزيد وهو في غاية الرضى ، وطبيعي انه عاد الى قصة نصب البرونز وتمثال القائد ، حتى انه استقام واقفا في مكانه يمثل القائد سانين ، ففرج ساقيه لحفظ التوازن ، وصلب يـديـــه على صدره ، وارسل نظرة ازدراء من فوق كتفه ! واصغى اميل الى روايته متهيبا لا يقاطعه الا بهتفة يطلقهـــا بين الحين والآخر ، او بقبلة يتطاول مسرعا الى خطفها من صديقه تلقاء بطولته .

ثم أخذت عجلات العربة تقعقع على المرصوف من شوارع فرانكفورت ، وتوقفت في النهاية لدى باب الفندق الذي ينزل فيه سانين .

لما رافق زميليه مصعدا في الدرج الى الطابق الثاني ـ مرقت فجأة في الممر الصغير المظلـــم امرأة محجبـــة تسير بخطوات سريعة ، ثم اقتربت منه لاهثة الانفاس ، فتوقفت قليلا وهي تميل بجسمها الى ناحيته ، ومـا لبثت ان ركضت خارجة الى الشارع ـ واختفت عن النظر ، فقال خادم الفندق

وهو في دهشة عظيمة : «ان هذه السيدة قد انتظرت السيد الاجنبي اكثر من ساعة» . وأدرك سانين منذ اللمحة الاولى انها جيما ، عرف عينيها من وراء خمارها البنّي الحريري السميك ؛ فقال يوجه الكلام بالالمانية الى اميل وبانتاليوني وهو يمد في نطق الحروف :

ــ هل كانت فراولين جيما تعرف . . ؟

فتمتم اميل من خلال ما اعتراه من الخجل والارتباك :

ــ لقد حدست هي بالامر ، ولم استطع شيئا ، فاضطررت ان أروي عليها كل شيء .

واضاف في حماسة :

ــ ولكن لم يبق للتحرج معنى الآن ، فقد انتهى ذلك نهاية رائعة ، ورأتك سليما معافى .

فغمغم سانين وهو يتولى عنهما غاضبا :

ــ يا لكما من ثرثارين !

ودخل يجلس في غرفته على مقعد .

فتوسل اليه اميل قائلا :

ــ لا تغضب ، أرجوك .

ــ طيب لن أغضب . (أكيد أن سانين لم يكن غاضبا ــ ويكاد يتمنى ألاّ تجهل جيما كل شيء) ــ طيب ، كفاك الآن معانقات ، فانصرف ، أريد ان أبقى وحدي ، لأنام ، فأني متعب .

فصاح بانتاليوني :

ــ فكرة رائعة ، انك بحاجة الى الراحة ، ولأنت تستحقها ايها السنيور النبيل . هيا نذهب يا اميليو ! على رؤوس الاصابع ، على رؤوس الاصابع ! شش !

زعم سانين انه يرغب في النوم ليتخلص من رفيقيه ليس غير ، فلما بقي وحيدا ، شعر حقيقة بالتعب الشديد يسري في اعضائه جميعا ، ففي الليلة البارحة لم يغمض له جفن الا لماما ، وما ان ألقى بجسمه المكدود على السرير حتى غط في نوم عميق .

لم يستيقظ طوال بضع ساعات متتاليات ، ثم تراءى له انه يخوض مبارزة جديدة ، وان الخصم الذي يقف امامه هو السيد كلوبير ؛ وعلى شجرة من أشجار الشربين تحط ببغاء تشبه بانتاليوني ، توقع بمنقارها مرددة : واحد – واحد ! واحد – واحد – واحد !

ثم اصبح الصوت بيِّنا في سمعه : «واحد . . . واحد . . . واحد ! !» ففتح عينيه ، ورفع رأسه قليلا . . . كان هناك من يطرق عليه الباب .

صاح سانين :

– ادخل !

ظهر الخادم ليخبره بأن سيدة تتلهف كثيرا الى رؤيته .

خطرت بباله – «جيما !» ، ولكن ظهر ان السيدة هي امها – فراو لينوري .

ما كادت تدخل حتى سقطت من فورها على كرسي واستعبرت باكية .

– ماذا بك يا طيبتي ، يا عزيزتي السيدة روزيللي ؟ – بدأ سانين قوله وهو يجلس الى جنبها ، ويلمس ذراعها بترفق وحنان – اهدئي ، ارجوك .

آه يا Herr Dimitri ، انني ... في غاية التعاسة !

– انت تعيسة ؟

– آه ، كثيرا ! هل كان من الممكن أن أتوقع ؟ لقد انقض ذلك فجأة ، كالصاعقة من سماء صافية . . .

كانت تتنفس في عسر .

– ولكن خبريني ، ماذا حدث ؟ أتريدين كأس ماء ؟

– لا ، وشكرا لك ، – وما ان مسحت فراو لينوري عينيها بمنديلها حتى عادت تبكي على نحو أشد – انني أعرف كل شيء ! كل شيء !

– ماذا يعني : كل شيء ؟

– كل ما حدث اليوم ، وكذلك السبب في ما حدث . . . لم يعد خافيا عليّ ! لقد سلكت مسلك الرجل النبيل ، ولكن ما أشد ما تعاقب من البلاء ! ما كان عبثا أنني لم ينشرح قلبي لتلك الرحلة الى سودين . . . ما كان عبثا ! (لم تكن فراو لينوري قد اشارت الى شيء من هذا يوم الرحلة ، ولكنها تراءى لها الآن ان حدسها أنبأها «كل شيء») – لقد قصدتك كما يقصد الرجل النبيل ، كما يقصد الصديق ، على الرغم من انني لم أتعرف اليك الا منذ خمسة أيام . . . ولكني أرملة ! وحيدة . . . وابنتي . . .

وطغى البكاء على صوت فراو لينوري ، فردد سانين قائلا وهو لا يعرف ماذا هناك :

– بنتك ؟

فانفلت أنين فراو لينوري من خلال منديلها المبلل بالدموع وقالت :

– ابنتي جيما ، لقد أنبأتني اليوم انها لا تريد الزواج من السيد كلوبير ، وان عليّ ان اخبره بذلك !

تزحزح سانين قليلا من مكانه : فانه لم يتوقع هذا . وتابعت فراو لينوري :

– وانا لم أتحدث عن وجه العار في هذا الامر الذي لم يحدث مثله في العالم ، وهو امر الخطيبة التي تهجر خطيبها ، ولكن فيه الخراب لنا يا Herr Dimitri.

واخذت فراو لينوري تكور منديلها بقوة ومثابرة ، كأنها تريد ان تحتبس كل احزانها في هذه الكرة الصغيرة .

– موردنا من الدكان لم يعد فيه ما يكفي للعيش يا Herr Dimitri ! اما الهر كلوبير فانه واسع الثراء ، وسيكون اوسع ثراء ، فماذا حداها الى رفضه ؟ ألأنه لم يتقدم للذياد عن خطيبته ؟ اني أسلم بأن تصرفه غير محمود على الاطلاق ، ولكنه رجل مدني ، لم ينشأ في جامعة ، وينبغي له بحكم مركزه تاجراً محترما ان يترفع

عن اعمال الطيش التي يعبث بها ضابط صغير مغمور ، فيالها اساءة يا Herr Dimitri!

— اسمحي لي يا فراو لينوري ، يبدو انك تتهمينني .

— انني لا أتهمك بشيء ، فانت لك شأن آخر . انك مثل الروس جميعا رجل عسكري ...

— اسمحي لي ، فاني لست ابدا ...

— انك غريب الدار ، عابر سبيل ، وانا شاكرة لك ما قدمت ، — تابعت فراو لينوري كلامها من غير أن تصغي الى سانين ، كانت تتنهد وتلوح بيديها ، وتبسط منديلها ، وتنفث فيه ، وكان واضحاً من الطريقة التي عبرت فيها عن همومها انها لم تولد تحت سماء شمالية .

— هل من سبيل للسيد كلوبير الى البيع في المخزن لو انه ذهب يصارع المشترين ؟ لا يعقل هذا أبدا ! ثم ينبغي عليّ الآن أعلنه بالقطيعة ، ولكن على أي مورد سنعيش ؟ كنا الوحيدين من قبل في صنع غزل البنات والنوكة بالفستق ، وكان المشترون كثرة ، اما الأن فأن كل حلواني يصنع غزل البنات !! فتأمل : من غير هذا سيتحدث كل أهل البلد عن مبارزتك ... فهل من السهل اخفاء أمرها ؟ ثم يأتي فجأة فسخ الخطبة ! ان هذا فضيحة وأي فضيحة ! جيما فتاة رائعة ولا شك ، وهي تجني كثير ا ، ولكنها جمهورية عنيدة ، لا تخشى رأي الناس ، وانت الوحيد من يستطيع اقناعها !

فزاد سانين دهشة عما كان عليه من قبل .

— انا ، يا فراو لينوري ؟

— نعم ، انت ... انت وحدك ، ولهذا جئت أقصدك . لم يسعفني التفكير بحل آخر ! انك في غاية الثقافة والطيبة، وقد ذدت عنها على الخصوص ، فهي تثق بك **ويجب** ان تثق بك ، فقد جازفت بحياتك من أجلها ، انك قادر على تبصيرها بالامر ، اما انا فما عدت قادرة على شيء ! — تستطيع ان تثبت لها انها ستدمر حياتها وحياتنا معها . لقد أنقذت

ابني ، فلعلك ان تنقذ ابنتي ايضا ! ان الله قد أرسلك الينا . . . واني لمستعدة ان أتوسل اليك وأنا جاثية على ركبتي . . .

وهمت فراو لينوري بالقيام عن الكرسي كأنها بسبيلها الى الارتماء عند قدمي سانين . . . فأمسك بها .

ــ فراو لينوري ! نشدتك الله ، ما هذا منك ؟

فأطبقت على يده في انفعال وقالت :

ــ هل تعدني ؟

ــ فراو لينوري ، فكري ، هل يحق لي . . .

ــ هل تعدني ؟ أتطلب مني ان أموت هنا امامك في الحال ؟

أسقط سانين في يده ، فأنها المرة الاولى في حياته التي يواجه فيها التجربة مع الدم الايطالي الملتهب ؛ ثم صاح قائلا :

ــ سأفعل كل ما يبعثك على الرضى ! ــ سأتحدث الى فراولين جيما . . .

فأطلقت فراو لينوري صيحة فرح .

ــ ولكني لا أدري على التحديد ما هي النتيجة التي ستطلع باليد . . .

فقالت فراو لينوري بصوت متوسل :

ــ آه ، لا ترفض ، لا ترفض ! لقد وافقت ! اما النتيجة فلا بد ان تكون رائعة ، ومهما يكن فأني لم أعد قادرة على ان أزيد عما فعلت ، فأنها لن تصغي اليّ !

فسألها سانين بعد قليل من الصمت :

ــ هل كانت قوية العزيمة لما أعلنت اليك رفضها الزواج من السيد كلوبير ؟

ــ كانت قاطعة مثل السكين ! فهي صورة من أبيها جيوفاني باتيستا ــ جريئة !

فردّد سانين وهو يمد في نطق الحروف :

ــ جريئة ! هي ؟

ــ نعم ، انها كذلك ، ولكنها ملاك ايضـــاً ، ولسوف تطيعك ، فهل تأتي من دون ابطاء ؟ اوه يا صديقي الروسي العزيز !

وهبت فراو لينوري ناهضة عن الكرسي ، وسانين يجلس الى جنبها ، فأحاطت رأسه بيديها ، وقالت :

ــ تقبل البركة من أم . . . وأعطني ماء !

حمل سانين الى السيدة روزيللي كأسا من الماء ، ووعدها بأن لا يبطيء عليها في المجيء ، ثم ودعها منحدرا معها في الدرج حتى الشارع ، وعاد الى غرفته وهو يضرب كفا بكف، ويحملق مذهولا .

فكر في نفسه : « ها هي ذي الحياة تدور **الآن** ! وانها لتدور على نحو يدور له رأسي » . لم يحاول ان ينظر في طوية نفسه ليستشف مـــا يجري في باطنـــه : هنـــاك الفوضى ــ وبس ! وهمست شفتاه من غير قصد : « يوم مشهود ! جريئة . . . هذا ما قالته امها ، وينبغي عليّ أنا ان أنصح لها ــ لهـاَ ؟! فبماذا أنصح ؟! »

كان رأس سانين يدور بالفعل ، وفي كل هذه الزوبعة من العواطف المختلفة والانطباعات والافكار المبتورة ، كانت تطفو على نحو ثابت صورة جيما ، هذه الصورة التي انغرست في ذاكرته فما تزول ، كما رآها في تلك الليلة المضطربة الدافئة المكهربة ، وهي في نافذتهـــا المظلمة ، تحت أشعة النجوم المتعاكسة !

٢٤

كان سانين يقترب من منـــزل السيدة روزيللي بخطوات مترددة وقلبه يخفق خفقا شديدا شعر به واضحا واحس به يقرع في ضلوعه . ماذا تراه سيقول لجيما ، وكيف سيفاتحها بالحديث ؟ دخل البيت من بابه الخلفي لا بطريق الدكان ، وقابل فراو لينوري في الغرفة الصغيرة الامامية ، فكانت فرحة

وخائفة من هذه المقابلة ؛ قالت له همسا وهي تأخذ يده بأحدى يديها ثم بالثانية :

ـ لقد انتظرتك وانتظرتك . ـ اذهب الى الحديقة فأنها هناك ، وانتبه للامر فاني أعقد عليك الامل !

وسار سانين الى الحديقة .

كانت جيما تجلس على دكة خشبية قريبة من الممر ، وامامها سلة مملوءة بالكرز ، وقد شغلت بانتقاء الحبات الناضجة منها ونقلها الى طبق ، والشمس منحدرة الى الغروب فقد جاوزت الساعة السادسة من المساء ، وفيض عريض من أشعتها المائلة يغرق حديقة السيدة روزيللي أشد حمرة مما هو ذهبي ، وأوراق الاشجار يندّ عنها بين الحين والآخر همس خفيض يكاد لا يسمع الا قليلا ، والنحل المتخلف عن سربه يطنّ متنقلا من زهرة الى زهرة ، وقمرية ترسل من مجثمها هديلا رتيبا متصلا .

كان على رأس جيما تلك القبعة المستديرة التي لبستها اثناء الرحلة الى سودين ، فرفعت بصرها تحدق الى سانين من تحت طرف القبعة الملتوي ، ثم عادت تنحني على سلة الكرز .

كانت خطوات سانين تبطيء عن غير قصد كلما زاد اقترابا منها و . . . و . . . و . . . لم يجد ما يقوله بل وجد ما يسأل عنه فقال : لماذا تنتقين هذا الكرز ؟

فأمسكت جيما قليلا عن الجواب ، ثم تمتمت اخيرا :

ـ هذه الحبات الناضجة من أجل المربى ، وهذه لحشو الفطائر ، فانت تعرف اننا نبيع مثل هذه الفطائر المحلاة بالسكر .

قالت هذه الكلمات وعادت تنحني على السلة برأس اكثر انخفاضا عن ذي قبل . اما يدها اليمنى التي تحمل بين اصابعها حبتين من الكرز فقد بقيت معلقة في الهواء بين السلة والطبق .

سألها سانين :

ـ أتأذنين لي في الجلوس معك ؟
فتزحزحت جيما قليلا عن الدكة الخشبية وقالت :
ـ تفضل .
جلس سانين الى قربها وهو يفكر : «كيف أبدأ ؟» ، ولكن جيما انتشلته من حيرته فقالت في حماسة :
ـ لقد اشتبكت اليوم في مبارزة .
والتفتت اليه بكل وجهها الرائع المشرب بحمرة الحياء ، ويا للامتنان العميق الذي كان يشع في عينيها !
ـ ثم أراك على مثل هذا الهدوء ، أفلا تعرف الشعور بالخطر ؟
ـ خلّي عنك فأني لم أواجه أي خطر ، وقد مضى كل هذا في سلام ، ولم يصب احد بسوء .
فرفعت جيما اصبعها وحركتها يمنة ويسرة امام عينيه ... وهذه ايضا عادة ايطالية .
ـ لا ! ابدا ! لا تقل ذلك ! فانك لا تستطيع ان تخدعني . لقد أنبأني بانتاليوني بكل ما حدث !
ـ لقد عثرت على من تثقين بقوله ! ألم يشبهني ايضا بتمثال القائد ؟
ـ قد تكون طريقته في التعبير مضحكة ، ولكن شعوره وما عملته اليوم لم يكن مضحكا ، وكل ذلك من جرّائي ... ومن اجلي ... لن انسى هذا ابدا .
ـ أوكد لك يا فراولين جيما ...
فكررت قولها وهي تشد على الحروف :
ـ لن أنسى هذا ما عشت .
وعادت تحدق فيه متملية ثم أدارت وجهها .
لقد استطاع عندئذ ان يرى الى جانب وجهها النقي الناعم ، فخيل اليه انه لم ير في حياته وجها يشبهه ، ولم يشعر في حياته بما شعر به في هذه اللحظة ، واشتعلت روحه جملة .
«اين ما وعدت به ؟» ـ لمع في رأسه هذا الخاطر فبدأ الكلام بعد لحظة من التردد :

ـ فراولين جيما ...
ـ يا نعم .
انها لم تلتفت الى ناحيته بل استمرت في انتقاء الكرز فكانت تأخذ الحبة من ذيلها باطراف أصابعها في ترفق ، وترفع أوراقها في حرص ... ولكن بأي ثقة وحنان نطقت بهذه الكلمة : « يا نعم » !
ـ ألم تخبرك امك بشيء ... حول ...
ـ حول ؟
ـ حولي أنا .
قذفت جيما بما في يدها من الكرز فجأة الى الوراء ، في السلة ، وسألته بدورها :
ـ هل تحدثت اليك ؟
ـ نعم .
ـ وماذا قالت لكَ ؟
ـ قالت لي انك ... غيرت فجأة ما كان في نيّتك من قبل .
خفضت جيما رأسها فاختفى وجهها كله تحت قبعتها ، ولم يبد غير عنقها اللدن الناعم الذي يشبه ساق زهرة كبيرة .
ـ اي نية ؟
ـ نيتك ... بخصوص ... بناء مستقبل حياتك .
ـ المقصود ... انك تتحدث بهذا ... عن السيد كلوبير ؟
ـ نعم .
ـ هل قالت لك أمي انني لا اريد الزواج من السيد كلوبير ؟
ـ نعم .
تحركت جيما في مقعدها فمالت السلة وسقطت ، وتدحرج منها بضع حبات من الكرز على الممر ... وانقضت دقيقة ... ثم اخرى ، وسمع صوتها تقول :
ـ لماذا تحدثت اليك امي في هذا ؟
بقي وجه جيما مختفيا عن نظر سانين كما كان من قبل :

فما يبدو له غير عنقهـا ، وكان صدرها يرتفع وينخفض في عنف . . .

ـ لماذا ؟ لقد فكرت امك باننا اصبحنا اصدقـاء في وقت قصير ، وانك تشعرين نحوي بشيء من الثقة يمكنني من اسداء بعض النصح اليك ، وانك ستنتصحين بها .

فانزلقت يدا جيما في هدوء الى ركبتيهـا . . . وبدأت تسوي طيات فستانها ، ثم سألت بعد انتظار قليل :

ـ واي نصيحة تريد ان تسديها اليّ يا monsieur Dimitri

رأى سانين أن أصابع جيما كانت ترتجف على ركبتيها ... وان تسوية الفستان لم تكن الا لأخفاء هذا الارتجاف ، فوضع يده في رفق على هذه الاصابع الشاحبة المرتعشة وقال :

ـ جيما ـ لماذا لا تنظرين اليّ ؟

فأزاحت قبعتها الى الوراء من خلال كتفيها بأسرع من ومض البرق ، ونظرت اليه في عينيه مباشرة نظرة فيها كل الثقة وعرفان الجميل ، وانتظرت ان يتكلم . . . ولكن مرأى وجهها حيره وخفف بصره ، فقد استضـاء هذا الوجه الفتيّ ببريق شمس الاصيل الدافئة ، فبدت قسماته أشد سناء وبهاء من هذه الشمس .

ـ سأطيعك يا monsieur Dimitri.

بدأت قولها وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة خفيفة وارتفع حاجباها قليلا .

ـ ولكن ما هذه النصيحة التي تريد ان تسديها اليّ ؟

فكرر سانين :

ـ ما هذه النصيحة ؟ على علمك ان والدتك تعتبر أنّ لرفضك السيد كلوبير سبباً وحيداً وهو انه لم يظهر منذ ثلاثة ايام ما ينبغي له من الشجاعة . . .

ـ أهذا هو السبب الوحيد ؟

قالت جيما ذلك وانحنت فتناولت السلة ووضعتها الى جنبها على الدكة الخشبية .

– وترى . . . أن رفضك . . . بصورة عامة ، بعيد من جهتك عن التبصر ، وان عواقب مثل هذه الخطوة يجب ان تحسب جميعا أدق حساب ، وأن وضعكم يفرض واجبات واضحة على كل فرد من افراد الاسرة . . .

فقاطعته جيما :

– كل هذا آراء ماما ، وكلماتها ، وأنا اعرف هذا جميعا ، فما رأيك انت ؟

– رأيي ؟

وصمت سانين ، فقد شعر بشيء يسري في حلقه ويحتبس انفاسه ، ثم اضاف في جهد جهيد :

– وانا اظن ايضا . . .

فاعتدلت جيما :

– وانت ايضا ؟ انت ؟

– نعم . . . ولكن قصدي . . .

وأعياه القول فما استطاع ان يضيف كلمة ، وقالت جيما :

– طيب ، ما دمت تنصح لي ، باعتبارك صديقا ، ان اغير رأيي . . . أقصد ان لا أغير ما ارتأيته من قبل – فاني سأفكر في الامر . . . – ومن غير ان تدري ما تفعل أخذت تنقل من الطبق الى السلة ما انتقته من الكرز .

– ان امي تأمل في ان استمع لنصحك . . . واذن ، لا يبعد ان اعمل بما تنصح لي به على وجه الضبط .

– ولكن ارجوك يا فراولين جيما . هل لي ان أعرف الاسباب التي حملتك على . . .

فكررت جيما وقد تغضن جبينها وشحب خداها وانطبقت اسنانها على شفتها السفلى :

– سأستمع لنصحك . فقد جهدت كثيرا من أجلي ، فوجب عليّ ان أحقق لك ما تريد ، وأعمل بمشيئتك ، وسأنبي امي . . . سأفكر في الامر . ولكن ها هي ذي تجيء الى هنا .

والواقع ان فراو لينوري ظهرت على عتبة البيت المؤدية الى الحديقة . لقد برحت بها اللهفة وفراغ الصبر فلم تطق الجلوس في مكانها ، وقدرت ان سانين لا بد قد أنجز منذ وقت طويل ما سيشرحه لجيما في حين ان جلسته لم تستغرق أكثر خمس عشرة دقيقة .

وصاح سانين في سرعة وتخوف :

ــ لا ، لا ، لا ، نشدتك الله ألاّ تنبئيها بشيء ابدا ، انتظري ... سأقول لك . سأكتب اليك .. فلا تنجـــزي أمراً حتى ذلك الوقت . . . انتظري !

وشدّ على يد جيما وهو ينهض من المقعد ، وبالدهشة فراو لينوري لما رأته ينسل مارا بها مرّ المجانب ، رافعا لها قبعته ، متمتما بكلام غير مفهوم ثم يختفي . . . فتقدمت من ابنتها وقالت :

ــ قولي أرجوك يا جيما . . .

فقامت جيما فجأة واحتضنت امها :

ــ ماما ، يا حبيبتي ، هل تستطيعين ان تنتظري قليلا حتى الغد ؟ أقل القليل من الصبر ، فهل تستطيـعـين ؟ ولا تنطقي بكلمة حتى الغد ؟ . . آه ! . .

وفاضت دموعها المتلألئة فجأة على غير توقع مـنـهـا بالذات ، وقد أدهش فراو لينوري على الخصوص ان ملامح جيما كانت بعيدة عن الأسى ، بل أنها اقرب الى السعادة ، فسألتها :

ــ ماذا بك ؟ لم يكن البكاء مـن شـأنـك ابـدا ، ثـم فجأة . . .

ــ لا شيء يا ماما ، لا شيء ! انتظري وحسب ، ينبغي لنا نحن معا ان ننتظر ، لا تسألي عن شيء حتى الغد ، وهيا بنا ننتق الكرز ما دامت الشمس لم تمل الى الغروب .

ــ ولكن هل ستكونين متبصرة ؟

ــ أوه ، اني لشديدة التبصر !

أومأت جيما برأسها ايماءة اهتمام وادراك ، وبدأت

تنظم الكرز في عناقيد صغيرة كانت ترفعها الى أعلى امام وجهها المشرب حمرة ، ولم تمسح دموعها ، فقد نشفت الدموع من تلقاء ذاتها .

٢٥

كاد سانين يركض وهو عائد الى مسكنه ، فقد شعر ، بل أدرك ، انه سيقدر آخر الامر ، حين ينفرد بنفسه في هذا المسكن فقط ، ان يتبين ما به ، فماذا به ؟ والواقع : ما ان وصل الى غرفته وجلس الى مكتبه مرتفقا عليه بكلتا يديه ، آخذا وجهه بين راحتيه ، حتى صاح من أسى بصوت أصم : « أحبها ، وأنا مجنون بحبها ! » ـ لقد التهب في دخيلته فجأة كما الفحم نفخ عنه الرماد المنطفئ . مرت لحظة ... وهو لا يملك القوة على ان يفهم كيف استطاع ان يجلس الى جنبها ويتحدث اليها دون ان يشعر بأنه يعبدها حتى طرف فستانها ، وانه مستعد على حد تعبير الشباب « للموت عند قدميها » . لقد كان اللقاء الاخير في الحديقة حاسما ـ وحينما يفكر فيها الآن ، فانه لا يذكرها وهي مبعثرة الشعر تحت ضوء النجوم ، وانما يذكرها كما رآها جالسة على مقعد الحديقة ، كما رآها تحسر قبعتها فجأة وتنظر اليه في ثقة ... فيسري ظمأ الحب الملتهب في كل عروقه . تذكر الوردة التي يحتفظ بها في جيبه منذ ثلاثة ايام ـ فسحبها وجذبها الى شفتيه بقوة محمومة فاذا وجهه يتغضن من الألم . انه لا يستطيع الآن أن يعقل أمرا ولا أن يفكر في أمر ، ولا ان يحسب لشيء حسابا ولا ان يستشف ما يطويه الغد . لقد تفلت من الماضي كله ووثب الى الامام : منفصلا من شاطئ حياة الوحدة والعزوبية الكئيب وألقى بنفسه في هذا التيار الممراح العارم المتدفق ـ غير متحسر على شيء ، ولا راغب في ان يعرف الى أين سيحمله ، او على اي صخرة

قد يحطمه ؛ وهو بعد ليس هذه السيول الهادئة لرومانس أولاند التي كانت تهدهده منذ وقت قريب ... وانما هو امواج عارمة لا تقاوم ! وانها لتطير وتتواثب مندفعة الى الامام وهو معها يطير !

أخذ ورقة ، ومن غير ان تشطب ريشته على كلمة او تتوقف عند كلمة كتب ما يلي :

«عزيزتي جيما !

انت تعرفين أي نصيحة أخذت على نفسي أن أزجيها اليك ، وتعرفين ما تتمناه والدتك وما طلبته مني ، ولكنك لم تعرفي شيئا مما ينبغي لي ان اقوله الآن – وهو أنني أحبك . أحبك بكل أشواق قلب يحب أول مرة ! وقد اشتعلت فيّ هذه النار على حين غرة ، اما عن قوتها فلست أجد ما يعبر عنها من الكلمات ! ! لما قصدتني والدتك وطلبت مني ما جاءت من أجله – لم تكن هذه النار قد التهبت بل كانت ترمض مستخفية في سريرتي ، والا لرفضت من كل بدّ أن ألبي طلبها باعتباري رجلا شريفا . . . وكذلك هذا الاعتراف الذي أفضي به الآن ، لهو اعتراف رجل شريف ؛ يجب ان تعرفي طرز من تتعاملين معه – وان لا يكون بيننا غموض في الفهم . وانك ترين انني لا أستطيع ان أزجي اليك أي نصيحة ، فاني أحبك . . . أحبك . . . أحبك – وليس غير هذا في عقلي وفي قلبي ! !

ديم . سانين»

طوى هذه الرسالة وجعلها في غلاف ، ثم اراد ان يدعو الخادم ليرسلها معه ، ولكن . . . «لا ! فان هذا غير مستحسن – فهل نتوسل بأميل ؟ ولكن الذهاب الى المخزن والبحث عنه بين المستخدمين غير مستحسن ايضا ، ثم ان الظلمة قد انتشرت في الخارج والارجح انه غادر المخزن» . وضع سانين قبعته على رأسه وهو لا يزال يقلب الامر على وجوهه وخرج الى الشارع ، فما اجتاز زاوية وانعطف في

زاوية اخرى حتى رأى اميل امامة ففرح به فرحا عظيما .
كان الشاب المتحمس مسرعا الى البيت : حقيبة تحت ابطه وصرة كبيرة من الورق في يده ، ففكر سانين وهو يناديه : « ليس عبثا ما قيل من ان لكل عاشق نجمة » .

التفت اميل وأقبل مسرعا من فوره .

لم يترك له سانين ان يمضي في فرحته بل ناوله الرسالة وأوضح له لمن ينبغي ان يسلمها وكيف يوصلها ... وكان اميل يصغي اليه في انتباه .

– أي بحيث لا يرى احد ؟

سأل وهو يعطي لوجهه تعبيرا من الخطورة والسرية كأنه يقول : « نحن ندرك أين بيت القصيد » .

فقال سانين وقد اعتراه شيء من الخجل :

– نعم يا صديقي .

ولكنه اضاف وهو يربت بيده على خد اميل :

– واذا كان ثمة جواب ... فاحمله انت اليّ ، أليس كذلك ؟ وسأنتظر في غرفتي .

فهمس اميل بمرح :

– لا تقلق من هذه الناحية !

وانصرف راكضا ، ثم التفت اثناء ركضه فأومأ لسانين برأسه .

عاد سانين الى مسكنه ، وارتمى على الاريكة دون ان يوقد الشموع ، فوضع يديه وراء رأسه ، وارسل نفسه مع الاحاسيس التي ابتعثها ادراكه انه عاشق ، وهي مما لا يجدي وصفه : فمن يكابد عذابها ويرتشف عذوبتها يعرفها ، اما الذى لم يكابدها فمن المستحيل افهامه .

فتح الباب وظهر رأس اميل ، وهمس قائلا ،

– جئت بالجواب ، وها هو ذا ...

ورفع فوق رأسه ورقة مطوية .

فنهض سانين عن الاريكة واختطف الورقة من يد اميل .
كان الشوق يعصف به فاستهتر بالكتمان ، ولم يبال بأعراف

التوقر حتى امام هذا الصبي الذي هو أخوها ، وانه لجدير ان يستحيي منه ، وان يقسر نفسه على هذا لو انه استطاع !

مشى نحو النافذة حيث يبلغها النور من فانوس امام الفندق ، وقرأ هذه السطور :

« ارجوك ، بل أتوسل اليك — **ألا تأتي الى زيارتنا طوال يوم غد ، وألا تظهر في طرفنا** ، فان هذا ضروري ، وضرورته محتومة ، وسيكون حل لكل ما هنالك . أعرف انك لن ترفض هذا الطلب لأن . . .

جيما» .

قرأ سانين هذه السطور مرتين — ويالخطها كم بدا له مؤثرا لطيفا جميلا ! — وبعد ان فكر قليلا التفت الى اميل — وكان الفتى بدافع من رغبته في لفت الانتباه الى انه جم التواضع ، يقف مديرا وجهه الى الجدار وينكت فيه بأظفاره — فناداه باسمه .

فأسرع اميل من فوره الى سانين .

— بم تأمر ؟

— استمعوا اليَّ يا صديقي . . .

فقاطعه اميل بصوت مستعطف قائلا :

— مسيو ديميتري ، لماذا لا تخاطبني بضمير المفرد ؟

فابتسم سانين :

— طيب اذن ، إسمع يا صديقي (اميل نط عندئذ قليلا من الفرح) اسمع : ستقول لمن **هناك** ، وانت تدرك من المقصود ، ان كل ما طلب سينفذ بما ينبغي من الدقة (اميل ضغط على شفتيه ، وهز رأسه باهتمام) وانت . . . ماذا ستعمل يوم غد ؟

— انا ؟ ماذا سأعمل ؟ ما الذي تريدني ان أعمله ؟

— اذا أمكنك المجيء ، فتعال اليَّ في الصباح الباكر ، لنقوم بجولة حتى المساء في ضواحي فرانكفورت . . . فهل تريد ؟

نط اميل مرة ثانية .

– ياسلام ، هل في الدنيا أحسن من هذا ؟ النزهة معك انها معجزة ، سأحضر ولا شك .

– واذا منعوك ؟

– لن يمنعوني !

– اسمع ... لا تقل **هناك** انني دعوتك لقضاء النهار كله .

– وعلام الكلام ؟ سأخرج وحسب ، فهل في هذا ضير ؟

وقبل سانين بحرارة وانطلق يجري .

بقي سانين يذرع الغرفة وقتا طويلا ، لم يستلق في فراشه التماسا للنوم الا في ساعة متأخرة – كان يترشف تلك الاحاسيس الرهيبة اللذيذة نفسها وتلك السعادة المبهورة امام الحياة الجديدة ؛ وفكر سانين وهو في غاية الغبطة من انه خطر بباله ان يدعو اميل الى نزهة الغد : « انه سيذكرني بأخته » .

كان أشد ما ادهشه في هذا كله : كيف استطاع ان يكون امس غير ما كانه اليوم ؛ فقد خيل اليه انه احب جيما طوال عمره ، وانه احبها هذا الحب الذي يستشعره لها اليوم .

٢٦

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي كان اميل يدخل الغرفة على سانين وهو يمسك بطوق الكلب البوديل تارتاليا ؛ ولو أنه كان من أبوين ألمانيين لما استطاع ان يكون اكثر دقة مما ظهر منه . لقد خدع الاهل في المنزل فقال انه سيذهب للفسحة مع سانين حتى وقت الفطور ، ومن ثمّ سيقصد المخزن . وفيما كان سانين يلبس ثيابه أخذ اميل يحدثه – ولكن في شيء من الارتباك – عن جيما ، وعن اختلافها مع السيد كلوبير ، ولكن سانين صمت متجهما عن الجواب ، فاتخذ اميل وضع من يفهم لماذا يجب ألا تلمس

هذه النقطة الحساسة ، ولم يعد الى الخوض في حديثها ، واكتفى بأن يصطنع بين الحين والآخر هيئة رزينة بل صارمة ايضا .

بعد شرب القهوة ، سار الصديقان – على الاقدام بطبيعة الحال – الى غاوزين ، وهي قرية صغيرة ترقد في موقع قريب من فرانكفورت ، تحيط بها الغابات ، وتبدو منها سلسلة جبال تاؤونوس مثل راحة الكف . كان الطقس رائعا ، والشمس ساطعة حارة ولكنها غير لافحة ، والهواء الصافي يضوضي ممراحا في الاوراق الخضراء ، وظلال السحب المدورة العالية ترتمي بقعا غير كبيرة، وتنزلق متموجة مسرعة خلال الارض . غادر الشابان المدينة بعد وقت قليل ، وراحا يطويان الطريق الممهد النظيف يستخفهما النشاط والمرح ، ثم أوغلا في الغابة ، وهاما وقتا طويلا في مساربها ، وبعد غداء دسم تناولاه في نزل القرية ، ذهبا يتسلقان الجبل ويتمتعان بما حولهما من منظر ، وطفقا يقذفان الحجارة من أعلى ، ويصفقان بأيديهما وهما ينظران كيف تتواثب على نحو مضحك غريب ، حتى ان عابر سبيل في اسفل الجبل لم يكن ظاهرا لأعينهما ، وقف يشتمهما بصوت مجلجل عال . ثم تمددا مبسوطي الايدي على الطحالب القصيرة الجافة ذوات اللون البنفسجي الضارب الى الصفرة ، وشربا البيرة في مقصف آخر ، وتسابقا في الركض ، وتباريا بالقفز الطويل ، وفتحا حوارا مع الصدى ، فتحدثا ، وغنّيا ، وصوّتا ، وتصارعا ، ثم قطعا الاغصان من الشجر ، وزينا قبعتيهما بازهار السرخس ، بل انهما رقصا ايضا . وأسهم تارتاليا بما اطاقه وقدر عليه في كل هذه الاهتمامات : صحيح انه لم يقذف الحجارة ولكنه تدحرج وراءها رأسا على عقب ، ونبح عندما غنى الشابان – بل انه شرب البيرة ايضا ، ولكنها لم ترق له : وقد تعلم هذا الفن من طالب كان يؤويه ذات حين ؛ وظهر انه لا يقر لأميل بالطاعة التامة مثلما يطيع صاحبه بانتاليوني ، فاذا أمره اميل بقوله : « تكلم »

أو « اعطس » كان لا يزيد عن تحريك ذيله ومد لسانه وتكويره مثل الانبوب . وتجاذب الشابان ايضا أطراف الحديث . ففي بداية الرحلة ، بدأ الكلام سانين – فالأرشد في السن أرشد في العقل – فتحدث عن معنى القضاء والقدر ، وعن تعيين المصائر ، وعن مفهوم رسالة الانسان وعناصرها ؛ وما لبث الحديث ان جنح الى ناحية أسهل ، فسأل اميل صديقه ومرشده عن روسيا ، وعن المبارزات التي تجري فيها ، وهل نساؤها جميلات ، وهل يمكن تعلم اللغة الروسية بسرعة ، وما شعوره حينما صوب اليه الضابط ؟ وسأله سانين بدوره عن أبيه وأمه وعن أحوال أسرته بعامة ، وجهد في ألا يذكر اسم جيما – وهو لا يفكر الا فيها – ولكنه والحق يقال لم يفكر فيها بل في الغد ؛ في هذا الغد الغامض الذي سيحمل اليه سعادة خفية لا مثيل لها ! فهو كالستار ... وانه لستار رقيق شفاف يتموج في سكون امام نظرته الواعية ، وهو يشعر بأن وراء هذا الستار يتراءى وجه في رونق الصبا ، ثابت عن الحركة ، ملائكي الملامح ، على شفتيه ابتسامة رقيقة ، وفي عينيه المسبلتين قسوة مصطنعة ، لم يكن وجه جيما ، وانما هو وجه السعادة نفسها ! وها هي ذي **ساعته** الموعودة قد حانت اخيرا ، فاذا هذا الستار الشفاف ينحسر ، وتنفرج الشفتان المطبقتان ، وترتفع الرموش ، وتتجلى له الحضرة الآلهية – وعندئذ يشرف نور كأنه يتدفق من الشمس ، ومعه فيض لا نهاية له من السعادة والغبطة ! ! لم يفكر في هذا الغد الا عادت نفسه تجمد من بهر السعادة وتذوب من لوعة الانتظار !

لم يؤثر هذا الشوق وهذه اللوعة في شيء ، فأنهما معه في كل حركة من حركاته – ولكنهما لم يمنعاه عن شيء . لم يمنعاه عن تناول غداء فاخر كامل مع اميل – ما عدا حالات نادرة كانت تخطر بباله هذه الفكرة مثل ومضة البرق الخاطفة : لو أن أحدا في العالم عرف ؟ ! ولم تمنعه هذه

اللوعة من اللعب بعد الغداء مع اميل بالنطة . . . كانت تجري هذه اللعبة فوق مرج رحيب معشب . كان الكلب يطلق نباحه الحماسي ، وسانين مثل الطائر ينشر ساقيه بقفزة حاذقة يطير بها فوق ظهر اميل ، حينما رأى فجأة امامه ما جعله في غاية الارتباك والخجل ، ففي طرف هذا المرج الاخضر الرحيب نفسه ، كان يقف ضابطان عرف فيهما من فوره خصمه امس السيد فون دونغوف ، وشاهده السيد فون ريختر ! كان كل منهما يضع على عينه عوينة واحدة وينظر اليه مبتسما . . .فأسرع سانين في النزول على قدميه وهو يدير وجهه ، ولبس معطفه على عجل ، وطلب من اميل في اقتضاب ان يلبس سترته وذهبا مسرعين .

وصلا الى فرانكفورت في ساعة متأخرة . وقال اميل وهو يودع سانين :

– سيوبخونني – ولكن لا بأس ، فقد قضيت نهارا كأنه المعجزة .

عاد سانين الى الفندق فرأى رسالة من جيما ، فيها تضرب له موعداً في الساعة السابعة من صباح الغد في احدى الحدائق العامة التي تحيط بمدينة فرانكفورت .

كم خفق قلبه ! وكم كان سعيدا بامتثاله لامرها دون اعتراض ! يا آلهي بم يعد هذا الغد . . . وبم لم يعد هذا الغد الفريد المستحيل ، ولكنه ــ المؤكد ؟ !

غرس نظرته في رسالة جيما . ان هذا الذيل الطويل الاهيف لأول حرف من اسمها ، وهو حرف G الذي يقف في نهاية الرسالة ، قد ذكره باصابعها الجميلة ، وبيدها . . . تذكر انه لم يلمس هذه اليد بشفتيه ولا مرة واحدة ، ففكر : «ان الايطاليات يختلفن عما يشاع عنهن ، فانهن رصينات حصينات ، وأما جيما فهي أرصن وأحصن ، انها ملكة . . . آلهة . . . عذراء نقية مثل المرمر . . .» .

ولكن الاوان سيئين ــ وليس هذا بعيدا . . .

في تلك الليلة كان في فرانكفورت رجل سعيد واحد . . .

أوي الى النوم ولكنه يستطيع ان يقول عن نفسه ما قاله الشاعر :

اني انام ... ولكن قلبي المرهف لم ينم ...

كان قلبه يدق في اطمئنان ، كارتعاش اجنحة فراشة تعلق زهرة تحت شلال من أضواء شمس صائفة .

٢٧

استيقظ سانين في الساعة الخامسة ، وفي السادسة كان قد فرغ من ارتداء ثيابه ، وفي منتصف السابعة كان يتمشى في الحديقة العامة قرب العريشة الصغيرة التي ذكرتها جيما في رسالتها .

كان الصباح هادئا دافئا رماديا ، وبدا احيانا ان المطر يوشك ان يهطل ، ولكن الكف لا تشعر بشيء اذا بسطت نحو السماء ، وقد تلحظ العين اثرا من رذاذ ليس غير ينتثر على الاكمام مثل الخرز الدقيق ، بل حتى هذا الرذاذ لسرعان ما انقطع ، وسكن الهواء فكأنه فقد من هذا العالم ، وكل صوت لا يطير بل ينتشر ، وفي البعيد تكاثف ضباب اغبر ، وتضوع في الهواء عبير الخزامى وأزهار الاكاسيا البيضاء .

وفي الشوارع ، لم تكن الدكاكين قد فتحت ابوابها ، ولكن ظهر فيها بعض العابرين ، وبين الحين والآخر كانت تقعقع عجلات عربة منفردة ... اما الحديقة فكانت خالية من رواد النزهة ؛ هناك البستاني ، وكان ينكش الممر بمجرفته في تراخ ، وعجوز بمعطف من الجوخ الاسود كانت تظلع خلال الطريق . لم يشبِّه لسانين لحظة أن هذه المسكينة جيما ، ولكن قلبه ضج في صدره لمرآها ، وراح يتابعها بنظره في انتباه وهي تبتعد عنه حتى اصبحت نقطة سوداء .

دقت ساعة البرج سبع دقات !

وتوقف سانين . ـ أيحتمل ألاّ تأتي ؟ فاذا رعدة برد تسري فجأة في جسمه ، ثم شعر بهذه الرعدة بعد لحظة ،

ولكن من جرّاء سبب آخر ، فقد سمع سانين خطوات خفيفة من خلفه ، وحفيف ثوب نسائي ... فالتفت الى وراء : فكانت هي !

أقبلت جيما وراءه خلال الممر . كان عليها شال رمادي وقبعة غامقة غير كبيرة ؛ نظرت الى سانين ثم التفتت برأسها الى ناحية ثانية ، ولما حاذته أسرعت في سيرها مبتعدة عنه ، فناداها بصوت مهموس :

ــ جيما .

فأومأت اليه بحركة خفيفة من رأسها وتابعت سيرها الى الامام ، فتبعها .

كان لاهث الانفاس ، تكاد قدماه لا تطاوعانه الا في عسر .

جازت جيما بالعريشة منعطفة الى اليمين ، ومرت بحوض صغير مسطح يطبطب في مائه عصفور ، ثم دارت من وراء مسكبة مشجرة بأشجار الليلك العالية ، وجلست على دكة خشبية في هذا الركن المريح المحتجب ، وجلس سانين الى جنبها .

مرت دقيقة ــ لم ينطق خلالها هو ولا نطقت هي بكلمة ، بل انها لم تنظر اليه . ونظر هو اليها ، ولم ينظر في وجهها بل نظر في يديها المشتبكتين على مظلة صغيرة . وما عسى ان يقولا ؟ وأي كلام افصح في التعبير من وجودهما في هذا المكان على انفراد في هذه الساعة المبكرة على مثل هذا التداني احدهما من الآخر ؟

ما لبث سانين ان قطع حبل الصمت فقال :

ــ هل انت غاضبة مني ؟

لقد تعذر على سانين ان يقول شيئا اكثر سخفا من هذه الكلمات ... كان يعرف هذا ، ولكنهما خرجا عن الصـ ، في كل حال . أجابت :

ــ انا ؟ لماذا ؟ لا .

فأضاف :

ــ وهل تثقين بي ؟

ـ ـأتقصد بما كتبت ؟

ـ نعم .

فخفضت جيما رأسها من غير ان تجيب ، وأفلتت المظلة من يدها ولكنها أدركتها قبل ان تقع على الارض . وصاح سانين :

ـ آخ ، صدقيني ، ثقي بما كتبته اليك .

تبدد تهيبه فجأة وأخذ يتكلم في حماسة :

ـ ان كان على الارض حقيقة مقدسة لا ريب فيها فهي اني احبك ، احبك وانا مدله بحبك يا جيما .

فرمقته بنظرة جانبية ـ وكادت المظلـــة تسقـــط مرة ثانية ، فقال مؤكدا :

ـ ثقي ، ثقي بي .

ومد اليها يديه متضرعا من دون ان يجرؤ على لمسها .

ـ ماذا تريدين مني ان افعل لاقنعك ؟

فعادت تنظر اليه ، ثم قالت :

ـ قل لي يا monsieur Dimitri ، لما اقبلت عليّ منذ ثلاثة أيام لتقنعني ـ أكنت وقتئذ لا تعرف ... ولا تشعر ...

فتابع سانين قائلا :

ـ بلى كنت أشعر ، ولكني لم أعرف ، لقد أحببتك لحظة رأيتك أول مرة ـ ولكني لم أدرك وقتئـــذ موقعـــك عندي ! ثم اني سمعت بأنك مخطوبة ، وأنك بسبيل الى الزواج ... اما بخصوص ما كلفتني به والدتك ، فهل كنت قادرا على رفض طلبها اولا ؟ ثم اني أديت المهمة ـ ثانيا ـ **على نحـــو** تستطيعين فيه ان تحدسي ...

بلغ سمعهما صوت خطوات ثقيلة ، وظهر سيد ممتلئ الجسم يحمل حقيبة وراء ظهره ، ويبدو انه اجنبي ، ثم برز لهما من وراء المسكبة ، وارسل من قمة رأسه الى الجالسين على المقعد هذه النظرة المتطفلة التي تعودها السياح ، وسعل بصوت عال وهو يتابع طريقه .

وقال سانين حينما خف وقع الخطوات الثقيلة :

ـ لقد انبأتني أمك بأن رفضك سيحدث فضيحة (عبست جيما قليلا) ، واني بالذات أعطيت لألسنة السوء ولو شيئا مما تتذرع به ، واني بالتالي أحمل نصيبا من الواجب في اقناعك بعدم فسخ الخطبة بينك وبين خطيبك السيد كلوبير .

فقالت جيما وهي تمسد شعرها بيدها من الجهة التي يجلس فيها سانين :

ـ Monsieur Dimitri ، لا تسمه خطيبي ، أرجوك ؛ لن اكون زوجة له ، وقد أعلنته برفضي .

ـ أأعلنته ؟ متى ؟

ـ امس .

ـ في وجهه بالذات ؟

ـ في وجهه بالذات حينما جاء يزورنا .

ـ جيما ! هذا معناه انك تحبينني ؟

فاستدارت اليه ، وقالت في همس :

ـ أكنت أجيُ الى هنا لولا ان الامر كذلك ؟

وسقطت كلتا يديها على المقعد .

فأخذ سانين بيديه هاتين الراحتين الضعيفتين المفتوحتين ، ورفعهما ضاغطا بهما على عينيه وشفتيه ... ها هي ذي اللحظة التي انحسر فيها الستار الذي تراءى له امس ! وها هي ذي السعادة ، وها هو ذا محياها المتألق !

رفع رأسه قليلا ونظر الى جيما ـ مباشرة وبجرأة . ونظرت اليه ايضا ، من اعلى الى ادنى ، بعينين مسبلتين ، تلمعان قليلا بما استفاض فيهما من دموع الغبطة . اما وجهها ، فلم يكن يبتسم ... لا ! كان يضحك ، وكان يضحك من غبطة أيضا ومن غير صوت .

أراد أن يجذبها الى صدره فانحرفت عنه وهي لا تزال تضحك ضحكتها الصامتة وتوميُ برأسها رفضا ، وبدا كأن عينيها السعيدتين تقولان : « انتظر » ، فصاح سانين :

ـ اوه جيما ! أكان يخطر ببالي انك ستحبينني ؟

(ارتعش قلبه مثل الوتر لما لفظت شفتاه اول مرة «انك !» هذه) * .

فقالت جيما بصوت يكاد لا يسمع :

ــ وانا بالذات لم انتظر ذلك .

واضاف سانين :

ــ اكان يخطر ببالي لما وصلت الى فرانكفورت ، حيث ظننت انني سأمكث بضع ساعات ، انني سأعثر هنا على سعادة الحياة كلها ؟

فسألته جيما ؟

ــ الحياة كلها ؟ هل انت متأكد ؟

فقال سانين في فورة جديدة :

ــ كل الحياة ، وعلى مدى العمر ، والى الابد !

أخذت مجرفة البستاني فجأة تنقر في الدرب على بعد خطوتين من المقعد الذي يجلسان عليه ، فهمست جيما :

ــ لنذهب الى البيت ــ لنذهب معا فهل تريد ذلك ؟

لو انها قالت له في هذه اللحظة : «ألق بنفسك في البحر ــ **هل تريد** ؟» ، لطار مندفعا الى الهاوية قبل ان تأتي على آخر كلمة .

وغادرا الحديقة متوجهين الى البيت لا من خلال شوارع المدينة بل من خلال اطرافها .

٢٨

لم يرفع سانين بصره عن جيما ، ولم ينقطع عن الابتسام ، وهو يسير الى جانبها تارة ويتخلف عنها تارة اخرى . كانت تبدو انها تعجل في خطواتها تارة وتتوقف تارة اخرى ، ومجمل القول انهما كانا يسيران الى امام كأنهما

---

* يقصد المؤلف ان المخاطبة كانت تجري بينهما بضمير الجمع قبل ان يزيل الحب مظاهر الكلفة بين المحبين . (**المترجم**) .

يسبحان في الضباب . كان شاحبا كل الشحوب ، وكانت هي متوردة من الانفعال ، فأن ما فرغا منه منذ لحظات — حين وهب كل منهما قلبه الى الآخر ، كان قوياً جديداً رهيباً الى حد تبدل فيه فجأة كل ما في حياتهما وانقلب ، وتعذر عليهما ان يفيقا الى نفسيهما ؛ كل ما ادركاه ان عاصفة فاجأتهما ، تشبه تلك العاصفة الليلية التي كادت تلقي بكل منهما في احضان الآخر . مشى سانين وهو يشعر بان نظرته نفسها الى جيما قد تغيرت : فقط لحظ في لمحة عين بضع سمات في مشيتها وحركاتها ، — فيا آلهي ! ما أغلى هذا وما أعزّه عنده ! كانت تشعر هي بانه يرمقها **بهذه** النظرة .

أنهما ، سانين وهي ، يعرفان الحب اول مرة ، فاذا كل معجزات الحب الاول تهبط عليهما . وما الحب الاول ؟ — انه يشبه ثورة : تنفجر فيها هذه الرتابة المتواترة التي تصوغ الحياة اليومية وتتحطم في لحظة واحدة ، ويقف الشباب وراء المتاريس — يرفرف علمه المشرق عاليا ، وسواء كان في انتظاره — الموت او الحياة الجديدة — فانه يقابل ما يلقاه امامه بتحيته الملتهبة .

قال سانين :

— من يكون ؟ أليس هذا شيخنا ؟

وأشار باصبعه الى جسم ملتف بثيابه كان يمرق مسرعا مجانبا كأنه يحرص على ان يبقى بعيدا عن العيون . ففي هذا الفيض من الغبطة شعر سانين بالرغبة في ان يتحدث الى جيما بموضوع آخر غير موضوع الحب الذي اصبح مؤكدا مقدسا لا ريب فيه .

فأجابت بلهجة مرحة سعيدة :

— نعم ، هذا بانتاليوني ، أظن انه خرج من البيت في اثري ، وكان طوال اليوم الفائت وراء كل خطوة من خطواتي . . . لقد حزر !

فردد سانين في ابتهاج ، — وهل من كلمة قالتها جيما لم تبعث فيه الابتهاج ؟

— لقد حزر !

ثم طلب منها ان تقص عليه كل مـــا حدث في اليوم الفائت .

فأسرعت الى الحديث في لهوجة واعجال وهي تبتسم وتتنهد وتبادل سانين نظرات قصيرة مضيئة ، فروت عليه : أن امها بعد الحديث الذي جرى قبل يومين ، جهدت في ان تحصل منها ، من جيما ، على جواب ، وانها افلتت من فراو لينوري تلقاء وعد بأن تعلنها برأيها خلال اربع وعشرين ساعة ، وان اضطلاعها بهذا الوعد كبدها كثيرا من المشقة ، ثم ان السيد كلوبير جاءهم على غير توقع ، وهو مترصن متحصن مقولب أكثر مما كان من قبل ، وانه عبر عن سخطه على نزوة الروسي الغريب الصبيانية التي لا تغتفر (هذا ما قاله بالحرف الواحد) ، فأنها — وكان يقصد مبارزتك — اهانة عميقة الاثر له ، لكلوبير — وطالبنا بأن نطردك من البيت : « لأن هذا — قال هو — وهنا حاولت جيما قليلا ان تقلد صوته وحركاته — يلقي ظلا على شرفي ، فكأنني لم أقدر على الدفاع عن خطيبتي حينما وجدت ان ذلك قاطع ناجع ! وستعرف فرانكفورت غدا ان غريبا قاتل ضابطا في سبيل خطيبتي ، فما معنى هذا ؟ انه اساءة لشرفي ! » . فتصور ، كانت ماما تؤيده فيما قال وكلني انبأ فجأة ان خوفه على شرفه وسمعته غير ذي موضوع ، ولن تلحق به اهانة من جراء التقوّل على **خطيبته** ، لأني لست خطيبته بعد اليوم ، ولن اكون له زوجة أبدا ! ولأعترف بأنني أردت أول الامر ان اتحدث معكم . . . معك قبل أن اعلنه بالقطيعة ، ولكنه جاء . . . ولم اقدر على درء نفسي . واستبد الخوف بأمي فأخذت تصرخ ، أما أنا فقد ذهبت الى الغرفة وجئته بخاتم الخطبة وأعطيته اياه — ولعلك لم تلحظ انني نزعت هذا الخاتم منذ يومين ، كان غيظه شديدا ؛ ولكن أنانيته

وغطرسته المغرقتين فرضا عليه ألآ يتكلم طويلا وان يذهب . فكرت ان الامر يقتضي مني ان اصبر على امي كل الصبر واكون معها طويلة البال ، وآلمني ان أراها على هذا المقدار من الحزن ، وخطر ببالي انني عجلت قليلا ، ولكن رسالتك كانت عندي ، وانا من دونها كنت أعرف . . . —

— انني احبك ، — قال سانين متمما عبارتها .

— نعم ، انك . . . وقعت في حبي .

هذا ما قالته جيما ، وكانت تتحدث بعبارة مشوشة ، وهي تبتسم ، وتخفض صوتها في الحديث ، او تسكت عن القول كلما أقبل عابر سبيل او مرّ بهما . اما سانين فكان يستمع اليها معجباً مذهولا متلذذا برنين صوتها كما كان مفتونا في اليوم الفائت بخط يدها .

وعادت جيما تقول بكلمات متدفقة يزاحم بعضها البعض :

— امي في كرب عظيم ، فانها لا تريد ان تسيغ ، بأي صورة من الصور ، ان السيد كلوبير يملك ما يبعثني على المقت ، وانني استجبت لطلبه بدافع من الحاحها الشديد لا بدافع من حب . . . وهي تنظر اليكم . . .اليك . . . بعين الارتياب — والوقع ، من دون لف ودوران ، انها أيقنت انني احبك ، فكان هذا شديد الوقع في نفسها ، لان مثل هذا الخاطر لم يخطر ببالها قبل يومين ، حتى انها كلفتك بأن تقنعني ، فياله تكليفا عجيبا ، أليس كذلك ؟ والآن ، انها تراك . . . تراكم جديرا ان تلقب بالخبيث الماكر ، وتقول بأنك كذبت ثقتها بك ، وتتنبأ بانك ستكذب عليّ . . .

فصاح سانين :

— جيما ، ألم تقولي لها ؟ . .

— لم اقل لها شيئا ! فأي حق كان لني في ان أقول قبل ان اتحدث اليك ؟

فأسبل سانين يديه :

— جيما ، ارجو ان تصارحيها الآن على الاقل . . . ان

تقوديني اليها . . . اريـــــد ان أبرهن لأمك على اني لست كذابا !

كان صدر سانين يعلو وينخفض من توقد العـواطـف الكريمة والاحاسيس الملتهبة .

ونظرت اليه جيما بما وسعت عيناها .

— أواثق انك تريد الآن ان تجيء مـعـي الى امـي ؟ امي التي توقن ان . . . ان كل ما بيننا مستحيل ، وانـه لن يسفر عن شيء ؟

كانت هناك كلمة تحرق شفتي جيما ولا تجد القوة على النطق بها ؛ ولكن سانين قالها بطيبة خاطر :

— عن الزواج بك يا جيما ؟ ان منتهي الغبطة ان اكون لك زوجا !

لم يكن لغرامه ولا لشهامته ولا لعزيمته حدود يعرف انها تنتهي عندها .

لما سمعت جيما هذه الكلمات تحركت بسرعة بعد ان توقفت قبيلها لحظة عن السير . . . فكأنها تلتمس الفرار من هذا الفيض المفاجئ من السعادة !

ولكن ساقيها تخاذلا على حين غرة ، فقد برز السـيـد كلوبير من زاوية الزقاق على بضع خطوات منها ، وهـو في قبعة جديدة ومعطف جديد ، مستقيما كالسهم أجعد الشعر مثل الكلب البوديل . لما رأى جيما ورأى سانين بدا كأنه انفجر ضاحكا في سره ، واعتدل الى الوراء بقوامه الاهيف ، واقبل عليهما متبخترا ، فوجم سانين ؛ ولكنه لما نظر الى كلوبير الذي بذل ما بذل من الجهد ليكسو وجهه بمظـهـر الاستخفاف والدهشة بل حتى بمظهر الشفقة ايضا ، ورأى الى هذا الوجه الرقيع المبتذل ، طغى عليه الغضب فجأة — وخطا الى الامام .

أطبقت جيما على يده ، وأعطته يدها الثابتة المطمئنة وهي تغرز بصرها في وجه خطيبها السابق . . . فوصوص هذا

عينيه ، وتضاءل ، ومر بهما مرٌ المجانب وهو يتمتم من خلال اسنانه المطبقة : «النهاية المألوفة لكل اغنيــة !» („Das alte Ende vom Liede!“) ، وابتعد متبخترا وهو ينطنط قليلا .

فسألها سانين :

– ماذا قال هذا النذل ؟

وهمٌ بأن يندفع في اثر كلوبير ، ولكن جيما أمسكت به ، وسارت معه مبتعدة وذراعها لا يزال مشبوكا بذراعه .

لما ظهر امامهما دكان ورزيللي توقفت جيما مرة ثانية وقالت :

– Dimitri, monsieur Dimitri ، اننا ما نزال هنـــا لم ندخل البيت ولم نقابل ماماً . . . فاذا أردت مزيدا من التروي في الامر . . . واذا . . . فـانـك لا تـزال حـرا يـا ديميتري .

كان جواب سانين انه ضغط بيدها على صدره بقوة ، وجذبها من هذه اليد الى امام .

قالت جيما وهي تدخل مع سانين الغرفة التي تجلس فيها فراو لينوري :

– لقد جئتك بالرجل الحقيقي !

٢٩

لو أن جيما أعلنت انها جلبت معها الكوليرا او الموت نفسه ، لما كانت فراو لينوري اكثر قنوطا مما أَلمّ بها لما تلقت هذا النبأ . أسرعت تجلس في زاوية الغرفـــة راحت بوجهها الى الحائط وغرقت بدموعها ، بل انـهـا طـفـقـت تندب ، فكانت من دون زيادة ولا نقصان مثل فلاحة روسية على تابوت زوجها او ابنها . بلغت الحيرة بجيما في اللحظة الاولى انها لم تهرع الى امها بل وقفت كالتمثال في وسط الغرفة ؛ اما سانين فقد طاش صوابه جملة حتى لقد تهيأت

نفســه لذرف الدموع ! ساعة كاملــة ! استمر هذا البكاء الذي جلّ عن كل عزاء ، ساعة كاملة ! وفكر بانتاليوني ان الخير في ان يقفل باب الدكان منعا لدخول غريب ـ ومـــن حسن الحظ ان الساعــة مبكرة . لقد شعر الشيخ نفســه بالحيرة ، فانه لم يحبذ في ما جرى هذا الاسراع الذي لجأ اليه سانين وجيما ، ولكنه لم يخطر بباله ان يدينهما ، بل انه كان مستعدا لنصرتهما وأخذهما برعايته عند الاقتضاء ، فان كراهيته لكلوبير شديدة ! وكان اميل يحسب نفسه وسيطا بين صديقه وشقيقته - فشعر ببعض الزهو من ان هذا كله انتهى الى نهاية رائعة ، ولم يكن في وسعـــه ان يفهم لماذا اكتوبت فراو لينوري هذا الكرب ، وفكر في قلبه ان النساء حتى احسنهن تعقلا وحكمــة يعانين من نقص في العقل والحكمة . كان سانين أسوأهم حالا ، فقد كانت فراو لينوري تصرخ من رأسها وتلطم بيديها كلما همّ بالاقتراب منها ، ولم يجده نفعا انه عمل على ان يبقى بعيدا وصاح بضع مرات بصوت عال : « اني اطلب يد ابنتك ! » . لقد انصب غضــب فراو لينوري على نفسها بالذات : « كيف عميت عن هذا ولم أتبصر شيئا ؟ » وأكدت من خلال الدموع: « لو ان جيوفاني باتيستا حي يرزق لما حدث شيء مـــن هذا ! » - وفكر سانين : « ياآلهــي ما هذا ؟ لا شك انه غايــة السخف ! » . لم يجد في نفســه الجرأة على النظر الى جيما ولا هـــي اعتزمت أن ترفع اليه عينيها . لقد حزمت أمرها على المصابرة فأقبلت تعنى بأمها ، ولكن امها صدتهـــا في البداية عن نفسها كما صدت غيرها . . .

ثم انتهت العاصفة شيئل فشيئـــا الى الهدوء ، فأمسكت فراو لينوري عن البكاء ، وأذنت لجيما ان تأخذ بيدهـــا من الركن الذي كانت تنزوي فيه وتجلسها في مقعد قريب من النافذة ، وان تعطيهـــا للشرب ماء معطرا بعطر البرتقال ، وسمحت لسانين ـ لا ، لم تسمح لـــه بأن يقترب منها ، اوه ، لا ـ وانما سمحت له بما قلّ ، بأن يبقى في الغرفـــة

(وكانت تصر من قبل على ان يذهب) وأمسكت عن قطع سبيل الكلام عليه كلما بدأ . وانتهز سانين فرصة الهدوء المخيم فأظهر البديع الرفيع من فصاحة اللسان : وما كان ليستطيع الا في عسر ان يعرض على جيما نفسها ما كان يعتزمه ويشعر به بمثل ما اظهر وقتئذ من توقد الحماسة وقوة الاقناع ، كانت هذه المشاعر هي النيات نفسها ، والنيات طاهرة نقية كما هي عند آلمافيفا في «حلاق اشبيلية» . — ولم يخف على فراو لينوري ولا على نفسه وجوه الغبن في هذه النيات ، ولكنه غبن سطحي : فالحقيقة انه أجنبي ، لم يتعرف اليهم الا منذ وقت قريب ؛ هم لا يعرفون شيئا قاطعا مانعا عن احواله الشخصية والمالية ، ولكنه مستعد لتقديم كل ما يؤكد أنه ذات محترم ميسور الحال ، مع الاشارة الى كثير من الشهود الموثوق بهم من مواطنيه ! — ويأمل في ان تكون جيما سعيدة معه ، وان يقدر على تعويضها بالمسرة بدلا من فراق الاهل ! . . . — كادت الاشارة الى الفراق بهذه الكلمة ان تخرب العملية كلها . . . فقد اهتز بدن فراو لينوري اي اهتزاز ، ونبا بها المقعد . . . فأسرع سانين الى القول بان الفراق سيكون وقتيا ليس غير ، وقد لا يكون في النهاية فراق على الاطلاق .

لم تذهب فصاحة سانين نفخة في رماد ، فقد بدأت فراو لينوري تنظر اليه ، ولئن لم تخل نظرتها من الحسرة واللوم ، فانها خلت مما كان فيها من النفور والغضب ؛ ثم انها أذنت له بالاقتراب منها ، بل أذنت له بالجلوس الى جنبها ايضا (وكانت جيما جالسة في الجانب الآخر) وأخذت تعاتبه بالكلمات بعد النظر مما دل على ان قلبها بدأ يلين ، واخذت تتشكى ولكن شكواها اصبحت خافتة هادئة . وتناوبت شكاواها مع أسئلتها التي كانت توجهها الى كل من سانين وجيما ؛ ثم سمحت له بان يسندها من يدها ولم تسحب يدها في الحال . . . وما لبثت ان عادت الى البكاء — ولكن بدموع مختلفة كل الاختلاف عن الدموع التي ذرفتها منذ

قليل . . . ثم ابتسمت في أسى وتحسرت على غياب المرحوم جيوفاني باتيستا ولكن ليس بالمعنى السابق . . . وانقضت لحظة اخرى – فأذا المذنبان سانين وجيما كلاهما راكع على ركبتيه امامها ، وهي تضع يدها على التتابع فوق رأسيهما ، وانقضت لحظة في اثر اللحظة الماضية ، فاذا هما يعانقانها ويقبلانها ، واميل يجري في انحاء الغرفة مبتهجا متهلل الوجه ، ثم اندفع نحو المتعانقين وارتص معهم في كتلة واحدة .

أطل بانتاليوني على الغرفة ، فابتسم في امتعاض واستدار عائدا الى الدكان يفتح بابه المفضي الى الشارع .

٣٠

حدث الانتقال من القنوط الى الحزن ، ومن الحزن الى «ريزينيتسيا الهادئ» * على نحو سريع عند فراو لينوري ؛ ولكن هذا الاستسلام الهادئ لم يلبث ان صار الى غبطة خفية تكتمت أمرها جملة وكبتتها حفاظا على الوقار . لقد انفتح قلبها لسانين منذ اليوم الاول الذي تعرفت فيه اليه ، واعتادت فكرة أنة سيكون صهرها ، ولم تجد في هذه الفكرة اي شائبة ولكنها حسبت ان واجبها يقضي بان تحتفظ في وجهها ببعض الاشياء . . . او على الاصح بمظهر الهم وانشغال البال ، يضاف الى هذا ان ما حدث في الايام الاخيرة كان بعيدا عن المألوف . . . يحدث دائما كل شيء في آن واحد ! كذلك حسبت فراو لينوري ان واجبها ، امرأة عملية وأما ، يتأداها ان تمتحن سانين بمختلف الاسئلة : اما سانين الذي ذهب في الصباح الى لقاء جيما وهو خالي البال من فكرة الزواج بها – فالحقيقة انه لم يفكر بهذا وقتذاك ، وانما كان منطلقا مع اشواقه فقط – فانه قام بدوره احسن قيام ، بل يمكن القول انه أداه في

* الاذعان للقدر ، الاستسلام (**حاشية المؤلف**) .

حماسة ، وهو دور الخاطب الراغب ، فاجاب على ما طرح عليه من الاسئلة في دقة وتفصيل ورحابة صدر . وبعد ان تحققت فراو لينوري من انه نبيل حقيقي نسبا وأرومة ، واظهرت دهشتها من انه ليس أميرا ، اتخذت هيئة الجد ، و «حذرته مقدما» من انها لن تتحرج معه ولن تتكلف بل ستكون صريحة كل الصراحة – لأن هذا مما يفرضه واجب الامومة ! – وأجاب سانين على قولها بانه لا ينتظر منها غير ذلك ، وانه يرجوها ويلح في الرجاء – ألآ تشفق عليه !

عندئذ قالت فراو لينوري بان الهر كلوبير (لما نطقت بهذا الاسم ارسلت زفرة قصيرة وضغطت على شفتيها وتلعثمت بالكلام) – الهر كلوبير خطيب جيما **السابق** له الآن دخل يبلغ ثمانية آلاف غولدن ، وسيزداد هذا الدخل في كل عام ، فكم يبلغ دخل السيد سانين ؟

– ثمانية آلاف غولدن ، – كرر سانين وهو يمد في صوته – هذا يساوي بعملتنا – ما يقرب من الخمسة عشر الفا روبلات ورقية . . . ان دخلي أقل من هذا كثيرا . عندي ضيعة غير كبيرة في ولاية تولا اذا أحسنت ادارتها أعطت – بل يجب أن تعطي خمسة آلاف او ستة آلاف من الروبلات . . . واذا أخذت بالعمل في وظيفة حكومية – فأني أستطيع في يسر وسهولة ان أحصل على راتب مقداره الفان من الروبلات . صرخت فراو لينوري :

– وظيفة في روسيا ؟ هذا معناه الافتراق عن جيما ! فالتقط سانين الكلام :

– قد أعمل في السلك الديبلوماسي فان لي روابط ببعض النافذيين ، وتكون الوظيفة عندئذ في خارج روسيا ، بل هناك ما يفضل هذا جميعا : بيع الضيعة واستعمال ما نقبضه من المال في عملية رابحة ، كاصلاح شؤون الدكان على سبيل المثال . – كان يشعر سانين بأن ما يقوله كلام فارغ ، ولكن جرأة غير مفهومة عصفت فيه . لما نظر الى جيما ، وكانت منذ ان بدأ الحديث «العملي» لا تستقر على حال ، فهي واقفة ، او

رائحة جائية في الغرفة ، او جالسة ــ لقد تداعت الحدود لما نظر اليها ، واصبح على استعداد لتدبير كل أمر في الحال ، وعلى أحسن الوجوه ، تلقاء عودة السكينة الى نفسها وزوال كل ما بها من القلق . وقالت فراو لينوري بعد قليل من التردد :

– لقد أراد السيد كلوبير ايضا ان يعطيني مقدارا من النقود لتحسين احوال الدكان .

فهتفت جيما بالايطالية :

– ماما ، نشدتك الله !

فأجابت فراو لينوري بالايطالية ايضا :

– ما يقال في مثل هذه الشؤون يجب ان يقال في وقته يا بنتي .

وعادت تلتفت الى سانين لتسأله عن قانون الزواج المعمول به في روسيا ، وما هي المحاذير التي تحول دون الزواج من كاثوليكية كما هي الحال في بروسيا (في ذلك الوقت ، وهو سنة ١٧٤٠ ، كانت المانيا تذكر تلك الضجة التي قامت بين الحكومة البروسية وبين رئيس أساقفة كولونيا حول الزواج المختلط) . لما سمعت فراو لينوري ان ابنتها ستتزوج من نبيل روسي ، وان ابنتها نفسها ستصبح من النبلاء – اظهرت شيئا من الغبطة ، وقالت : – واذن ، يجب عليك ان تذهب أولا الى روسيا ؟

– لماذا ؟

– كيف لا ؟ لتستأذن القيصر .

فأوضح سانين لها ان هذا لا ضرورة له . . . ولكن ينبغي له على التحديد ان يعود الى روسيا قبل الزواج ويقضي وقتا قصيرا (قال هذه الكلمات وقلبه يعتصره الألم – وأدركت جيما انه يتألم حينما نظرت اليه – فتورد وجهها واستغرقت في التفكير) ــ وانه سينتهز فرصة عودته الى بلاده فيحاول ان يبيع ضيعته ... ومهما يكن من الامر فانه سيعود حاملا ما يلزم من النقود .

قالت فراو لينوري :

– ارجوك كذلك ان تحمل اليّ من هناك فراء استراخان للمعطف ، فالمسموع انه هناك مدهش بجودته ورخصه !

فصاح سانين :

– من كل بدّ ، سأحمل هذا الفراء لك ولجيما بكل سرور !

وتصدى اميل للكلام وهو يطل برأسه من الغرفة المجاورة :

– واحمل لي قبعة من الجلد مطرزة بالفضة .

– طيب سأفعل ، وسآتي بانتاليوني بحذاء .

ولاحظت فراو لينوري قائلة :

– ما هذا ؟ اننا نتكلم الآن على امور جدية ، نعم فهناك شيء آخر ايضاً – قالت السيدة العملية – انك تحدثت عن بيع الضيعة ، فما سبيلك الى هذا ؟ هل بات عليك أن تبيع الفلاحين ايضا ؟

شعر سانين بوخزة في جنبه ، وتذكر ما دار بينه وبين السيدة روزيللي وابنتها من حديث عن استرقاق الفلاحين ، الذي يثير على حد قوله غيظا عميق الغور في نفسه ، فذهب يؤكد ويعيد تأكيده ، بأنه لن يبيع فلاحيه في اي حال لانه يعتقد ان مثل هذا البيع عمل غير اخلاقي .

وقال في كلمات متعثرة :

– سأجتهد في ان أبيع ضيعتي من انسان اعرف انه من طرز طيب ، او عسى ان يقدر الفلاحون على افتداء انفسهم .

– هذا احسن حل ، فان بيع البشر . . .

– Barbari*!

صاح بانتاليوني بهذا وهو يطل من وراء اميل خلال الباب ، وهز فروة شعره ثم اختفى .

فكر سانين في نفسه : «هذا سيء !» وهو يسترق نظرة

* برابرة (بالايطالية) .

الى جيما . وبدا انها لم تسمع كلماته الاخيرة ، فاستدرك مفكرا في نفسه ايضا : «واذن لا بأس !» .

استمر الحديث عن الشؤون العملية على هذا النحو حتى حل موعد الغداء ؛ وارتاضت فراو لينوري آخر ، واخذت تنادي سانين باسمه المجرد — ديميتري ، وتهدده باصبعها في لطف ، وتتوعده بالثأر منه تلقاء غدره بها ، وسألته عن تفصيلات كثيرة عن أهله — «لأن هذا على جانب كبير من الأهمية أيضا» ، وفرضت عليه ان يصف لها طقوس الزفاف كما ترسمها تقاليد الكنيسة الروسية — واستسلمت مقدما لنشوة الاعجاب بجيما وهي في الثوب الابيض والتاج الذهبي على رأسها ، وصاحت بزهو الامومة :

— انها جميلة كالملكة — بل ان نظائرها من الملكات لم يخلقن في العالم !

والتقط سانين الكلام فقال :

— لم يخلق في العالم الا جيما واحدة !

— نعم ، ولهذا سميت جيما ! (من المعروف أن جيما باللغة الايطالية معناها الدرة الكريمة) .

اندفعت جيما تقبل امها . . . وبدا انها تستطيع الآن فقط ان تتنفس في حرية وأن عبئا ثقيلا زال عن صدرها . وشعر سانين فجأة بانه في غاية السعادة ، وان مرحا طفليا يملأ قلبه ، منبعثا من هذه الفكرة ، وهي ان أمانيه التي خطرت بباله في هذه الغرفة نفسها قد تحققت ؛ فاذا نفسه تشتعل رغبة في ان يذهب مسرعا الى الدكان ، وكان يتمنى من كل قلبه ان يقف الى منصة البيع هناك كما فعل منذ بضعة ايام . . . «اني كما يقال املك هذا الحق الآن ، فاني واحد من اهل الدار !»

ذهب بالفعل يقف وراء المنصة ، ويقوم باعمال البيع ، فباع ذات مرة من طفلتين طلبتا رطلا واحدا من الملبس فأعطاهما رطلين بدلا من واحد وقبض منهما نصف الثمن فقط .

واقتضت الرسميات ان يجلس اثناء الغداء الى جنب جيما باعتباره خطيبها ، واستأنفت فراو لينوري افكارها العملية ، وكان اميل يضحك بين الوقت والآخر ، وقد رجا سانين ان يستصحبه الى روسيا ؛ ثم استقر الرأي على ان يكون سفر سانين بعد أسبوعين . اما بانتاليوني فانه الوحيد الذي ظهر متجهم السحنة قليلا حتى ان فراو لينوري عرضت به في قولها : « لقد كنت شاهد المبارزة ! » — فقطب وجهه وصار ينظر من تحت حاجبيه .

ركنت جيما الى الصمت اكثر الوقت ، ولكن وجهها لم يبلغ ما بلغه وقتئذ من الملاحة والاشراق ، ثم دعت سانين بعد الغداء الى دقيقة يقضيانها في الحديقة ووقفت هناك عند المقعد الذي كانت تنتقي عليه الكرز وقالت :

— ديميتري لا تغضب مني . ولكني أريد ان أذكرك مرة ثانية بأنك غير مضطر الى حسبان نفسك مقيدا بشيء .

لم يعطها فرصة للاستمرار في الكلام . . .

وادارت جيما وجهها .

— اما بخصوص ما لمحت امي اليه — أتذكر ؟ — عن اختلاف مذهبينا فها هو ذا . . .

واجتذبت صليبا من العقيق الاحمر معلقا حول عنقها بشريط دقيق ، فقطعته بنترة شديدة ، وقدمت اليه الصليب .

— ما دمت لك — فأن مذهبك مذهبي !

لما عاد سانين مع جيما الى البيت كانت الدموع لا تزال آثارها في عينيه .

ثم جاء المساء ، فاذا كل شيء يذهب في مجراه الطبيعي ، حتى انهم لعبوا بالورق لعبة « التريستي » .

٣١

استيقظ سانين مبكرا في صباح اليوم التالي . كان في قمة الهناءة الانسانية ، ولكن لم يكن هذا الذي أقض مضجعه ، وانما هو موضوع حيوي ، موضوع محتوم : ما السبيل الى

بيع ضيعته ، بأسرع وقت ، وأنسب ثمن ؟ هذا ما كان يعكر اطمئنانه ؛ وقد تعارضت في رأسه مشروعات شتى من غير ان يكون بينها مشروع واضح راجح ؛ ثم غادر مسكنه لاستنشاق الهواء النقي ، وأراد ألاّ يمثل امام جيما الاّ بمشروع جاهز ، لا غير .

لمن هذا الجسم الذي يسير امامه ثقيل الوزن غليظ الاطراف ولكنه حسن الهندام ، وهو يتمايل قليلا ويظلع ؟ واين رأى هذا القذال الذي تتدلى منه هذه الخصل الشهباء ، وهذا الرأس الذي يبدو كأنه لاصق بالكتفين ، وهذا الظهر الشحيم اللحيم اللين ، وهاتين اليدين المنتفختين المسترخيتين ؟ أليس هذا بولوزوف زميل الدراسة القديم الذي اضاع سحنته منذ خمس سنين ؟ أسرع سانين حتى اجتاز بالجسم الذاهب ثم التفت ... فاذا وجه عريض مصفار ، بعينين صغيرتين خنزيريتين ، وشعر ابيض في الحاجبين والرموش ، وانف قصير مسطح ، وشفتين غليظتين مصمغتين ، وذقن حليقة مدورة . أمّا سيمة هذا الوجه جميعا ، فانها حامضة ، كسلى ، مرتابة ــ نعم ، هذا هو بالذات : ايبوليت بولوزوف!

«أليس معنى هذا ان نَجمي يثبت وجوده مرة ثانية ؟» ــ ومضت هذه الخاطرة ببال سانين .

ــ بولوزوف ! ايبوليت سيدوريتش ، أهذا أنت ؟

فتوقف الجسم ، ورفع عينيه الصغيرتين ، وانتظر قليلا ــ ثم شق شفتيه الملتزقتين ، وقال بصوت أجش :

ــ ديميتري سانين ؟

فصاح سانين :

ــ هو بالذات !

وصافح احدى يدي بولوزوف المحشورتين في قفازين رماديين من جلد الماعز ، وهما كالعهد بهما مسترخيتان على جنبيه من غير حياة . ــ أأنت هنا منذ وقت طويل ؟ من اين قادم ؟ واين تقيم ؟

فاجاب بولوزوف في بطء :

ـ وصلت من فيسبادن امس ، في شراء اشياء لزوجتي ، وسأعود الى فيسبادن اليوم .

ـ آه ، نعم ، انت متزوج ، ويقولون ان زوجتك حسناء وأي حسناء !

فقال بولوزوف وهو يدير وجهه :

ـ نعم هذا ما يقولونه .

فضحك سانين :

ـ أرى انك لا تزال عديم الاكتراث كما كنت على ايام المدرسة .

ـ ولماذا أتغير ؟

ـ ويقولون ـ شد سانين على كلمة «يقولون» ـ ان زوجتك واسعة الثراء .

ـ يقولون هذا ايضا .

ـ وانت يا ايبوليت سيدوريتش ، ألا تعلم هذا ؟

ـ انني يـــا اخ ديميتري ... بافلوفيتش ؟ اي نعم بافلوفيتش ! لا أتدخل في شؤون زوجتي .

ـ لا تتدخل ؟ ولا في اي شأن آخر ؟

فطرف بولوزوف بعينيه :

ـ ولا في اي شأن آخر يا أخ . انها في حالها ، وانا في حالي .

فسأله سانين :

ـ والى اين ذاهب انت الآن ؟

ـ لا أذهب الآن الى اي مكان ، وانما أقف في الشارع ، وأبادلك الحديث ، وعندما نفرغ من بعضنا البعض ، سأحمل نفسي الى الفندق لأتناول طعام الفطور .

ـ أتريدني في رفقتك ؟

ـ أتقصد رفقتي على الفطور ؟

ـ نعم .

ـ تفضل ، فالطعام مع رفيق أهنأ . هل انت قليل الكلام ؟

ـ اعتقد ذلك .

ـ واذن اتفقنا .

فتحرك بولوزوف الى الامام وهو يلهث ويتمايـل ، والتزقت الشفتان الغليظتان ، فكر سانين وهو يسير الى جانبه : بأي وسيلة استطاع هذا البليد ان يقتنص زوجة جميلة غنية ؟ فما هو بالغني ولا باللامع ولا بالذكي ، كان معروفا في المدرسة بانه ولد راكد الهمة والذهن نؤوم أكول ، لقبه الشائع «أبو ريال» * ـ انها لمعجزة !

«ولكن اذا كانت زوجته واسعة الثراء ـ ويقال انها بنت واحد من المتعهدين ـ أفلا تشتري ضيعتي ؟ لقد زعم انه لا يتدخل في شؤون زوجته ، ولكن هذا لا يصدق ! فوق هذا سأعرض ثمنا ملائما مغريا ! فلماذا لا أحاول ؟ لعل هذا دليل على ان نجمي يثبت وجوده ، فلنعزم ، ونجرب !»

سار بولوزوف بسانين الى واحد من أحسن فنـادق فرانكفورت ، وطبيعي انه احتجز احسن غرفة فيه . كانت العلب والصناديق والصرر متكوّمة على المناضد والمقاعد ... «كل هذه المشتريات يا أخ تخص ماريا نيقولاييفنا !» (وهو اسم زوجة ايبوليت سيدوريتش) ، وارتمى بولوزوف على مقعد وهو يئن : «يا له من قيظ !» حل رباط عنقه ، ثم قرع الجرس يدعو الوصيف ، واوصاه في عناية ان يهيئ فطورا سخيا . «يجب ان تكون العربة جاهزة ـ اسمع ، في تمام الساعة الواحدة !»

فانحنى الوصيف في خنوع ، وتوارى كالعبد .

حل بولوزوف ازرار صدرته . كان في مظهره حين ارتفع حاجباه ، وضاق نفسه ، وتغضن خطمه ، ان الكلام سيكون عبئا ثقيلا عليه ، وانه يستشعر بعض القلق من ان يضطره

---

* الريال ـ اللعاب . **(المترجم)** .

سانين الى تحريك لسانه ، او لعله ان يحمل عنه كل اعباء المحادثة .

فهم سانين مزاج صاحبه فأمسك عن ارهاقه بالاسئلة ، واقتصر على الضروري منها فعرف : انه قضى في الخدمة العسكرية (في سلاح الفرسان ! فياسلام على اللباقة واللياقة وهو في السترة العسكرية القصيرة !) وتزوج منذ ثلاث سنين ، وهذه السنة الثانية التي يقضيها مع زوجته في الخارج «وهي الآن تستشفي من شيء ما في فيسبادن» ، وسترحل بعدئذ الى باريز . لم يستفض سانين من جهته في الحديث عن حياته الماضية وعن مشاريعه ، بل دخل لب الموضوع ، وتحدث عما يهمه وهو بيع ضيعته .

كان بولوزوف يستمع اليه صامتا ، وينظر بين الحين والآخر الى جهة الباب حيث ينبغي ان يأتي الفطور ، ثم جاء الفطور أخيرا . ظهر الوصيف ومعه اثنان من الخدم وقد حمل عددا من الاطباق بأغطية من الفضة . وقال بولوزوف وهو يجلس الى المائدة ويضع فوطة في ياقة قميصه :

ـ هل تقع ضيعتك في ولاية تولا ؟

ـ في ولاية تولا .

ـ انها في منطقة يفريموف ... أعرف ...

فسأله سانين وهو يجلس ايضا الى المائدة :

ـ أأنت تعرف ضيعتي في قرية الكسييفكا ؟

ـ وكيف لا أعرف ؟ ـ وحشر بولوزوف في فمه لقمة من البيض المقلي بالكمأة ، ـ تملك زوجتي ماريا نيقولاييفنا ضيعة في جوارها .... ـ أيها الوصيف ، افتح هذه الزجاجة ـ الارض كبيرة ولكن فلاحيك قطعوا الغابة ـ لماذا تريد ان تبيع ضيعتك ؟

ـ انها الحاجة الى النقود يا أخ ، وانا مستعد للبيع بثمن بخس ، فلعلك ان تشتريها ... انها فرصة طيبة .

ابتلع بولوزوف كأسا من النبيذ ومسح شفتيه بالفوطة وعاد يمضغ في بطء وشقشقة ، ثم قال :

ــ ن ... نعم ، ــ انا لا أشتري الضيع : ليس عندي نقود ــ ناولني الزبدة . لعل زوجتي تستطيع ان تشتري ، فتحدث اليها ، واذا عرضت ثمنا معقولا فانها لا تتعفف ... ولكن ما طينة هؤلاء الالمان ــ حمير ! لا يستطيعون ان يقلوا سمكة وهذا من أبسط الامور ، ثم يتحدثون فوق هذا عن : « توحيد الاراضي الالمانية » ، يا وصيف ، ارفع هذه القطاعة .

سأله سانين :

ــ اتقصد ان زوجتك تشرف بالذات على ... ادارة املاكها ؟

ــ هي بالذات ، ــ هذه الشرائح جيدة ، أوصيك بأن تذوقها . قلت لك يا ديميتري بافلوفيتش اني لا أتدخل في شيء من شؤون زوجتي ، وأعيد عليك الآن ما قلت من قبل .

واستأنف بولوزوف المضغ .

ــ هم ... ولكن كيف السبيل الى الحديث معها يا ايبوليت سيدوريتش ؟

ــ هذا بسيط للغاية يا ديميتري بالفلوفيتش . سافر الى فيسبادن ، فهي غير بعيدة عن فرانكفورت . يا وصيف ، هل عندكم خردل انكليزي ؟ لا ؟ بهائم ! ولكن عليك ألاّ تضيع الوقت فأننا راحلون بعد غد . اسمح بان أملأ قدحك : النبيذ المنتقى يخلو من الحموضة .

دبت الحيوية في وجه بولوزوف وتضرج بالاحمرار ، فهو لا ينتعش الا حينما يأكل ... او يشرب .

وتمتم سانين :

ــ الحقيقة انّي لا أعرف السبيل الى تحقيق هذه الغاية .

ــ وما هذا الامر الذي استعجلك فجأة ؟

ــ لديّ ما يعجلني يا أخ .

ــ هل تحتاج الى كثير من المال ؟

ــ الى كثير منه ، فأني ... كيف أشرح لك ؟ لقد اعتزمت ... ان أتزوج .

وضع بولوزوف القدح على المائدة وكان قد رفعه على شفتيه ، وصاح بصوت يحشرج من الدهشة :

ـ تتزوج ؟

وأضاف بالصوت نفسه وهو يضع يديه المنتفختين على بطنه :

ـ أهكذا على جناح السرعة ؟

ـ نعم ... على جناح السرعة .

ـ الخطيبة ـ في روسيا بطبيعة الحال ؟

ـ ليست في روسيا ، لا .

ـ اين هي اذن ؟

ـ هنا في فرانكفورت .

ـ وممن تكون ؟

ـ ألمانية ؛ لا ، بل انها ايطالية تعيش هنا .

ـ ذات مال ؟

ـ من غير مال .

ـ معنى هذا ان الحب عنيف جدا ؟

ـ يا لك مضحكا ! اي نعم عنيف .

ـ ومن أجل هذا تحتاج الى النقود ؟

ـ أي نعم ... نعم ، نعم .

ابتلع بولوزوف النبيذ ، وتمضمض وغسل يديه وجففهما بالفوطة في عناية ، وأشعل سيجارا . وكان سانين ينظر اليه صامتا .

وغمغم بولوزوف اخيرا وهو يلقي برأسه الى الوراء وينفث الدخان في خيط رفيع :

ـ امامك وسيلة واحدة . قابل زوجتي ، فاذا ارادت مسحت مصيبتك باليد .

ـ طيب ، ولكن ما السبيل الى رؤية زوجتك وانت تقول انكما مسافران بعد غد ؟

أغمض بولوزوف عينيه ، ثم قال وهو يدير السيجار بين شفتيه ويتنهد :

ـ أتعرف ما سأقوله لك ؟ اذهب الى مسكنك ، وجهز نفسك بسرعة ـ وعد الى هنا . سأرحل في الساعة الواحدة ، فعربتي رحبة وأستطيع ان آخذك معي . هذا أحسن حل . والآن أريد ان أنام ، فاني يا أخ لا أكاد آكل حتى أطلب النوم . حكم الطبيعة وأنا لا أعارض فيه ؛ وعليك ألاّ تزعجني .

فكر سانين وفكر ، ثم رفع رأسه فجأة وقال في حزم :

ـ طيب وافقت ، وانا شاكر لك هذا . سأكون هنا في منتصف الساعة الواحدة ، ونرحل معا الى فيسبادن . فأتمنى ألاّ تغضب زوجتك .

ولكن بولوزوف كان يهوّم ، وتمتم مستعطفا : «لا تزعجني !» وهز رجليه وهو ينام مثل الطفل الرضيع .

عاد سانين ينظر اليه جملة ، الى جسده الهائل ، الى رأسه ، الى عنقه ، الى ذقنه المستديرة كالتفاحة ، المرفوعة الى اعلى ، وغادر الفندق بخطوات مسرعة قاصدا دكان روزيللي ، فقد كان لا بد من أن يحمل هذا النبأ الى جيما .

٣٢

وجدها في الدكان مع أمها . كانت فراو لينوري تحني ظهرها وبيدها مقياس فوتات* صغير تقيس به ما بين النوافذ ، فاستقامت لما رأت سانين وحيته في مرح يشوبه بعض التحرج ، وقالت :

ـ كل الافكار تدور في رأسي بعد كلامك امس عن تحسين مخزننا . انظر ، أتمنى ان أضع هنا خزانتين برفوف من المرايا ، معلومك ان موضتها دارجة الآن ، ثم ايضا ...

قاطعها سانين :

ـ رائع ، رائع ، كل هذا يجب ان يكون موضع تفكير ... ولكن تعالا الى هنا ، اريد ان أنبئكما بشيء . ـ

---

* وحدة قياسية للاطوال **(المترجم)** .

وأخذ فراو لينوري وجيما من الذراعين ، وقادهما الى غرفة اخرى . قلقت فراو لينوري فسقط المقياس من يدها ، وكذلك قلقت جيما ، ولكنها شعرت بالاطمئنان لما أمعنت النظر في سانين . كان وجهه يدل في الحقيقة على انشغال البال ، ولكنه يعبر في الوقت نفسه عن الانشراح والنشاط والعزم .

رجا المرأتين ان تجلسا . اما هو فقد وقف امامهما ملوحا بيديه مشعثا شعره ، وهو يروي عليهما كل ما جرى : لقاءه ببولوزوف ، وسفره المتوقع الى فيسبادن ، وامكان بيع الضيعة ؛ وهتف في الختام :

ـ تصورا سعادتي ، فالامور تطورت على نحو قد لا يبقى فيه ما يدعوني للسفر الى روسيا ! وتستطيع ان نجعل الزفاف في موعد أقرب مما توقعت !

فسألته جيما :

ـ متى ينبغي لك ان تسافر ؟

ـ اليوم ـ بعد ساعة ، فقد استأجر صديقي عربة وسيصحبني معه .

ـ أستكتب الينا ؟

ـ من دون بطء ! فما ان أتحدث الى هذه السيدة حتى أكتب من فوري .

فسألته فراو لينوري العملية :

ـ أتقول ان هذه السيدة غنية جدا ؟

ـ جدا . كان أبوها من أصحاب الملايين وقد ورثت ثروته جميعا .

ـ كل ثروته لها وحدها ؟ واذن هذا من حسن حظك . ولكن خذ بالك ، لا تبخس في ثمن ضيعتك ! كن متبصرا صلبا ، ولا يدفعنّك الهوى الى التساهل ! اني أدرك امنيتك ، فانت تبحث عما يعجل في زواجك من جيما ، ولكن التروّي قبل كل شيء ـ ولا تنس ان كل زيادة في ثمن الضيعة سيكون زيادة في ما يبقى لكما ولاولادكما .

استدارت جيما بوجهها وعاد سانين الى التلويح بيديه .

ـ تستطيعين يا فراو لينوري ان تثقي بأناتي ! ليس في نيتي ان أساوم ، بل سأقول الثمن الحقيقي ، فاذا دفعت ـ كان خيرا ، واذا لم تدفع ـ فالله معها .

وسألته جيما :

ـ هل تعرف هذه السيدة ؟

ـ لم أرها في الوجه ابدا .

ـ ومتى تعود ؟

ـ بعد غد اذا لم تسفر القضية عن نتيجة ، اما اذا سارت الامور على ما يرام فقد أعود في بحر يومين ـ ثلاثة ، ومهما يكن من الامر فاني لن أتأخر دقيقة واحدة . فاني اترك روحي كلها هنا ! ولكني استغرقت معكما في الكلام ، وينبغي ان أعوج على مسكني قبل الرحيل ... فراو لينوري ، أعطني يدك على نية الحظ ـ فان هذا عادة عندنا في روسيا .

ـ أتريد اليمنى ام اليسرى ؟

ـ اليسرى فهي قريبة من القلب . سأعود بعد غد حاملا درعي او محمولا عليها ! ولكن هاتفا يهتف بي أنني سأعود منتصرا ! الى اللقاء يا أعزائي يا أحبائي ...

ثم عانق فراو لينوري وقبلها ، وطلب من جيما ان تأتي معه مقدار دقيقة الى غرفتها لأن عليه ان يفضي اليها بأمر ضروري جدا ، وكان يرمي ببساطة الى الانفراد بها لتوديعها ، وأدركت فراو لينوري ذلك فلم تتطفل بالسؤال عن هذا الامر الضروري ...

لم يدخل سانين غرفة جيما قبل هذه المرة ، فاذا اشواق الحب ونيرانه وبهجته وعذوبته المروعة تقتحم نفسه وتشتعل فيه ، حينما اجتاز العتبة المقدسة ... وتلفت يلقي فيما حوله نظرة مبهور ، ثم ركع امام فتاته الحبيبة وألصق وجهه بجسمها فهمست :

ـ هل انت لي ؟ أتعود بسرعة ؟

فقال مؤكدا وهو يلهث :

ـ أنا لك ... وسأعود .

ـ سانتظرك يا عزيزي .

بعد لحظات كان سانين يركض في الشارع بطريقه الى مسكنه ، ولم يلحظ ان باتناليوني اندفع من باب الدكان في اثره ، أشعث مهتاجا ، وهو يصرخ بكلمات مبهمة ، ويهز يده المرفوعة الى أعلى كأنما يتوعده .

في تمام الساعة الواحدة الا ربعا عـــاد سانين الى بولوزوف . كانت عربة بأربعة جياد تقف امام بوابـة الفندق . لما رآه بولوزوف لم يزد على ان قال : «آ ـ واذن صممت ؟» ، ولبس قبعته ومعطفه وقالوشه ، وحشر في أذنيه بعض القطن على الرغم من فصل القيظ وخرج الى فناء الفندق . كان الوصفاء قد رتبوا مشترياته الوافرة في داخل العربة بناء على تعليماته ، وغطوا مقعدها بالوسائد الحرير والحقائب والحزم ، ووضعوا عند قدميه صندوق الزاد ، وربطوا احدى الحقائب الكبيرة الى مقعد الحوذي . وزع بولوزوف النقود بيد سخية ـ على الرغم من عناية البواب ولباقته وهو يسنده من وراء بترفق واجلال ، فانه كان ينفخ ويتأوه وهو يتسلق سلم العربة ، ثم قبع في مكانه فرتب ما حوله ومهده ، وبعد ان انتقى سيجارا أومأ بأصبعه الى سانين : «تعال انت انحشك أيضا» ، فجلس سانين بجنبه ، وأرسل بولوزوف امره الى الحوذي بطريق البواب ان يقود العربة ملتزما بالدقة ، وسيكون له «حلوتها» اذا أحسن عملا . ثم قعقعت السلالم ، وانصفقت الابواب ، ودارت دواليب العربة .

٣٣

يستغرق السفر بالقطار الآن من فرانكفورت الى فيسبادن اقل من ساعة . كانت عربة البريد الممتازة تقطع هذه المسافة في ذلك الزمن بثلاث ساعات ، وتستبدل الجياد

خلال الطريق خمس مرات . كان بولوزوف يغني تارة ، او يتأرجح والسيجار بين أسنانه ، لم يتكلم الا قليلا ، ولم يلق من النافذة نظرة واحدة : فالمناظر الطبيعية لا تعجبه ، بل لقد أفاد بأن «الطبيعة – موت لـه !» . كذلك ركن سانين الى الصمت ، ولم يستظرف هذه المناظر ، ثم انّه كان في واد آخر ، فاستغرق في التفكير وفي الذكريات . كان بولوزوف دقيقا في توزيع النقود على مستحقيها في المحطات ، والنظر في ساعته للتحقق من الوقت ، وقد وزع الهبات على السواقين والسواس كل بحسب جده واجتهاده ، وفي منتصف الطريق سحب من صندوق الزاد برتقالتين ، فاختص نفسه بأحسنهما ، وناول سانين الثانية ، فحدق سانين في رفيقه وانفجر ضاحكا على حين غرة ؛ فسأله بولوزوف وهو يسلخ جلد البرتقالة بأظفاره البيضاء القصيرة :

ــ ماذا أضحكك ؟

فكرر سانين :

ــ ماذا ؟ ــ اني أضحك من رحلتنا .

فعاد بولوزوف يسأله وهو يمرر في فمه جزءا هَبَرَهُ من لحمة البرتقالة :

ــ وماذا فيها ؟

ــ ان امرها في غاية الغرابة ، فقد كنتُ لا تخطر ببالي امس ــ بصراحة ــ الا كما يخطر امبراطور الصين ــ فاذا انّا أرحل معك اليوم ، لأبيع ضيعتي من زوجتك التي ليس لي عنها اي فكرة .

فأجاب بولوزوف :

ــ لا يستبعد شيُ ــ وكلما عشت كثيرا رأيت كثيرا . مثلا : أتستطيع ان تتصورني على صهوة جواد ضابطا في سلاح الفرسان ؟ ولكني كنت ، وركبت ، وأمرني الامير الكبير ميخائيل بافلوفيتش : «خببا خببا ايها السمين حامل العلم * ! خببا أكثر !»

* حامل العلم : رتبة عسكرية . **(المترجم)** .

فحك سانين وراء أذنه .

ـ قل لي من فضلك يا ايبوليت سيدوريتش ، ما احوال زوجتك ؟ وما طرز مزاجها ؟ لا بد لي ان أعرف هذا .

فاستأنف بولوزوف منفعلا على غير توقع :

ـ انه يتلذذ باصدار الاوامر : «خببا !» ، فماذا كان مني ؟ فكرت في نفسي : خذ مراتبك وشاراتك فالله معها ... اي نعم ، سألتني انت عن زوجتي . زوجتي ؟ ماذا أقول ؟ انها انسان مثل باقي الناس . لا تضع أصبعك في فمها اذا أردت ان يسلم لك ذراعك . نعم فانها لا تحب هذا . النقطة الرئيسية ان تحدثها على نحو يشيع بينكما فيه الضحك ـ حدثها عن حبك ، كيف ... بصورة فكهة ، معلومك .

ـ فكهة ؟

ـ نعم ، على هذا النحو . لقد رويت عليّ انك عاشق تريد الزواج ، فصور لها هذا ايضا .

فقال سانين متأذيا :

ـ وماذا رأيت في هذا من المضحك ؟

لم يجب بولوزوف بل طفق يزيغ عينيه وعصير البرتقالة يسيل من ذقنه . ثم سأله سانين بعد صمت قصير :

ـ أهي زوجتك التي أرسلتك الى فرانكفورت في شراء هذه الاشياء ؟

ـ هي نفسها .

ـ وما هذه الاشياء ؟

ـ واضح : انها لعب .

ـ لعب ؟ هل عندك اولاد ؟

فتزحزح بولوزوف مبتعدا عن سانين .

ـ غريب ! وما الداعي لأن يكون عندي اولاد ؟ انها اشياء نسائية ، خرق ... لوازم خالصة للتواليت .

ـ هل انت خبير في هذا المذهب ؟

ـ خبير .

ـ كيف قلت انك لا تتدخل في شؤون زوجتك ؟

ـ لا أتدخل في شؤونها الاخرى ، اما في مثل هذه الشؤون فلا جرم ؛ دفعا للملل ، ثم ان زوجتي تطمئن الى ذوقي ، فانا لها متسوّق حاذق .

وبدأ بولوزوف يلهث في كلامه من شدة التعب .

ـ وهل زوجتك غنية جدا ؟

ـ من جهة الغنى ، غنية ، ولكن لنفسها فقط .

ـ أحسب انك ايضا لا تستطيع ان تشتكى .

ـ كيف لا أنتفع وانا زوج ؟ ثم اني امرؤ مفيد لها ، وهي معي ــ في أحسن حال ! فانا ــ رجل مريح !

ومسح بولوزوف وجهه بمنديل من الحرير وهو يتنفس مجهدا كأنه يقول : «كن رحيما بي ولا تحملني على الاسراف في الكلام فانت ترى ان الكلام عسير عليّ» .

تركه سانين ينعم بالهدوء وعاد يستغرق في التفكير .

كان الفندق الذي توقفت امامه العربة في فيسبادن يشبه القصر . تسارعت الاجراس الى القرع في اعماقه ، وساد الهرج والمرج ، وارتفع خفق الاقدام المسرعة ، وأقبل من الباب الخارجي رجال في سمت محترم ، كلّهم بالفراك الاسود ، وسبقهم البواب بذهبه وقصبه واشرطته ففتح باب العربة .

نزل بولوزوف كأنه الغازي المنتصر ، وبدأ يصعد في سلم معطر مفروش بالسجاد ، وطار نحوه رجل في ثياب فاخرة ووجه روسي ــ وهو وصيفه الخاص . قال له بولوزوف سيأخذه معه في المستقبل اينما ذهب لأن القوم في فرانكفورت تركوه الليلة الفائتة ، هو بولوزوف ، من غير ماء ساخن ! فعبّر الوصيف بوجهه عن استفظاعه للامر وانحنى في رشاقة ينزع القالوش من قدمي سيده . وسأله بولوزوف :

ـ هل ماريا نيقولاييفنا في جناحها ؟

ـ في جناحها ، تتفضل بارتداء ثيابها ، وستتكرم بالغداء على مائدة الكونتيسة لاسونسكايا .

ـ آ ، على مائدة هذه . انتظر ، في العربة اشياء ،

احملها انت بالذات الى مسكننا . ــ وأضاف بولوزوف :ــ وانت يا ديميتري بافلوفيتش ، احتجز لنفسك غرفة ، ثم عد اليّ بعد ثلاثة ارباع الساعة لنتناول الغداء معا .

سبح بولوزوف مبتعدا ، امـــا سانين فقـــد احتجـــز لمبيته غرفة بسيطة ــ وبعد أن رتب شأنه وأصاب قسطا من الراحة توجه الى الجناح الفخم الذي ينزل فيه صاحب الفخامة (Durchlaucht) الامير فون بولوزوف .

هناك وجد هذا «الامير» مستويا فوق مقعد فاخر من المخمل يقوم في وسط صالة رائعة . كان صديق سانين الخمول الكسول قد استحم ولبس عباءة ثمينة من الاطلس ووضع على رأسه طربوشا أحمر . اقترب منه سانين وتأمله بالنظر قليلا . اما بولوزوف فكان يجلس من دون حركة مثل الصنم ، فما التفت له وجه ، ولا تحرك في وجهه حاجب ، ولا ندّ عنه صوت ، فكانت هيئته جليلة مهيبة في الواقع ! وقف سانين يتفرج عليه مقدار دقيقتين ، وما ان هم بالكلام ليخرق هذا الصمت المقدس ، حتى فتح باب الغرفة المجاورة فجأة ، وظهرت عند العتبة سيدة صبية حسناء في فستان من الحرير الابيض مطرز بمخرمات سوداء ، وحجارة الالماس تتألق في عنقها ومعصميها ــ كانت ماريا نيقولاييفنا نفسها ؛ وكان شعرها الكثيف الأصهب يتهدل على جانبي وجهها في ضفيرتين لم تلملما الى اعلى .

٣٤

ــ أوه ، عفوا ! ــ قالت السيدة من خلال ابتسامة يمتزج فيها الحياء بالسخر ، ورفعت في اللحظة نفسها ضفيرة من شعرها وهي تحدق في سانين بعينين واسعتين مضيئتين رماديتين ، وأضافت :ــ لم يخطر ببالي أنك جئت .

قال بولوزوف من غير ان ينظر الى سانين او يتحرك من مقعده وانما أشار اليه باصبعه :

ـ سانين ـ ديميتري بافلوفيتش ، صديق الطفولة .

ـ نعم ، أعرف ... فقد حدثتني عنه من قبل ، واني لسعيدة جدا بهذا التعارف ؛ ولكني أردت ان أرجوك يا ايبوليت سيدوريتش ... فأن وصيفتي في غاية التبلد اليوم ...

ـ تصفيف شعرك ؟

ـ نعم ، نعم ، أرجوك . عفوا ، ـ كررت ماريا نيقولاييفنا الاعتذار من خلال الابتسامة نفسها وهي تحني رأسها لسانين ، واختفت وراء الباب تاركة خلفها اثرا لانطلاقها ، ومعه انطباع لا تشوبه شائبة تجاه جيدها البديع ، وكتفيها المدهشتين ، وقوامها الخلاب .

نهض بولوزوف وسار يتمايل في اعياء حتى اختفى وراء الباب نفسه .

لم يشك سانين لحظة في ان ربة البيت كانت تعلم علم اليقين بوجوده في صالون «الامير بولوزوف» كل ما قصدت اليه ان تزهو باظهار شعرها الذي كان جميلا في الواقع ؛ وقد اغتبط سانين في سره لهذه النزوة التي ظهرت من السيدة بولوزوف : لئن أرادت ان تبدو امامي جذابة لامعة فمن يدري ؟ لعلها ان تكون لينة العريكة في موضوع الضيعة . كانت جيما تملأ نفسه جميعا حتى لم يعد لغيرها من النساء اي معنى عنده ولم يعد يلحظ وجودهن . واقتصر في هذه المرة على التفكير فقط : «نعم صحيح ما قيل لي عنها : فانها سيدة ليس عليها ما يؤخذ !»

ولكنه لو كان في غير هذه الحالة النفسية الاستثنائية لاختلف قوله من دون ريب : فان ماريا نيقولاييفنا بولوزوفا ، وكنيتها قبل الزواج كوليشكينا ، كانت شخصية رائعة ، انها لم تكن كاملة الجمال ، فان طابع الدهماء واضح الاثر فيها : كانت جبهتها ضيقة ، وانفها معافى قليلا وأرنبته معقوفة الى اعلى ، ولم تكن بشرتها رقيقة ، اما رشاقة يديها وقدميها فلم تكن مما تحسد عليه . ولكن ما قيمة

هذا ؟ فان من يقابلها لا يقف امام «الجمال المقدس» على حد تعبير بوشكين ، وانما يقف امام جاذبية عارمة طاغية تشع من امرأة هي بين الروسية والغجرية ، وتزهر في جسدها الانثوي كله ... ولا تكون وقفة الواقف من دون قصد !..

ولكن صورة جيما كانت تصون سانين كما الدرع المثلثة التي تغني بها الشعراء .

انقضت عشر دقائق ، ظهرت بعدها ماريا نيقولاييفنا في صحبة زوجها ، وأقبلت على سانين ... بهذه المشية التي تكفي وحدها في تلك الازمنة ــ الازمنة الغابرة البعيدة ــ ان تخرج اصحاب الطور الغريب عن عقولهم ، وفيهم من كان يقول : «عندما تقبل عليك هذه المرأة فان سعادة العمر كله تقبل عليك» ــ واعطته يدها ، قائلة بالروسية ، في صوت رقيق كأنه متحفظ :

ــ ستنتظرني ، أليس كذلك ؟ وسأعود مسرعة .

فانحنى سانين باحترام ؛ اما ماريا نيقولاييفنا فقد غابت وراء الستار المسدل على الباب ، واستدارت قبل ان تتوارى فنظرت مبتسمة الى الوراء في خلال كتفها ، وكان الانطباع الذي تركته في هذه المرة لا تشوبه شائبة ايضا .

لما ابتسمت ــ لم ترتسم غمازة واحدة ولا غمازتان ، بل ارتسمت ثلاث غمازات في كل خد ــ وابتسمت عيناها اكثر مما ابتسمت شفتاها الورديتـــان الممتلئتان الشهيتـــان المنقوطتان بشامتين صغيرتين في جانبهما الايسر .

اقتحم بولوزوف الغرفة فاتخذ مكانه المعتاد على المقعد واجما على عادته ، ولكن ابتسامة ساخرة غريبة كانت تنفخ خديه المنطفئين وتغضنهما .

كان له مظهر الشيوخ في حين لم يكن يكبر سانين الا بثلاث سنين .

ولا شك ان الغداء الذي دعا اليه ضيفه جدير ان يرضي حتى أشد خبراء الطعام تزمتا ، ولكنه ظهر لسانين كأنه

حكاية من غير نهاية ، ثقيلة لا حد لثقلها ! وقد أكل بولوزوف مبطئا ملتذا بما يستشعره من مغزى في تركيب ألوانه . كان ينحني على الصحن منتبه الحواس ، فيتشمم كل جزء من أجزائه ، ثم يبدأ بالنبيذ فيتمضمض بجرعة ويبلعها وهو يخفق بشفتيه ... عندما جيءَ بالشواء بدأ الكلام فجأة – ولكن عمّ تكلم ؟ عن اغنام الميرينوس التي اعتزم ان يستورد منها قطيعا كاملا – ويا للرقة وهو يتحدث عنها في تفصيل مستعملا في تسميتها صيغ التدليل والتصغير . بعد ان شرب القهوة وكانت حارة الى درجة الغليان (ذكر للوصيف بضع مرات بصوت يرتجف انفعالا وعينين دامعتين ان القهوة التي قدمت اليه امس كانت باردة ، « باردة مثل الجليد ») – قضم سيجارا هافانيا بأسنانه الصفراء المعوجة – وأغفى على عادته ، فكان سرور سانين عظيما ، وقام يروح ويجيءُ بخطوات استخفى وقعها في السجادة الناعمة – مفكرا بجيما ، حالما بمستقبل حياتهما ، مستعرضا ما سيحمله اليها من الانباء . ولكن بولوزوف استيقظ ، ولاحظ نفسه انه استيقظ قبل وقته المعتاد – جملة ما نام مقدار سويعة ونصف السويعة – فشرب كأسا مثلجا من ماء زيلتر ، وابتلع ثماني ملاعق من المربى ، وهو مربى روسي حمله اليه وصيفه في جرة خضراء غامقة « كييفية » * اصليـــة ، لا يستطيع – على حد قوله – ان يعيش من دونه . ثم حملق الى سانين بعينيه المتورمتين وسأله ألا يريد ان يلعب لعبة « المجنونة » ** ؟ فوافق سانين مرحبا ، فقد خاف ان يعود بولوزوف الى الكلام عن الخراف والنعاج الاليانة *** وما اليها . وانتقل المضيف والضيف الى صالة الاستقبال ، حيث جاء الوصيف بالورق ، وبدأ اللعب – وطبيعي انه كان من غير نقود .

* نسبة الى مدينة كييف **(المترجم)** .

** نوع من ألعاب الورق . **(المترجم)** .

*** ما عظمت أليته من الغنم . **(المترجم)** .

على هذه التسلية الساذجة وجدتهما ماريا نيقولاييفنا عند عودتها من بيت الكونتيسة لاسونسكايا .

ما ان دخلت الغرفة ورأت ورق اللعب على غطاء المائدة الاخضر حتى أخذت تضحك بصوت عال ، وصاحت لما نهض سانين من مقعده :

ــ اجلسوا ، والعبوا ، سأعود من فوري بعد استبدال ثيابي .

كان لثوبها حفيف لما ذهبت ، وأخذت تنتزع قفازيها اثناء ذهابها .

والحقيقة انها لم تبطئ في العودة . استبدلت من ثوبها الانيق غلالة فضفاضة من الحرير البنفسجي باكمام مفتوحة متهدلة عند الكتفين ، وشدت خصرها بزنار مجدول ، وجلست الى جانب زوجها ، فانتظرت حتى فرغ من لعبة المجنونة فقالت له :

ــ والآن يكفيك هذا يا فطيرة ، (لما قالت هذه الكلمة نظر اليها سانين مدهوشا ، فابتسمت بسمة مرحة ، وقابلت نظرته بمثلها وقد ظهرت في خديها كل غمازاتها) ــ يكفيك ، فأني أرى حاجتك الى النوم . هيا قبل يدي وانصرف ، وسنبقى نحن مع السيد سانين للحديث .

فقال بولوزوف وهو ينهض في عسر شديد من مقعده :

ــ لا أريد النوم ، ولكني سأنصرف ؛ سأنصرف ، وأقبل يدك .

مدت اليه راحتها وهي لا تنقطع عن الابتسام والنظر الى سانين .

نظر اليه بولوزوف ايضا ، ثم انصرف دون تحية .

ــ تحدث ، هات ، تحدث .

قالت ماريا نيقولاييفنا بحيوية ، وهي تسند كوعيها العاريين الى المائدة دفعة واحدة ، وتنقر باصابع يدها على اليد الثانية بصبر فارغ .

ــ أصحيح ما يقال من انك ستتزوج ؟

قالت ماريا نيقولاييفنا هذه الكلمات ، ومالت برأسها الى جنبها قليلا ، لكي تنظر بعينين ثاقبتين حادتين في عيني سانين .

٣٥

كان تصرف السيدة بولوزوفا الخالي من الكلفة جديرا ان يلبك سانين اول وهلة لو انه لم يكن مبتدئا في معاشرة الناس او بعيدا عن الاحتكاك بهم ــ او لو انه لم يجد في هذا السّرح العائلي فألا حسنا بخصوص مشروعه . وقال في نفسه : «سنغض الطرف عن نزوات هذه السيدة الغنية» ، وعلى ذلك أخذ يجيب في غير تكلف على اسئلتها التي كانت تطرحها في غير تكلف ، فقال :

ــ نعم ، سأتزوج .

ــ بمن ؟ بأجنبية ؟

ــ نعم .

ــ هل تعارفتما منذ وقت قريب في فرانكفورت ؟

ــ هذا هو الواقع .

ــ من تكون ؟ اذا سمحت بأن أسأل .

ــ طبيعي . انها ابنة حلواني .

فقالت ماريا نيقولاييفنا وهي تفتح عينيها على سعتهما وترفع حاجبيها :

ــ هذا رائع .

وأضافت في تمهل :

ــ هذا أعجوبة . يخطر ببالي ان مثلك من الشباب في الدنيا لم نعد نلقاهم . ابنة حلواني !

فقال سانين في شيء من الكبرياء :

ــ أرى ان هذا قد أدهشك ــ ولكني ، اولا ، لا أشارك بكل هذه العنعنات الباطلة ...

فقاطعته ماريا نيقولاييفنا :

ـ **اولا** ، لم يدهشني هذا ولو أقل مقدار من الدهشة ، ولا مكان عندي لمثل هذه العنعنات ، فأنا ايضا أبنة فلاح . آ ؟ خذ . . . ولكن الذي أدهشني ، وسرني ، ان أرى رجلا لا يخاف الحب . انك تحبها ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ أهي جميلة جدا ؟

صدم سانين قليلا بهذا السؤال ، ولكن لم يبق امامه سبيل الى التراجع ، فقال :

ـ معلومك ، ماريا نيقولاييفنا ، كل رجل يعتقد ان الوجه الذي يحبه أجمل الوجوه ، ولكن خطيبتي ـ جميلة ولا شك .

ـ هل هذا حقيقة ؟ ما جمالها ؟ طلياني ؟ كلاسيكي ؟

ـ نعم ، قسماتها في غاية التناسق .

ـ هل تحمل رسما لها ؟

ـ لا . (لم يكن للتصوير الفوتوغرافي ذكر في ذلك الحين ، وكانت طريقة داغير * في بدء انتشارها) .

ـ ما اسمها ؟

ـ اسمها ـ جيما .

ـ واسمك ؟

ـ ديميتري .

ـ وما لقبك ؟

ـ بافلوفيتش .

فقالت ماريا نيقولاييفنا في بطء :

ـ أتعرف ؟ انك تعجبني كثيرا يا ديميتري بافلوفيتش ، لا بد انك رجل طيب . أعطني يدك ، وسنكون اصدقاء .

وضغطت على يده باصابعها الجميلة البيضاء القوية ـ

---

* داغير : عالم فرنسي ، قام بتجارب التصوير الفوتوغرافي الاولى فاستعمل الفضة واليود في التقاط الصور ، ومحلول الزئبق في نسخها . (**المترجم**) .

وكانت كفها أصغر من كفه قليلا ، ولكنها اكثر دفئا ونعومة ولينا وحيوية .

ــ ولكن أتدري ماذا يخطر ببالي الآن ؟

ــ ماذا ؟

ــ انك لن تغضب ؟ لا ؟ قلت انها خطيبتك . ولكن هل . . . هل هذا ضربة لازم ؟

فتجهم سانين :

ــ لم أفهم قصدك يا ماريا نيقولاييفنا .

ضحكت ماريا نيقولاييفنا ضحكة خفيفة ، وردت بحركة من رأسها ما تهدل من شعرها الى الوراء ، وقالت ــ اما عن وعي او عن ذهول :

ــ لا شك انه رائع . انه فارس ! ثم صدّق بعد هذا زعم القائلين بان المثاليين اندثروا !

كانت ماريا نيقولاييفنا تتحدث على نحو مدهش ، طوال الوقت ، بلغة روسية خالصة ، ولهجة مسكوبية صحيحة ، لهجة الشعب لا لهجة سكان القصور .

ــ لا بد انك تربيت ونشأت في اسرة محافظة تخاف الله ، فمن اي ولاية ؟

ــ من تولا .

ــ واذن نحن من نبعة واحدة ، فان أبي . . . أتعرف من كان ابي ؟

ــ نعم ، أعرف .

ــ لقد ولد في تولا . . . كان تولاويا . . . ولكن طيب . (تعمدت ماريا نيقولاييفنا ان تنطق بكلمة « طيب » بلهجة الطبقة المتوسطة) ــ لنشرع الآن في القضية .

ــ أعني . . . كيف هذا ، اي قضية ؟ ماذا قصدت ان تقولي ؟

فوصوصت ماريا نيقولاييفنا بعينيها .

ــ طيب ، وفيم جئت الى هنا ؟

(عندما ضيقت عينيها اصبحت قسماتها في غاية الرقة وان

شابها بعض السخرية ، ولما فتحتهما على سعتهما نضحت اعماقهما المضيئة الباردة بمعنى كأنه القسوة او كأنه الوعيد ــ اما جمالهما الخاص فانه مستمد من حاجبيها الكثيفين المقوسين قليلا الشبيهين بالسمو ّر الحقيقي) .

ــ تريد مني ان أشتري منك ضيعة ، والنقود ضرورية لك من أجل الزفاف ، أليس كذلك ؟

ــ نعم ضرورية .

ــ وهل تحتاج الى كثير منها ؟

ــ يكفيني مقدما بضعة آلاف من الفرنكات ؛ زوجك يعرف ضيعتي ويمكنك ان تستخبريه عنها ، ثم اني لن أحدد ثمنا غاليا .

فهزت ماريا نيقولاييفنا رأسها يمينا ويسارا ، وقالت وهي تقطّع الكلمات وتنقر برؤوس اصابعها على طرف سترة سانين :

ــ **اعلم اولا** ــ انني تعودت ألا أستشيره الا في شؤون زينتي وملابسي ، فهو في هذا لا ُيشق له غبار . **ثانيا** ــ لماذا تقول انك لن تحدد ثمنا غاليا ؟ فاني لا أريد الافادة من انك عاشق الآن وانك مستعد لكل تضحية . . . هل يليق ان اضطرك الى اي تضحية بدلا من تشجيعك . . . ولكن ما السبيل الى التعبير عن هذا بطريقة أحسن ؟ أقصد . . . هل يليق تلقاء عواطفك النبيلة ان أسلخك كما تسلخ القشرة ؟ ليس هذا من عاداتي ، واذا حدث ــ فاني لا أرحم الناس ، ولكن ليس بهذه الطريقة .

لم يستطع سانين ان يدرك أكانت تهزل ام كانت تجد ، ولكنه قال في نفسه : «أوه ، ينبغي للمرء ان يكون معك منتبه السمع ! »

دخل الخادم يحمل صينية كبيرة عليها سماور روسي وادوات الشاي وما اليها من الحليب والسكر والكعك ، ثم صف هذه الطيبات على المائدة بين سانين والسيدة بولوزوفا واختفى .

ملأت فنجانه بالشاي وقالت وهي تضع فيه السكر باصابعها على الرغم من وجود الملقط :

ـ هل تقرف ؟

ـ لا بأس بهذا ! . . من مثل هذه اليد الرائعة . . .

ولم يتم عبارته فقد كاد يشرق بجرعة الشاي ، اما هي فكانت تنظر اليه نظرة متنبهة واضحة .

واستأنف يقول :

ـ السبب في قولي انني لا أحدد ثمنا غاليا لضيعتي يعود الى انك خارج الحدود ، ولهذا لم يخطر ببالي ان تكون نقودك الزائدة كثيرة . لم يفتني ايضا ان بيع ضيعة وشراءها في مثل هذه الظروف فيه شيء غير طبيعي ، وان عليّ ان آخذ هذا بحسن التقدير .

شعر سانين بالتلبك والحيرة ، اما ماريا نيقولاييفنا فقد أسندت ظهرها الى مقعدها في هدوء ، وأخذت تراقبه ، مصلبة الذراعين ، بعين واعية نافذة ، فركن أخيرا الى الصمت ؛ وقالت كأنها تحاول ان تسعفه :

ـ لا بأس ، تكلم ، تكلم ـ فاني مصغية ـ يسرني ان أستمع اليك ، فتكلم .

أخذ سانين يصف ضيعته : مساحتها ، موقعها ، ما يزرع في أراضيها ، طرق استغلالها . . . وتحدث ايضا عن الدار الريفية وما تطل عليه من المناظر الطبيعية . كانت ماريا نيقولاييفنا تنظر اليه ولا ترفع بصرها عنه ، وهي تزداد اشراقا واصغاء ، وشفتاها ترتعشان قليلا ـ قليلا من غير ابتسام : كانت تعضهما . وشعر في النهاية بالارتباك ، فعاد يركن الى الصمت .

ـ ديميتري بافلوفيتش . . .

بدأت ماريا نيقولاييفنا كلامها ، وفكرت قليلا قبل ان تكرر :

ـ ديميتري بافلوفيتش . أتعرف ؟ اني على يقين أن ضيعتك صفقة رابحة ، واننا سنتفق ، ولكن عليك ان تعطيني

موعد يومين — نعم يومين ، فهل تستطيع ان تبتعد عن خطيبتك يومين ؟ لن احتبسك اكثر من هذا الوقت عما ترغب فيه — خذها مني كلمة شرف . اما اذا كنت الآن بحاجة الى خمسة آلاف او ستة آلاف فرنك ، فيسرني جدا ان أقرضك هذا المبلغ ، ثم نحسمه فيما بعد .

نهض سانين واقفا .

— من واجبي يا ماريا نيقولاييفنا أن أشكر لك طيب حفاوتك وضيافتك ولطف معاملتك وحسن استعدادك لخدمة رجل لا تعرفينه الا قليلا . . . واذا طاب لك ، فاني أفضل ان انتظر رأيك بشأن ضيعتي — وسأبقى هنا مقدار يومين .

— نعم ، يطيب لي ذلك يا ديميتري بافلوفيتش ، فهل سيكون هذا ثقيلا عليك ؟ جدا ؟ قل .

— اني أحب خطيبتي يا ماريا نيقولاييفنا — وليس فراقها هينا .

— آه ، انك لرجل من ذهب !

ثم تنهدت ماريا نيقولاييفنا وقالت :

— أعدك بألاّ أرهقك بالانتظار . أأنت ذاهب ؟

فقال سانين .

— الوقت متأخر .

— ولا بد لك من الراحة من عناء الطريق ومن عناء اللعب بالمجنونة مع زوجي . خبرني — أأنت صديق حميم لزوجي ايبوليت سيدوريتش ؟

— كنا في مدرسة واحدة .

— هل كان وقتئذ كما هو الآن ؟

— ما معنى «كما هو الآن» ؟

فضحكت ماريا نيقولاييفنا فجأة حتى احمر وجهها كله ، ورفعت منديلها الى شفتيها ، ثم نهضت عن المقعد وهي تتمايل كأنها متعبة ، ومدت الى سانين يدها .

فانحنى مودعا وسار يقصد الباب ، فصاحت في اثره :

— تكرم بالمجيء غدا ، وأبكر — أتسمع ؟

التفت الى الوراء قبل ان يخرج من الغرفة ، فرآها قد عادت الى مقعدها ، ووضعت يديها وراء رأسها ، فانحسرت اكمام غلالتها الواسعة حتى الكتفين ؛ ولا مناص من الاعتراف بأن منظر هاتين الذراعين وهذا الجسد كله ، كان رائعا فياضا بالسحر .

٣٦

بقي المصباح مضيئا في غرفة سانين الى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل . كان يجلس الى المائدة ويكتب «الى جيماه» ، روى عليها كل ما حدث ، ووصف لها آل بولوزوف — الزوج والزوجة ، ولكنه أفاض بخاصة في وصف شعوره الخاص — وختم هذا بان حدد موعدا للقائها بعد ثلاثة ايام ! ! ! (مع ثلاث علامات للتنبيه) . وحمل هذه الرسالة في الصباح الباكر الى مكتب البريد ، وذهب للفسحة في حديقة كورغاوزة حيث كانت الموسيقى تعزف . وكان الناس لا يزالون قلة ، فوقف امام العريشة التي تجلس فيها الاوركسترا ، حيث استمع الى مقطوعة «روبرت الشيطان» ، وبعد شرب القهوة ، قصد الى ناحية منعزلة ، وجلس على مقعد ثم استغرقه التفكير .

قبضة مظلة رشيقة ولكنها قوية ، دقت على كتفه ، فاختلج ... كانت في فستان خفيف من الصوف ، رمادى — أخضر — أشهب ، وقبعة من التول الابيض ، وقفازين سويديين : ناضرة متوردة مثل صباح صيفي ، ولكن حركاتها ونظراتها ما تزال مشوبة بهذا الفتور الذي يدل على ان نوم الليل كان هنيء الاحلام — على هذا النحو وقفت امامه ماريا نيقولاييفنا .

— صباح الخير . أرسلت في طلبك اليوم فقيل لي انك خرجت . لقد شربت كأسي الثانية منذ قليل ، فانهم هنا يرغمونني على شرب الماء ، ولا يعلم الا الله ما القصد من هذا ... هل انا معتلة الصحة ؟ وفوق هذا ينبغي عليّ ان

أتمشى ساعة كاملة ، فهل تريد ان ترافقني ؟ وسنشرب القهوة فيما بعد .

قال سانين وهو ينهض واقفا :

ــ لقد شربت قهوتي ، ولكن يسرني جدا ان أتمشى معك .

ــ أعطني ذراعك اذن ... ولا تخش شيئا ، فأن خطيبتك ليست هنا ، ولن تراك .

اصطنع سانين الابتسام ، فقد كان يشعر بالضيق كلما نطقت ماريا نيقولاييفنا باسم جيما ، ولكنه بادر الى الانحناء لها في اذعان ... وأخذت يد ماريا نيقولاييفنا تنزلق على ذراعه في بطء ولين وتجوس خلاله وكأنها تشده اليها .

قالت وهي تسند مظلتها المفتوحة الى كتفها :

ــ تعال معي ــ الى هنا ــ ، فأني في هذه الحديقة كأني في بيتي ، وسأدلك على مكان حسن . أتعرف كيف (كانت تردد هاتين الكلمتين كثيرا) ، لن نتحدث عن هذه الصفقة ، بل سنبحث أمرها بعد الفطور ، وعليك ان تحدثني الآن عن نفسك ... لأعرف مع من أتعامل ، وسأحدثك بعدئذ عن نفسي اذا أردت . هل اتفقنا ؟

ــ ولكن ، ماريا نيقولاييفنا ، ما المستطرف بالنسبة لك ...

ــ قف ، ولا تزد ، فانك لم تفهم قصدي . لست أريد ان أتصدى لك بالمغازلة .

وأضافت ماريا نيقولاييفنا وهي تهز كتفيها :

ــ عنده خطيبة مثل التمثال العريق وأتصدى له بالمغازلة ؟ ! القضية انك تملك بضاعة ، وأنا الشارية ، وأريد ان اعرف ما هي هذه البضاعة التي عندك ، فهات ما عندك ، اعرضه علينا ــ كيف هو ، أريد ان أعرف ، لا يكفي ما سأشتري ، بل يجب ان أعرف ايضا ممن سأشتري ، كذلك كانت خطة أبي ، فابدأ اذن ... واذا كنت لا تريد فلا ضرورة الى البدء من طفولتك ــ مثلا ،

هل انت منذ وقت بعيد خارج الحدود ؟ فأين تجولت حتى الآن ؟ على ان تمشي في هدوء ــ فليس هناك ما يدعونـــا للعجلة .

ــ قدمت الى هنا من ايطاليا بعد ان قضيت هناك بضعة اشهر .

ــ يبدو انك شديد الولع بكل ما هو ايطالي ؟ غريب كيف لم تعثر **هناك** على بغية قلبك ــ هل تحب الفنـــون ؟ الرسم ؟ او لعلك تفضل الموسيقى ؟

ــ أحب الفن ... أحب كل رائع .

ــ وتحب الموسيقى ؟

ــ والموسيقى ايضا .

ــ اما انا فـــلا أحبهـــا على الاطلاق . تعجبني الاغاني الروسية ــ اما في الريف واما في الربيع ــ مع الرقص الروسي... في الجلابيب الحمر والبودنيزات* على الرؤوس ، وفي الحقول اعشاب نضيرة ، ورائحة الدخان تهب . . . ياللروعة ! ولكن مالي أمضي في الحديث ، هيا تحدث انت حدثنا .

وتابعت ماريا نيقولاييفنا السير وهي ترنو الى سانين . كانت طويلة القامة يكاد وجهها يرتفع الى مستوى وجهه .

بدأ يحدثها في غير اقبال ، او في شيء من العجز أول الامر ، ثم تدفق حديثه حتى أصبح لغوا ــ وكانت ماريـــا نيقولاييفنا تصغي اليه متنبهة واعية ، فان ما تظهره من الصراحة كان يحدو غيرها الى الاسترسال بصورة عفوية في الصراحة . كانت تملك تلك الموهبة العظيمة في هذه « المؤالفة العائلية » ــ le terrible don de la familiarité التي أشـــار اليها الكاردينال ريتس . وتحدث سانين عن رحلاته ، وعن حياته في بطرسبورغ ، وعن صباه ... ولو ان ماريـــا نيقولاييفنا كانت من سيدات المجتمع المؤنقات لأمسك سانين

---

* البودنيزة : غطاء نسائي للشعر مطرز بالخرز او بـــالحجر الكريم ، وهو من الازياء الشعبية القديمة في روسيا . **(المترجم)** .

عن الاسترسال معها ، ولكنها وصفت نفسها بانها «غلام طيب» لا تعنى أبدا بالمراسم والأعراف . على هذا النحو قدمت نفسها الى سانين . ولكن هذه «الغلامة الطيبة» كانت في الوقت نفسه تسير الى جنبه بخطوات قطة ، جسمها مائل اليه قليلا ، وبصرها عالق في وجهه ــ كانت طلعة انثى شابة تفيض بهذه الجاذبية الآسرة الغلابة الهادئة الملتهبة التى تملك القدرة على اضناء اخوتنا الرجال الضعفاء الخاطئين ــ هذه الجاذبية التي اختص بها بعض الذين انحدروا من عرق سلافي ، ولكنه ليس خالصا ، بل مشوبـــا في قدر محدود بأعراق شتى .

واستمرت نزهة سانين مع ماريا نيقولاييفنا اكثر من ساعة لم يتوقفا خلالها لحظة . كانا يطوفان بأنحاء الحديقة التي لا نهاية لها ، يصعدان في مرتفعاتها ليتمتعا بالمناظر الجميلة ، او ينحدران في وهدانها ليغوصا في ظلالها الكثيفة ، والذراع بالذراع طوال هذا الوقت ، كان هذا يغيظ سانين احيانا ، فانه مع جيما ، جيماه الحبيبة ، لم يقض مثل هذه المدة الطويلة في النزهة ... ثم يأتي الى هنا فاذا هذه السيدة تستأثر به ــ وبس !

ــ سألها عدة مرات :

ــ ألم تتعبي ؟

فأجابت :

ــ اني لا أتعب ابدا .

اكثر الذين قابلوهما احيانا من رواد الحديقـــة كانوا ينحنون لها ، بعضهم انحنى باحترام وهم الكثرة ، وبعضهم في تملق ، وبين هؤلاء رجل جميل الطلعة انيق الثياب اسود الشعر ، نادتـــه من بعيد وخاطبته بلهجة باريسية رفيعة : «Comte, vous savez, il ne faut pas venir me voir — ni aujourdhui ni demain»*

* «أتعرف يا كونت ، لا تأت الى زيارتي لا اليوم ولا غدا» (بالفرنسية) .

فرفع قبعته صامتا ، وانحنى كثيرا الى اسفل . فسألها سانين مدفوعا بهذه العادة السيئة التي تميز الروس جميعا وهي «الفضولية» :

ـ من هذا ؟

ـ هذا ؟ واحد فرنساوي ـ امثاله ممن يلفون يدورون هنا كثرة ... وهو يلاحقني بغزله ايضا . ولكن حان موعد شرب القهوة ، فلنرجع الى البيت ، لا بد انك جعت ، وأظن ان رجلي الامين قد ثقب عينيه .

ردد سانين قائلا في نفسه : «رجلي الامين ! ثقب عينيه ! !» ومع هذا تتكلم بالفرنسية على هذا النحو الرفيع ، ياللغربية الاطوار !»

لم تخطأ ماريا نيقولاييفنا ، فانها لما عادت الى الفندق مع سانين كان «الامين» او «الفطيرة» يجلس الى المائدة وعلى رأسه طربوشه ؛ فقال وهو يلوي وجهه الحامض :

ـ لقد انتظرتك حتى هممت بان أشرب القهوة من دونك .

فقاطعته ماريا نيقولاييفنا في مرح :

ـ لا بأس . هل غضبت ؟ وهذا يفيدك ايضا ، فانك هنا تكاد تجمد . لقد جئتك بضيف ، فبادر الى قرع الجرس ! انشرب القهوة ، قهوة ، أحسن قهوة ـ في فناجين سكسونية ، فوق غطاء ابيض مثل الثلج !

نزعت قبعتها وقفازيها وصفقت بيديها .

نظر بولوزوف اليها من تحت حاجبيه وسألها بصوت خافت :

ـ ما وراء هذه النطنطة اليوم يا ماريا نيقولاييفنا ؟

ـ ليس هذا شغلك يا ايبوليت سيدوريتش ! دق الجرس ! اجلس يا ديميتري بافلوفيتش واشرب القهوة مرة ثانية ! آه ، لشد ما أشعر بالغبطة وانا أصدر الاوامر ! ليس في العالم غبطة سواها !

فغمغم زوجها قائلا :
ــ عندما تُطاعين .
ــ طبيعي عندما أطاع ! ولهذا أشعر بالغبطة وبخاصة معك ، اليس كذلك يا فطيرة ؟ ــ ولكن ها هي ذي القهوة .
كان بين ما حمله الوصيف على الصينية الكبيرة اعلان مما توزعه المسارح ، فاختطفته ماريا نيقولاييفنا من فورها ، وصاحت غاضبة :
ــ دراما ! دراما المانيـــة . لا بأس ، فانها خير من الكوميديا الالمانية .
ووجهت كلامها الى الوصيف قائلة :
ــ اطلب اليهم ان يحجزوا لي احد الالواج ، لوج بينوار ، ولكن لا ، فالاحسن ان يحجزوا «Fremden-Loge*» أستمع :
Fremden-Loge ليس غير !
فتجرأ الوصيف على القول :
ــ ولكن اذا كان محافظ المدينة (seine Excellenz der Herr Stadt-Director) قد احتجز Fremden-Loge...
ــ أعط سعادته عشرة تاليرات ** ليكون اللوج لي !
ــ خذ بالك !
فأحنى الوصيف رأسه في حزن واذعان .
ــ ديميتري بافلوفيتش ، أتذهب معي الى المسرح ؟ لا شك ان الممثلين الالمان رهيبون ، ولكنك ستجيء... موافق ؟ موافق ! يالـــك من رجل لطيف ! وانت يا فطيرة أتجيء ايضا ؟
فقال بولوزوف من خلال فنجانه المرفوع الى فمه :
ــ كما تأمرين .

---

* لوج الاجانب (بالالمانية) .
** تالير : نقود المانية . **(المترجم)** .

ـ أتعرف . بل ابق هنا . فأنت ستنام في المسرح على كل حال ، ولا تحسن فهم الالمانية ، فاليك ما تفعله : اكتب رسالة الى وكيلي ، أتذكر ، بخصوص طاحونتنا . . . موضوع حبوب الفلاحين ، قل له اني لا أريد لا أريد لا أريد ! وسيشغلك هذا العمل طوال السهرة . . .

فقال بولوزوف :

ـ سمعا وطاعة .

ـ أرأيت ما أروعك وأفهمك ! اما الآن يا سادة ، فما دمنا قد تحدثنا عن الوكيل ، فلنتحدث عن لب أعمالنا بعد ان يرفع الوصيف ما على المائدة ، وستحدثنا يا ديميترى بافلوفيتش عن كل ما يتعلق بضيعتك . مثلا : الثمن الذي تطلبه فيها ، مقدار الدفعة التي تريدها مقدما ، عن كل شيء بالاجمال ! (قال سانين في نفسه : «الحمد لله ـ اخيرا !») أذكر انك قلت لي شيئا ، عن الحديقة ، على ما أذكر ، فوصفتها بصورة جيدة ، اي نعم ، فان الفطيرة لم يحضر هذا الحديث . . . فاتركه يسمع لعل عنده رأيا يغمغم به امامنا ! يسرني جدا انني قادرة على ان أساعدك في زواجك ، وقد وعدتك بان أتدبر الامر معك بعد الافطار ، وانا أحافظ على وعدي دائما ـ أليس كذلك يا ايبوليت سيدوريتش ؟

مسح بولوزوف وجهه براحة كفه .

ـ الحقيقة هي الحقيقة . انك لم تكذبي ابدا على احد .

ـ لم اكذب على احد ! ولن أكذب ، ابدا ؛ واذن هات اعرض قضيتك ، على حد ما اصطلحنا عليه في مجلس الشيوخ .

٣٧

أخذ سانين «يعرض قضيته» ـ اي انه عاد يصف ضيعته مرة ثانية ، ولكنه لم يتطرق الى جمال طبيعتها ـ كان يستشهد بولوزوف بين الوقت والآخر في توكيد «الوقائع والارقام» ، فلا يزيد بولوزوف شيئا على الغمغمة وهز

الرأس ، اما الاستحسان او غير الاستحسان فلا يعرف أمره حتى الشيطان . ولكن ماريا نقولاييفنا لم تفتقر لمساهمته ، فقد أظهرت من ضروب الخبرة بالاعمال التجارية والادارية ما يبعث على الدهشة ! كانت تعرف كل ما يتعلق بالشؤون الاقتصادية على نحو ممتاز ، فتسأل عن كل امر بالتدقيق ، وتصيب بكل كلمة هدفا ، وتضع النقط على الحروف . لم ينتظر سانين مثل هذا الامتحان ولا كان مستعدا له ، فشعر في وقته الذي دام ساعة ونصف الساعة انه مذنب يجلس في قاعة محكمة على مقعد ضيق امام قاض صارم دقيق ، فهمس لنفسه متململا : «ولكن هذا استجواب !» . طوال هذا الوقت كانت ماريا نيقولاييفنا تتهانف كانها كانت تسخر ، ولكن هذا لم يسهل الامر على سانين ، ولما ظهر اثناء «الاستجواب» انه لا يعرف المعنى المحدد لمثل هذه العبارات : «المحاصصة» و «الحراثة» نضح كله عرقا ...

وقالت ماريا نيقولاييفنا اخيرا بلهجة حازمة :

ــ لا بأس على كل حال ، فان ما أعرفه عن ضيعتك الآن ليس أسوأ مما تعرفه انت ، فما الثمن الذي تطلبه تلقاء كل نفس (من المعروف ان ثمن الضيع في ذلك الحين كان يقدر بحسب عدد الانفس) .

فقال سانين في عسر شديد :

ــ اي نعم . . . أظن . . . . لا أقل من خمسمئة روبل (آه يا بانتاليوني ! اين انت يا بانتاليوني ، فهذا وقتك لتصيح من جديد : * ! Barbari).

فرفعت ماريا نيقولاييفنا رأسها الى السماء كأنها تفكر في الامر ثم قالت :

ــ لا أعتقد ان هذا الثمن باهظ ، ولكني أخذت على نفسي ان أتمهل مقدار يومين ، فعليك ان تنتظر حتى الغد ، وأرجو ان نتفق ، وستقول عندئذ كم تريد على الحساب ــ وأضافت

---

* بربرية (بالايطالية) .

لما رأت سانين يهم بجواب : ــ اما الآن * basta cosi !

ــ كفايــــة ، فنحن شغلنـــا بالمعدن الخسيس ... ، à demain les affaires!** أتعــــرف ؟ سأطلــق سراحك الآن (ونظرت في مينـــاء ساعة معلقة بزنارهــا) حتى الساعـــة الثالثـــة ... يجب ان تعطى فرصـــة للراحـــة ، فالعب اذا شئت بالروليت .

فقال سانين :

ــ انا كل عمري لم ألعب بالقمار .

ــ أهذا صحيح ؟ انت رجل في غايـــة الكمال ، فأنا لا ألعب ايضا . من الحماقــة ان ترمـي النقود الى الريح ، هذا أكيد ، ولكن اذهب الى صالـــة اللعب ، وانظر الى اوضاع الوجوه ، فأنها اشكال والوان . هناك عجوز لها قلادة في جبينها وشاربان ، ياللعجب ! وأحد أمرائنا ، فهو ايضا ظريف بجسمه الهائل وانفه الذي يشبه منقار النسر . انـه يضع التالر الواحد ويرسم علامـــة الصليب في السر تحت صدرته ؛ او اقرأ مجلة ، اذهب للفرجة ، تفسح ؛ مجمل القول اعمل ما تريد . . . وفي الساعة الثالثة سأكون في انتظارك ... de pied ferme*** ، يجب ان نبكر في تناول الغداء ، فان المسرح يبدأ عند هؤلاء الالمان المضخكين في منتصف الساعة السابعة (أضافت وهي تمد اليـــه يدهـــا) Sans rancune, n'est-ce pas?****

ــ العفو يا ماريا نيقولاييفنا ، فيم ينبغي ان أزعل منك؟

فقالت وهـي تغمز بعينيها وقد ظهرت غمازاتها دفعـة واحدة في خديها المتوردين :

---

* فيكفي ! (بالايطالية) .

** الاعمال الى الغد ! (بالفرنسية) .

*** من كل بد ، اكيد (بالفر نسية) .

**** من دون زعل ، اليس كذلك ؟ (بالفرنسية) .

ـ لأني أرهقتك . ولكن على مهلك ، فانت ما رأيت مني شيئا بعد ـ الى اللقاء !

انحنى سانين ومضى ، فجلجل في اثره ضحك ممراح ، وانعكس في المرآة التي مرّ بجنبها في تلك اللحظة هذا المنظر : ماريا نيقولاييفنا تكبس طربوش زوجها على عينيه ، وهو يخبط بيديه عاجزا عن المقاومة .

٣٨

أوه ، ما اعمق الزفرة التي أرسلها سانين وما أحفلها بالغبطة لما وجد نفسه يؤوب الى غرفته ؛ فأن ماريا نيقولاييفنا نطقت بالحقيقة لما قالت انه يحتاج الى الراحة . الراحة من كل هؤلاء المعارف الجدد ، ومن الارتطام بهم ومحادثتهم ، من هذا الدخان الخانق الذي انعقد في رأسه وفي نفسه ـ من هذه الالفة التي لم يترقبها ولم يتطلبها من امرأة غريبة عنه ! ومتى جاء هذا جميعا يفرض وجوده ؟ في اليوم التالي تقريبا بعد اليوم الذي عرف فيه ان جيما تحبه ، وانه أصبح خطيبها ! أليس هذا تدنيسا للمقدسات ؟ ألف مرة التمس في سره المغفرة من حمامته الطاهرة البريئة ، وذلك على الرغم من انه لم يجد ما يدعوه الى اتهام نفسه في شيء ، الف مرة لثم الصليب الذي أعطته اياه ؛ ولولا امله في ان القضية التي جاء من اجلها الى فيسبادن سينتهي منها بسرعة ـ لاندفع عائدا الى الوراء ، الى فرانكفورت الحبيبة ، الى ذلك المنزل العزيز الذي أصبح منزله الحميم ، اليها ، وركع عند قدميها الحبيبتين ... ولكن هل باليد حيلة ؟ لا بد من شرب الكأس حتى الثمالة ، وعليه ان يلبس ثيابه ليذهب الى الغداء ـ ومن هناك الى المسرح . . . فياليتها تسرع غدا في اطلاق سراحه !

هناك شيء آخر عذبه وأثار حفيظته : فانه على الرغم من حبه وعطفه ، وعلى الرغم من اعتزازه واغتباطه اثناء

التفكير في جيما ، وفي حياتهما زوجين ، وفي السعادة التي تنتظره في المستقبل – كانت تتدخل بين هذا جميعا هذه المرأة الغريبة ، هذه السيدة بولوزوفا ؛ لم تكن تتراءى له ... لا ! لم تكن تتراءى بل كانت تتصدى له – ولا تبرح امام عينيه – كانت تتصدى له ، وهو لا يستطيع ان يقصي صورتها من بصره ، ولا يستطيع ان يغلق سمعه دون صوتها وحديثها – ولا يستطيع ان يستدفع حتى هذا العبير الخاص الذي يهف من ثيابها رقيقا ناضرا أخاذا نفاذا مثل عبير السوسن الاصفر . كان من الواضح ان هذه السيدة تعبث به ، وتسلك كل طريق الى اغوائه ، فعلام هذا ؟ وماذا تريد ؟ ألا يكون هذا مجرد نزوة من امرأة مدللة غنية ولا يبعد ان تكون امرأة فاسقة ؟ ! وهذا الزوج ؟ ! ما هذا المخلوق ، وما طرز علاقاته بها ؟ ثم لماذا دارت هذه الاسئلة في رأسه ، اي في رأس سانين ، وهو الذي ليس له علاقة خاصة تربطه الى السيدة بولوزوفا او الى زوجها ؟ ولماذا لا يستطيع ان يطرد هذه الصورة التي تلح عليه في الوقت الذي تتجه فيه روحه الى صورة اخرى مضيئة مشرقة كأنها الفجر الآلهي ؟ كيف استطاعت **هذه** القسمات ان تتسلل متطفلة على تلك القسمات الآلهية ؟ بل انها لم تتسلل وحسب بل جاءت هازئة سليطة ، فهل لزقت به هذه العيون الرمادية المفترسة ، وهذه الغمازات الآسرة ، وهذه الضفائر المتأفعية ، فليس يقدر على ان يبعدها عنه ، ولا يملك القدرة على الخلاص منها ؟

لغو فارغ ! لغو فارغ ! فكل هذا سيزول غدا ولن يبقى له اثر ولا خبر ... ولكن هل تحل وثاقه غدا ؟

طرح هذه الاسئلة كلها على نفسه ، ولما اقتربت الساعة الثالثة لبس الفراك الاسود ، وخرج يتفسح قليلا في الحديقة قبيل ذهابه الى آل بولوزوف .

20–1855

وجد هناك في صالة الاستقبال سكرتير سفارة من الالمان ، وهو رجل طويل – طويل أصهب الشعر ، وجهه من جانب مثل وجه الحصان ، وشعره مفروق من خلف (كان ذلك من البدع الجديدة وقتذاك) – ولكن . . . ياللعجب ، من كان هناك ايضا ؟ فون دونغوف وهو الضابط الذي كان خصمه في المبارزة التي حدثت منذ بضعة ايام . انه لم يتوقع ان يقابله وبخاصة هنا ، فاعتراه الارتباك من دون ان يدري، ولكنه انحنى له يحييه . ولم يفلت تحرج سانين من عيني ماريا نيقولاييفنا :

– هل كان بينكما تعارف ؟

– نعم . . . كان لي هذا الشرف ! – قال دونغوف ومال قليلا يهمس الى ماريا نيقولاييفنا مبتسما – هذا هو مواطنك . . . الروسي . . .

فقالت بصوت هامس ايضا وهي تهدده بأصبعها :

– هذا خبر عجيب !

وقامت من فورها تودعه ، وتشيع سكرتير السفارة الطويل الذى دل وضعه جميعا على انه ميت في هواها ، فقد كان يفغر فاه كلما نظر اليها . وذهب دونغوف من غير تمهل ، مذعنا ، ولكن بطيبة خاطر كما يكون صديق البيت الذي يدرك من الاشارة قبل العبارة ما يطلب منه . اما السكرتير فقد حاول ان يتمرد ، ولكن ماريا نيقولاييفنا طردته من دون مجاملة قائلة :

– اذهب الى مولاتك (كانت تقيم في فيسبادن وقتذاك احدى اميرات دي – موناكو ، وهي تشبه الخليلات العاديات) – فما جلوسك الى امرأة من عامة الناس مثلي انا ؟

فقال السكرتير التعس :

– العفو يا سيدتي ، فكل اميرات العالم . . .

ولكن ماريا نيقولاييفنا لم تأخذها به شفقة ، فذهب السكرتير بشعره المفروق من خلف .

كانت ماريا نيقولاييفنا في هذا اليوم تبدو في آحسن زينة ، او مثل «العروس» على حد تعبير جداتنا ؛ فقد ظهرت في فستان وردي من الحرير اللماع باكمام à la Fontanges ، وفي كل اذن حجر كبير من الالماس ، وعيناها تلمعان بما لا أقل من هذين الحجرين ، كانت مشرقة النفس منشرحة كل الانشراح .

اجلست سانين الى جنبها وطفقت تحدثه عن باريز التي تتهيأ للسفر اليها بعد بضعة ايام ، وعن سأمها من الالمان لأنهم حمقى حينما يحاولون ان يكونوا اذكياء ، ولا محل لذكائهم حينما يحمقون ، ــ وفجأة سألته في الوجه ــ à brûlle pourpoint ــ كما يقال ــ هل صحيح انه اشتبك على طرز فونتانج (وهي عشيقة لويس الرابع عشر) . بمبارزة من اجل سيدة مع هذا الضابط الذي كان هنا منذ قليل ؟

فتمتم مدهوشا :

ــ من أين سمعت بهذا الخبر ؟

ــ الارض ملأى بما تسمعه يا ديميتري بافلوفيتش . ولكنك كنت في الواقع على حق ، أنت على حق الف مرة ، وقد سلكت سلوك الفارس . قل لي ، أكانت هذه السيدة خطيبتك ؟

عضّن سانين حاجبيه قليلا فأسرعت ماريا نيقولاييفنا تقول :

ــ واذن ، التوبة ، التوبة ، لقد أزعجتك ، سامحني ، ولن أعود لمثلها ! فلا تغضب !

وأضافت لما برز بولوزوف من الغرفة المجاورة وفي يده جريدة :

ــ وانت ما لك ؟ ام ان الغداء جاهز ؟

ــ سيقدم الغداء في الحال ، ولكن تعالي انظري ماذا قرأت في «النحلة الشمالية» . . . لقد مات الدوق غروموبوي .

فرفعت ماريا نيقولاييفنا رأسها .

— آ ، رحمة السماء على سموّه .

والتفتت الى سانين :

— كان كل سنة قبيل عيد ميلادي في شهر فبراير يملأ غرفتي كلها بازهار الكاميليا ، ولكن هذا لا يستأهل مني قضاء الشتاء في بطرسبورغ .

ثم سألت زوجها :

— كم يبلغ من العمر ؟ أظن انه جاوز السبعين .

— نعم انه كذلك — والجريدة وصفت الجنازة . كان فيها البلاط كله ، وها هي ذي قصيدة الدوق كوفريجكين .

— عظيم اذن .

— أتريدين ان أقرأها عليك ؟ لقد وصفه الدوق بانه رجل الجلائل من الاعمال .

— كلا لا أريد . ثم من رجل الجلائل هذا ؟ انه لم يكن سوى رجل تاتيانا يورييفنا . هيا بنا الى مائدة الغداء ، فأن الحي لا يفكر الا بالحي . ديميتري بافلوفيتش ، هات ذراعك .

كان الغداء مدهشا مثل غداء امس ، وقد استفاضت فيه الحيوية ، وظهر ان ماريا نيقولاييفنا تجيد فن الحديث . . . وهي موهبة تندر بين النساء ولا سيما الروسيات ! كانت لا تستحيي من اي تعبير ، واختصت مواطناتها بأكثر لذعاتها حتى لقد انفجر سانين بالضحك اكثر من مرة لبعض كلماتها الجريئة الصائبة . كانت ماريا نيقولاييفنا تضيق خاصة بالكذب والنفاق . . . وقد وجدتهما في كل مكان تقريبا . وكانت تزهو فخورة بالوسط البسيط الذي بدأت فيه حياتها ، وروت كثيرا من النوادر عن أهلها وعن ايام نشأتها الاولى ، ولقبت نفسها بلقب «اللبادة

الخشنة » ، شأنها شأن ناتاليا كيريلوفنا ناريشكينا * . وأدرك سانين انها خبرت من الحياة اكثر مما خبرت الكثرة الكاثرة ممن في سنها .

اما بولوزوف فكان يأكل ويشرب مستغرقا بما بين يديه كأنه يتأمل في عجائب الأكل والشرب ، ولا يخرج عن هذا الا في لحظات نادرة ليلقي نظرة على زوجته او نظرة على سانين من عينين عمياوين في الظاهر نفاذتين في الواقع . وقالت ماريا نيقولاييفنا وهي تلتفت اليه :

ـ يا سلام عليك وعلى ذوقك ! تلقاء ما أنجزته في فرانكفورت من المشتريات تستحق قبلة من جبينك ، ولكنك لا تسعى الى مثل هذا . . .

فقال وهو يقطع جوزة اناناس بسكين من الفضة :

ـ لا أسعى .

فنظرت اليه ماريا نيقولاييفنا وهي تنقر باصابعها على المائدة وقالت بلهجة خاصة :

ـ ألا يزال رهاننا قائما ؟

ـ لا يزال قائما .

ـ عال . ستكون انت الخسران .

فدفع بولوزوف ذقنه الى امام وقال :

ـ على الرغم من كل ثقتك بنفسك فانك انت التي ستخسرين في هذه المرة .

وقال سانين يسأل :

ـ هل يحق لي ان أعرف موضوع الرهان ؟

فأجابت ماريا نيقولاييفنا وهي تضحك :

ـ لا . . . فان هذا لا يجوز لك الآن .

دقت الساعة سبع دقات ، وجاء الوصيف يقول بأن العربة جاهزة ، فقام بولوزوف يقود زوجته ثم عاد يجرّ

---

* أم القيصر الروسي بطرس الاكبر ، وكانت امرأة من الشعب . **(المترجم)** .

نفسه وارتمى في مقعده ، فصاحت به ماريا نيقولاييفنا حينما وصلت الى الممر :

— اياك ان تنسى الكتابة الى الوكيل !

— سأكتب ، ولك ان تطمئني ، فاني رجل دقيق .

٣٩

كان المسرح في فيسبادن سنة ١٨٤٠ سيء المظهر ، اما فرقه فأنها من حيث جعجعتها وابتذالها وانحطاطها ونمطيتها لم ترتفع مقدار شعرة عن المستوى الذي يمكن ان نعده المستوى الطبيعي للمسارح الالمانية حتى اليوم ، وقمة ما تحقق في محيطها مؤخرا ، كان على يد فرقة كارلسروئيه التي يقودها السيد ديفريينت . كان اللوج قد حجز لصاحبة السنمو حرم فون بولوزوف (ولا يعلم الا الله كيف دبره الوصيف ، فانه لم يرش محافظ المدينة في الحقيقة !) كانت وراء هذا اللوج غرفة صغيرة فيها بعض الارائك ، وقد طلبت ماريا نيقولاييفنا من سانين قبل ان تدخلها ان يرخي الستائر التي تحجب اللوج عن الصالة ، وقالت :

— لا أريد ان يراني احد فيتسلق الينا .

ثم جلست وأجلسته الى جانبها مستدبرين الصالة ليبدو اللوج كأنه فارغ .

عزفت الاوركسترا افتتاحية من « عرس الفيغارو » . . . وارتفع الستار ، وبدأت التمثيلية .

وكانت واحدة من تمثيليات مهلهلة كثيرة شتى وضعها مؤلفون واسعو الاطلاع ولكنهم من غير موهبة ، ودأبوا فيها وانتقوا موضوعها ولكنهم عرضوه بلغة ميتة أثقلوها بالافكار « العميقة النابضة » على نحو أخرق ، ثم حشكوا فيها ما يسمى الصدمة المأساوية فجاءت مثيرة للغثيان كما يحدث اثناء الاصابات بالكوليرا الآسيوية . صبرت ماريا نيقولاييفنا فاستمعت الى نصف الفصل الاول ، ولكن عندما

جاء دور العاشق الاول الذي عرف ان حبيبته قد خانته (كان يلبس سترة بنية باكمام منتفخة وياقة مثناة وصدرة مخططة بازرار من الصدف وسروال اخضر بسير من الجلد اللامع في أسفله وعلى يديه قفازان من الجلد المخملي الابيض) عندما أسند هذا العاشق قبضتيه الى صدره ودفع كوعيه الى الامام في زاويتين حادتين ، وأخذ ينوح نواحا يشبه نباح الكلب ، لم يبق عند ماريا نيقولاييفنا مثقال ذرة من الصبر ، فصرخت مغيظة وهي تدخل الغرفة الخلفية .

ــ ان اقل ممثل فرنسي في آخر بلدة فرنسية أسلم طبعا واحسن تمثيلا من أشهر الممثلين الالمان .

وقالت لسانين وهي تمسح بيدها في موضع الى قربها على الديوان :

ــ تعال الى هنا لنثرثر .

أذعن سانين .

ونظرت ماريا نيقولاييفنا اليه .

ــ أرى انك لين مثل الحرير ! وستكون حياة زوجتك معك مريحة .

وأضافت وهي تشير بطرف مروحتها الى الممثل النباح (كان يقوم بدور مدرس خصوصي) :

ــ ذكرني بأيام صباي ، فأنا أحببت ايضا مدرّسا ، وكان ذلك غرامي الاول . . . لا بل كان الثاني ، ففي المرة الاولى أحببت شماسا في دير دونسكوي . كنت في الثانية عشرة من عمري ، وكنت أراه في ايام الآحاد فقط ، كان يلتف بمسح من المخمل ويتعطر بماء اللاوندة ، ويشق طريقه بين الناس مخاطبا النساء بالفرنسية : «باردون ، ايكسكوزه» ، لم يكن يرفع بصره ابدا ، كانت رموش عينيه هكذا ! ــ وأشارت ماريا نيقولاييفنا الى طول نصف اصبعها الطويلة ــ اما المدرس فكان يدعى monsieur Gaston! وينبغي القول انّه كان مدرسا صارما جدا ؛ وهو سويسري ،

يفيض وجهه بالحيوية ، عذاراه اسودان مثل القطران ، ووجهه من جانب يشبه الاغريق ، شفتاه كأنهما من الحديد المسكوب ! كنت أخافه ، ولم أخش احدا سواه في كل عمري ! كان مربيا لأخي الذي مات فيما بعد . . . غريقا ، وقد تنبأت لى احدى الغجريات ايضا باننى سأموت قتلا ــ ولكن هذا كلام فارغ ، فانا لا أصدق ذلك . أتتصور ايبوليت سيدوريتش بيده خنجر ؟ !

فقال سانين :

ــ قد يحدث الموت بغير الخنجر .

ــ كل هذا كلام فارغ ! هل أنت متطير ؟ اني لا أعتقد بشيء من هذا ، لا سبيل الى الخلاص مما سيكون . كان monsieur Gaston يعيش معنا في البيت ، فوق رأسي ، وكان يحدث ان أستيقظ في الليل فأسمع وقع خطواته ، فقد كان لا ينام الا في وقت متأخر ، فأشعر بقلبي يتجمد من الرهبة . . . او من شعور آخر . . . وكان محصول ابي من القراءة والكتابة قليلا ، ولكنه أحسن تنشئتنا ، هل تعرف انني أفهم اللغة اللاتينية ؟

ــ انت ــ تفهمين اللاتينية ؟

ــ نعم ، انا . علمني اياها monsieur Gaston، وقرأت معه الأنياذة * ، انها شيء ممل ، ولكن بعض موضوعاتها لابأس بها ــ أتذكر اللقاء بين ديدونه وأنياذ في الغابة ؟

فقال سانين بسرعة :

ــ نعم ، نعم ، أذكر .

كان لا يذكر شيئا مما تعلمه من اللاتينية ، ولم يبق في ذهنه الا ذكريات مبهمة عن الأنياذة .

فرمقته ماريا نيقولاييفنا بنظرتها الجانبية المعتادة من ادنى الى اعلى وقالت :

ــ ولكن لا تحسب اننى امرأة متعلمة جدا . آخ يا

---

* ملحمة كتبها الشاعر فرجيل . **(المترجم)** .

آلهى ، لست متعلمة ، ولا أملك اي موهبة ، وأكاد لا أقدر على الكتابة . . . ولا أستطيع ان أقرأ بصوت عال ، ولا احسن العزف على البيانو ، ولا الرسم ، ولا خياطة الثياب . . . لا أحسن شيئا ! فانا كما تراني !

بسطت يديها وأضافت :

ــ اني أحدثك بكل هذا لتجنب الاستماع الى هؤلاء الحمقى أولا (واشارت الى المسرح ، وكان في مكان الممثل ، ممثلة تنبح وقد دفعت كوعيها ايضا الى الامام) ــ ثم اني مدينة لك ثانيا ، فقد حدثتني عن نفسك امس .

فقال سانين :

ــ ولكنك انت رغبت في ذلك .

ــ فالتفتت اليه ماريا نيقولاييفنا فجأة .

ــ وانت ، ألا تريد ان تعلم ما هى حقيقة هذه المرأة ؟

وأضافت وهي تتكئ من جديد على وسادة الديوان :

ــ ولكن هذا لن يثير دهشتي ــ فأين لرجل يستعد للزواج ، بدافع من الحب ، وبعد مبارزة . . . ان يفكر في أمر آخر ؟

واستغرقت ماريا نيقولاييفنا في التفكير وهي تعض مروحتها بأسنانها النضيدة البيضاء كالحليب .

وخيل لسانين ان في رأسه هذا الدخان الذي لم يستطع ان يتخلص منه طوال اليومين الاخيرين .

وكان الحديث يدور بينه وبين ماريا نيقولاييفنا خافتا ، بل هامسا ، وقد زاد هذا في هياجه وقلقه .

متى ينتهي هذا كله ؟

ان الضعفاء لا يقدرون على انهاء شيء بل ينتظرون نهايته .

وعطس احد الممثلين على المسرح ، وقد أدخل المؤلف هذه العطسة في تمثيليته على انها « لحظة هزل » او « عنصر » هزل ، وهو العنصر المفقود منها ولا شك ، ولكن المتفرجين وفوا هذه العطسة حقها من الضحك .

21—1855

وأزعج سانين هذا الضحك ايضا .

لقد مضت دقائق لم يستطع أن يعرف خلالها على وجه اليقين : أكان مغيظا ام راضيا ، منكداً ام مغتبطا . أوه لو ان جيما رأته !

وقالت ماريا نيقولاييفنا فجأة :

ــ أليس غريبا ان تجد من يقول بصوت مطمئن «اني اعتزم الزواج» ، ولا تجد من يقول لك بهذا الاطمئنان «أريد ان ألقى بنفسي في الماء» فما الفرق بين الحالين ؟ غريب ، والحق يقال .

فأجاب سانين مغيظا :

ــ الفرق كبير يا ماريا نيقولاييفنا ! فأن الماء ليس مخيفا على من يقذف بنفسه اليه ، فقد يستطيع ان يسبح ، وفضلا عن ذلك . . . ما يتعلق بغرابة الزواج . . . اذا كان الحديث عن هذا . . . .

وسكت فجأة وهو يعض على لسانه .

ضربت ماريا نيقولاييفنا على كفها بمروحتها .

ــ تابع قولك يا ديميتري بافلوفيتش تابع قولك ، فاني أعرف ماذا أردت ان تقول . لقد أردت ان تقول : «يا سيدتي العزيزة ماريا نيقولاييفنا . . . لا يخطر بالبال شيء أدعى الى الاستغراب من **زواجك** . . . ثم اني أعرف زوجك منذ الطفولة !» أليس هذا ما أردت ان تقوله انت يا من تقدر على السباحة ؟

فقال سانين :

ــ اسمحي لي . . .

فقالت ماريا نيقولاييفنا في توكيد :

ــ أقلتَ الحقيقة ام لا ؟ انظر في وجهي ثم صارحني أقلتَ الحقيقة أم لا ؟

ارتبك سانين فما يعرف اين يبعد نظراته ، ثم قال اخيرا :

ــ نعم ، انها الحقيقة ما دمت تلحين على هذا بالذات .

— هذا هو . . . ولكن ألم تسأل نفسك انت يا من تجيد السباحة ، عن سبب هذه الخطوة . . . الغريبة من امرأة ليست فقيرة . . . ولا حمقاء . . . ولا قبيحة ؟ قد لا يهمك هذا ، ولكن لا بأس ، فسأفضي اليك بالسبب ولكن ليس الآن ، بل بعد انتهاء فترة الاستراحة ، فاني أخشي ان يجيء احد . . .

ما كادت ماريا نيقولاييفنا تقول هذه الكلمات حتى انفتح الباب وأطل منه رأس أحمر يلمع كالزيت من العرق ، وامتد نحو اللوج ، كان من غير اسنان على الرغم من صغر سنه ، بشعر طويل سبط ، وأنف طويل معقوف واذنين كبيرتين مثل أذني الوطواط ، ونظارة ذهبية فوقها نظارة ثانية ذات صنارة تشف عن عينين فضوليتين بليدتين ؛ ودار الرأس في كل ناحية فلما رأى ماريا نيقولاييفنا ، كشر فمه الأهتم عن ابتسامة كريهة وأخذ ينحني ويكرر الانحنـــاء . . . فتهتز لحمة العنق مع هذا الرأس . . .

فنفضت ماريا نيقوييفنا منديلها في وجهه .

— انا لست في البيت ! ! Ich bin nicht zu Hause, Herr P..

Ich bin nicht zu Hause...* كش ، كش !

دهش الرأس ، ولكنه تكلف الابتسام ، وقال بصوت كأنه الشهيق مقلدا « ليست » الذي كان هذا الرأس يتمرغ على قدميه :

— Sehr gut! Sehr gut!**

واختفى .

فسألها سانين :

— من يكون هذا الذات ؟

— هذا ؟ انه ناقد من فيسبادن . « أديب » او صعلوك ،

---

* انـــا لست في البيت ، ايها السيد ب ! .. انـــا لست في البيت . . . (بالالمانية) .

** طيب جدا ! طيب جدا ! (بالالمانية) .

أو سمه ما تشاء ـ لقد استأجره احد المتعهدين ، ولهذا ينبغي عليه ان يستحسن كل شيء ويعجب بكل شيء على الرغم من امتلأ صدره بالحقد الاصفر المكظوم الذي لا يجرؤ على التنفيس عنه . اني خائفة ، فهو نمّام فظيع ، وسيسرع في الحال الى ابلاغ الجميع أنني في المسرح ، ولكن لا بأس .

انتهت الاوركسترا من عزف موسيقا فالس ، وارتفع الستار مرة ثانية ... وبدأ على المسرح تصعير الوجه وتكتم البكاء . وقالت ماريا نيقولاييفنا وهي تعود الى استرخاءتها على الديوان :

ـ واذن ما دمت قد وقعت فلا مندوحة لك من الجلوس اليّ بدلا من الاستمتاع بقرب خطيبتك . . . لا تحملق بعينيك ولا تغضب ، فاني أدرك حالتك ، وقد وعدتك بان أطلق سراحك في جهات الدنيا الاربع ، فاسمع اعترافي الآن . أتريد ان تعرف ما هو أحب شيء عندي ؟

فقال سانين مخمنا :

ـ الحرية .

وضعت ماريا نيقولاييفنا يدها على يده ، وقالت بصوت يرن على نحو خاص يسمع فيه الاهتمام والخطورة والاخلاص، على نحو لا يقبل الشك :

ـ نعم يا ديميتري بافلوفيتش . الحرية ، فانها أحب اليّ من كل شيء ، وقبل كل شيء . ولا يخطرن ببالك انني أتبجح فليس في هذا مجال للتبجح ، وانما كانت الحرية **كذلك** ، وستبقى **كذلك** بالنسبة اليّ حتى آخر لحظة من حياتي . لا بد انني رأيت في طفولتي كثيرا من العبودية ، وعانيت منهـــا كثيرا ، واسهم مدرسي monsieur Gaston في هذا ايضـــا ، وقد تستطيع ان تدرك الآن لماذا رضيت بالزواج من ايبوليت سيدوريتش : انني معه حرة مطلقـــة كالهواء ، كالريح ... وقد عرفت هذا قبل الزواج . كنت أعرف انني سأكون معه مثل القوزاقي الطليق !

سكتت ماريا نيقولاييفنا وألقت بمروحتها جانبا .

ـ أقول لك شيئا آخر : اني لا أعترض على التفكير . . . فأنه مدعاة للمرح ، وقد أعطينا الذكاء لنفكر ، ولكني لا أفكر ابدا في عواقب ما أفعله ، ومهما تكن الحال فاني لا أشفق على نفسي ولو مقدار ذرة ، لا يجوز . ومبدئي ان : «Cela ne tire pas à conséquence»* . لست أدري كيف أقول هذا بالروسية؟ نعم فما الذي tire à conséquence ؟ ولن يكون حسابي عن هذا **هنا** على هذه الارض ، واما هناك (ورفعت رأسها الى السماء) فليكن تدبيره على قدّ تقديره ، فاني لن أكون من انا حينما يحاسبني هناك . أتصغي اليّ ام لعلك شعرت بالملل ؟

كان سانين يجلس منحنيا على نفسه فرفع رأسه .

ـ ليس هذا مما يبعث عليّ الملل يا ماريا نيقولاييفنا ، بل انى استمع اليك متشوقا ، ولكنى . . . بصراحة . . . سألت نفسي : لماذا تتحدثين اليّ بهذا كله ؟

فاقتربت ماريا نيقولاييفنا منه قليلا .

ـ تسأل نفسك . . . أفأنت بطيءُ الحزر ام انك متواضع ؟

فرفع سانين رأسه اكثر قليلا ، وأضافت ماريا نيقولاييفنا بصوت هادئ يختلف عما عبرت ملامح وجهها :

ـ لقد حدثتك بهذا كله لأني في غاية الاعجاب بك . نعم لا تدهش فأني لا أمزح ، فبعد التقائي بك ، كان مما يضايقني ان تحتفظ عني بذكرى سيئة . . . بل ان الذكرى السيئة وغير السيئة عندي سواء ، واما الذكرى الغلط . . . فمن اجل هذا رأيت ان أدعوك الى هنا ، وأجتمع بك على انفراد ، وأتحدث اليك بصراحة . . . نعم نعم بصراحة . انني لا أكذب ، ومعلومك ، ديميتري بافلوفيتش ، اني أعرف انك واقع فى هوى فتاة اخرى ، وانك بسبيلك الى الزواج بها ... ولكن اسمع ما اقوله وعليك ان تقدر سخائي حق

---

* هذا لا يستحق الاهتمام . (بالفرنسية) .

التقديـــر ! وقد جـــاء دورك لتقول : cela ne tire pas à conséquence!

وضحكت ، ولكن ضحكها انقطع فجأة ، وبقيت جالسة من دون حركة ، فكأن ما قالتـــه قد أذهلها ، ولمح في عينيهـــا الممراحتين الجريئتين في الحالة العادية شيءٌ يشبه الخفر او الأسى .

وكان سانين يفكر في هذه الاثناء : «أفعى ! آه ، انها افعى ، ولكن يالها من أفعى جميلة !»

وقالت ماريا نيقولاييفنا فجأة :

ـ أعطني منظاري فاني أريد ان أرى : أتكون هـــذه jeune première على مثل هذا القبح ؟ لا يبعد ان تكون الحكومة أعدتها لحماية أخلاق الشباب من الغواية .

قدم سانين اليها المنظار ، ولكنها حين أخذته من يده ، طوقت يده بيديها في حركة سريعة بل خفيفة ، وهمست اليه مبتسمة :

ـ لا تأخذ نفسك بمثل هذا الجد . هل تعرف ؟ ان تقييد حريتي بالسلاسل مستحيل ، وكذلك انا لا أقيد حرية احـــد بالسلاســـل . ـ اني أحب الحريـــة ، ولا أعترف بالواجبات ـ ولا أختص نفسي بهذا ، فتزحزح قليلا الآن ، ولنستمع الى هذه التمثيلية .

أخذت ماريا نيقولاييفنا تجوس أنحاء المسرح بنظرة من خلال المنظار ، وكذلك انصرف سانين ببصره الى التمثيل وهو في موضعه الى قربها في اللوج المظلم وكان يستنشق من دون وعي هذا العطر الدافئ الذي ينبعث من جسدها البديع ، وقد اختلط في رأسه كل ما حدثته به في هذا المساء وبخاصة ما قالته في الدقيقة الاخيرة .

٤٠

استمر عرض التمثيلية ساعة او اكثر من ساعة ، ولكن ماريا نيقولاييفنا وسانين ما لبثا ان انقطعا عن النظر الى

المسرح وعادا الى الحديث من جديد ؛ وتسلسل الحديث الى مجراه السابق ، ولكن سانين كان صمته اقل في هذه المرة . كان في باطنه غاضبا على نفسه وعلى ماريا نيقولاييفنا ، فحاول ان يبرهن لها على البطلان المطلق « لنظريتها » ، فكأنها ممن يعنى بالنظريات ! واحتدّ في مناقشتها فأفرحها ذلك في السر كثيرا لأن معناه : ان المرء يتنازل حينما يناقش او انه بسبيله للتنازل . لقد مشى الى معلفه مذعنا مرتاضا وانتهى توحشه وعناده ! وكانت هي وراءه على الكعب ، تخالف وتوافق وتضحك وتفكر وتناوش . . . وبين هذا كله كان الوجهان يتدانيان ، ولم تعد عيناه تتجنبان عينيها . . . عينيها اللتين تحوّمان حول وجهه وتطوفان في قسماته ، وصار يجيب على ابتسامها بابتسام ، وهو في هذا متأدب مجامل ولكنه كان يبتسم . انه راح يتحدث عن المجردات ، فناقش قضية الشرف في العلاقات القلبية ، وتحدث عن الواجب وعن قدسية الحب والزواج . . . جلية الامر : ان هذه المجردات بداية طيبة تلائم الغاية ، بل انها نقطة الانطلاق . . .

فالناس الذين يعرفون ماريا نيقولاييفنا يؤكدون ان طبيعتها القوية العنيفة ، حينما تأخذ فجأة بشيء من الرقة والتواضع او بشيء من الخفر العذري ، — وأنّى لها ان تأخذ بمثل هذا ؟ . . فعندئذ . . . نعم عندئذ ، تكون الحالة قد تفاقمت وأنذرت بالخطر .

ويبدو ان الحال قد صارت بسانين الى هذا المآل . . . وكان جديرا ان يشعر باحتقاره لنفسه لو أتيحت له لحظة يقدر فيها على تركيز افكاره ، ولكن الوقت لم يواته لا لحصر افكاره ولا لاحتقار نفسه .

اما هي فانها لم تفرط بالوقت ، وكل ذلك قد حدث له لأنه جميل الطلعة ! . .وهذا يضطرنا الى القول : « كيف نعرف أين تكون الضارة وأين النافعة ؟ »

انتهت التمثيلية ، فطلبت ماريا نيقولاييفنا من سانين ان يضع عليها الشال ، ووقفت من غير حركة ريثما لف كتفيها الملكيتين بالنسيج الناعم ، ثم تأبطتــه من ذراعــه وخرجت الى الممر ـ وهناك كادت تصرخ ، فقد تراءى لها دونغوف مثل الشبح على باب اللوج نفسه ، وشاهدت وراء ظهره وجه الناقد الفيسبادني الكريه ، وكان وجه «الاديب» اللامع كالزيت يتهلل بالتشفي . وقال الضابط الشاب يخاطب ماريا نيقولاييفنا بصوت لم يستطع ان يكظم فيه رنة الغضب :

ـ هل تأمرين يا سيدتي بان أبحث لك عن عربتك ؟

فأجابت :

ـ لا ، وشكرا لك ، سيبحث خادمي عنها . ـ وأضافت في همسة آمرة : ـ فالزم مكانك !

وابتعدت مسرعة وهي تسحب سانين من ورائها .

وصاح دونغوف في وجه الاديب فجأة :

ـ اذهب الى الشيطان ! لماذا تلتزق بي ؟ ـ كان لا بد له من وجه يصب عليه غضبه ؛ فغمغم الاديب وهو يبتعد :

— Sehr gut! Sehr gut!*

وجاء خادم ماريا نيقولاييفنا بالعربة في غمضة عين ، وكان ينتظرها في الاروقة ، فأسرعت اليها ، ووثب سانين وراءها ، ولما انصفقت ابوابها انفجرت ماريا نيقولاييفنا بالضحك ، فسألها سانين :

ـ لماذا تضحكين ؟

ـ آخ ، سامحني أرجوك . . . فقد خطر ببالي : ماذا لو ان دونغوف دعاك الى مبارزة جديدة . . . ولكن من أجلي ، أليس هذا عجيبا ؟

فسألها سانين :

ـ هل صلتك به وثيقة جدا ؟

---

* طيب ! طيب ! (بالالمانية)

ـ به ؟ بهذا الصبي ؟ انه يأتمر بأمري فلا تقلق .

ـ لا شيء يقلقني على الاطلاق .

ـ آخ . أعرف انك لا تقلق ، ولكن اسمع ، أتعرف ، انك وانت على مثل هذا للطف لا بد الأ ترفض لي هذا الطلب الاخير . ولا تنس انني سأرحل بعد ثلاثة ايام الى باريز ، وستعود أنت الى فرانكفورت . . . فمن يعرف متى نلتقي !؟

ـ ما هذا الطلب ؟

ـ يمكنك ولا شك ان تركب الخيل ؟

ـ نعم يمكنني .

ـ واذن سآخذك معي ، ونذهب غدا في الصباح الباكر الى ضاحية المدينة . سيكون لدينا خيول ممتازة ، وحينما نعود سننتهي من القضية ثم . . . آمين ! لا تأخذك الدهشة ، ولا تقل لي ان هذه نزوة او انني مجنونة ، فكل هذا جائز عليّ ، ولكن عليك أن تقول فقط : انني موافق !

والتفتت ماريا نيقولاييفنا اليه بوجهها والظلام مطبق في داخل العربة ولكن عينيهـــا كانتا تلمعـــان في هذا الظلام نفسه .

وقال سانين وهو يطلق زفرة :

ـ طيب موافق .

فقالت تشاكسه :

ـ آخ ، انك تتنهد ! ولكن ما المآل : ليس يشكو تعب البدن من يمسك بالرسن * . ولكن ، لا ، لا ، فأنت ـ رجل لطيف ، طيب ، واليك يدي اليمنى من غير قفاز ، وهي يد العمل ، فأمسك بها وصافحها في ثقة . لست أدري أي طرز من النساء انا ، ولكني انسانة شريفة يمكن التعامل معي .

لم يحسب سانين حساب ما فعل حينما رفع هذه اليد

---

* مثل شعبي معنـــاه : اذا بدأت امرا فلا تتراجع عنـــه . (المترجم) .

الى شفتيه ، فسحبتها ماريا نيقولاييفنا في رفق ، وركنت فجأة الى الصمت واحتفظت بصمتها حتى وقف العربة .

ثم أخذت في النزول من العربة . . . فما هذا ؟ أكان سانين واهما ام كان على يقين من شعوره بان شيئا حارا سريعا لذعه في خده ؟

وهمست ماريا نيقولاييفنا وهي على درجات السلم :

ــ الى الغد !

سارت مسبلة الجفنين ، يتقدمها البواب ذو الحلة المذهبة المقصبة وهو يحمل شمعدانا تضيء فيه أربع شمعات .

ــ الى الغد !

لما عاد سانين الى غرفته وجد على المائدة رسالة من جيما ، فاعتراه الخوف لحظتها ، ولكنه عاد من فوره يصطنع الغبطة قناعا لهذا الخوف تجاه نفسه . كانت الرسالة تنطوي على بضعة أسطر ــ فقد سرتها «البداية الطيبة» التي استهل بها قضيته ، ونصحت له بان يتذرع بالصبر ، وقالت ان كل من في البيت يتمتع بصحة جيدة ، وانهم جميعا يترقبون عودته ليبتهجوا بها . وجد سانين في هذه الرسالة ما فيها من الجفوة ــ ولكنه تناول ريشة وورقة . . . وطرح كل شيء جانبا . ــ «على م الكتابة ؟ ! سأعود غدا . . . فقد آن اوان العودة ، آن !» .

وأسرع الى الاستلقاء في سريره لعل النوم يسرع اليه ، فلا بد ان يفكر في جيما اذا بقي ساهرا وهو على قدميه ، وكان هذا مما . . . يخجله دون سبب واضح ، لقد استيقظ ضميره ، ولكنه طمأن نفسه بان كل شيء سينتهي غدا الى الابد ، وسينفصل عن هذه المرأة المغامرة الى الابد ، مقتلعا من ذاكرته كل هذا العبث ! . .

ان الضعفاء من الناس يستهويهم ان يستعملوا العبارات الطنانة حينما يتحدثون الى انفسهم .

Et pius... cela ne tire pas à consequence!*

هذا ما فكر به سانين حينما اضطجع للنوم ، اما ما فكر به في اليوم التالي لما وقفت ماريا نيقولاييفنا تدق عليه الباب فى استعجال بمقبض سوطها المرجاني ، ثم لما رآها على عتبة غرفته وهي تحمل على يدها اذيال ثوب الركوب الازرق الغامق ، وتلملم شعرها الكثيف بقبعة رجالية صغيرة ، والوشاح الفوال سارح على كتفها ، وابتسامة التحدي في شفتيها وعينيها وفي قسمات وجهها كله ـ كل ما فكر به وقتذاك ـ سكت عنه التاريخ .

وصاحت بصوت ممراح :

ـ هل انت مستعد ؟

فوقف سانين يزرر سترته ، ثم تناول قبعته وهو صامت . فأرسلت اليه ماريا نيقولاييفنا نظرة مضيئة ، وأومأت برأسها ثم أسرعت تهبط الدرج راكضة ، وقفز هو في اثرها .

كانت ثلاثة جياد تقف في الشارع امام الباب ، احداها فرس ذهبية شقراء اصيلة ، سحنتها مكشرة جافة ، وعيناها سوداوان جاحظتان ، لها قوائم ظبي ، وجسم ضامر ، ولكنها جميلة متوقدة مثل النار ـ وقد أعدت لماريا نيقولاييفنا . وأعد لسانين جواد ضخم صعب المراس في لون الغراب الاسحم ، ولم يكن فيه ميزة بارزة ، وكان الجواد الثالث للسائس . قفزت ماريا نيقولاييفنا الى فرسها في خفة ، فاختبطت الفرس الارض بقوائمها ، ودارت على نفسها وهي رافعة ذيلها ، وناءت بكفلها ، ولكن ماريا نيقولاييفنا (وهي فارسة ماهرة !) استوقفتها في مكانها : كان ينبغي لها ان تودع بولوزوف الذي خرج الى الشرفة بطربوشه اياه الذى لا ينزعه عن رأسه وعباءته المحلولة ، ووقف يلوح بمنديل من الباتيسة ، من دون ابتسام ولو قليل ، بل

---

* ولكن هذا ... لا يستحق الاهتمام ! (بالفرنسية) .

وتعلك الشكائم ، وتعض الهواء ، وتنتفض متوفزة ، وتنخر ؛ وتبعها سانين وهو لا يرفع بصره عن ماريا نيقولاييفنا : كان ايقاع جسمها وهي على صهوة الفرس واثقة رشيقة يبرز الدقة واللين فى قوامها الذي احتبسه المشد في ضيق ولكن في حرية . والتفتت برأسها الى الوراء تدعوه بعينيها فلحق بها وحاذاها . وقالت :

ــ أرأيت ما أطيب هذا . أقول لك قبل ان نفترق : انت فاتن ــ ولن تندم .

كانت تهز رأسها من اعلى الى اسفل وهى تنطق بهذه الكلمات الاخيرة كأنها ترغب في توكيدها وفي إشعاره كان أقرب الى العبوس . وتسلق سانين جواده ، فحيت ماريا نيقولاييفنا السيد بولوزوف بسوطها ، وساطت به الفرس في عنقها السوى ، فشبت على رجليها ووثبت الى الامام ، وانطلقت بخطوات مرتاضة ، وهي ترتعش باعصابها جميعا ، بمغزاها .

وقد ظهرت سعيدة الى حد دهش له سانين ، فقد ارتسم في وجهها تعبير رصين مثل الذي يحدث عند الاطفال حينما يكونون راضين . . . غاية الرضى .

لما بلغت خيولهم اطراف المدينة ، انطلقوا بها خببا على الطريق المرصوف ، وكان الجو جميلا ، كاجواء الصيف ، والريح تتدفق على الوجوه وتوشوش او تصفر في الآذان على نحو مستعذب . كانا مغتبطين ، يستأثرهما الوعى العارم لحياة الصحة والشباب بما يبدو من حريتهما وخفة حركتهما الى الامام ، وكان هذا الوعى يزداد نموا في كل لحظة .

وهدأت ماريا نيقولاييفنا فرسها وأرسلتها متمهلة فحذا سانين حذوها ، وقالت وهي تزفر زفرة عميقة :

ــ لا شيء يستحق ان يعاش من اجله سوى هذا : ان تنال ما تريد بعد ان كان يبدو في المستحيل ــ فتمتعّ ــ واغترف من المتع ملء ما تقدر عليه !

وأمرت بيدها على عنقها بالعرض .

ــ ولشد ما يعتقد المرء بطيبته حينما يشعر بهذا ! انظر . . . ما اطيبني انا الآن ! حتى ليخالجني الاحساس بانني أستطيع ان احتضن العالم ، ولكن لا ، فليس كل العالم ! . . لا أريد ان احتضن هذا ــ وأشارت بسوطها الى رجل عجوز في اسمال كان يعبر الطريق ــ ولكنني مستعدة لاسعاده ــ تناول ، خذ ــ صاحت بالالمانية بصوت عال وقذفت عند قدميه بكيس مملوء بالنقود حتى آخره (لم تكن جزادين النقود معروفة في ذلك الحين) فخبط الكيس الارض ، وتوقف عابر السبيل مذهولا ، فقهقهت ماريا نيقولاييفنا ، وانطلقت تخب فرسها ، فسألها سانين حينما لحق بها :

ــ هل يبهجك الطراد على هذا النحو ؟

فأوقفت ماريا نيقولاييفنا فرسها دفعة واحدة ، ولم تتبع وسيلة اخرى في وقفها :

ــ أردت ان أبتعد عن كلمات الشكر ، فمن يشكرني يعكر متعتي ، فأني لم أفعل ما فعلت من اجله بل من اجل نفسي ، فمن اين له الحق في ان يشكرني ؟ عمّ سألتني ، اني لم أسمع .

ــ سألت . . . أردت ان أعرف فيم انت على مثل هذا الابتهاج اليوم ؟

فقالت ماريا نيقولاييفنا ، وكأنها لم تسمع سؤال سانين ، او لأنها ظنت ان سؤاله لا يحتاج الى جواب :

ــ هل تعرف ؟ لقد ضقت بهذا السائس الذي يلازمنا ولا يفكر الا بالوقت الذي سيعود فيه هؤلاء السادة الى البيت ، فكيف السبيل الى التخلص منه ؟ ــ وسحبت في تعجل مفكرة من جيبها ــ هل أرسله في رسالة الى المدينة ؟ لا ، فان هذا لا يجدي نفعا ! آ ! اليك كيف . ما هذا المكان الذي يواجهنا ؟ مشرب ؟

نظر سانين الى حيث أشارت .

ــ نعم ، يبدو انه مشرب .

— عظيم ، سآمره اذن بـأن يتخلف في هذا المشرب ويحتسى البيرة حتى نعود .

— ولكن ما تراه سيفكر ؟

— وماذا يهمنا من هذا ؟ انه لن يفكر ، بل سيشرب بيرته ليس غير . هيا بنا يا سانين (كانت المرة الاولى التي تناديه فيها بكنيته المجردة) خببا الى الامام !

لما وصلا الى المشرب دعت ماريا نيقولاييفنا السائس اليها ، وأعلنته بما ينبغي عليه ، وكان السائس انكليزيا بأصله وعاداته ، فرفع يده بالتحية الى طرف قبعته وهو صامت ، وترجل عن جواده ، وسحبه من مقوده .

وقالت ماريا نيقولاييفنا :

— اننا طليقان الآن مثل الطير ، فأين نذهب ؟ اشمالا ام جنوبا ام شرقا ام غربا ؟ انظر ، ألا تراني مثل ملك مجرى في يوم تتويجه (وأشارت بطرف سوطها الى جهات الدنيا الاربع) انها جميعا لنا ! لا ! أتعرف : هل ترى اي جبل بديع هناك واي غابة ! هيا نذهب الى هناك ! ونجوس خلال الجبال !

In die Berge, wo die Freiheit thront!*

انحرفت بفرسها عن الطريق المعبد ، وأخبتـّه في درب ضيق غير مطروق كان يبدو كأنه يقود الى الجبل ، وانطلق سانين في اثرها .

٤٢

أفضى هذا الدرب بعد قليل الى طريق تسلكه السابلة ، وانتهى اخيرا الى خندق يقطعه بالعرض ، فأشار سانين بالعودة ، ولكن ماريا نيقولاييفنا قالت : «لا ، بل اريـد التصعيد في الجبل ، ولنمض قدما كما تطير الطير» . — وحثت فرسها على اجتياز الخندق ، وكذلك اجتازه سانين ، وكان فيما يلي الخندق مرج ، بدأ جافا ، ثم اصبح رطبا ، وما زال حتى

* الى الجبال حيث الحرية تبسط سلطانها ! (بالالمانية) .

صار الى مستنقعات ، كان الماء يرشح فيؤلف واحات شتى ، وقد تعمدت ماريا نيقولاييفنا ان تغوص بفرسها في هذه الواحات ، وهي لا تفتأ تطلق القهقهات ، وتكرر في الحاح : « هيا نتزعرن كالتلاميذ ! » ، ثم سألت سانين :

ـ أتعرف ماذا يعني الصيد في العشب المبلول ؟

فأجاب سانين :

ـ أعرف .

فتابعت كلامها :

ـ كان لي عم يصطاد بالكلاب ، وكنت أركب معه في فصل الربيع ، يا للروعة ! وها نحن اولاء معك الآن ـ خلال الاعشاب المبلولة . ولكن يخطر ببالي : انك روسي وتريد الزواج من ايطالية . تلك هي مشغلتك اذن . ما هذا ؟ أخندق آخر ؟ هوب !

فقفزت الفرس واجتازت ، ولكن القبعة سقطت عن رأس ماريا نيقولاييفنا وتبعثرت خصل شعرها على كتفيها ، فلما هم سانين بان يترجل عن صهوة جواده ليرفع القبعة ، صاحت به : « لا تلمسها ، فسألتقطها انا بالذات » ، وانحنت من سرجها ، وأخذت القبعة بمقبض سوطها من اذيال الفوال، ورفعتها ، ثم وضعتها على رأسها ولكنها لم تلملم شعرها المبعثر ، وانطلقت بفرسها من جديد وهي تطلق صيحاتها ، وأسرع سانين يخب بجواده الى جنبها ، والى جنبها كذلك راح يقفز الحفر والحواجز والسواقي ، ويتسلق الجبل ، ويطير مسرعا في السفوح وفي شعاب الجبل ، ولا يرفع بصره عن وجهها اثناء ذلك كله . ويالهذا الوجه ! كان يبدو كأنه مفتوح على رحبه : فعيناها المنهومتان المضيئتان الوحشيتان مفتوحتان ، وشفتاها مفتوحتان ، وانفها مفتوح تعب بـه الهواء في نهم ، وهي تنظر ابدا الى الامام ، فكأنها تريد ان تمتلك كل ما تراه : الارض والسماء والشمس والهواء نفسه، ولم تكن آسفة الا على امر واحد ، وهو ان مخاطر الرحلة كانت قليلة ، وانها قادرة على ان تذللها جميعا ! وصاحت :

« سانين ، ألا يشبه هذا ما حدث في قصة لينورا * لبرغر ! والفارق الوحيد انك غير ميت — آ ؟ غير ميت ؟ . . وانا على قيد الحياة ! » كانت قواها العارمة تضطرم فيها ، ولم تعد فارسة تنطلق بجوادها في طراد ، بل صبية من بنات الاساطير — نصفها وحش ونصفها آله — وكانت هذه الانحاء الرزينة المؤدبة مدهوشة من هذه العربدة الجامحة التي استباحت حرمتها !

ثم كبحت ماريا نيقولاييفنا جماح فرسها المزبدة المعفرة ، فأخذت الفرس تتمايل تحتها ، اما حصان سانين الضخم الثقيل ، فكان يلهث بشدة ، وسألت ماريا نيقولاييفنا في همسة ذاهلة :

— كيف ؟ أليس هذا رائعا ؟

فأجاب سانين في حفاوة ، ودمه يغلي في عروقه :

— رائع !

— عليك ان تنتظر اذن ، فأن الخافي اعظم !

ومدت يدها ، وكان قفازها ممزقا .

— قلت اني سأذهب بك الى الغابة فالجبال . . . وها هي ذي الجبال !

والواقع ان الاشجار العالية كانت على مبعدة مئتي خطوة من المكان الذي كانا يطيران في انحائه .

— انظر ، هذا هو الطريق — سنتوقف قليلا ، ثم نمضي الى الامام . ولكن على رسلنا ، فلا بد ان نترك للجوادين فرصة للراحة .

ثم استأنفا السير ، ورفعت ماريا نيقولاييفنا شعرها الى الوراء بحركة قوية ، ونظرت فى قفازيها ، ثم نزعتهما :

— ستفوح من يدى رائحة الجلد ، ولكن لا بأس عليك من هذا ، آ ؟

---

* « لينورا » — قصة غنائية كتبها الشاعر الالماني اوغوست برغر (١٧٤٧—١٧٩٤) .

ابتسمت ماريا نيقولاييفنا ، وابتسم سانين كذلك . فكأن هذا الطراد المسعور قد ختم علاقتهما بالقربى والصداقة . وسألته فجأة :

ـ كم عمرك ؟

ـ اثنتان وعشرون سنة .

ـ أيمكن هذا ؟ انا في الثانية والعشرين ايضا . انها لسنّ طيبة ، ولو جمعنا مقدار عمرك وعمري معا لبقيت الشيخوخة بعيدة . ما أشد هذا القيظ . هل انا محمّرة ؟

ـ نعم ، مثل لون الاقحوان !

جففت ماريا نيقولاييفنا وجهها بمنديل .

ـ حسبنا ان نبلغ الغابة ، فهناك سيكون الجو لطيفا . هذه الغابة القديمة كأنها صديق قديم . هل لك اصدقاء ؟

فكر سانين قليلا

ـ نعم ، ولكنهم قلة ، وليس لي اصدقاء حقيقيون .

ـ اما انا فلي اصدقاء حقيقيون ، ولكنهم ليسوا قدماء ، وهذا الجواد صديق ايضا ، فانه يحملنا بحرص وترفق . آخ ، ما أروع هذه البقعة ! هل صحيح اني سأرحل بعد غد الى باريز ؟

فكرر سانين قائلا :

ـ نعم . . . هل صحيح ؟

ـ وانت ، أفترحل الى فرانكفورت ؟

ـ انا ؟ من دون شك ، راحل الى فرانكفورت .

ـ ليكن ، فالله معك ! ولكن هذا اليوم لنا . . . لنا . . . لنا !

بلغ الجوادان اطراف الغابة ثم ذهبا فيها وظلالها الوارفة العريضة تظلّهما وتحنو عليهما من كل ناحية . وصاحت ماريا نيقولاييفنا :

ـ أوه . هنا ارض الجنة ! فلنوغل يا سانين في أكناف هذه الظلال .

سار الجوادان في هدوء «يتوغلان في الظلال» وهما يخبان وينخران قليلا ، وما لبث الطريق ان التف فجأة بهما ممتدا نحو شعب ضيق لا يكاد يسمح بالمرور ، وانبعثت رائحة كثيفة آسنة يمتزج فيها عبير البابونج والخطمية وصمغ الصنوبر بعفونة الاوراق الرطبة القديمة ، وهبت من شقوق صخرة ضخمـــة قاتمـة رطوبة شديدة ، وارتفعت التلال المستديرة على جانب الطريق المكسو بالطحالب الخضراء . وصاحت ماريا نيقولاييفنا :

ـ توقف ! فاني أريد ان استريح بالجلوس قليلا على هذا المخمل . ساعدني في النزول .

فترجل سانين عن جواده وأسرع اليها ، فاعتمدت على كتفه ووثبت الى الارض في لمحة ، ثم جلست على احدى التلال المكسوة بالطحالب ، ووقف هو ازاءها ممسكا بمقودي الجوادين .

رفعت اليه عينيها . . .

ـ سانين ، أتستطيع ان تنسى ؟

فخطر ببال سانين ما كان في العربة . . . امس . . .

ـ أهذا سؤال ام عتاب ؟

ـ انا لم أعاتب احدا في شيء ، ولكن هل تؤمن بقوة السحر * ؟

ـ كيف ؟

ـ بالسحر ؛ ألا تعرف بماذا يتغنون عندنا في الاغاني الروسية الشعبية ؟

فقال سانين وهو يمد في نطق الحروف :

ـ آ ، عن هذا تتكلمين اذن .

ـ نعم ، عن هذا ، فأنني أؤمن به . . . وستؤمن به انت .

فكرر سانين :

ـ السحر . . . كل شيء ممكن في العالم . لم أكن أؤمن

---

* المقصود هنا اجتذاب المحبوب باعمال السحر . **(المترجم)** .

بذلك من قبل ، ولكني أؤمن به الآن ، فقد أصبحت لا أعرف نفسي .

وسرحت ماريا نيقولاييفنا مع افكارها ثم التفتت الى وراء :

ـ يخيل اليّ انني أعرف هذه البقعة ، انظر يا سانين ألا يرتفع وراء هذه البلوطة العريضة صليب احمر من الخشب ؟

سار سانين بضع خطوات في كل ناحية .

ـ نعم ، يرتفع .

فابتسمت ماريا نيقولاييفنا .

ـ آ ، طيب فانا أعرف اين نحن ، لما نضل طريقنا بعد . ما هذا الطّرق ؟ أهناك حطاب ؟

نظر سانين في الدغل الكثيف .

ـ نعم . . . هناك رجل يقلّم الفروع اليابسة .

فقالت ماريا نيقولاييفنا :

ـ يجب ان أرتب شعري ، فلا يتهمني اذا رآني . . .

وحسرت قبعتها عن رأسها ، أخذت ترتب شعرها الطويل وقد ران عليها صمت وقور . وكان سانين يقف قدامها ، واعضاؤها المتناسقة ترتسم واضحة من خلال ثنيات ثوبها الغامق الذى اعتلقت بعض اجزائه اليااف الطحالب .

وانتفض احد الجوادين على حين غرة من خلف سانين . . . فاذا الرعشة تسرى فيه من رأسه الى قدميه ، واختلط في ذهنه كل شيء ، وتوترت اعصابه مثل الوتر ؛ لم يكن عبثا قوله انه أصبح لا يعرف نفسه . . . فقد كان مسحورا بالفعل . كل وجوده كان ممتلئا بأمر واحد . . . بفكرة واحدة ، برغبة واحدة . وأرسلت اليه ماريا نيقولاييفنا نظرة فاحصة ، ثم قالت وهي تلبس قبعتها :

ـ واذن . كل شيء على ما ينبغي الآن ـ ألا تريد ان تجلس ؟ ها هنا ! لا ، بل انتظر لا تجلس ! فما هذا ؟

ترددت في اعالي الاشجار وفي رحاب الغابة هزة صماء .

ـ أليس هذا رعدا ؟

فأجاب سانين :

ـ يبدو ان هذا رعد .

ـ آخ ، انه لعيد ! عيد حقيقي ! لم يكن ينقصه الا هذا !

وعاد الهدير الأصم يدوي مرة ثانية ، وارتفع الى اعلى ثم انقض منفجرا قاصفا .

ـ برافو ! Bis! تذكر انني حدثتك عن الأنياذة امس ! **فانهما** قد رضخا ايضا لعاصفة في غابة . ـ ولكن لا بد لنا ان نتزحزح .

وهبت واقفة على قدميها .

ـ قرب الفرس مني . . . وهيّ راحة يدك ، نعم كذلك ، فما انا بالعبء الثقيل .

وقفزت مثل الطائر وحطت على السرج ، وامتطى سانين ايضا صهوة الجواد ، ثم سألها بصوت غير واثق :

ـ أتعودين الى المنزل ؟

فقالت تمط الكلمات :

ـ الى المنزل ؟؟

ولملمت بيديها لجام الفرس ، وقالت له بلهجة آمرة لا تخلو من خشونة :

ـ اتبعني .

مضت بجوادها في الطريق ، فجازت بالصليب الخشبي الاحمر ، وانحدرت في السفح حتى بلغت المفترق ، فانعطفت الى اليمين نحو الجبل مرة ثانية . . . كانت فيما يبدو تعرف الى اين يفضي هذا الطريق ـ وغاص هذا الطريق في جوف الغابة ومضى يتعمق فيها ، وهي لا تنطق بكلمة ، ولا تلقي بنظرة ، بل كانت مندفعة الى الامام في اعتداد الآمر وهو في اثرها طائع مذعن ، لا ينقدح من قلبه المتجمد ولو شرارة من الارادة . وبدأ المطر يرش ، فاستحثت فرسها ، ولم يتلكأ

هو بل كان الحافر على الحافر . واخيرا برز من خلال الخضرة المظلمة ، من بين أغصان شجرة شوح ، فوق طنف صخرة رمادية ، كوخ حقير للحراسة له باب واطئ في حائطه المضفور من القش ؛ فدفعت ماريا نيقولاييفنا فرسها يشق الطريق بين الاغصان المتواشجة ، ثم ترجلت عنه ، فاذا هي فجأة امام باب الكوخ ، فاستدارت عائدة الى سانين ، وهمست اليه :

ـ أنياذ ؟

بعد اربع ساعات عادت ماريا نيقولاييفنا وسانين ومعهما السائس يهوّم على سرج الجواد الى الفندق في فيسبادن ، فاستقبل السيد بولوزوف حرمه وفي يده الرسالة التي كتبها الى الوكيل . لما أرسل اليها نظرته الفاحصة عبّر وجهه عن شيء من الزعل ، بل لقد غمغم ايضا :

ـ هل تراني خسرت الرهان ؟

فهزت ماريا نيقولاييفنا كتفيها وليس غير .

في اليوم نفسه ، بعد انقضاء ساعتين ، كان سانين يقف امامها في غرفته وهو مثل الضائع الهالك . . . فسألته :

ـ الى اين سترحل ؟ ألى باريس ام الى فرانكفورت ؟

فأجاب في قنوط :

ـ انا ذاهب الى حيث تذهبين ، وما لم تنبذيني فسأبقى معك .

وارتمى على يدي مولاته ، فحررت يديها ووضعتهما على رأسه ، واستجمعت شعره بأصابعها العشر ، وأخذت تعبث بهذه الخصل الطيّعة في بطء وتخوتمها . . . وقد انتصبت كلها جملة ، وتأفعى الابتهاج في شفتيها ، وعشمت عيناها

الواسعتان فليس فيهما سوى معنى اوحد يعبر عن غباء القسوة وشبع الانتصار . وللباشق مثل هاتين العينين وهو ينشب مخالبه في طائر .

٤٣

هذا ما تذكره ديميترى سانين في غرفته الهادئة لما وجد الصليب العقيق الاحمر وهو يقلب فى اوراقه القديمة . كل ما رويناه من الاحداث كان يتتابع واضحا جليا امام بصيرته ... ولكنه لما بلغ تلك الدقيقة التي أخذ يتحدث فيها الى السيدة بولوزوفا في ابتهال مهين وهو راكع عند قدميها حيث بدأت عبوديته — أشاح عن تلك الذكريات التي ابتعثها لأنه لم يشأ ان يستزيد منها . ان ذاكرته لم تخنه — لا ! فقد كان يعرف ، ولم يغب عنه شيء مما حدث في اعقاب تلك الدقيقة ، ولكن العار يختنقه حتى بعد انقضاء هذه السنوات الطويلة . فكان يخشى هذا الشعور الطاغي من احتقار النفس ، ولا يشك في ان هذا الشعور لا بد ان ينصب عليه كالموجة فيغمره ويغرقه ويمحو كل ما عداه من المشاعر اذا لم يزجر ذكرياته ويأمرها بالصمت . ولكنه كلما حاول التخلص من شعوره هذا وجد نفسه عاجزا عن كبت هذه الذكريات . فقد تذكر تلك الرسالة المهينة الدامعة الحقيرة التي أرسلها الى جيما . وبقيت خطابا من غير جواب ... اما الذهاب اليها بعد هذا الكذب ، والعودة اليها بعد هذه الخيانة — فلا ! لا ! فما تزال فيه بقية باقية من الضمير والشرف . ثم انه لم يجرؤ على التكفل بشيء بعد ان فقد ثقته بنفسه واحترامه لها . وتذكر سانين ايضا — ويا للعار ! — كيف أرسل خادم بولوزوف بعدئذ ليعود اليه بثيابه من فرانكفورت ، وكيف جبن فلم يفكر الا بأمر واحد ، وهو الرحيل بسرعة الى باريز ... الى باريز ؛ وكيف أخذ يتودد الى ايبوليت سيدوريتش بناء على امر ماريا نيقولاييفنا ، ويجامل دونغوف الذي كان في اصبعه خاتم

حديدي لا يختلف عن الخاتـم الذي أعطتـه اياه ماريـا نيقولاييفنا ! ! ! ثم تدفقت عليه الذكريات وهي أحفل بالسوء وأدعى الى العار . فتذكر بطاقة الزيارة التي حملها اليه الخادم وعليها اسم بانتاليوني تشيباتولا مغني بلاط صاحب السمو دوق مودينا ! لقد راغ عن الشيخ وقتئذ ، ولكنه لم يجد محيصا عنه لما التقاه في الممر . كان يقف امامه بوجهه الغاضب تحت غرته الشائبة المرفوعة الى اعلى ، وعيناه اللتان اذبلتهما الشيخوخة تتوهجان مثل الجمر ، وهو يصب في سمعه صرخاته الهادرة باللعنات Maledizione!* بل لقد أسمعـه مثل هذه الكلمـات الرهيبة : Codardo! Infame traditore!** أغمض سانيـن عينيـه ، ونفض رأسه يذود عن خاطره هذه الذكريات واحدة بعد واحدة ، ومع هذا فقد تذكر تلك الجلسة التي انحشك بها في موضع ضيق من المقعد الامامي . . . وفي الصدر ، حيث الموضع المريح ، جلست ماريا نيقولاييفنا وايبوليت سيدوريتش ـ والجياد الاربعة تنطلق خببا في سرعة ويسر الى باريز ، الى باريز ! وايبوليت سيدوريتش يأكل أجاصة قشرها له هو ، سانين ، اما ماريا نيقولاييفنا فكانت تنظر اليه ، وتبتسم ساخرة منه ، من الرجل المستعبد الذي ألف هذه الابتسامة من مالكته المسيطرة عليه ...

ولكن يا آلهى ! من كان هناك عند زاوية الطريق في موضع غير بعيد عن نهاية المدينة ـ أليس هذا بانتاليوني ؟ ومن هذا الذي معه ؟ أيكون ايميليو ؟ نعم انه هو ، هذا الفتى الذي يفيض بالحماسة والاخلاص ! وكان قلبه حتى وقت قريب يفيض بالاجلال تجاه بطله المفضل ومثله الاعلى ـ اما الآن فان هذا الوجه الشاحب الجميل الذي استلفت جماله عيني ماريا نيقولاييفنا وحملها على ان تمد رأسها من نافذة العربة ـ

---

* ايها الملعون ! (بالايطالية) .

** جبان ! غدار دنيء ! (بالايطالية) .

كان هذا الوجه النبيل يشتعل غيظا واحتقارا ، وكانت عيناه الشبيهتـــان **بتلك** العيون ! ـ تشزران سانين ، وشفتـــاه تنطبقان على غيظ . . . ثم انفرجتا فجأة على ما يكره من القول ! . .

اما بانتاليوني فقد مدّ يده يشير الى سانين ، فمن راح يلفت بهذه الاشارة ؟ الكلب البوديل تارتاليا الذي كان واقفا الى جانبه ، فانطلق تارتاليا ينبح سانين ـ وحتى هذا النباح الذي اطلقه الكلب الامين كان يرن مثل اهانة لا تحتمل . . . فظاعة !

ثم ـ الحياة في باريـــز حيث لقي من صنوف الاذلال والتحقير ما يلقاه العبد الذليل الذي لا يسمح له بأن يغار ولا بأن يندم ، على ان يرمى في النهاية كما الثوب الرث .

ثم العودة الى الوطن ، والحياة الموبؤة الفارغة ، والمتاعب الغثة ، والمشاغل التافهة ، والندم المر الذي لا جدوى فيه ، والنسيان المر الذي لا جدوى فيه ايضا ، كان كل هذا عقابا غير بيّن ، ولكنه قائم دائم في كل لحظة ، فكأنه داء ضئيل الوزن والخطر ولكنه داء عضال لا يرجى له شفاء . وكان هذا جميعاً سدادا بالكوبيك بعد الكوبيك لمقدار من الدين لا يعد ولا يحصر . . .

لقد امتلأت الكأس بما كفى وزاد !

ولكن كيف سلم هذا الصليب الذي أعطيه سانين من جيما، وعلام لم يرده اليها ، ولماذا لم يصادفه ولو مرة قبل اليوم ؟ لقد جلس يفكر ، واستغرقه التفكير وقتا طويلا ، فكان يستغلق عليه هو ، الذي علمته الحياة والسنون العديدة ، ان يفسر كيف استطاع ان يهجر جيما التي أحبهـــا في قوة ورقة من اجل امرأة لم يحبها على الاطلاق ؟ . . في اليوم التالي أدهش أصدقاءه ومعارفه جميعا حين أعلنهم انه راحل الى الخارج .

وساد الذهول في المجتمع لما شاع ان سانين غادر بطرسبورغ خلال بياض الشتاء ، وقد حدث هذا بعد ان استأجر منزلا وفرشه بأثاث رائع ، واحتجز مكانا لموسم الاوبرا الايطالية الذي تسهم فيه السيدة باتي بالذات — نعم السيدة باتي نفسها بالذات وليس غيرها ! لقد ذهل الاصدقاء والمعارف ، ولكن الناس اكثرهم ليس من طبعهم ان يشغلوا بالهم وقتا طويلا بما لا يعنيهم من شؤون الغير ، فلما كان سانين بسبيله الى السفر لم يجئه من المودعين الى محطة القطار سوى خياط ملابسه ، وهو فرنسي، ولم يجيء هذا الا آملا في الحصول على المتبقي من اجرته — «pour un saute-eu-barque eu velours noir, tout à fait chic»*

٤٤

قال سانين لأصدقائه إنه مسافر الى الخارج ، ولكنه لم ينبئهم بوجهة سفره على التحديد ، وقد حزر القراء في يسر انه سافر قاصدا فرانكفورت ، وبفضل انتشار السكك الحديدية في كل مكان وصل اليها في اليوم الرابع لارتحاله عن بطرسبورغ ، ولم يكن قد زارها منذ سنة ١٨٤٠ . وجد فندق «البجعة البيضاء» ما يزال في موضعه القديم ، عامرا بالحركة ، ولكنه لم يعد من فنادق الدرجة الاولى ، وشارع فرانكفورت الرئيسي «تسييل» تغير قليلا ، اما الموضع الذي كانت فيه دار السيدة روزيللي ، وكل الشارع الذي كان فيه دكان الحلويات فقد زال ولم يبق له اثر . ذهب سانين يتمشى في الشارع وهو ذاهل ، فالاماكن المعروفة في حينها لم يعرف منها شيئا : زالت الابنية القديمة ،

* «عن سترة بحرية من المخمل الاسود على آخر طرز». (بالفرنسية) .

واستقامت شوارع جديدة ، وقامت في هذه الشوارع بنايات ضخمة لا نهاية لها ، ودارات بديعة ، بل حتى الحديقة العامة التى شهدت تجاوى المكاشفة بينه وبين جيما ، نمت اشجارها كثيرا ، وتغيرت تغيرا حدا سانين الى مساءلة نفسه — هل هذه الحديقة هي تلك ؟ فماذا كان عليه أن يفعل ؟ كيف يستخبر وأين ؟ ثلاثون سنة مضت حتى الآن .. فليست المهمة يسيرة ! كل الذين استعلمهم لم يكن فيهم حتى من سمع باسم روزيللي . ثم أشار عليه صاحب الفندق بان يراجع المكتبة العامة في الامر : فقد يعثر هناك على كل الجرائد القديمة ، اما الفائدة التي سيجنيها من هذا ، فأن صاحب الفندق لم يستطع ان يأتي بأيضاح عنها . واضطر سانين وهو في بحران القنوط ان يسأل عن انباء السيد كلوبير ، فكان صاحب الفندق يعرف هذا الاسم كل المعرفة ، وهنا موضع الخيبة ، فأن التاجر الانيق الرشيق تبحبح وترحرح حتى صار من اصحاب رؤوس المال — ولكنه خسر وأفلس — ومات في السجن ... وقد سمع سانين هذه الانباء دون ان تتحرك فيه نأمة من الأسى . ثم انتهى الى ان رحلته كانت بعيدة عن الأناة ... ولكن المصادفة أوقعته وهو يقلب ذات مرة في دليل فرانكفورت على اسم المقدم المتقاعد فون دونغوف (Major v.D.) ، فقام من فوره يقصد اليه في عربة — اما لماذا اقتضى ان يكون دونغوف **هذا** هو دونغوف **ذاك** ، او لماذا وجب ان يفيده **ذاك** الدونغوف بشيء من المعلومات عن أسرة روزيللي ؟ فالامر عنده سواء ، والغريق يتعلق بقشة .

وجد سانين المقدم المتقاعد فون دونغوف بيته حيث استقبله سيد أشيب عرف فيه من فوره خصمه القديم ، وعرفه هذا ايضا ، فكان مغتبطا بهذا اللقاء : فقد ذكره بعهد الشباب ومجون الشباب . وسمع سانين منه ان اسرة روزيللي رحلت الى اميركا منذ زمن بعيد وسكنت نيويورك ، وان جيما تزوجت من تاجر ، ولكن دونغوف له صديق من

رجال الاعمال يعرف عنوان زوجها لأنه على علاقات واسعة باميركا - فرجا سانين الى دونغوف ان يذهب الى هذا الرجل الذي يعرفه ، ثم - ويا للسعادة ! فقد عاد دونغوف يحمل اليه عنوان زوجهـــا وهو : السيـــد جيروم سلوكـــوم M-r J.Slocum, New-York, Broadway, N°501 ، - ولكن هذا العنوان يعود تاريخه الى سنة ١٨٦٣ .

وهتف دونغوف :

- سنبقى على امل في ان حسناءنا الفرانكفورتية السابقة لا تزال تتمتع بالحياة ، ولم ترحل عن نيويورك ! وبهذه المناسبة - غمغم قائلا بصوت خافت - ما حال تلك السيدة الروسية ، هل تذكر ، كانت وقتذاك نَزيلة فيسبادن - السيدة فون بو ... فون بوزولوف - ألا تزال حية ؟

أجاب سانين :

- لا ، فقد ماتت منذ وقت بعيد .

رفع دونغوف عينيه - ولما لا خظ ان سانين يستدير . بوجهه عابسا - ابتعد دون ان يزيد كلمة .

أرسل سانين في اليوم نفسه رسالة الى السيدة جيما سلوكوم * في نيويورك ، وقال في هذه الرسالة انه يكتب اليها من فرانكفورت حيث جاء ليستقصي آثارها فقط ، وهـــو يعلم كل العلم انه محروم من اي حق يستأديها جوابا على رسالته ، فانه لم يفعل شيئا يستحق من أجله غفرانها - ولكنه يرجو ان تكون في حال من السعادة أنسيت خلالها وجوده منذ وقت بعيد . وأضاف انه اعتزم ان يذكرها بنفسه اثر مناسبة عرضت له فأيقظت فيه صورا من الماضي فياضة بالحياة ، وحدثها بحديث حياته التي أقفرت من الانيس والعشير والزوج والسعادة ، وناشدها ان تقدر الدافع

---

* السيد جيروم سلوكوم ، نيويورك ، برودواى ، رقم ٥٠١ (بالانكليزية) .

الذي دفعه الى هذا الخطاب ، وان لا تدعه مثقلا بذنبه حتى يحمل الى مثواه الاخير – وهو ذنب على تقادم عهده لم يغفر ، وان تسر خاطره ولو بقبس من البشرى عن حياتها في هذه الدنيا الجديدة التي هاجرت اليها . وختم رسالته قائلا : « لئن كتبت ولو كلمة واحدة ، فأن صنيعك الطيب سيكون جديرا بروحك النبيلة ، وسأذكره لك بالامتنان حتى النفس الاخير . سأتريث هنا في فندق «البجعة البيضاء» (أكد هذه العبارة بوضع خط تحتها) وسأبقى حتى الربيع منتظرا جوابك» .

بعث بهذه الرسالة ومكث على انتظار . أقام في الفندق ستة اسابيع يكـــاد لا يبرح غرفته ، لم يقابـــل احدا على الاطلاق ، وليس في مقدرة احد ان يكتب اليه لا من روسيا ولا من غيرها ، وقد صادف هذا هوى في نفسه ، فان اي رسالة ترد اليه ستكون اشعارا له بأنها الرسالة المنتظرة . كان يقرأ من الصباح حتى المساء ، و لم يقرأ الجرائد ، بل أكب على المطالعة الرصينة في كتب الابحاث التاريخية ، وكان هذا الانقطاع الى القراءة ، والانقطاع عن الناس ، والانطواء في هذه الحياة المغلقة مما يلائم حالته النفسية ، والفضل في هذا يعرد كله الى جيما ! ولكن أتراها لا تزال على قيد الحياة ؟ أتراها ستبعث بجواب ؟

وجاء الجواب في نهاية المطاف الى اسمه من نيويورك وعليه طابع بريد اميركي ، وكان خط العنوان انكليزيا ... فلم يعرفه ، واغتم قلبه ، فتلبث لا يفض الرسالة دفعة واحدة ، ثم رأى الى التوقيع : جيما ! فطفرت الدموع من عينيه : كان توقيعها بالاسم من دون اللقب دليلا على انه ضمن التسامح والمغفرة ! ونشر ورقة رقيقة زرقاء من اوراق الرسائل البريدية ، فانزلقت منها صورة فوتوغرافية، ويالذهوله حينما أسرع يتناولها فاذا : جيما ، جيما بملء حياتها وشبابها كما عرفها قبل ثلاثين سنة ، بعينيها ، وشفتيها ، وقسمات وجهها ! وعلى ظهر الصورة هذه الكلمة :

«ابنتي ماريانا» . وكانت الرسالة جميعا في غاية الرقة والبساطة . شكرت جيما لسانين انه لم يتردد في الكتابة اليها ، وانّه محضها الثقة ، ولم تخف عليه انها عاشت بعد ارتحاله لحظات قاسية ، وأضافت الى هذا انها اعتقدت ولا تزال على هذا الاعتقاد ـ بأن لقاءها به كان سبيلها الى السعادة ـ فأن هذا اللقاء حال دون زواجها من السيد كلوبير ، وعلى ذلك كان سببا ، ولو غير مباشر ، للاقتران بزوجها الحالي الذي لا تزال تعيش معه منذ ثماني وعشرين سنة حياة لا شك انها سعيدة رغيدة موفورة ، وان بيتها معروف في نيويورك كافة .

وأنبأت جيما سانين بأن اولادها خمسة ، بينهم اربعة أبناء ، والبنت في الثامنة عشرة من عمرها ، مخطوبة ، وهي صاحبة الصورة ، التي ترسلها اليه ـ لأنها على ما يقال كثيرة الشبه بأمها . اما الانباء المحزنة فأن جيما أمسكت عنها حتى نهاية الرسالة . فقد ماتت فراو لينوري في نيويورك حيث لحقت بابنتها وصهرها ـ ولكنها عاشت حتى سعدت بالاولاد ودللت الاحفاد ، وكان بانتاليوني يتهيأ ايضا للانتقال الى اميركا ، ولكنه مات قبل ان يغادر فرانكفورت . «اما ايميليو ، حبيبنا ايميليو الوحيد الفريد ، فقد استشهد في صقلية حيث التحق بفصائل «الألوف» التي قادها غاريبالدي ، وكان موته المجيد في سبيل حرية الوطن . لقد بكينا الشقيق الغالي بالدمع السخين ، ولكننا مع فجيعتنا بفقده ، كنا فخورين به ، وسنبقى به فخورين نقدس ذكراه على مدى الحياة ! فأن روحه الابية النزيهة لجديرة بهالة الشهداء ! » .
ثم عبرت جيما عن أسفها لما يبدو من التعاسة التي آلت اليها حياة سانين ، وتمنت له الاستقرار وهدوء النفس قبل كل شيء ، وقالت ان لقاءه من دواعي غبطتها على الرغم من علمها ان الرجاء في تحقيق مثل هذا اللقاء ضعيف ...

ولن نقدم على وصف الشعور الذي امتحن به سانين اثناء قراءته هذه الرسالة ، فليس لمثل هذا الشعور ما يلائمه

من التعبير : انه بعمقه وقوته أخفى على كل تعبير ، والموسيقا وحدها هي التي تستطيع ان تعبر عنه .

أجاب سانين من فوره – وكانت الهدية التى أرسلها باسم «صديق مجهول» الى الصبية المخطوبة «ماريانا سلوكوم» صليبا من العقيق الاحمر مطعما باللآلىء الثمينة الباهرة ، ولم تبهظه هذه الهدية على الرغم من ثمنها الباهظ فقد استطاع في بحر السنوات الثلاثين التي تعاقبت بعد سيرته الاولى في فرانكفورت ان يجني ثروة لا بأس بها . وفي شهر مايو عاد الى بطرسبورغ – وقد لا يكون لوقت طويل ، فقد شاع وذاع انه يبيع ضياعه جميعا ليرحل الى اميركا .

بادن – بادن سنة ١٨٧١ .

تصويب

١ ــ يبدأ الفصل ٤١ بعد الجملة الفرنسية فى اول الصفحة رقم ٣١٢ . ونرجو قراءة هذه الجملة كما يلي :
Et puis... cela ne tire pas à conséquence !

٢ ــ يرتب النصف الاعلى من الصفحة رقم ٣١٣ على النحو التالى :

كان اقرب الى العبوس . وتسلق سانين جواده ، فحيت ماريا نيقولاييفنا السيد بولوزوف بسوطها ، وساطت به الفرس فى عنقها السوى ، فشبت على رجليها ووثبت الى الامام ، وانطلقت بخطوات مرتاضة ، وهي ترتعش باعصابها جميعا وتعلك الشكائم ، وتعض الهواء وتنتفض متوفزة ، وتنخر ؛ وتبعها سانين وهو لا يرفع بصره عن ماريا نيقولاييفنا : كان ايقاع جسمها وهي على صهوة الفرس واثقة رشيقة يبرز الدقة واللين فى قوامها الذي احتبسه المشد فى ضيق ولكن فى حرية . والتفتت برأسها الى الوراء تدعوه بعينيها فلحق بها وحاذاها . وقالت :

ــ أرأيت ما اطيب هذا . أقول لك قبل ان نفترق : انت فاتن ــ ولن تندم .

كانت تهز رأسها من اعلى الى اسفل وهى تنطق بهذه الكلمات الاخيرة كأنها ترغب فى توكيدها وفى إشعاره بمغزاها .

محتويات

آسية ٣

الحب الاول ٦٧

فيوض الربيع ١٥١

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

والعنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١
موسكو ـ الاتحاد السوفييتي

مؤلف هذا الكتاب نسيج وحده في الحديث عن الحب . وفي هذه الصفحات ، صور آسرة لهذه العاطفة ، في صفائها وكدرها ، ورقتها وجموحها ، واطمئنانها وقلقها ، صاغها تورغينيف باسلوبه الفذ الذي يمتاز بالعذوبة والطلاقة ويفيض بالشاعرية .

والحب الذي تروي اخباره واطواره هذه القصص الثلاث: «آسية» و «الحب الاول» و «فيوض الربيع» ليس حكاية لطيفة ظريفة تزجى للتسلية والامتاع ، وانما هو عاطفة تستأثر بابطال تورغينيف وتملك عليهم البابهم ، ان لم تعصف بمصائرهم في كل الاحوال ، فانها ملكت القدرة على التأثير فيهم زمنا طويلا قد يمتد طوال الحياة . فالحب عند تورغينيف ليس منحة مباركة يحملها القدر الى المحبين في باقة من الازهار ، وانما هو امتحان عسير ، تمتحن فيه قدرة الانسان على ان يكون انسانا . . .